الدكتور
صلاح مصطفى الفوال

علم الاجتماع
فى عالم متغير



سلسلة كتب علم الاجتماع والتنمية
الكتاب الثامن عشر

علم الاجتماع
فى عالم متغير

الدكتور
صلاح مصطفى الفوال
أستاذ علم الاجتماع
رئيس مركز البحوث والدراسات العربية
القاهرة

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ/١٩٩٦م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ ش عباس العقاد ـ مدينة نصر
ت : ٢٧٥٢٩٨٤ ـ ٢٧٥٢٧٩٤

الإهداء

إلى.. باكورة أحفادى

حبيبى..

يوسف حسام الدين

وهو يخطو.. أولى خطواته

فى دنيا تختلف..

وعالم متغير..!!

مع كل الأمل.. أن ينبته الله

نباتا حسنا..

فيكون قرة أعين.. لى ولوالديه

ولأهله ومحبيه.. .

مع كل الدعاء.. حتى يجعل الله له

من اسمه نصيب..

فيأخذ عن نبى الله.. يوسف الصديق

جمال الخلقة..

وكمال الخلق..

اللهم.. آمين..

جدو

صلاح الفوال

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

علم الاجتماع.. لا يتمتع **بخاصية** الاستقرار والثبات الذى **تتمتع** به علوم كثيرة بعضها **إنسانى** وأكثرها **طبيعى،** وبحيث أصبح التغير **المتنامى** سمة أساسية من **سمات** علم الاجتماع عبر **مسيرته** الطويلة وحتى اليوم.

ومن الطبيعى أن يكون ذلك **التغير** على مستوى النظرية **والمنهج**.. وحتى على مستوى التطبيق **وتقنيات** البحث السوسيولوجى وفنياته..!!

ويشارك **المجتمع**.. الذى هو بصورة أو بأخرى **موضوع** الدراسة فى علم الاجتماع، هذا المجتمع يشارك علم الاجتماع فى خاصية عدم **الاستقرار**.. صحيح أن التغير **قدر** المجتمعات والكائنات جميعا منذ الأزل.. لكن التغيرات التى يشهدها العالم **اليوم**.. تغيرات يمكن أن **تتغير** هى نفسها.. وخاصة فى الجوانب المادية..**كل** يوم.. بل فى كل دقيقة.. الأمر الذى **يستتبع** جهدا خاصا لمجرد متابعتها والتعرف عليها..**ناهيك** عن محاولة **دراستها** والكشف عن دوافعها وأسبابها.. ومن ثم محاولة **التكيف** معها أو التخفيف من آثارها.. ويبقى **العبء** الأكبر ـ وهو محاولة **التنبؤ** بسلوكيات ذلك التغير فى المستقبل القريب أو البعيد ـ يبقى من أهم التزامات علم الاجتماع فى القرن الحادى والعشرين!!

ونظرة **متأنية** للتغيرات التى تحدث **حولنا** محليا وإقليميا ودوليا.. **توضح ثقل المهمة الملقاة على عاتق علم الاجتماع..وتلزم** علماءه وباحثيه.. **إن أرادوا أن يكون لهم ولعلم الاجتماع من خلالهم دور ما على ساحة الأحداث المتغيرة دوما..!!**

ولا نكون قد **جافينا** الحقيقة لو **قلنا**.. إنه مازالت أمام علم الاجتماع الفرصة كـاملة لأداء الدور المنوط به.. **شريطة** أن يتـخلى عن **الجدل** العقـيم الذى أصاب فاعليته بالخلل لعشرات العقود من الزمان..!!

وحتى لا يظـن القارئ أن **تفاؤلنا** لا مبـرر له.. نقول إننا **تتبعنا** من خلال هذا الكتـاب **مسيرة** علم الاجـتمـاع منذ قدمـاء **المصريين** وحـتى نهايات القـرن العشرين.. **والحقيقة** المؤكدة أن الفكر الاجتماعى واحد.. وإن اختلفت طرق التعبير عنه.. **خصوصا منذ** من أيام ابن خلدون وحـتى الآن.. وظل المجتـمع بصورة أو بأخرى.. يشكل **المجال** الأساسى للدراسة فى علم الاجتماع..!!

وحتى طرائق البحث فيه.. لم تتغير كثيرا عبر مسيرة علم الاجتماع **الطويلة**.. لكن الذى تغيـر هو فنيات البـحث العلمى وتقنياته.. وخـاصة فى ظل **ثورة** عاتية للاتصال والمعلومات تتصارع خلالها **الحواسب** الآلية.. حتى يتم التغيير كل **ساعة** أو كل **دقيقة** بدلا من كل يوم..!!

والمهم.. أنه فى ظل ذلك **الكم** الهائل من التغيرات وفى كل الجوانب المادية وغير المادية، والمجالات المجـتمعية.. وفى **ظل** ما توصل إليه علمـاء الاجتماع من **اتفاق** تضمن **تحديدا** مقبولا.. لماهيـة علم الاجتماع **ولمناهج** البحث.. **ولمجالات** أو ميـادين الدراسة فيه، وعـلاقته بغـيره من العلوم.. **وفق** نظرية سوسيـولوجية.. **تقوده** وتوجه العملية **البحثية** برمتها حتى يتحقق **المستهدف** سواء على مستوى النظرية أو التطبيق..!!

* وحتى تكون الأمور فى تصورنا أكثر **وضوحا** وحتى يتحقق لعلم الاجتماع **سعيه** فى عالم متغير نرى.. أن تلتزم أية **دراسة** سوسيولوجية الأسس الآتية:

١ـ الفهم **الصحيح** للوحـدات الاجتـمـاعيـة التى هى **موضوع** البـحث والدراسة.. لأن ذلك الفهم الصحيح **يتيح** بالضرورة **تشخيصا** سليما للإشكاليات المطروحة على مستوى **البحث** السوسيولوجى.

٢ـ التفـسير **العلمى** للأسـبـاب التى أدت إلى **حدوث** الظاهرة المبـحوثة بالصورة التى **بدت** عليها أول مرة.

٣ـ التنبؤ **الواعى** بإمكانية تكرار حدوث **نفس** الظاهرة محل الدراسة بكل أو **بمعظم** خصائصها، إذا ما توافرت لها نفس الشروط والظروف.

٤- تهيئة مختلف **الوحدات** الاجتماعية.. محل الدراسة السوسيولوجية.. ليس فقط حتى تكون قادرة على **متابعة** الآثار الناتجة أو المترتبة على أية تغيرات فى البناء أو فى **الثقافة**، وإنما لكى تكون **قادرة** كذلك - أى الوحدات - على **التكيف** أو التواؤم معها.

* ولن يتمكن علم الاجتماع من أداء مهامه.. سواء فى **إحداث** التغيير أو التوافق معه أو مواجهة آثاره.. من خلال القدرة على **التنبؤ** بحدوثه - إلا إذا التزم فى رأينا - بمجموعة من **الحقائق** نوردها فيما يلى:

أولا - إيمان **علم** الاجتماع.. أنه ليس فى الميدان وحده.. وإنما **تشاركه** فيه معظم - ولا أقول كل - **العلوم** طبيعية كانت أو إنسانية.. وهذا الإدراك من جانب علم الاجتماع.. هو نتيجة طبيعية **لاتساع** أهدافه وتشعب نظرياته، **وتعدد** طرائق البحث فيه.. كل ذلك **فتح** مجال المشاركة أمام علوم كثيرة.. وخاصة مجموعة العلوم الاجتماعية لتسهم فى دراسة العديد من **الظواهر** المجتمعية.

ثانيا - ظهرت نتيجة لوجود **مساحة** من الاهتمام المشترك بين علم الاجتماع وغيره من العلوم.. ظهرت فلسفات.. بل **ونظريات**، ترد بعض الظواهر الاجتماعية إلى **أسباب** غير اجتماعية.. وبنفس القدر ترد العديد من الظواهر **غير الاجتماعية** لأسباب وعوامل اجتماعية.

وعبرت عن ذلك الاهتمام المشترك علوم متعددة تحمل الكثير من خصائص علم الاجتماع فضلا عن **خصائص** العلوم الأخرى، والتى منها علوم.. الاجتماع النفسى، والنفسى الاجتماعى، والاجتماع الاقتصادى، والفلسفة الاجتماعية، والاجتماع الفلسفى، والاجتماع الطبى، وطب المجتمع.. فضلا عن علوم **الاجتماع** التربوى، الإعلامى، الدينى، التاريخى، السياسى، الثقافى، وعلم الاجتماع اللغوى، علاوة على علم اجتماع الجريمة، وعلم اجتماع التنظيم والسكان والبيئة. وعلم اجتماع المعرفة، كما ظهرت كذلك.. القياسات الاجتماعية وسوسيولوجيا الجماعات الصغيرة «الميكروسوسيولوجى»، وسوسيولوجيا الجماعات الكبيرة «الماكرو سوسيولوجى».

كما **ظهرت** أيضا علوم. . الاجتماع التطورى.. والأنثربولوجيا بأنواعها المختلفة.. وعلم الاجتماع **الرياضى**، وعلم الاجتماع **الإحصائى**.. وغير ذلك كثير.



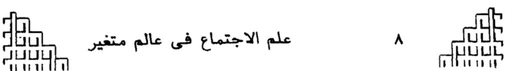
ثالثا ـ كما كان من أهم **النتائج** المترتبة على اتساع نطاق البحث فى علم الاجتماع **وتشعبه**.. أن صار علم الاجتماع أكثر قربا وتفاعلا مع العديد من العلوم.. طبيعية كانت أو إنسانية.. **واتسعت** مساحة العمل المشترك بين علم الاجتماع والعديد من العلوم.. وتعمقت العلاقات، وتوثقت الارتباطات بين علم الاجتماع وغيره من العلوم، وبصورة **خرجت** بعلم الاجتماع عن نطاق النظرية السوسيولوجية التقليدية، وخصوصا إذا ما كانت تلك النظرية ذات **مفهوم** ضيق..!!

رابعا ـ تجاوزت **العلاقة** بين علم الاجتماع وغيره من العلوم. . إنسانية كانت أو طبيعية.. تجاوزت مرحلة التعاون لدراسة أو حل **المشكلات** المجتمعية.. وصار علم الاجتماع يؤمن من خلال علمائه وباحثيه.. بأن التعاون وحده لايكفى **لمواجهة** التغيرات السريعة والمتلاحقة التى صارت **سمة** لمختلف الظواهر المجتمعية. وإنما يجب أن يكون **التكامل** ـ لا التعاون ـ سواء من حيث النظرية أو المنهج أو التطبيق أو التحليل أو التفسير هو أساس التكامل بين علم الاجتماع وغيره من العلوم.

والتكامل الذى نقصده هنا ليس مسخا لهوية ودور علم الاجتماع.. وإنما هو تكامل بين **كيانات** علمية يحتفظ خلاله كل علم بنظريته الموجهة ومنهجه وطرائق البحث فيه.

خامسا ـ الإيمان بالتواصل.. سواء بين مختلف الكيانات السوسيولوجية التى تشكل **ميدان** أو مجال الدراسة فى علم الاجتماع.. أو سواء فى مجال الإسهامات السوسيولوجية خلال مسيرة علم الاجتماع التى امتدت عبر الزمن منذ ما قبل الميلاد وحتى **نهاية** القرن العشرين.. أو حتى من حيث العلاقة بين علم الاجتماع وغيره من العلوم.

وهذا التواصل هو الذى حرصنا على **إبرازه** من خلال هذا الكتاب.. بأبوابه العشرة .. وبفصوله الثانية والثلاثين.. ولانود.. ولانرغب.. عزيزى القارئ.. فى الإطالة عليك لنبين الموضوعات التى عالجناها أو تعرضنا لها.. وتكفى إطلالة سريعة على **فهرس** هذا الكتاب لتأخذ فكرة عما تريد الاطلاع عليه.. تكون أجدى.



المهم.. أن عددا غير قليل من علماء الاجتماع وعلى رأسهم تيماشيف يرون أن **مستقبل** علم الاجتماع رهن بموضوعات ثلاثة:

أولها علم الاجتماع الرياضى، **وثانيها** علم الاجتماع الإحصائى، **وثالثها** نظرية الجماعات الصغيرة «الميكروسوسيولوجيا»، **ويضيف** البعض نظرية الجماعات الكبيرة «الماكروسوسيولوجيا» والقياسات الاجتماعية، وعلم الاجتماع الفلسفى، وأطلق تيماشيف على الموضوعات الثلاثة التى ذكرناها قبلا.. أطلق عليها **أمل** علم الاجتماع فى المستقبل، أو هى «علم اجتماع المستقبل».

سادسا ـ ونحن نتفق ونختلف مع أصحاب هذا الرأى:

(أ) نتفق نظرا لما يمكن أن تقدمه **الموضوعات** سالفة الذكر من إسهامات تثرى علم الاجتماع، وخاصة من حيث ما يقدمه علم الاجتماع الرياضى والإحصائى من بيانات **حقيقية أو** واقعية يمكن **اعتبارها** ملاحظات أو شواهد تتناول بعض جوانب المجتمع. ويمكن **بالاستثمار** الجديد لها أن تفيد فى بعض جوانب الدراسة السوسيولوجية.. ونفس **الشىء** يمكن أن يقال عن سوسيولوجيا الجماعات الصغيرة والكبيرة والقياسات، فرغم انتمائها إلى علم النفس أكثر.. إلا أنه يمكن اعتبار الوحدات التى تدرسها جماعات اجتماعية **واقعية**، وكذلك علم الاجتماع الفلسفى.. رغم تطابق الدراسة فيه مع الموضوعات التى اعتاد الفلاسفة دراستها، إلا أن معرفة تلك النظريات حتى ولو كانت فلسفية.. تعد أمرا **ضروريا** فى ظل مبدأ التكامل الذى أشرنا إليه قبلا والذى ندعو لأن يشكل ملمحا أساسيا من ملامح علم الاجتماع فى **عالم** متغير..!!

(ب) كان ذلك عن الاتفاق مع ما ذهب إليه بعض علماء الاجتماع.. **فماذا** عن الاختلاف؟!.

قلنا قبلا إننا فى ظل المتغيرات السريعة على كل المستويات.. يجب فى رأينا أن **ينحو** علم الاجتماع نحو التيار أو الاتجاه التكاملى عند دراسته أو تعامله مع وحدات التحليل السوسيولوجى **المختلفة**.. وهذا المبدأ ـ مبدأ التكامل ـ **يفرض** موضوعات جديدة.. طرأت على ساحة البحث السوسيولوجى وبشدة هذه الأيام التى لا يباعد بينها وبين القرن الحادى والعشرين سوى أقل من **أربعة أعوام**، ومن ثم تصبح هذه الموضوعات المقترحة لأن تكون ميادين للدراسة السوسيولوجية فى

القرن الحادى والعشرين.. وخاصة ما تجاوز منها المحلية إلى العالمية، نقول:إن هذه الموضوعات يجب أن تكون **محور** اهتمـام علم الاجتمـاع خلال الربع الأول من القرن الحادى والعشرين.

ونحن بالطبع لاندعو علم الاجتماع لأن **يقصر** اهتماماته على تلك الميادين المقتـرحة.. لكننا ندعو، فقط لأن تـكون تلك الموضوعات هى اهتمـامه الأول ـ أو على الأقل ـ حتى تكون على قمة اهتماماته..!!

ونحن **سنكتفى** هنا ـ من خـلال المقدمة ـ بذكـر عناوين هذه الموضـوعات المطروحة أو المقترحة من جانبنا لدراسة علم الاجتماع فى القرن الواحد والعشرين. مع ملاحظة أننا سنذكرها وفق ترتيب غير **مقصود** وعلى النحو التالى(*):

* البطالة * زيادة النسل * التطرف الدينى والإرهاب
* الجريمة المنظمة * التفكك الأسرى * الأمية
* الانفتاح الإعلامى * الانفتاح الاقتصادى
* تهميش دور المرأة فى المجتمع * التلوث البيئى
* حقوق الإنسان * العشوائيات * التمييز العنصرى
* مشاكل النظام العالمى الجديد * عدم الانتماء والسلبية
* المسنين والمعوقين والفئات الخاصة * الأغلبية الصامتة
* العادات السيئة للاستهلاك * الاغتصاب والاعتداء الجنسى
* الإدمان * تبدل القيم

هذا، وبالله التوفيق

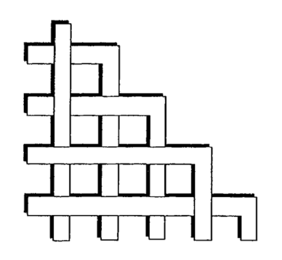
القاهرة ـ المهندسين

فى ١٩٩٥/٨/٢٨

دكتور صلاح الفوال

---

* سنعود للحديث عن هذه الظواهر فى الفصل الأخير.. «الثانى والثلاثون» من هذا الكتاب.

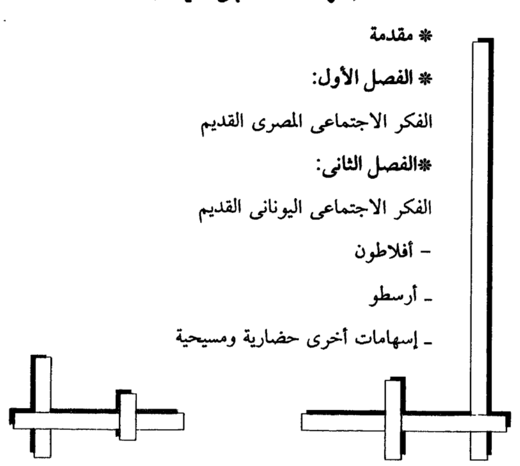




الباب الأول

البدايات المبكرة للتفكير الاجتماعى

(مرحلة ما قبل الميلاد)



* مقدمة

* الفصل الأول:

الفكر الاجتماعى المصرى القديم

*الفصل الثانى:

الفكر الاجتماعى اليونانى القديم

- أفلاطون

- أرسطو

- إسهامات أخرى حضارية ومسيحية

مقدمة حول الفكر الاجتماعى فيما قبل الميلاد .

ارتبطت **بدايات** الفكـر السوسيـولوجى **بشكل** أو بآخـر. . بالحـضارات القديمة. . وخاصة المصرية واليونانيـة منها، وبالذات بالفكر الاجتماعى **لكل** من أفلاطون وتلميذه **النجيب** أرسطـو. . مع مراعاة أن كـلا منهمـا لم **يرتد** مجال الفكر السـوسيولوجى من فراغ. . وإنما مهـدت له الطريق. . أعمال خالـدة للعديد من **المفكرين** من الشـرق والغرب القديم.. وخاصة ماتمثل منها فـى نتاج الشعراء والفلاسـفة والأدباء **العظام** ـ ومنـهم علـى سبيـل المثال لا الحـصر **سولون** . . صاحب «دستور سولـون» وتقسيمه للمجتمع إلـى مجموعة من **الطبقات** المحددة المعالم والوظائف . . والأكثر من هذا أن **دستور** سولون قد انتقل من حيز **الفكر** النظرى إلى حيز **التطبيق** العملى . . وسـاعد ذلك فى **تحقيق** نوع من **الاستقرار والتوازن** الاجتماعى لمجتمع أثينا القديم(*).

كما قدم «أكسانوفون» **بحثه** عن «الاقتصاد المنزلى أو الأسرى» وخصوصا ما تعلق من هذا البحث بكيفية إدارة شئون المنزل وتدبير **ثروة** الأسرة، علاوة على ما تضمنه ذلك البحث من **تحديد** لحقوق وواجبات كل أعضاء الأسرة . . وخصوصا ما بيّنه من **حقوق** وواجبات كل من الرجل والمرأة.

(*) اعتمدنا فى كتابة الفكر السوسيولوجى عند أفلاطون وأرسطو على:

١ـ دكتور صلاح الفوال : النظريات فى علم الاجتماع ـ ديوان المطبوعات الجزائرى ـ الجزائر ـ ١٩٩١ .

٢ ـ دكتور صلاح الفوال: سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ دار الفكر العربى ـ القاهر ـ ١٩٨٢ .

٣ ـ A. E. Taylor socrates. London 1933

٤ ـ يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ لجنة التأليف والنشر والترجمة ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ .

ولم يكن بحث «أكسانوفون» عن **الاقتصاد** L'Economique هو إسهامه الوحيد، بل قدم بحثا حول **التربية** الاجتماعية والسياسية.. وكان **نموذجه** فى ذلك الحياة **الإسبرطية**. واعتبره الكثيرون متضمنا للأسس **«البيداجوجية»** رغم سيطرة الطابع **الروائى** على بحثه، ورافق هذين البحثين عن الاقتصاد والتربية بحث **ثالث** عن «الطغيان» وعن **الآثار** الضارة المصاحبة له على الفرد والمجتمع. . واعتبر أكسانوفون ـ أن **الاغتصاب** غير المشروع هو **النتاج** الطبيعى للطغيان. . وعدد الكثير من **مظاهر** الفساد، وأكد على أن «الحكومة الأبوية» هى **الواقى** من شرور الطغيان.

ونحن لا **يمكننا** فى هذا المجال أن نغفل دور **سقراط** ومنهجه المتميز فى البحث **القائم** على الشك . . والمرتكز على **التجربة** كدليل مقنع.

كما لا يمكننا كذلك أن نتجاهل **«أبيقور»** أول من اكتشف **الدوافع** الإنسانية وصنفها **إلى ضرورى،** وكمالى، وغير ضرورى. . **وتأكيده** على أن كل تلك الدوافع تشكل طابعا أساسيا عند كل الناس، والعاقل هو الذى **يسيطر** عليها ولا يشبع إلا **الضرورى** منها.

كما كان لـ **أرستوفان** دور بارز **فى** الفكر الاجتماعى القديم. . وكانت له طريقة ليست **تقليدية** . فلم يتحدث مباشرة عن **اشتراكية** الملكية، وعن لصوصية من **يختبئون** وراء حرية الملكية **الفردية،** وإنما ضمن أفكاره وآراءه فى **روايتين** أدبيتين ـ عرفت الأولى باسم السحب «les nueés» وعرفت **الرواية** الثانية باسم «الفرسان Les Chevaliers».

وكان «أرستوفان». . **ثوريا فى** دعوته لكثير من **الأفكار** الاشتراكية. . عندما تبنى ضرورة تحرير كل **مصادر** الثروة من كل أشكال الملكية الخاصة، وبحيث تكون **الأراضى** الزراعية والأملاك العقارية وكل ممتلكات **الأفراد** من ذهب وفضة علاوة على الأثاث والأوانى. . ملكية جماعية. واعتبر بكل وضوح أن **ملاك** مصادر الثروة فى **المجتمع** ماهم إلا مجرد لصوص للمجتمع ويجب ألا تطول غيبتهم عن المثول أمام العدالة. . !



ونجب أن **نشير** هنا إلى أننا سوف نتناول الفكر الاجتماعى **المصرى** القديم. باعتباره فى **رأينا** أول فكر اجتماعى **منظم** استطاع أن يبنى أو **على** الأقل استطاع أن **يشارك** فى بناء حضارة عظيمة مازالت ماثلة حتى الآن ويكفى هذا الفكر المصرى القديم-بشهادة كل **المؤرخين**-بأن معظم المفكرين العظام **حجوا** إليه وتتلمذوا على يدى رواده.

المهم.. أن **هؤلاء** العظام ـ وغيرهم كثير ـ كانوا المناخ **الخصب** الذى هيأ لأفلاطون وأرسطو فرصة الإبداع.

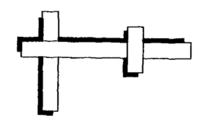
وعلى كلٍّ نحن سوف **نتعرف** على أولى المحاولات **المنظمة** للإسهامات السوسيولوجية **المبكرة** من خلال إلقاء **الضوء** على كل من:

*** الفكر الاجتماعى المصرى القديم.**

*** الفكر الاجتماعى اليونانى القديم.**

* * *

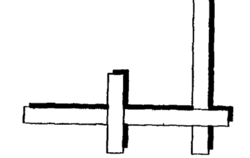




الفصل الأول

الفكر الاجتماعى المصرى القديم

* مقدمة
* علمية المصريين القدماء
* المنهج العلمى وجامعة الإسكندرية القديمة
* مصادر الفكر الاجتماعى المصرى القديم
* البناء الاجتماعى فى مصر القديمة
* الطبقات فى المجتمع المصرى القديم
* نظام الرق فى مصر القديمة
* الفكر الدينى المصرى القديم
* خصائص الأسرة المصرية وأدوارها
* النظام التربوى والتعليمى فى مصر القديمة



مقدمة

يتميز **الفكر** الاجتماعى **المصرى** القديم **بالعديد** من **السمات**.. لعل من أهمها(*):

١ـ أن ذلك الفكر كان **تعبيرا** عن **الواقع** الاجتماعى الذى عاشه الإنسان المصرى القديم سواء كان **حاكما** أو محكوما، كما **سنضرب** لذلك العديد من الأمثلة فيما بعد.

٢ـ أن ذلك الفكر كان **ممتزجا** فى معظم الأحيان **بالعقائد** الدينية حيث تضمنت الطقوس والوصايا الدينية، العديد من **نماذج** ذلك الفكر الاجتماعى.

٣ـ أن ذلك الفكر كان **نتاجا** للحياة المجتمعية التى عاشها **الشعب** المصرى وخصوصا ما تعلق منها **بالنيل** والأرض.

٤ـ أن ذلك الفكر كان فكرا **عالميا**.. أثر وتأثر **بالعديد** من الحضارات المعاصرة وفيها، وكان **التأثير** عندما امتدت الإمبراطورية المصرية وتشعبت، وكان **التأثر** عندما تعرضت الإمبراطورية المصرية **للتقوقع** بل وللاحتلال **والغزو** الخارجى.

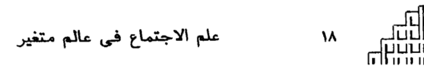
٥ـ بقيت لذلك الفكر **أصالته** وقدرته على **ابتلاع** الأفكار الحضارية الغازية فيما يعرف **بعملية** «التمثيل الحضارى» التى كان يمزج خلالها **حضارته** بالحضارات الوافدة بحيث تبقى **لمصريته** أصالتها باستمرار.

(*) اعتمدنا بصفة أساسية فى كتابة هذا الفصل على مؤلفاتنا الآتية:

(أ) علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ .

(ب) سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ .

(جـ) معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر – دار الفكر العربى – القاهرة ـ ١٩٨٣ .



٦ـ أن ذلك الـفكـر لم يـكن **مسجلا** بالطـرق التقليـدية، وإنما **دلت** عليه شواهد وآثار خالـدة، وعبرت عنه لغة ظلـت سرا حتى **انفتحت** مغاليقها على يد «شامبليون» و«ماسبيرو» خلال الغزو **الفرنسى** لمصر فى العصر الحديث.

٧ـ أن ذلك **الفكر** بقدر ما كان **نتاجا** للبيئة بمفهومها الشامل، وتعبيرا عن الواقع الاجتماعى، إلا أنه **لعب** دورا رائدا فى **توجيه** الحياة الاجتماعية بل وفى إعادة **تشكيلها** فـى كثير مـن الأحيان.. ونحن لا نقول ذلـك تعصبـا ولا تحيزا، ولكن أليس الإنسـان المصرى القديم **بفكره** هو صانع تلك الحضـارة التى تعد من **أعظم** الحضارات وأخلدها ـ إن لم تكن أعظمها وأخلدها فعلا ـ على الإطلاق؟!.

ونحن **هنا** سوف نعرض للفكر **الاجتماعى** المصرى القديم من خلال رؤية **تكاملية**، بمعنى أننـا سنلقى **الضوء** على الإسـهامات **الفكرية** الاجتماعية سواء أكانت **تلك** الإسهامـات صادرة عن **الحكام** أو كان مصـدرها **الشعب** ممثلا فى بعض أفراده المبـرزين أو من خلال **التراث** الشعبى ككل، كما أنـنا سنلقى الضوء كذلك على **الواقع** الاجتماعى المصرى القديم باعتبار أن **ذلك** الواقع كما سبق أن قلنا هو نتاج **للفكر** الإنسانـى المصرى، أو **باعتبار** ذلك الإنسـان قد **أسهم** ولو بقدر فى **صنع** ذلك الواقع، وذلك كله من منطق أن **الإنسان** هو صانع الحضارة ونتاجها معا.

على كلٍ نحـن سنتناول **الفكر** الاجتماعى المصـرى القديم من **خلال** عدة نقاط رئيسية على **النحو** الآتى:

* **علمية** المصريين القدماء **ومصادر** الفكر الاجتماعى لديهم، بحيث نتناول مـوضوعين.. أولـهما عن **علوم** المـصريين ومعارفهم ومنهجـهم العلمى.. وثانيهما عن مصادر **الفكر** الاجتماعى المصرى القديم.

* مكونات **البناء** الاجتماعـى المصرى القديم، وسنـتحدث عن **طبيعة** كل من البناء **الاجتماعى** للمجتمع المصرى القديـم ومكوناته، بما فى ذلك نظام الرق فى مصر القديمة.

* **النظم** الاجتماعية لدى **المصريين** القدماء، وسنتحدث عن **أمور** ثلاثة.. أولها.. النظام **الدينى** فى مصـر القديمة..، وثانيـها نظام **الأسرة**.. بما تضمنه من

زواج وطلاق، وثالث تلك الأمور يتناول.. نظام **التربية** والتعليم فى مصر القديمة.

* * *

أولا ـ علمية المصريين القدماء:

كانت مصر القديمة مهد **العلم** والحكمة، ونحن لا **نسوق** الكلام هنا جزافا.. حيث إنه من **الثابت** تاريخيا أن أكثر **الفلاسفة** والعلماء **شهرة** عبر الحضارات القديمة **المعاصرة** للحضارة الفرعونية **قد عبروا** البحر يلتمسون الأصول والمبادئ فى كل جديد على **أيدى** كهان مصر **وحكمائها** وعلمائها.

يذكر «سير ج. سونيرون» **خلال** كتابه «كهان مصر» أن من لم **يتح** له شرف ركوب البحر والالتقاء بكهان مصر وعلمائها.. كان **لا يتورع** عن الكذب مشيرا إلى زيارته لمصر ليكون لكتاباته **أصالة** وتأثير وشهرة.

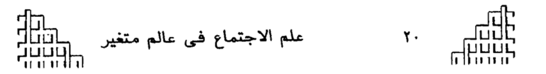
ومن **أبرز** من زاروا مصر وتعلموا على يد كهانها **وشاركوا** فى العديد من الاحتفالات الدينية المصرية. . كل من **أفلاطون** و**فيثاغورث** و**أونوبيدس** وغيرهم كثير من رواد الحكمة والعلم.

* ولكن ماذا **قدم** كهان مصر **لكل** هؤلاء الوافدين فى **مختلف** العلوم والمعارف؟!.

يقول «سير ج. سونيرون» **فى كتابه** المشار إليه «كهان **مصر**» أنهم ـ أى الوافدين ـ تلقوا **أسرار** العلوم الطبيعية.. كأسرار تدفق **المياه** من المرتفعات، كما درسوا **الفلك** والهندسة و**علم** اللاهوت **والطب** وغيرها[1].

* وإذا ما انتقلنا إلى محاولة **التعرف** على بعض مجالات **التطبيق** لمختلف **المعارف** المصرية القديمة؛ لاتضح لنا أن إنتاج **الفراعنة** كان يشمل الأوانى النحاسية والذهبية، والحلى بمختلف أنواعها **سواء** تلك المصنوعة من **الذهب** أو من الأحجار الكريمة أو منهما معا[2].

* كما برع المصريون القدماء فى **تشخيص** كثير من الأمراض ومعالجتها سواء عن طريق **العمليات** الجراحية أو عن طريق الدواء المناسب، كما **كان** لهم باع طويل فى مختلف فنون «**الصيدلة**» والكيمياء، وأما **التحنيط** الذى مازال محتفظا بسره حتى اليوم إلا شاهد على **عبقرية** المصريين الأقدمين فى هذا المضمار.



* ولسنا فـى حاجة **للتأكيد** على أن قـدماء المصريـين قد **اكتشفوا** ما فى الأعشاب من صفات تصلح لمعالجة الأوجاع والأسقام.

وكان **سنحوت** المصرى هو **العشاب** الأول.. الذى **كشف** عن العديد من أسرار **الأعشاب** الطبية التى كانت متوافرة فى أرض مصر، من خلال **مؤلفه** عن «التوليفات»، ولـقد كان هذا الكتاب مرجعا أسـاسيا فى علم **الصيدلة** ليس فقط بالنسبة لأطبـاء مصر لكن لكل **مشتغل** بالطب فى **العالم** القديم.. **بل** الحديث أيضا.

* وإلى جوار **معرفة** المصريين بمختلف **التقنيات** المتصلة بالصيدلة والطب والتشريح وأمراض النساء، وقـيامهم بالعديد من **العمليات** الجراحية فى المخ وما إليها، إلى **جوار** ذلك كـله **برع** المصريون فـى فنون **المعمار والتعدين**.. إلى جانب براعتهم فى **صناعة** المينا والزجاج الملون **والخشب** المطعم بالصدف والعاج.

* ليـس هذا فـقط.. بـل برع **المصريون** الأقدمـون كذلـك فى **صناعات** النسيج ودبغ الجلود **والنقش** عليها.

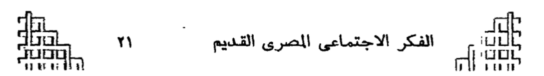
كل ذلك علاوة على أنهم برعوا فى **صباغة** الشعر وصناعة الكحل وأصباغ الزيـنة، وابـتكـروا طرقـا عديـدة لإزالة **التجاعيد** مـن الوجـه وأماكـن الجسـم الظاهرة(٣).

* وفى فنون **الزراعة** ابتكر المصريون القـدماء طرقا متقدمة **للرى** والحرث واستنبات **أفضل** أنواع المزروعات، ومـا الشادوف والنورج والمحراث والمنجل إلا أدوات فرعونية قديمة مازالت على **أصالتها** فى الريف المصرى حتى اليوم(٤).

* هذا **ويعد** المصريون القدماء أول من عرف فن **الإحصاء**، وتحدثنا البرديات عن أنه كانت هناك **إدارة** رسمية تسمى «مصلحة التسجيل والتوثيق» وكانت **مهمتها** الأولى إجـراء إحصـاء دورى عام **ينظم** كل عـامين وتسـجل خـلاله كل ممتلكات السكان العينية والمنقولة **علاوة** على إجراء **تعداد** للسكان أنفسهم.

وكان هذا الإحصاء **يعرف** بإحصاء «الذهـب والحقول»، وكان **يشترك** فيه عمال **عديدون** وموظفون من مختلف **التخصصات**.. فكان منهم المسّاح «الذى يقيس الأرض» والمحاسب، والكاتب، وغيرهم ممن كانت لهم مهام محددة.

* وأكثر من هـذا فقد **استخدم** المصريون الـقدماء بعضا مـن **فنون البحث**



الاجتماعى الحديث وأدواته، حيث عرفوا **المسوح** الاجتماعية **الشاملة**، وعرفوا أيضا نوعا من **استمارات** جمع **البيانات** لجمع بعض المعلومات المطلوبة كالحالة المدنية لكل فرد فى **مجتمع** البحث.. علاوة على مصادر الثروة.. هل انتقلت إلى الأفراد محل البحث عن طريق الإرث أو عن طريق أية مصادر أخرى(٥).

* كما ابتكر المصريون القدماء نظاما **للتوثيق** يتم من خلاله **حصر** مختلف الوثائق وتسجيلها ثم ختمها **بخاتم** الدولة تمهيدا **لحفظها** بعد تصنيفها فى دفاتر خاصة، ثم **نقلها** بعد ذلك للحفظ بمعرفة **ديوان** خاص للمحفوظات(٦).

* هذا وتحدثنا **البرديات** القديمة عن أن المصريين القدماء فى **عهد** الدولة الوسطى قد قاموا **بحصر** دقيق ووصف شامل لمختلف **المهن** التى كانت سائدة آنذاك، ولا **يهم** الآن أن تلك البرديات قد حدثتنا عن **الوضعية** الاجتماعية السيئة لأصحاب الحرف بقدر ما يهمنا **الوصف** الدقيق لطبيعة كل مهنة، فقد ورد فى وثيقة **«ذم المهن»** أن:

الحلاق كان همه منحصرا فى البحث عن **زبائنه** وترغيبهم فى قص شعورهم، و**الحداد** يمضى كل وقته أمام **لهيب** الكور ويتعرض للعديد من الأمراض، **والنجار** شقى كالفلاح، فكما يعمل **الفلاح** فى الحقل يعمل النجار فى **الخشب**، وكما يدمى المعول يد الفلاح يدمى المنشار يد النجار، أما **الحجارون** وغيرهم من **أصحاب** الصناعات فالكل ينهكه العمل اليدوى ويحيله إلى حطام(٧).

* * *

ثانيا- المصريون والمنهج العلمى:

عرف المصريون القدماء **الكتابة** أو لعلهم أول من اخترعوا **فن** الكتابة عن طريق **الحروف** الهجائية عندما استقروا على **الشكل** النهائى للغة الهيروغليفية وكان ذلك فيما بين عامى ٣٥٦٠ ، ٣٢٠٠ قبل الميلاد، ولم تكن **معرفتهم** باللغات قاصرة على لغتهم الوطنية فقط بل **شملت** عددا من **اللغات** المعروفة آنذاك، ولعل فى **حجر** رشيد الذى كتب **باللغتين** القبطية والديموطيقية إلى **جانب** الهيروغليفية، لعل فى حجر رشيد خير **شاهد** على ذلك.

* علاوة على ذلك.. فإن **كثيرا** من العلماء يردون الفضل فى اتباع المنهج العلمى التجريبى إلى **المصريين** القدماء، ومن هؤلاء «جورج سارتون» خلال **كتابه** «تاريخ العلم» الذى **أصدره** عام ١٩٥٦ ، فقد **قال** خلال تعليقه على

البردية التى اكتشفها «أدوين سميث»والتى كانت تضم ثلاث عشرة **حالة** مرضية **مشخصة** وموصوفا لها العلاج المناسب. قال «سارتون» معلقا على **المنهج** المستخدم فى الاستدلال على نوعية المرض: «إن الأسئلة التى استخدمت والدالة على دقة **الملاحظة** وحسن **الاستنتاج** هى أقدم شاهد معروف فى **تاريخ** الفكر البشرى على **وجود** المنهج العلمى الاستقرائى، **فالمصريون** القدماء لم يبدءوا إقامة العلم واستخدامه فقط وإنما قطعوا أشواطا طويلة فى نفس الطريق ـ طريق المنهج العلمى ـ التى مازلنا **نسير فيها** حتى اليوم»(٨).

* وعلى كلٍ **فليست** بردية «أدوين سميث» هى البردية **الوحيدة** التى تدل على أن المصريين القدماء هم **أول** من استخدم المنهج العلمى.. حيث **توجد** إلى جوارها **برديات** كثيرة لـ«كاهدن» و«شستر بيتى» و«إيبرس»، **فضلا** عن عدة برديات أخرى عرفت بالبرديات **الطبية**، والتى تشخص المرض وتحدد **التعليمات** اللازمة لكيفية **تناول** الدواء بما يتناسب مع كل حالة مرضية على حدة وبشكل دقيق وبالقدر اللازم والزمان المناسب **طبقا** لسن ولجنس المريض.

وهذه **البرديات** كلها إنما تؤكد **ما ذهب** إليه «سارتون» من أن المصريين الأقدمين هم أول من استخدم **المنهج** العلمى التجريبى؛ وإلا ما **حققوا** كل تلك الإنجازات العلمية التى كانت منارة للإنسانية منذ **قديم** الأزل.

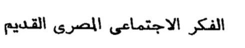
* * *

ثالثا ـ المنهج العلمى وجامعة الإسكندرية القديمة

أنشئت **جامعة** الإسكندرية فى أيام **بطليموس** الأول مع بدايات القرن الثالث قبل الميلاد، ويؤكد كل **مؤرخى** العلم على أهمية وعظمة **الدور** الذى لعبته جامعة **الإسكندرية** من خلال التعاون بين علماء مصر **وعلماء الإغريق** من أجل ازدهار مختلف فنون العلم والمعرفة(٩).

ويكفى حتى نتبين **عظمة** ذلك الدور أن نعلم أن **ستراتون** كان **أول** رئيس لها، وأن من علمائها **أرشميدس..** الرياضى الشهير، **وبطليموس** القلوذى.. الفلكى، **وإقليدس..** المهندس، **وجالينوس..** الطبيب الناضل، وغيرهم كثير ممن أثروا المنهج العلمى (*)

(*) للاستزادة انظر ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ص ٢٢ ـ ٢٦ .




ويقال إن **الرسول** «بولس» الذى يطلق عليه **معلم** المسيحية الأول ـ كان من بين أساتذة جامعة الإسكندرية فى فترة تاريخية لاحقة، وإن اختلف الرسول «بولس» عن كل هؤلاء بأنه تلقى علومه أولا بجامعة الإسكندرية قبل أن **يصبح** أحد أعلامها[١٠].

هذا وقد ضمت **مكتبة** جامعة الإسكندرية **أكثر** من خمسمائة ألف مجلد، ويقول «سارتون» فى كتابه «مقدمة تاريخ العلم» **المشار** إليه قبلا: أن مكتبة الإسكندرية كانت **مركزا** لمختلف فروع المعارف، كما أنها كانت هى **العقل** والقلب معا لكل **الدراسات** التاريخية والأدبية آنذاك.

* ويضيف «سارتون» عن **المنهجية** العلمية لعلماء الإسكندرية أن الفلكيين اتجهوا إلى وصف **الأرض** وقياسها، كما رصدوا السماوات، ولم يكتف المشتغلون **بالطب** بالمعلومات **النظرية** بل اتجهوا إلى تشريح الأجسام البشرية، كما اتجه **باحثوا** اللغويات والتاريخ إلى المكتبة حيث يجدون كل **المواد** التى تثرى أبحاثهم.

ومن **الطبيعى** ألا تعطى مكتبة الإسكندرية كل تلك **المعارف** بسخاء ما لم تكن **منظمة** ومرتبة بالقدر الذى يسمح **باستثمارها** لأقصى درجة ممكنة، علاوة على توافر عدد من **المتخصصين** والعلماء الذين تولوا تبويب **وتصنيف** وتنسيق مجلداتها التى **جاوزت** نصف المليون[١١].

ومن **أبرز** العلماء الذين تولوا **مهمة** التصنيف والتبويب تلك **علاوة** على توجيه مختلف الباحثين نحو **كيفية** الحصول على مقاصدهم من المكتبة، من أشهر هؤلاء الفيلسوف دينو، **والشاعر** كليماخوس[١٢].

وقد ثبت أنه **كانت** للمصريين القدماء **صلات** علمية واضحة **بغيرهم** من علماء العالم **المبرزين** خارج مصر، فقد **اتضح** أنه كان من بين الحاضرين إلى جوار سقراط فى ساعات موته **أصدقاء** مصريين من **طيبة** وكان من أبرزهم سيمياس وسيبيس، ولقد أوضح زينون **المؤرخ** الإغريقى الشهير أنهما كان من الرجال ذوى الأقدار العلمية.



مصادر الفكر الاجتماعي المصرى القديم

تبدو هذه المصادر أوضح ما **تكون** من خلال:

١ـ **الوصايا**.. سواء تلك التى وجـهها **الحكماء** والفلاسفة مباشرة لأبنائهم أو **للشعب** كله من خلالهم.

٢ـ **التشريعات**.. والمراسيم التى **صدرت** باسم الفرعون الإله.

٣ـ كما تتضح كذلك من خلال العديد من **النظم** التى عرفها المصريون القدماء:

* * *

* الوصايا:

تضمنت **الوصايا** التى وجهـها بعض **الحكماء** إلى أولادهم، العـديد من **القيم** الاجتـماعيـة ولاسيمـا ما تعلق منها بتكوين الأسـرة وكيفـية **تنشئة الأبناء** التنشئة الاجتماعية الصالحة.

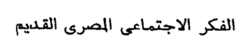
كما **تضمنت** تلك الوصايا تحديدا دقيقا **لدور** الأب ولمكانته فى **الأسرة** مع الاحتـرام الذى يصل إلى حد **تقديس** الأبناء للآباء، ونوهت تلك الوصـايا كذلك **بالمرأة** وبدورها فى **تربية** الأبناء وتحمل الأعبـاء فى سبيل ذلك، **علاوة** على ما عانته فى سبيلهم أيام **الحمل** والرضاعة، كما تؤكد الوصايا على **احترام** الزوجة.. وإعطائها حقها من **التقدير** والإعزاز مع عدم **القسوة** عليها أو إغماطها **حقوقها** حتى فى حالات الانفصال.

* ونظرة سريعـة على بعض **نماذج** تلك الوصـايا نجد **«بتاح محب»** عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد **يقول** لابنه: «إن كنت رجلا **حكيما**.. كوّن لنفسك أسرة»، ثم **يأتى** من بعده **«آنى»** عام ٣٣٠٠ قبل الميـلاد ليوضح **الصورة** أكثر فيقول: «إن من كان حكيما فعليه أن **يتخذ** فى شبابه زوجة تلد له أبناء».

وصحـيح أن الأبناء من حيث **الكثرة** العددية كانوا يشكلون قيمـة اجتماعية متوارثة لكن «آنى» يبرز **وظيفة** الأسرة فى المجتمع من خلال قوله عن **الزوجة**: **«تعطيك ابنا تقوم على تربيته وأنت فى شبابك وتعيش حتى تراه وقـد اشتد عوده وأصبح رجـلا».** وهنا تبرز **القيمة** المصرية الأصـيلة فيمـا يتعلق **بكثرة الإنجاب** حيث يقول «آنى»: **«إن السـعيد من كثرت ناسه وعيـاله فالكل يوقرونه من أجل أبنائه».**

* * *





*** التشريعات:**

كان المشرع المصرى القديم **فاهما** وواعيا لوظيفة **القانون** فى المجتمع، وكان التشريع أو المرسوم **يصدر** باسم الملك الإله، ومن أشهر **المراسيم** الصادرة بقانون ما رواه **المؤرخون** عن تشريع **«حور محب»** الذى استهدف من **تشريعه** محاربة مختلف مظاهر الفساد والاستغلال والرشوة التى **استشرت** فى المجتمع آنذاك حيث **تضمن** المرسوم بالنص: «أن الرجل **الفقير** هو الهدف المقصود بالحماية من الظلم» و«الرخاء الاجتماعى هو الغاية التى ننشدها».. **ثم أليس هذا الفكر** الذى استهدف الإنسان **الفرد** والمجتمع ككل حماية وتكافلا وأمنا.. أليس هذا **الفكر** أصيلا وواعيا وفاهما لدور القانون ـ كنظام ـ فى تحقيق **التوازن** الاجتماعى للمجتمع ككل؟!.

* وإذا ما تركنا **الضبط** الاجتماعى من خلال التشريعات **والمراسيم**.. واتجهنا نحو إبراز **دور** تلك التشريعات فى تقنين الحياة الاجتماعية لوجدنا أن **«أمحوتب»** عام ٢٣١ قبل الميلاد قد **حدد** بوضوح طبيعة العلاقة بين **الزوج وزوجته**، مبينا حقوق **الزوجة** على زوجها سواء قبل الدخول بها أو بعده، وحتى بعد **الطلاق** أو الزواج بزوجة أخرى، ويوضح كذلك حقوق أولادها منه.

فقد قال «أمحوتب» لخطيبته «تاحارت»: «لقد اتخذتك **زوجة**، وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك وما **سأحصل** عليه، و الأطفال الذين تلدينهم لى يكونون أطفالى، ولن يكون فى مقدورى أن أسلب منهم أى شىء **مطلقا** لأعطيه للآخرين من **أبنائى** أو إلى أى شخص فى الدنيا، **سأعطيك** من النبيذ والفضة والزيت ما **يكفى** لطعامك وشرابك كل عام، ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك **شهريا** وسنويا. وسأعطيه لك أينما أردت، وإذا **طردتك** أعطيك خمسين قطعة من الفضة، وإذا اتخذت لك ضُرَّة أعطيتك مائة قطعة من الفضة».

والذين قرءوا **البردية** المحفوظة بالمتحف المصرى والتى يرجع **تاريخها** إلى القرن الرابع قبل الميلاد يقولون أن **عقد** الزواج قد تم **تسجيله** وممهور بتوقيع ستة عشر شاهدا.

* * *

الحكم والأقوال المأثورة:

وهى **كثيرة** وتغطى مساحات كبيرة من **التراث** المصرى القديم.. وهى نوع من المواعظ التى استهدفت تعميق **قيم** معينة أو اتباع **أنماط** خاصة من آداب السلوك أو **اجتنابها**، وقد يكون مصدر تلك الحكم والأقوال المأثورة.. تلك الوصايا التى يوجهها **الحكماء** لأبنائهم، أو قد يكون مصدرها رجل **الشارع** معبرا فيها عن تجربته مع الحياة، المهم أن تلك الحكم والأقوال **المأثورة** فى غالبيتها كانت تعتبر **دستورا** لما يجب أن يكون عليه **السلوك** الاجتماعى فضلا عن دورها فى **نقل** التراث الشعبى والخبرة الشخصية عبر **العديد** من الأجيال.. ومن أبرز **الأقوال** المصرية القديمة **المأثورة** ما يأتى(*):

(أ) إذا وجدت رجلا **عاقا** فى زمنه فلا تلزم **الصمت** عندما ينطق سوءا.

(ب) إذا وجدت رجلا **عاقلا** فى زمنه ورائدا فى التفكير، وأكثر منك **تفوقا** فاثن ذراعك تحت إبطك **وأحنِ** ظهرك، واحتراما وتقديرا له كعادة المصريين القدماء.

(جـ) لا **تشبع** فمك **دون** ذوى قرابتك.

* وهناك العشرات من الحكم والمواعظ الأخرى التى يضمها **التراث** المصرى القديم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ثلاثة وأربعون قولا مأثورا تضمنتها وصية «**بتاح حوتب**» الذى عاش عهد **الإقطاع** زمن الأسرة الثانية عشرة عندما طلب من الملك أن يمكنه من تعليم ابنه «وفقا لكلمات أولئك **الأسلاف** الذين سمعوا تلك الوصايا التى قدمها الأجداد».

* واختلطت الأقوال المأثورة **بالوصايا** فى كثير من الأحيان وتشابهت بل وتشابكت أيضا من **خلال** أقوال الحكماء على مر **العهود** المصرية القديمة، لكن الهدف دائما كان واحدا وهو اتباع كل ما هو خير والبعد عن كل ما هو **شر**، **لأن** الخير دليل «كل ما هو طيب» وأن «من يسير على **دليل** لا يضل» كما قال الفيلسوف **المصرى** القديم «بتاح حوتب».

* * *

(*) للاستزادة ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ المصدر السابق ـ ص ص ٢٧ ـ ٢٩ .

الأدب المصرى القديم:

يعتبر **الأدب** المصرى القديم صورة حية للفكر الاجتماعى **المصرى** سواء فى ذلك **السِّيَر** الذاتية أو **الأساطير** أو حتى أدب **المواقف** الذى يحكى موقفا واقعيا بطريقة أدبية، المهم أن كل تلك **الأنماط** كانت تعبر **أصدق** تعبير عن الواقع الاجتماعى، وتبرز **موقف** الإنسان المصرى منه، وما قصص **سنوحى** والأخوين والأمير **المسحور** والفلاح الفصيح إلا تعبير حى عن ذلك كله.

* ولو أخذنا **قصة** الفلاح الفصيح «**خونانوب**» كمثال.. حيث عاش الفلاح الفصيح فى وادى النطرون وكان قد جمع محصول أهل **قريته** ووضعه على ظهر عدد من **الحمير** ليبيعه فى السوق، وتربص به أحد وكلاء الفرعون **ليأخذ** منه ما جمعه من محصول.. وما **كاد** الفلاح الفصيح يجتاز شريطا ضيقا فى ضيعة هذا الوكيل حتى قبض عليه بتهمة أن أحد **حمير** الفلاح قد أكل من زرع الوكيل.. ولم تجد **اعتذارات** الفلاح **الفصيح** عما جناه حماره ولم تنفع كذلك توسلاته بأن المحصول هو **معاشه** ومعاش أهل قريته، **واستولى** الوكيل على المحصول كله وعلى **الحمير** التى كانت تحمله أيضا، ولم **يجد** الفلاح الفصيح بدا من أن **يشتكى** «ناخت» وكيل الفرعون إلى «ابن مروورنس» سيد الناحية الذى **اشتهر** بالعدل آنذاك، وفعلا قابله الفلاح الفصيح **وقص** عليه حكايته فما كان منه إلا أن بعث أحد أعوانه **ليعرف** حقيقة الأمر، ولكن **الرشوة** لعبت دورها وأصبح الفلاح المصرى البسيط مجرما هاربا من **دفع** الضرائب، واضطر «ناخت» **مشكورا** لأخذ حق الدولة منه بالقوة.

ولكن الفلاح المصرى **الفصيح** لم يجد بدا أمام **الجوع** الذى يأخذ بخناقه وخناق أهل قريته من أن يكتب إلى «ابن مروورنس» سيد الناحية أو **الوكيل** الأعظم ـ كما كان يسمى آنذاك ـ قائلا:

«لأنك **أخو** اليتيم، وزوج الأرملة، وأخو المهجور، وراعى من لا أم له، دعنى **أضع** اسمك فى هذه البلاد **فوق** كل قانون صالح. أيها **الزعيم** الذى لا مطمح له، الرجل العظيم الذى يخلو من كل ما يشين الرجال، الذى يحطم الباطل، ويجلب الصدق.. **استجب** إلى الصيحة التى تخرج من فمى»(*).

(*) المصدر السابق ـ ص ص ٣٠ ـ ٣١ .

ومن فرط **سعادة** الوكيل الأعظم بالقول البليغ للفلاح الفصيح.. **قام** ينقل شكواه إلى **الملك** الذى أعجب هو الآخر بتلك الفصاحة **واتفق** سرا مع وكيله الأعظم على **مساعدة** الفلاح بإرسال المؤن **سرا** إليه دون أن يعرف مصدرها حتى يستمتعا معا **برد** فعل ذلك الفلاح ومعرفة ما تجود به **قريحته** عن الظلم والظلمة، وحدث ما **توقعاه** بالفعل.. وزاد إحساس الفلاح بالخيبة؛ **فكتب ثمانية** التماسات جديدة يقول فى واحد منها بعد أن **مدح** الوكيل الأعظم **وشبهه بالإله رع** سيد السماء، **وبالنيل** فى فيضانه عندما يحول الأرض **الجرداء** إلى حقول خضراء، **يقول** الفلاح الفصيح **للوكيل** الأعظم.. وهو يطلب منه «صُد اللص، احم **المظلوم**، لا تكن صادا لكل من يلجأ إليك.. خذ حذرك فإن **الأبدية** (يعنى يوم القيامة) تقترب، لا تكن ذا خفة لأنك ذو وزن، لا تنطق بالكذب **لأنك** أنت **الميزان**، لا تنحز لأن مثقالك صائب، إنك والميزان واحد، **ذلك أنه إذا مال** الميزان خطأ فإنك تميل **تبعا** لذلك خطأ».

ويبدو **أن** الفلاح الفصيح **قد تجاوز** حده وقدره فى **رأى الوكيل الأعظم** الذى أمر بجلده عقابا على **تجاوزاته**، ولكن هل **حال** الجلد بين **الفلاح** وبين مداومة **المطالبة** بحقه والإصرار عليه؟، أبدا فقد **تربص** الفلاح **بالوكيل الأعظم** ذات يوم عقب خروجه من المعبد وقال **رأيه** فيه بصراحة دون **مجاملة** وبغير خوف.. ولم **يلجأ** الفلاح الفصيح إلى المقدمات كعهده ودخل **فى موضوع شكواه** مباشرة **وقال** لابن مرورنس: «لقد عينت لتستمع إلى القضايا وتحكم **بين المتقاضين** بالعدل، لكى تصد اللص»، وهنا يحدد الفلاح الفصيح **مفهوم** الحكم والحاكم معا من وجهة نظر المحكوم، ثم يوجه **اتهاما** مباشرا للوكيل **الأعظم بقوله**: «لكنك تشترك فى دعوى واحدة مع **السارق**، إن الناس يحبونك **ولو أنك معتدٍ**».

ولكن الوكيل الأعظم لم **يرد**؛ **فعاد الفلاح الفصيح** إلى **أسلوب المهادنة** وإيقاظ جوانب الخير فى النفس البشرية، وبعث له برسالة **جديدة يقول فيها**: «أيها الوكيل **الأعظم**.. سيدى.. حطم كل ما هو سيئ» مثل «**الجوع** حتى يأتى الشبع، والعرى حتى يأتى **الكساء**» مثل السماء التى «يسودها الصحو بعد

العاصفة العنيفة فيتوافر الدفء **لأولئك** الذين يقاسون البرد» مثل «النار التى تطهو كل ما هو نيئ» مثل «الماء يروى غلة الصادى»(*).

ويفقد الفلاح الفصيح **صبره** أمام استمرار الوكيل الأعظم **فى تجاهل** رسائله إليه فيبعث بخطاب آخر لكنه كان.. أكثر **صراحة** يشبهه فيه **بموظفيه** الظلمة الذين **يعبثون** بمصالح الناس وقد أعماهم **الطمع** فيقول: «إن قلبك مملوء بالطمع، إنه لا يناسبك، إنك تسرق، إنه لا **ينفعك**، إن الموظفين الذين عينوا لرد الجور والظلم هم ملجأ الجامحين».. وفى **آخر** هذه الرسالة **يوجه** الفلاح الفصيح نصيحة **بليغة** للوكيل الأعظم يقول له فيها: «أقم العدل من أجل **رب** العدل، أنت القلم والقمطر ولوح الكتابة».

ومع استمرار **صد** الوكيل الأعظم للفلاح الفصيح **وتجاهله** لكل رسائله التى يطالب فيها بحقه **الضائع** والتى ينشد خلالها عدلا وإنصافا من حاكم يرى أنه **عين** فى مكانه لخدمته والسهر عليه لا **لسرقته** وتجاهله ومراوغته، أقول مع إحساس **الفلاح** الفصيح **باليأس** نتيجة التآمر على **سلب** حقه توجه بأقسى الكلمات ودعا على الوكيل بدعوات بليغة.. **بليغة** لا يزال صداها يتردد فى **ضمير** الشعب المصرى **حتى** اليوم، فقال له: «لن يكون لك **بنون** ولا ورثة على الأرض، أما عن هذا الذى يبحر معه **الخداع** فلن يصل إلى البر، وسفينته لن ترسو فى مرفئها، لا يوجد **أمس** للذى لا **يبالى**، ولا يوجد صديق لهذا الذى يصم أذنيه عن **العدالة**، لا يوجد يوم سعيد للطماع»، ولكن الفلاح الفصيح حتى وهو فى قمة **ضعفه**.. لا ييأس.. ما زالت أعماقه تعمر بالعدل.. **وخيالاته** تناديه.. ووجدانه ينشده ممثلا فى «أنوبيس» **الملك** الذى يتصوره **سيفا** للحق والعدل.. الذى سيدفع عنه الظلم ويرد له حقه من **السارق** ومن الذى **تستر** عليه.. فيقول: «هاك.. **أنى أقدم دفاعى** إليك ولكنك لا تسمعه، ومن أجل موقفك هذا **سأذهب** وأقدم مظلمتى إلى **«أنوبيس»** وهناك **تصادر** أموال «ناخت» وتعطى لى».

* * *

(*) أى الذى أضناه الظما. انظر المصدر السابق - ص ص ٣١ - ٣٢ .

خامسا - البناء الاجتماعى فى مصر القديمة:

إن الكتابة عن البناء الاجتماعى فى مصر الفرعونية عملية شاقة، لأن ذلك البنيان لم يثبت على حال واحدة عبر تاريخه الطويل، فلو تتبعنا مثلا مسيرة الطبقات خلال الدورات التاريخية للمجتمع المصرى القديم لوجدنا:

١ـ أن المجتمع المصرى فى بداية تكوينه سادته مساواة شبه تامة بين جميع الناس فى الحقوق والواجبات.

٢ـ ظهرت أولى الطبقات فى المجتمع المصرى القديم وهى طبقة «الإيماخو» كنتيجة مباشرة لتمييز الفرعون الإله لبعض أتباعه والمتمين إليه فى الحقوق عن بقية سواد الشعب.

٣ـ كان لابد لذلك الفرعون الإله من كهنة يقومون على تنفيذ مختلف الطقوس التى تدعم سلطته الدينية، وبرزت نتيجة لذلك طبقة رجال الدين بامتيازاتها وسلطانها.

٤ـ كان من الطبيعى أن تكون طبقتا «الإيماخو» و«الكهان» على قمة الهرم الطبقى فى المجتمع المصرى القديم بعد الفرعون الإله مباشرة، وكان من الطبيعى أيضا أن تنشأ إلى جوارهما أو فى خدمتهما طبقة «أرضية» تضم بقية فئات الشعب من عمال وفلاحين وصناع ومثقفين وجنود وغيرهم.

٥ـ ثم ما لبثت تلك الطبقة «الأرضية» نتيجة لأوضاع وظروف مجتمعية خاصة أن أفرزت قادة وزعماء كان لهم دورهم البارز فى مختلف نواحى الحياة المصرية القديمة، الأمر الذى جعل احتلالهم لدرجات أعلى فى السلم الطبقى أمرا ضروريا، مع ما استتبع ذلك من إعادة تشكيل البنيان الاجتماعى المصرى(*).

٦ـ كان المجتمع المصرى القديم كما بينا يتكون من طبقتين رئيسيتين: الأولى تضم أتباع الملك وأهل بيته علاوة على الكهان، وكانت تعرف بالطبقة المقدسة «الإيما خو ورجال الدين»، والثانية تضم بقية أبناء الشعب وتعرف

(*) المرجع السابق ـ ص ص ٣٥ ـ ٣٧ .

بالطبقة الأرضية، **ولكن** بعد أن أفرزت **الطبقة الأرضية** بعض القيادات أعيد **ترتيب**(*) البنيان الاجتماعي المصري القديم ليضم **ثلاث** طبقات بدلا من طبقتين:

(أ) الأولى.. طبقة **مقدسة** أو مؤلهة، وتضم **آل** بيت الفرعون الإله علاوة على **رجال** الدين.

(ب) الثانية.. طبقة **الأشراف**، وهي تضم **كبار** عمال الدولة وموظفيها، علاوة على ما **أفرزته** الطبقة الأرضية من **قيادات**.

(جـ) الثالثة.. طبقة **الشعب**، وهي طبقة أرضية.. **لأن سوادها** الأعظم لصيق **بالأرض** إما في الفلاحة أو في أية أعمال متصلة بها، علاوة على أصحاب الحرف اليدوية.

٧- ثم ما **لبث** المجتمع المصري القديم أن عرف **نظام** الرق..، فنتجت عنه فئتان جديدتان.. **الأولى** هي فئة **نصف** الأحرار وتضم من يعملون مباشرة في خدمة **الأشراف** أو الإيماخو، **والثانية** فئة **العبيد** وتضم الأرقاء **الذين** يفدون على المجتمع المصري من **مصادر** الرق المختلفة، وأهمها أسرى الحروب، **واعتبرت** الفئة الأولى ضمن **طبقة** الشعب في **كثير** من الأحيان بينما اعتبرت الفئة الثانية طبقة **مستقلة**، وكانت طبقة العبيد تضم عادة غير المصريين حتى وإن ولدوا على أرض مصر من **السبايا** اللائي أسرن في الحروب أو ممن اعتقلوا كقطاع طرق أو خارجين على القانون.

٨- كان من الطبيعي في **ظل** نظام الطبقات أن يستمد كل فرد **وضعيته** أو مكانته **ودوره** الاجتماعي بما **يترتب** على ذلك كله من حقوق وواجبات، من الطبقة التي **ينتمي** إليها.

٩- قلنا إن **البناء** الاجتماعي للمجتمع المصري القديم لم **يثبت** على حال واحدة، وإنما اختلف ذلك البناء تبعا **لاختلاف** الدورات أو العصور **التاريخية** التي مر بها **المجتمع** المصري القديم أو طبقا **للهزات** التي تعرض لها الكيان المصري ككل.

* عملية إعادة الترتيب تلك.. لم تتم بين يوم وليلة.. أو كانت من صنع أي قرار.. أيا كان صاحب القرار - للاستزادة انظر - المصدر السابق - ص ص ٣٥ - ٣٦

ولعل من **أبرز** تلك الهزات.. **الاستعمار** الخارجي وثورة الشعب ضد النظام الطبقى من **خلال** رفضه للإقطاع بهيمنته على كل مقدرات الشعب آنذاك.

وعلى كل **حال** نحن سنتعرض لبعض **طبقات** المجتمع الفرعونى **ونظام** الرق فيه وذلك على النحو الآتى(*).

* * *

سادسا : الطبقات فى المجتمع المصرى القديم

قلنا **قبلا** أن طبقات المجتمع المصرى القديم ضمت عدة فئات أو عدة طوائف.. فمثلا الطبقة **المقدسة** لم تكن وقفا على الكهان أو ذوى المكانات الدينية الخاصة، بل **ضمت** إلى جوارهم آل بيت الملك أجمعين، وكذلك طبقة الأشراف.. ضمت إلى جوار كبار رجال الدولة **وقواد** الجيش علاوة على من **أفرزتهم** الطبقة الأرضية، أما طبقة **الشعب** فكانت أكثر الطبقات **بروزا** من حيث عدد الفئات **المكونة** لها فقد ضمت الفلاحين والصناع والتجار والمثقفين..إلخ.

ولذلك فإننا سنتحدث هنا عن **الفئات** وليس عن الطبقات المكونة للبناء الاجتماعى **للمجتمع** المصرى القديم، وذلك من خلال النقاط الآتية:

١ـ الفلاحون:

يعتبر الفلاحون سواء من **حيث** الكم أو الكيف من أهم **الفئات** المكونة للمجتمع المصرى **ليس** على مستوى التاريخ القديم فقط وإنما على مر **العصور** التاريخية التى **مر** بها المجتمع المصرى حتى **يومنا** هذا.

ومن هنا **اكتسب** الفلاحون أهميتهم على **الرغم** من **أن** وضعيتهم الاجتماعية لم تجعلهم يوما فى **مصاف** الطبقات العليا، والفلاح الذى نقصده هنا هو ذلك الفلاح المفرد الذى **أطلقت** عليه البرديات المصرية القديمة لفظ «مريت» والذى يعنى **أن** الفلاح هو **خادم** الأرض(١٣).

أما **الفلاحون** (جمع فلاح) فقد أسمتهم **البرديات** كذلك «نيسو تيو» ومعنى هذه التسمية.. **أنهم الزراع** الملكيون(١٤).

ويدل هذا **التفريق** فى التسمية بين الفلاح والفلاحين على أن هناك اختلافا فى **مدلول** كلٍّ من المسميين، فالفلاح قصد به الفلاح **الأجير**، الذى يعمل لدى

(*) المصدر السابق ـ ص ص ٣٨ ـ ٢٤ .

الغير نظير أجر يحـدده اتفاق بينهما، أما **الفلاحون** فهم أولئك الذيـن يعملون فى أرض **الدولة** التى هى مملـوكـة بالتـالى **للفرعون** الإله. إذن الفـلاح **الفرد**.. هو الأجير الذى يعمل لدى **الغير** لفترة مؤقتة نظير أجر معلوم، أما الفلاحون.. فهم الذين يـفلحون أرض الـفرعون **الإله** باعتـباره مالكا للأرض جميعا، وقـد يكون هؤلاء الفلاحون **ملاَّكا** من الباطـن أو مجرد **زارعين** لتلك الأرض **بصفة** دائمة ومستمرة، وبناءً أيضا على عقد **موثق** وعليه شهادة الشهود.

وكان **الفلاحون** هم أكثر فئات المجتمع **جلدا** وصبرا على المكاره، وكانوا أيضا من أكثرها **ارتباطا** بالأرض وحبا لها وتفانيـا فى خدمتها على **الرغم** من أن العائد **الأعظم** من جهودهم كان يذهب لغيرهم بوسيلة أو بأخرى.

وتبرز **عظمة** أولئك الفلاحين فـى أنهم كانوا دوما **يفلسفون** - ومازالوا - بؤسهم وشقاءهم بما **يدعم** حبهم للعمل وانتماءهم لتراب مصر.

٢- العمال:

سبق أن **قلنا** إن المصريـين القدماء قد عرفوا نظـاما دقيقا لتصنـيف المهن.. حيث **حددوا** مسميات كل مـهنة علاوة على **وظيفة** من يمتهنـها، وتضمن ذلك التصنيف وثيقة شهيرة منذ أيام الدولة **الوسطى** تسمى «وثيقة ذم المهن» وقد أشرنا إلى **هذه** الوثيقة منذ قليل.

ولا ندرى عـلى وجه الـتحـديد **سبب** تـسميتـها بذلـك الاسم.. هل لأن الأعمال اليدوية كانت **تجلب** المهانة على ممارسيها.. أم **لسبب** آخر؟!(١٥).

المهم أن الـعمال والفلاحـين كانوا يحـتلون **قاع** المجتمع المصـرى القديم، وكانت تجمعهم **حال** الشقاء والبؤس، وإن **تميز** العمال عن الفلاحـين بأن العمال كفئـة ينقسمـون إلى عدة **طوائف** حـسب نوعية الـعمل.. فكان **منهم** النجارون والحدادون والحلاقون والنحاتون **والبنّاءون** وغيرهم كثير..!!

وليس هذا فقط بل امتد التمايز ليشمل أبناء المـهنة الواحدة، بما ترتب على ذلك التمييز من حقوق وواجبـات، فليس صاحب المهنة الذى يتعامل مباشرة مع الناس وفى الأسواق كابن مهنته الذى يتعامل مع طبقات المجتمع العليا.





وليس النجار أو النحات **الماهر** مثله مثل النجار العادى أو **الخامل.. كلٌ** له **وضعيته** ومكانته بين المنتمين لطائفته، بل قد **تمكنه** مهارته من الانتظام ضمن طبقة **الأشراف** فى بعض الأحيان.. وقد.. هنا احتمالية لأن **المهارة** والمقدرة الفنية يمكن أن **تقرب** صاحبها من ذوى السلطان والنفوذ فى المجتمع ولكنها لا **تمكنه** فى غالبية الأحوال من أن يكون **واحدا** منهم، وإن كانت هناك بعض **الحالات** التى استطاعت **بمهارتها** وفنها الحرفى أن تنتظم ضمن **طبقة** الأشراف، فإنها تعد حالات قليلة أو **نادرة** من جهة، فضلا عن **توافر** أسباب أخرى **مساعدة** مكنتهم من ذلك من جهة أخرى.

٣ـ المحاربون:

والمحاربون هنا بالمفهوم **الحديث** هم الجنود وصف **الضباط** والضباط، ثم القواد العظام، ونفس الوضع كان منطبقا **أيام** الفراعنة.. المحاربون سواء كانوا جنودا أو ضباطا هم عادة من **عامة** الشعب، أما **القواد** فقد كان الفرعون الإله يختارهم من **أبناء** البيت المالك والأسر الأرستقراطية، وليس هذا فقط.. بل يشترط فى اختيار القواد أن يكونوا منذ الصغر قد **أعدوا** لذلك إعدادا خاصا يضمن ولاءهم **للفرعون** والدولة ولنظام الحكم.

المهم أن **الترقى** فى سلك الضباط العظام لم يكن **مستحيلا** أو وقفا على أبناء **البيت** المالك والحاشية، وإنما كان **ممكنا** لمن تؤهله **مهارته** الحربية لإتيان شىء خارق أو أداء عمل عظيم، أو أن تلعب **الصدفة** دورها فى ذلك بشكل أو بآخر(١٦).

كان ذلك **حال** المحاربين فى الظروف العادية أو فى ظروف **السلم**، أما فى زمن الحرب فإن **البرديات** المصرية القديمة تحدثنا عن أنه أيام **الجهاد** لطرد الغزاة الأجانب، كان ذلك الترقى **ممكنا** بل وتوضع فى سبيله **إغراءات** كثيرة، منها على سبيل المثال ما **قدمه** فرعون من الأسرة السابعة عشرة من **إغراءات** للانخراط فى سلك الجندية حتى يمكن طرد **الهكسوس**، فقد أعطى المحاربين **كثيرا** من الأراضى الملكية، كما قدم رمسيس الثانى العديد من المزايا للمحاربين حتى

المرتزقة منهم.. فقد **منحهم** إلى جوار الأراضى الزراعية، الأموال والثروات وكلها **معفاة** من الضرائب مع ما كانت تشكله تلك الضرائب من عبء وعنت شديدين.

ولقد أدت فترة الحروب تلك **لبروز** المحاربين ليس كطائفة أو **فئة** من فئات المجتمع المصرى وإنما **كطبقة** أساسية من طبقاته، **لدرجة أن** مؤرخا مثل «هيرودوت» قد اعتبر أن طبقة المحاربين هى الطبقة الرئيسية أو الوحيدة التى **برزت** إلى جوار **الطبقة** المقدسة فى عهد الدولة الحديثة والعهود التى تلتها[١٧].

٤ـ الكهان:

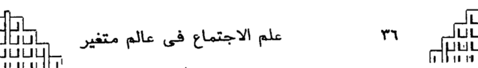
ونعنى بهم **أولئك** الذين تلقوا قسطا من **الثقافة** الكهنوتية التى تؤهلهم للقيام بمهام **الكهانة** ومن ثم الانتماء لفئة الكهان، ولم يكن هؤلاء الكهان ينتظمون ضمن مكانة واحدة بل اختلفت **وضعياتهم** الاجتماعية وتعددت **ألقابهم** على حسب نوعية إعدادهم من **جهة**، وعلى حسب نوعية وظائفهم ونوعية المعابد التى يعملون بها من **جهة** أخرى.

وعلى كلٍّ فإن **فئة** الكهان قد ضمت **النساء** إلى جانب الرجال، وكان لهن سلم **وظيفى** يماثل فى الكثير من **خصائصه** ما كان لدى الرجال، وإن اختلفت **ألقاب** الكهان الرجال بعض الشىء[١٨].

٥ـ الكتاب:

وهم كطائفة، **اعتبروا** فى رأى العديدين من المؤرخين **السادة** الحقيقيين لمصر الفرعونية[١٩]، وهؤلاء المؤرخون لم يكوّنوا ذلك الرأى بغير دراسة، وإنما كان هاديهم فى ذلك **تأملات** طويلة للعديد من البرديات المصرية حيث **تبينوا** أن لفظ «الكاتب» هو المقابل للفظ «الآمر» وأكثر من هذا وذاك فإن **الوثائق** البردية توضح فى جلاء أن **الكاتب** هو «الشخص الذى بيده الأمر والنهى».

ومن الطبيعى **ألا يكتسب** الكاتب مكانته تلك إلا إذا كان أكثر قربا من الفرعون الإله، حيث ورد فى **برديات** كثيرة أن الكتاب **كانوا** يتصدرون موائد الفرعون وينعمون بخيرات القصور الملكية، وذلك كله شرف لم **يمنحه** الفرعون الإله إلا **لقلة** من خاصته.



ولكن **أنى** للكتاب بهذه **الوضعية** المتميزة؟!.

يقول آيمارد: إن **سبيلهم** فى ذلك كان **شخصية** ذات **مقومات** خاصة، لعل من أهمها **الحزم** والذكاء المزوجين بالتواضع، فضلا عن **إتقان** المهنة والإلمام بكل أسرارها، علاوة على **التفانى** فى العمل والإخلاص فيه.

ويضيف آيمارد أيضا: أنه حتى الكتاب الذين لم **تتح** لهم الفرصة لأن يكونوا فى **وضعية** اجتماعية **ممتازة** بالقرب من الملوك والحكام، حتى أولئك الكتاب العاديون كانت لهم وضعية **متميزة** عن بقية أبناء الشعب(٢٠).

* * *

سابعا - نظام الرق فى مصر القديمة:

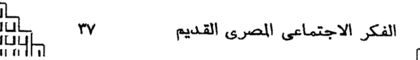
عرف المجتمع المصرى القديم **نظام** الرق، ولكنه لم يعرف صورة **ثابتة** مثله فى ذلك مثل الطبقات، فعلى امتداد الحقبات أو العصور لم يعرف نظام الرق **الخاص**(*)، بمعنى أن الرق كان **جماعيا** والفرعون الإله هو المالك **الوحيد** لكل العبيد الذين كانوا يفدون من **خارج** البلاد كهدايا من **الملوك** والحكام الأجانب، وكان يسخرهم فى الأعمال **الشاقة** كبناء المعابد والأهرامات أو فى **أعمال** المناجم والمحاجر، كما كان **الفرعون** الإله يحتفظ بهؤلاء العبيد **أحيانا** فى القصور الملكية كعلامة من **علامات** الرفاهية.

ثم ما لبث نظام الرق أن **اعتراه** تغيير جوهرى نتيجة **للحروب** التى دخلتها مصر بعد ذلك، ووجد المصريون تحت أيديهم **أعدادا** كبيرة من أسرى الحروب، فلم يكن هناك **بد** من استرقاقهم.

كما **عرف** الرق فى مصر القديمة **مصدرا** آخر متمثلا فى القراصنة وقطاع الطرق من غير المصريين الذين وقعوا فى أيدى العدالة المصرية، وعلى الرغم من أن هؤلاء **العبيد** لم يكونوا فى **الأصل** مصريى الجنسية، إلا أنهم **تسموا** بأسماء مصرية ومنهم أيضا من ولد على **أرض** مصر من آباء أرقاء(٢١).

---

* الرق الخاص يعنى أن يسترق شخص ما عبدا أو أكثر وتحبس خدماتهم عليه وحده علاوة على حقه المطلق فى التصرف فيهم حسب مشيئته.




وكان الابن **يتبع** فى حالة الحرية أو العبودية **حال** أبيه دون أمه، فابن العبد يكون عبدا حتى ولو كانت أمه **حرة**، وهذا يختلف تماما عن **التشريعات** القديمة قاطبة[٢٢].

وكان **العبيد** يباعون ويشترون فى **الأسواق** المصرية، كما كان امتلاكهم يعد مظهرا للرفاهية **والغنى**، إلا أن العبيد - بصرف **النظر** عن مالكيهم الحقيقيين - كانوا **ينتسبون** إلى الفرعون **الإله** باعتباره سيدهم الأول **ومالك** كل شىء، وهذه النقطة بالذات **فتحت** أمام الرقيق **أبواب** الأمل فى أن يستخدموا فى **القصور** الملكية وقصور بعض حكام الأقاليم علاوة على **الالتحاق** ببعض الدواوين الحكومية وبالجيش.

ولم تكن **العلاقة** بين العبد وسيده تختلف فى مصر القديمة عن **مثيلاتها** من الأمم التى **عرفت** نظام الرق.. فالعبد تربطه بسيده علاقة **ملكية** تامة، يحق للسيد خلالها أن **يمارس** على عبده كل **حقوق** الملكية.

إلا أن **المؤرخين** يرون أن تلك العلاقة كانت **قاصرة** فقط على ما يعرف بالرق **الخاص**.. أما الرق العام الذى تعود فيه السيادة أو الملكية **للدولة** فى شخص الفرعون الإله.. فما **كانت** تمارس على **العبيد** خلال نظام الملكية العامة **كل** تلك الحقوق.

* * *

صور وأشكال الرق فى المجتمع المصرى القديم

عرف نظام الرق فى المجتمع المصرى القديم عدة **صور** نوجزها على النحو الآتى:

١- **رقيق الفرعون الإله**.. وهم ملك **الدولة** ومصدرهم إما **أسرى** الحروب أو **الخارجون** على القانون الذين وقعوا فى أيدى **العدالة** المصرية، أو ممن كانوا يبعثون عن طريق **ملوك** البلاد الخارجية **كهدايا** للفرعون الإله، وهؤلاء **الرقيق** هم المطبق عليهم **نظام** الرق العام.

٢ـ **رقيق رجال الجيش**.. وهم **الأرقاء** الذين منحهم الملك **كمكافأة** لجنوده على ما أبدوه من بسالة فى الحروب.

٣ـ رقيق الكهنة.. وهم العبيد المخصصون **لخدمة** المعابد، حيث كانوا يعتبرون **هبة** ملكية تقدم **للآلهة** من غنائم الحرب **تقديرا** لتلك الآلهة واعترافا بمساندتها وتأييدها **للجيوش** المصرية التى أتت بالنصر.

٤ـ رقيق **الأثرياء**.. ومصدرهم أيضا **الفرعون** الإله.. حيث كان يعطى موظفيه وعماله الأكفاء.. عددا من العبيد **جزاءً** لحسن قيامهم **بواجباتهم** الوظيفية، ثم هناك مصدر آخر لرقيق الأثرياء وهو **الشراء** من الأسواق فيما يعرف **بنظام** الرق الخاص.

ومهما قيل عن **حقوق** السيادة على العبيد، فإنها لم تبلغ فى **وحشيتها** ما كان فى الأمم الأخرى، فلم يكن لأى **سيد** مصرى ـ حتى ولو كان الفرعون الإله ذاته - حق الحياة أو الموت على عبيده وإمائه، بل وكانت الإنسانية هى **الطابع** المميز للعلاقة بين السيد والعبد وليس أدل على ذلك مما **تضمنه** «كتاب الموتى» حينما يدافع الميت عن نفسه قائلا عن ما يملك من عبيد: إنه ـ أى الميت ـ «لم يهن عبدا فى حضرة سيده، ولم يتسبب فى جوعه، ولم يكن السبب فى **بكائه**، ولم يتسبب فى **موت** أحد من العبيد..»(٢٣).

* * *

الوضعية الاجتماعية للرقيق فى مصر القديمة

قلنا **قبلا** أن الرقيق فى ظل **المجتمع** المصرى القديم كانوا **يعاملون** معاملة إنسانية، حيث كان السيد **يفاخر** يوم الحساب بعد الممات بتلك العلاقة **الإنسانية** التى كانت **تربطه** بعبيده أو عبيد الآخرين(*).

والذى نحب أن **نضيفه** هنا أن تلك العلاقة لم تكن **ظاهرة** فردية ولا شيئا عارضا بل كانت **نظاما** عاما قننته التشريعات المصرية القديمة.

فقد **اعترف** القانون المصرى القديم للعبد بأن تكون له حياته **الخاصة** داخل

(*) المصدر السابق ـ ص ص ٤٢ ـ ٤٦ .

أسرته، وحياته **العامة** داخل المجتمع، هو فى **الأولى** حر يتزوج من يشاء حرة كانت أو عبدة، وعلى المجتمع أن **يطبع** ذلك الزواج بطابع **الشرعية** مع ما يترتب عليه من **مختلف** الالتزامات والآثار.

وهو - أى العبد - فى **الثانية** له دور فى المجتمع يتمتع خلاله بشخصية متميزة ليست **تابعة** أو نابعة عن سيده، فالعبد من **حقه** أن يمارس الزراعة أو التجارة أو الصناعة **ولحسابه** الخاص، بل وأكثر من هذا فقد كان من **حق** العبد أن **يتملك** الأموال المنقولة وغير المنقولة وله أن **يتصرف** فيها دون الرجوع إلى سيده بكافة أنواع التصرفات من بيع أو استغلال أو تصرف.. إلخ.

وأكثر من هذا.. فإن **شهادة** العبد كانت **مقبولة** سواء على العقود أو أمام المحاكم، فضلا عن حقه القانونى فى أن **يقيم** الدعوى باسمه أمام **القضاء**، وفى الناحية الأخرى كان العبد يطلب **كمدعى** عليه أمام المحاكم دون **الرجوع** على سيده بأية آثار.

علاوة على ذلك فإن العبد له أن **يتظلم** من سيده إن هو **أساء** معاملته، وإن صحت دعواه فلا مفر من **إجبار** السيد على عتق عبده المتضرر.

ولم يكن **اللجوء إلى** القضاء وحده هو **سبيل** العبد لينال حريته المفقودة.. بل كانت هناك **عدة** سبل منها ما كانت تلجأ إليه الدولة من **عتق** عبيدها الذين يخلصون **فى** خدمتها، ومنها أيضا أن يلجأ العبد إلى أىٍّ من المعابد **المقدسة** وهناك يدخل العبد إلى الحرية من بابها الرحب والرحيم فلا يسترق بعد ذلك أبدا.

ولعل هذه الوضعية **المتميزة** للرقيق فى مصر القديمة هى التى **حدت** ببعض المؤرخين لأن ينكروا **وجود** الرق فى مصر أصلا.. انطلاقا من أن المجتمع المصرى القديم لم يكن يشعر الرقيق يوما بأنهم كائن **غريب** عن بناء المجتمع.. وفتح أمام هؤلاء الأرقاء الغرباء أصلا عن **المجتمع** المصرى - بابا واسعا **للانصهار** فيه لغة ودينا وحضارة.. وما يلبث العبد أن يجد **نفسه** بعد ذلك لا يختلف كثيرا عن **فئات** الفلاحين أو العمال.. بل وفتحت أمام أولئك الـ«**حمو**» - وهو الاسم الفرعونى للعبيد - أبوابا عديدة ليس فقط **للحرية** كما أسلفنا، ولكن **لتبوؤ** وضعية اجتماعية أفضل كثيرا عن مثيلاتها لدى أبناء البلاد الأصليين من طبقة الشعب(٢٤).

وقد ورد فى **قانون** الفرعون المسمى «بوكخوريس» والذى **حكم** مصر فى عهد الأسرة الرابعة والعشرين، **ورد** فى القانون المنسوب إليه ما **يفيد** أنه كان للرق مصدر **محلى** غير تلك المصادر المستوردة التى أشرنا إليها قبلا، ونعنى بذلك المصدر المحلى أنه كان **هناك** بعض الأرقاء من ذوى **الجنسية** المصرية **الأصيلة**، والسبب فى ذلك كان **يكمن** فى موضوع **الديون**، بمعنى أنه إذا عجز شخص ما عن سداد دينه فى أجله المحدد يكون من حق **الدائن** أن يتخذ منه رقيقا **خاصا** له، ويكون للدائن على مدينه كافة **حقوق** السيد على العبد بما فى ذلك حق **البيع**.. ولكن ذلك **المصدر** للرق ما لبث أن **ألغى** استنادا على القانون **الإصلاحى** الذى أصدره الفرعون «بوكخوريس» المشار إليه(*) .

* * *

ثامنا : الفكر الدينى المصرى القديم

قال هيرودوت عن **ديانة** المصريين: «إن المصريين أشد **البشر** تدينا، ولا يعرف شعب بلغ فى التدين **درجتهم** فيه، فإن صورهم بجملتها تمثل أناسا **يصلون** أمام إله، وكتبهم فى الجملة أسفار **عبادة**.. ونسك».

* هذا ويمكننا أن **نحدد** أهم سمات النظام الدينى فى مصر القديمة **بإيجاز** شديد خلال **النقاط** الآتية:

١ـ **عقائد** المصريين كانت **تختلف** باختلاف الأقاليم، حيث كان لكل إقليم إلهه، وعلى سبيل **المثال** كان **أوزوريس** يُعبد فى أبيدوس، **وبتاح** فى ممفيس، **وآمون** فى طيبة، **وهوروس** فى إدفو، **وهاتور** فى دندرة.

٢ـ **مكانة** الآلهة مستمدة من مكانة **المدينة** التى تُعبد فيها، وكانت الآلهة **درجات** يعلو بعضها فوق بعض **وتستمد** سمعتها وانتشارها من **القوة** السياسية للمقاطعات التى **تسود فيها**.

٣ـ **الكهانة** كانت جزءا أساسيا من **النظام** الدينى لدى **المصريين**

(*) المصدر السابق ـ ص ص ٤٧ ـ ٤٩ .

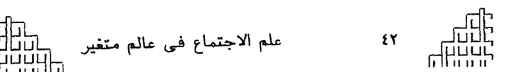
القدماء.. أو بالأحرى كان الكهان يشكلون **حجر** الزاوية فى هذا النظام، لذلك فإن اختيارهم كان **يخضع** فى معظم الأحيان للعديد من **الاعتبارات** التى تتعلق بصدق إيمانهم وكريم أصلهم، كما كانت **الثروة** والحظوة لدى الملك **تلعب** أحيانا دورا فى اختيار الكهان.

* هذا وقد أورد **أيمار** فى كتابه «الشرق القديم واليونان» المشار إليه قبلا، أن البرديات قد أوضحت أن هناك **بعض** النسوة ضمن الكهان، **وكن** يعرفن بـ«خليلات الإله»، **فضلا** عن وجود بعض النساء فى المعابد لكن ليس **بحكم** وظائفهن وإنما **للتعبد** والتنسك والانزواء.

هذا وقد عرفت كهانة **النساء** تلك نوعا من التنظيم احتلت بمقتضاه بنات الأسر العظيمة أو سيدات القصر الملكى الوظائف الكهنوتية العليا، وفى عصر الدولة الحديثة جاء فى نقوش معبد «الكرنك» أن **الملكة** كانت تعرف باسم «**السيدة المقدسة**» وكانت هى الكاهنة **الأولى** لمعبد الإله آمون فى الكرنك، وإن غابت تحل محلها كاهنة أخرى تعرف بـ«**الكاهنة العظمى**» وهى تحتل مكانة كهنوتية عالية لكنها بالقطع **أقل** من مكانة الملكة **باعتبارها** «يد الإله» أو «زوجة الإله» أو «معبودة الإله»[٢٥].

٤- **الكهانة** كانت **نظاما دينيا** ودنيويا أيضا، **وكانت** لها أسرارها وخصائصها التى تميزها عن غيرها من الأعمال، ونظرا لاتصال **وظيفة** الكاهن بالعقيدة والشعب فقد **حرص** المصريون القدماء على أن **ينقشوا** فى مكان ظاهر على **أبواب** المعابد العديد من **الوصايا** التى تنظم **عمل** هؤلاء الكهان أو تلفت نظرهم حتى لا **يخرجوا** عن واجبهم المقدس، ومن أشهر هذه النقوش.. تلك الموجودة على جوانب **أبواب** معبد إدفو، وما حوته من نصوص تحث الكهان على ضرورة التزام **الدقة** المتناهية فى تأدية العبادات.

٥- كان الكهان **طبقات** ورتب فهناك طبقة الكهان **العليا**، ثم طبقة الكهان **المساعدين**، وأخيرا طبقة الكهان **الدنيا**، علاوة على طبقة **المنشدين**، كما كانت توجد **تفرقة** بين الكهان من حيث **طبيعة** العمل.. فهناك الكهنة **الفنيون** أى



الذين يقومون بترتيل **وتفسير** النصوص، وهناك الكهنة **المتناوبون** وهم الذين يؤدون أدوارا أخرى فى دور العبادة لخدمة الكهنة الفنيين، وقد يحدث أن **تتداخل** الطبقات والرتب، وقد تعلو طبقة فوق طبقة أخرى **طبقا** للحياة السياسية السائدة أو **لظروف** المكان الذى **تمارس** فيه العبادة، أو **بفعل** الزمن الذى يمكّن طبقة من **النمو** السريع وبالتالى إحكام سيطرتها وقلب موازين ذلك **الهرم** الطبقى الكهنوتى.

٦ـ لم يعرف النظام **الدينى** المصرى القديم عقيدة **موحدة** بالله سبحانه وتعالى على الرغم من **ثبوت** أن أرض مصر قد وطأها **إبراهيم** أبو الأنبياء ويوسف وموسى وعيسى عليهم جميعا ـ وعلى نبينا **محمد** ـ السلام، **ولا يعقل** ألا ينادى هؤلاء **بعبادة** الله ووحدانيته، إلا أنه من **الثابت** أيضا أن **هناك** محاولات لجمع المصريين **القدماء** على عقيدة **واحدة**، وخاصة بعد **أن وحد** الملك «مينا» شطرى وادى **النيل** وسادت روح الإله الأعظم **هوروس** خليفة أوزوريس.

٧ـ تنازعت **المصريين** الأقدمين عقيدة **خلود** الإله الذى حل فى جسد الفرعون، ولكن هذه العقيدة واجهتها مشكلة موت الإله الفرعون ككل البشرفكيف يموت الإله؟!(*).

وكان الحل **توفيقيا** يجمع بين خلود الإله وفناء الجسد، حيث **إن روح** الإله الأعظم هوروس كانت لها **ثلاث** شعب،**الأولى** هى روح الدنيا **والتى** تحل فى فرعون **عصره** وهى تنتقل بالتبعية إلى من يخلفه فى الحكم، **وتفيض** عليه بقدسيتها، أما **الثانية** فهى تلك الروح العليا التى تحكم فى السموات والأرضين، أما **الثالثة** والأخيرة، فهى روح تبقى فى جسد الفرعون الميت، **ووظيفتها** **تقديم** النصح للفرعون الإله الحى الذى يحكم، ولكن **بقاء** هذه الروح **مرهون** بعدم فناء

(*) ما لبثت عقيدة تأليه الفرعون أن تلاشت ليحل محلها تقديس «رع» كبير الآلهة، والشىء اللافت للنظر أن عقيدة المصريين على الرغم من ثباتها أحيانا إلا أنها تعرضت للعديد من التغيرات فى أحايين كثيرة، حيث تعددت مقدساتهم وتراوحت ما بين الحيوان وقوى الطبيعة.. إلخ.

الجسد، ومـن هنا كان لابـد من المحافظـة على **بقاء** الجسـم **متماسكا** ومحتفظا بملامحه العامة، لذلك **شيدت** الأهرامات لتكون حافظة للـجسد الفرعونى على مر الزمان[٢٦].

٨ـ لا تتجلى **عظمة** النظام الدينى المصـرى القديم فى عقيدة **التقديس** أو **التأليه** أو فى **النظام** الدقيق الذى تسيـر عليه الكهانة فقط، وإنما تتجـلى أيضا فيما **اعتقده** المصريـون القدماء مـن وجود **حياتين**، أولاهما.. **الدنيا**.. وهى فانـية زائلة لأنها مهما امتدت.. **محدودة**، ومهما طالت.. قصيـرة، ومهما رحبت فهى ضيقة، **وثانيتهما** حـياة أخـرى.. غـير مـحدودة الأمـد.. ممـدودة عبـر الزمـان والمكان.. خالدة، ولم يأت **اعتقاد** المصريين الأقـدمين جزافا.. بل نبع عن أسـباب تبدو معقولة لعل.. من أهمها[٢٧](*):

(أ) الحياة الدنيا:

إن هى إلا **حلبة** صراع يتنازع **فيها** الخير والشر، **وكثيرا** ما تنتهى بانتصار الشر بفسقه وفجـوره وإساءاته، ولكن هذا ضد **العدل** الإلهى الذى لابـد معه أن تستقيم الأمور يوما **فيلقى** المحسن والمسىء جزاء ما **قدمت** يداه، ولابد أن يكون **هناك** يوم آخر وحياة أخـرى تتاح خلالها الفرصة لـلأخيار الأطهار **الطيبين** حتى يهزموا الشريرين المسيئين المفسدين.

(ب) النفس البشرية:

وإن كانـت **تحل** فى الجـسد إلا أنهـا تتمـتع **بذاتية** مستقلة ومـنفصلة عن الجسد، وقسموا النفس إلى أربعة **أنماط** هى[٢٨]:

* **الروح**.. وهى أصل **كل** القوى فـى الإنسان، **وتبارح** الجسد الإنسانى مؤقتا عنـد الموت وإن كانت **تتردد** عليـه أحيانا، **ثم** ما تـلبث أن **تعود** إليه بعد مرحلة **الحساب** إن كان المتوفى من الخـيرين ومن هنا يعود الإنسان ليـشعر بكل ما يشعر به الأحياء.

* **العقل**.. وتمثـله إرادة الإنسـان ومـدى **توجيهه** وإحكام سيطـرته على **مقدرات** ذلك الإنسان .. إن خيرا فخير.. وإن شرا فشر.

(*) المصدر السابق ـ ص ص ٥٢ ـ ٥٣ .

* **المادة الأثيرية**.. وهى حالة غير مرئية **تماثل** هيئة الإنسان وجسمه تماما.

* **الجوهر المقدس**.. وهو **سر** الوجود الإنسانى.. وهذه **الخاصية** يشترك فيها الإنسان مع الآلهة وتظل **عالقة** به ما دام على قيد الحياة.

والنفس لا **تعيش** إلا فى جسد **سليم** معافى، لأن سلامة الجسد هى شرط **عودة** الروح إليه بعد الممات، لذلك فالمحافظة على الجسد سليما بعد **الموت** هو واجب مقدس يستحق أن تبذل فى سبيله تلك الجهود المضنية التى بذلوها حتى ظلت أجسادهم **سليمة** لعشرات القرون.

٩ـ الحياة **الدينية** لدى المصريين القدماء.. هى بحق تعبير عن كامل الحياة **المجتمعية** أو هى محتوى لها.. والمطلع على كتاب «الموتى» بما ضمه من شمائل طيبة وخصال نبيلة، وما **أوضحه** من الواجبات الملقاة على الروح حتى تحسن **الإجابة** فى لحظة الحساب وهى على عتبات الحياة الآخرة الخالدة، هذا الكتاب لم يكن يعلى من **شأن** الميت فى أحضان الإله رع أو يجعله **عظيما** أو مرهوب الجانب لدى أوزوريس وهوروس وغيرهم من الآلهة فقط وإنما كان أيضا كتاب **حياة** يضمن للذات البشرية خلودها وهى تعبر **ممر** الحياة الدنيا الضيق إلى الآفاق الرحبة الفسيحة للحياة الآخرة.. ولننظر أو لنستمع إلى ما تقوله **الروح** وهى تقف أمام محكمة الآلهة.. حيث يقول **الميت**: «يا سادة الحقيقة، إننى **حامل** للحقيقة، إننى لم **أخن** أحدا، ولم **أغدر** بأحد، ولم أجعل أحدا من ذوى قرباى فى **ضنك**، ولم **أقم** بدنية فى موئل الحقيقة، ولم **أمارج** عملى ببشرٍ قط، وجافيت **الضر** والأذى، ولم أعمل باعتبارى رئيس أسرة ما ليس من **عمل** ربها، ولم أكن سببا فى **خوف** خائف، ولا **إعواز** معوز، ولا **ألم** متألم، ولا **بؤس** بائس. لم أقدم على ما لا يليق بالآلهة فلم **أجع** أحدا، ولم **أبك** أحدا، ولم **أقتل** نفسا، وما **حرضت** أحدا على قتلٍ أو خيانة، ولم **أكذب**، ولم **أسلب** المعابد **ذخائرها**، ولا المومياء **طعامها**، ولم أرتكب **أمرا** لا يليق مع كاهن فى كهنوته، ولم **أغلِ** فى الأسعار، ولم **أطفف** الكيل والميزان، ولم أسرق **الماشية** من مرعاها، ولم **أصد** طير الآلهة، ولم **أدفع** الماء فى عهد الفياضانات، ولم

أحول مجرى ترعة، ولم **أطفئ** الشعلة فى ساحتها، ولم **أخدع** الآلهة فى قرابينها المختارة، فأنا **نقى**، أنا نقى، أنا نقى».

* ومن أروع ما ورد فى **كتاب** الموتى أيضا.. حكم المحكمة التى زكت الميت والذى يقول نصه: «ليس فيه **شر** ولا **خطيئة** ولا **فساد** ولا **دنس**، وليس عليه **اتهام**، ولا فى **أعماله** ما يثير **اعتراضا**، فقد عاش من **الحق** وتغذى بالحق، وإن أفعاله **لتشرح** الصدور، وهى مما **يطلبه** الرجال، ويسر الآلهة، وقد **أخلص** للآلهة محبته، وأعطى **الخبز** من كان خاويا، و**الماء** من كان صاديا، و**اللباس** من كان عاريا، و**أعار** الزورق لمن ليس عنده»(٢٩)(*).

* * *

تاسعا: المصريون القدماء والتوحيد:

يرى عدد غير قليل من الباحثين أن **الدعوة** التى قادها «**أخناتون**» للتوحيد، كانت **سباقة** ليس فقط فى رفض العديد من مظاهر **الوثنية** التى كانت سائدة فى مصر آنذاك، بل كانت **ثورة** دينية استطاع خلالها الفرعون الشاب «أخناتون» أن يلغى كل **الأرباب** بما لهم من **حواريين** وأتباع وكهان، وكان «أوزوريس» من أول الأرباب التى تمرد عليها «أخناتون»، ولو أن هذا **التمرد** كلفه الكثير بعد ذلك.

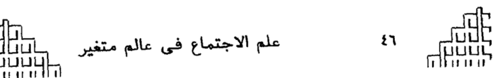
* لكن ما هو **تصور** «أخناتون» عن الإله الواحد؟!.

يحدد «أخناتون» **صفات** ذلك الإله **فيقول** إنه «هو الإله **الحى**، **المبدئ** الحياة، **المالك** الذى لا شريك له فى الملك، **خالق** الجنين وخالق النطفة التى ينمو بها الجنين، **نافث** الأنفاس **الحية** فى كل مخلوق، بعيد **بكماله**، قريب **بآلائه**، تسبح بإسمه **الخلائق** على **الأرض** والطير فى **الهواء**، وترقص الحملان في مرج الحقول وهى **تصلى** له وتستجيب لأمره، ويسمع **الفرخ** فى البيضة دعاءه؛ فيخرج إلى **نور** النهار واثبا على قدميه».

* **ثم** إن ذلك **الإله** فى تصور «أخناتون» **قد بسط** الأرض، **ورفع** السماء، **وأسبغ** عليها حال الجمال.

* وهذا الإله ملء **البصر** وملء الفؤاد، بل إنه.. هو الوجود **وواجب**

(*) المصدر السابق - ص ص ٥٤ - ٥٦ .



الوجود، وشعوب الأرض كلها **عبيده**، لأنه اللـه هو الذى **أقام كل شعب** فى موطنه ليأخذ نصيبه من **خيرات** الأرض ومن أيام العمر. ولكن من **هو** ذلك الإله كما سماه «أخناتون».. إنه هو **الواحد** الأحد «آتون».

وعندما **يناجي** «أخناتون» إلـهه «آتون» يقول معـددا أو محددا **العديد** من خصاله «أنت الإله **الأحد** الذى لا إله غيـره، خلقت الأرض **بمشيئتك** وتفردت فعمرت الكون بالإنسان **والحيوان** الكبار والصغار».

* ولكن **أين** يوجد إله أخناتون؟!

يقول «إخناتون» فى **صلواته**: «كل طريق ينفتح للسالك لأنك أشرقت فى السماء، ويرقص السمك فى النهر أمامك وينفذ **ضياؤك** إلى أغوار البحار».

وتبدو **قناعة** «أخناتون» بالإله **الأوحد** «آتون» أكثر رسوخـا عندما **يدعوه** فى ضـراعة وخـشوع قـائلا: «يـا أيهـا الإله الأوحـد الذى لـيس **لغيره** سلطان كسلطانك»(*).

* لكن ما هى **دلائل** ذلك السلطان الفريد كما يراها «أخناتون»؟.

تتجلى تلك الدلائل من خلال أقوال «أخناتون» كالآتى[٣٠]:

١ـ خالق **الجرثومة** فى المرأة «يقصد البويضة».

٢ـ صانع **النطفة** فى الرجل.

٣ـ واهب **الحياة** للابن فى جسم أمه «يقصد بـطن أمه»، ويغذيه حتى وهو فى الرحم.

٤ـ واهب **الأنفاس** «يعنى التنفس».

٥ـ صاحب **الأعمال** الكثيرة الخافية علينا.

٦ـ خالق **الأرض** كما يهوى قلبه، وخالق كل **شيء** يمشى على قدميه أو يطير فى العلا بجناحين.

*** لكن.. هل إله «أخناتون» إله محلى، بمعني.. هل يقتصر خلقه وإبداعه على مصر وحدها، أم يعم خلقه وإبداعاته الدنيا كلها؟!.**

(*) المصدر السابق ـ ص ٥٧ .



يقول «أخناتون»: «إن الإله **خلق** الناس والأنعام كبيرها **وصغيرها**، ليس فى مصر وحـدها وإنما فى «البلاد **الأجنبية** من سوريـا إلى كوش»(*)، لأن الإله هو الذى **يضع** الناس «كل فى موضعه ويمدهم بـحاجاتهم»، والإله «موجد النيل فى العالم الـسفلى»(**)، وهو الـذى **يأتى** بماء النيل علي الصـورة التي يحـبهـا «لتحفظ **حياة** الناس.. ألا مـا أعظم تدبيـرك.. يا **رب** الأبدية»، والأبدية هـنا تعنى الخلود.

* **إذن..** «آتون» إله «أخناتون»، كان **إلها** واحدا، حيّا، مالكا لا **شريك** له فى الملك، **خالقا** لكل شىء، تسبح **بحمده** كل المخلوقات سـواء تلك التى على الأرض أو **فوقها** أو تحتها وحتى ما فى **الأرحام**، باسط الأرض **ورافع** السماء، موزع الأرزاق، وواهب **الأعمار**، المشرق فى السمـاء، وخالق ما لا علم لنا به، مبدع الإنسان ومغذيه فىُ **بطن** أمه، واهب الحـياة والأرزاق لكل من **يمشى** على الأرض أو يطير فى السماء أو **يغوص** فى الماء.

* ثم إن ذلك **الإله** «آتون» كان هو المبـدئ للحياة ورب **الأبدية**، أى كان هو الأول والآخر والمشرق على العالم **المحسوس** وغير المحسوس من علياء سمائه[٣١](***).

* وبعـد.. تلك كـانت بعض **ملامح** أول دعـوة **توحيدية**، عـرضناها من خلال **أفكار** ودعوات **وصلوات** ومناجاة نبيها وشهيدها «أخناتون» للإله **الأوحد** والأعظم، ولكن ما لـبث كهنة **الأرباب** المتعددين أن **طمسوا** أنوار تلك الدعوة **التوحيدية** لتكتب لهم الحـياة مـؤقتـا، وليكتب **الخلود** لدعوة «أخنـاتون» كأول حركة إصلاحيـة دينية عبر التاريخ **المصرى** القديم، ولا نقول عبـر التاريخ القديم للبـشرية كلهـا، ولو قلنا ذلك أو **ادعيناه** ما تجاوزنا الحـقيقة، ولولا خـشيتنا أن **نجترئ** على الحقيقة لقلنا بكل **اطمئنان** وأمان.. إن دعوة «أخناتون» التوحيدية ما كانت إلا وحيـا على نبى أورسول، وحتى يطمئن من قد تخـيفه **كلماتى** عليه أن **يعود** إلى القرآن الكريم ليـجد قول **الحق** تبارك وتعالـى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾.. [سورة فاطر الآية ٢٤].

* * *

* حسب علم أخناتون بحدود أو معالم الأرض التى يحيى عليها الخلق فى ذلك الوقت.

** يقصد عالم الدنيا.

*** وفقا لتصور أخناتون.. حيث كان يعتقـد أن الإله يسكن فى السماء، وعلي كل حال.. تسعدنا دعوة قارئنا العزيز للاطلاع علي مؤلفنا «التصوير القرآني للمـجتمع» بمجلديه - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٥ ، ليتأكد من خلال التشابه ولا أقول التطابق.. بين ما تضمنته دعوة أخناتون للتوحيد وبين ما ورد فى القرآن الكريم.

عاشرا ـ خصائص الأسرة المصرية ودورها:

لعل **الأسرة** كانت من **أهم** الموضوعات التى **اهتم بها** الفكر الاجتماعى المصرى القـديم، فقد **تضمنت** الوصـايا والحكم والإنتـاج الأدبى بمختـلف فنونه **إشادة** بالأسرة وبدورها فى تحـقيق **الاستقرار** ودعم الحياة الاجتـماعية، علاوة على ما **أبرزته** من تقدير للمـرأة الأم والزوجة **ولدورها** الذى يـجب **أن يقدره** الرجل زوجـا كــان أو ابنا، وأبرز **الفكر** الاجتـماعى المصـرى القديم **خصائص** الأسرة **ودورها** فى النقاط الآتية:

* تتميز الأسرة **بالزواج** المبكر.
* كثرة الإنجاب مع **التبكير** فيه.
* الاعتراف **بدور** الزوج ومكانته فى الأسرة.
* احـترام المرأة وتقـدير دورها **والحث** على حسن معـاملتها ومنحهـا كافة حقوقها سواء عند **الزواج** أو عند الطلاق أو حتى **عند** الزواج بأخرى.
* إسناد مهمة **التنشئة** الاجتماعية إلى الأسرة.

وعلى كل يمكن الرجوع إلى **نصائح** حكيم الدولة الحديثة «آنى» **وإلى** قصة «الملاح الغريق أو التائه» لنتعـرف أكثر على مدى **اهتمام** المصريين القدماء بالأسرة وبدورها فى المجتمع[٣٢].

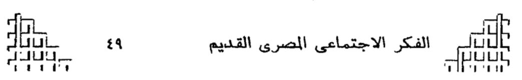
* * *

حادى عشر ـ أشكال الزواج فى مصر الفرعونية

عـرفت نظم الزواج فى مـصر الفـرعـونية عـدة **أشكال**، وارتبطـت هذه الأشكال بطريقـة ما **بالتطور** السياسى والاقـتصادى **للمجتمع** المصرى الـقديم، ففى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة **عرف** نظام **وحدانية** الزوج والزوجة[٣٣]، مع **تساوى** كل منهـما فى **الحقوق** والواجبـات، وكان النظام الأمى(*) **هو السـائد**، حتى ظهـر عـهد الإقطاع مـع الأسرة الخـامسـة فعـرفت الأسـرة المصـرية النظام الأبوى(**)، وما تـبعه مـن إقرار **حق** الرجل فى أن تكون له أكـثـر من زوجـة.. **صحيح** أن الرجـال من **عامة** الشعب كانوا يكتفـون بزوجة واحدة.. **لكن الأمراء**

(*) الذى ينتسب فيه الأبناء إلى الأم والأخوال.

(**) الذى ينتسب فيه الأبناء للأب والأعمام.



والأغنياء تعددت زوجاتهم ومحظياتهم، ونتج عن ذلك أن صارت المرأة غير مساوية للرجل فى الحقوق والواجبات مع انتشار ظاهرة الأبناء غير الشرعيين الذين كانوا ينتسبون إلى أمهاتهم.

* وكرد فعل لعبث الإقطاع عرف المجتمع المصرى القديم حوالى عام ٢١٦٠ قبل الميلاد نظاما اشتراكيا اعتبر الأب خلاله مسئولا أمام الدولة عن كل ما يخص عائلته وما يصدر عنها من تصرفات فيما عرف أيام الدولتين الوسطى والحديثة بنظام «الرودو» وبناء على ذلك النظام قنن الزواج وأصبح يتم فى المعبد، وخفت حدة ظاهرة تعدد الزوجات، وكان على الزوج أن يجعل لواحدة من زوجاته فقط الكلمة العليا فى المنزل باعتبارها ربة البيت، وقضى نظام «الرودو» على ظاهرة الأبناء غير الشرعيين من خلال اعتباره للسرارى والمحظيات أعضاء فى الأسرة.

* ولكن فى عام ١٠٩٤ قبل الميلاد، أعيد نظام التسرى إلى جانب تعدد الزوجات وأطلقت يد الرجل كسيد وحيد لأسرته يطلق ويتزوج دون راد أو رادع سوى أن تتم إجراءات الزواج بواسطة كاهن آمون وحده.

* ومع عام٦٦٣ قبل الميلاد أيام الأسرة الرابعة والعشرين عاد للمرأة الكثير من حقوقها، وتحرر الأبناء من سلطة الآباء، وما عادت للكهنة سلطة على إجراءات الزواج، حيث كان يكفى لقيام الزواج أن يتفق الزوجان وفقا لشروط معينة على قيام علاقة زوجية بينهما، وغالبا ما كانت هذه الشروط مدونة بمعرفة كاتب قانونى.

وعرف هذا النوع من الزواج، بالزواج المدنى الذى تطور فيما بعد وأصبحت المرأة بموجب عقد الزواج صاحبة حق فى فسخه حيث ورد فى أحد عقود الزواج القديمة نص يقول على لسان المرأة[٣٤]:

«إذا تركتك بصفتك زوجا لى بسبب كراهيتى لك، أو لأنى أحببت رجلا غيرك؛ فإنى سوف أعطيك مثقالين ونصف من الفضة وأرد لك المعيارين ونصف من الفضة التى أعطيتنى إياها كهدية عرس»[*].

* تقريبا نفس نظام «الخلع» الذى عرفه الإسلام، للاستزادة انظر:
دكتور صلاح الفوال ـ التصوير القرآنى للمجتمع ـ المجلد الأول ـ مصدر سابق ـ ٤٧٠ ـ ٤٧٨ ..

والنص ليس فى حاجة إلى تعليق.. **فالمرأة** كان من حقها تسريح زوجها إن **كرهت** معاشرته على أن ترد له المهر الذى قدمه مضافا إليه تعويض مناسب.

ولكن الحديث يجرنـا لنتعرف على **الوضعية** الاجتماعية **للمرأة** من واقع قوانين بوكخوريس(*) الإصلاحية.

* * *

ثانى عشر : الوضعية الاجتماعية للمرأة المصرية القديمة :

أكدت قوانين **«بوكخوريس»** على أن للمرأة **شخصيتها** المستقلة وأن لها كافة الحقوق **القانونية** التى تجعلها فى حالة مساواة **مطلقة** مع الرجل، بل وحصلت المرأة على ما هو **أكثر** من المساواة، حيث كان من حقها **تقييد** حرية الرجل الذى تربطه بها **علاقة** زواج.

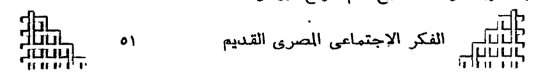
على كلٍّ يمـكننا أن **نتعرف** على مـلامح تلك الوضـعية من خلال الـنقاط الآتيـة:

- كان للـمرأة **حق** طلـب الطلاق إن اسـتشعرت ظـلما. . أو حـتى. . إن **أحبت** رجلا آخر وما عادت راغبة ى استمرار الزواج.
- كان لها أن **تتصرف** فى أموالها كيف تشاء ودون **الرجوع** إلى زوجها أو الوصى عليها.
- كان مـن حقـها أن **تشهد** على الـعقود وأن ترفـع بنفسـها **دعاوى** أمام القضاء للمطالبة بحقوقها.
- كان من **حقها** أن تضع **رهنا** عاما على **أموال** زوجها بغيـر إذنه وبغير ورود نص خاص بذلك **فى عقد** الزواج.
- كان مـن حقـها أن **تشترط** فى عـقد الزواج ألا يـتزوج زوجـها **بامرأة** غيرها، وإن فعل ذلك، دفع غرامة مالية كبيرة كتعويض لها.

(*) الملك بوكخوريس هو ملك الأسرة الرابعة والعشرين، وإنه برغم خـضوعه للآشوريين ودفعه الجزية لهم، كان مصلحا اجتـماعيا ومشرعا عظيمـا، أصدر القانون المسمى باسمه والذى كانت له تأثيرات اجـتماعية عظيمة على مختلف نواحى الحياة المجتمعية لاسيما ما تعلق منها بالإقطاع والرق ونظام الأسرة وما إليها. صـحيح أن هناك بعض المصـادر التى تـشكك فى تلك التشـريعات أو فـى نسبتهـا إلى الملك بوكخـوريس وخصوصا أن المصدر الوحيد لتلك التشريعات كان هو المؤرخين الإغريق. . للاستزادة انظر:

(أ) M. Malinine, choix de textes juridipues en hiératique "anormal' et en démotique, Paris, 1938, x VII, XX 1.

(ب) دكتور محمود السقا ـ تاريخ النظم ـ مرجع سابق ص ٢٦٨ .



- أصبحت المرأة كالرجل فى **الإرث**، كل منهما يرث على **قدم** المساواة.

ولا يقلل من **قيمة** فكر «بوكخوريس» الإصلاحى أنه كان مطبقا على الوجه البحرى فقط، أو أن العمل به قد **توقف** بمقتل بوكخوريس(٣٥).

* * *

ثالث عشر : الطلاق فى الأسرة المصرية القديمة :

الأسرة المصرية **القديمة** من أكثر الأسر **استقرارا** وتماسكا وتكافلا، فالروابط الأسرية **مقدسة** ويجب المحافظة عليها كما **أوضحت** ذلك كثير من وثائق المصريين القدماء وبردياتهم.

ولكن ليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا **الطلاق** فى تاريخهم الطويل، ولكنه لم يشكل ظاهرة، ولم تعبر عنه **بردياتهم** إلا بدءا من عهد الأسرة الواحدة والعشرين، وكان أول من كشف عن ظاهرة الطلاق تلك **عشر** برديات كتبت باللغة الديموطيقية فى **الفترة** ما بين ٥٤٤ - ١٠٠ قبل الميلاد، وسوف **نعتبر** تلك الحالات العشر الموجودة فى البرديات القديمة **محورا** لدراستنا حول الطلاق من مختلف صوره وجوانبه وذلك من **خلال** النقاط الآتية:

١ـ حق الطلاق:

هذا الحق ـ حق الطلاق ـ لم يكن حقا **مطلقا** فى أى **عصر** من عصور التاريخ المصرى القديم سواء أكان هذا الحق **بيد** الرجل فى **معظم** الأحيان أو فى **يد** المرأة فى بعض **الأحيان**، أو متروكا لإرادة كل منهما **الحرة** عندما عمت المساواة بين الرجل والمرأة وعلى النحو الذى شرحناه قبلا.

على كل كان **الطلاق** وخصوصا فى الفترة التى بدأ الزواج يتم فيها بعقد مكتوب.. الطلاق كان يتم وفقا **للشروط** الواردة فى وثيقة الزواج.. والتى تبين أن الطلاق.. **حق** من.. الرجل أو المرأة.. وإذا ما خالف أيهما **شروط** العقد فما هى العقوبات التى **توقع** عليه.. إلخ؟!.

٢ـ مقيدات الطلاق:

أوردت **برديات** غير قليلة أن الزوج كان **يتروى** فى إتمام الطلاق.. تارة **حرصا** على الروابط الأسرية خصوصا إذا ما كان هناك **أولاد**، وتارة أخرى تحسبا لتلك **الشروط** الواردة فى عقد الزواج والتى **تجعل** الزوج فى معظم الأحيان

يقف عاجزا أمام **الوفاء** بها ولا سيما ما تعلق منها بالتعويضات التى تحصل عليها زوجته المطلقة.

أما إذا كان **طالب** الطلاق هى الزوجة، **فثمن** حريتها غالٍ.. إذ عليها أن **تلتزم** برد **قيمة** المهر الذى حصلت عليه من زوجها **مضافا** إليه نصفه، علاوة على **حرمانها** من ثلث أموال الزوج التى كانت تخصص **لمواجهة** أعباء الحياة الأسرية.

٣ـ ميسرات الطلاق:

الطلاق يكون ميسورا بغير إثقال كاهل طالبه **بالتعويضات** إذا ما كان مرتكزا على **أسباب** موضوعية أو جدية حددتها **النصوص** المصرية القديمة كالآتى:

(أ) بالنسبة **للرجل.. أن** تكون هناك **عيوب** ظاهرة أو خفية بالمرأة تصبح الحياة الزوجية معها **مستحيلة**، كأن تكون المرأة غير قادرة على **الإنجاب**، أو أن ترتكب جريمة فى حق الزوج كإقدامها على ارتكاب **فاحشة** الزنا على سبيل المثال.

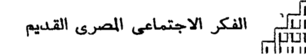
(ب) بالنسبة **للمرأة..** أن يكون الزوج **قاسيا** فى معاملته لزوجته، أو **استمرأ** عدم الوفاء بالتزاماته الزوجية، فضلا عن **إهماله** أو هجره لأسرته.

٤ـ كيف يتم الطلاق:

أوردت بعض الوثائق والبرديات أن الزوج كان **يتفوه** بألفاظ معينة كانت تعتبر ضرورية **لإتمام** الطلاق، كأن يقول لزوجته «لقد تركتك **كزوجة** منذ اليوم» أو أن يقول لها «اتخذى **لنفسك** زوجا آخر».

كان ذلك كلام **الزوج**، ولكن ما هو كلام **الزوجة** إذا ما كانت صاحبة الحق فى **الطلاق** «العصمة فى يدها» وأرادت أن تطلق زوجها؟!.

فقد أوردت نصوص الوثائق **قول** الزوجة لزوجها **المطلق** «إذا تركتك بصفتك زوجا لى..» **وإذا** هنا للدلالة على **استعداد** الزوجة لدفع التعويض المقرر، ثم يأتى القرار الحاسم للزوجة عندما تقول «إننى قد اتخذت منك زوجا، فإنه ابتداءً من اليوم وجب عليك أن تذهب وحدك».





لكن يبقى كلام **راغب** الطلاق زوجـا كان أو زوجة مجرد إجراء شـكلى، لكن الطلاق لا يـقع فعلا إلا **أمام** شهود وبموجـب وثيقة طلاق موقع علـيها من الجميع ـ الشهـود الأربعة والزوجين(*) ـ، وذلك ضمـانا **للوفاء** بكافة الالتزامات المترتبة على الطلاق[٣٥].

* * *

رابع عشر : النظام التربوي والتعليم فى مصر القديمة

عرف المصريون القدماء **المدارس** بمختلف **أنواعها** وأرسلوا أولادهم إلـيها وتكفلت المدرسة بعملية **التعليم** بينما تكفلت الأسرة بعملية **التنشئة** الاجتماعية.

وسنستعين فى هذا الشأن **بمثالين** للتوضيح: أولهمـا نصيحة الحكيم **«آنى»** لابنه، وثانيهما ما قاله **«بتاح محب»** عن عملية التنشئة الاجتماعية بالذات[٣٦]:

١ـ قال **الحكيم** «آنى» لابنه وهو يـوصيه خيرا **بأمه** ويذكره بما كانت تفعله معـه وهو **صغير**: إنهـا «كانـت **ترافقك** كل يـوم إلى المدرسـة لتـدرس وتتعـلم وتتهذب، ثـم تغدق على معـلمك خبزا وشرابـا من وفيرات(**) خير بيـتها»، ثم يواصل الحكـيم **«آنى» وصاياه** لابنـه الذى **كبر** وترعرع واتـخذ له بيـتا وزوجة، مطالبا إياه **بتذكر** أمه حيث يقول: «فتذكر أمك التى ولدتك **وأنشأتك** تنشئة صالحة».

٢ـ أما «بتـاح محب» فهو يـؤكد على أهـمية **التنشئة** الاجتماعية السليمة، ويحدد **دور** كل من الآباء والأبـناء خلال هذه **العملية**، فيقول: «إذا كنت رجلا عاقلا فليكن لـك ولد تقوم على تربيته، فإذا اقتدى بك ونـسج على منوالك، وإذا هو **نظم** شئونك ورعاها فاعمل له كل ما هـو طيب؛ لأنه ولدك وقطعة من نفسك وروحك، ولا تجعل قلبك جافيا».

وماذا يحدث لو كان الولد **عاقا** أو فاسدا أو طاغيا؟ **والجواب** عند الحكيم «بتاح محب» حيث يقول: «فإذا ركب رأسه ولم يـأبه بقواعد السلوك فطغى وبغى وتكلم بـالإفك والبهتان» فـالعلاج فى **رأى** الحكيـم «آنى».. أن: «تقوم بـضربه حتى يعتدل شأنه ويستقيم قوله».

(*) أوردت الكثير من البرديات أن عدد شهود الطلاق كان عادة أربعة شهود.

(**) كتبت «وفيرات» هكذا فـى النص الأصلى.. ونعتقد أن المقصود هو «وفورات».. أى المتـوافر مما فى بيتها من خير.

ولكن هل الضرب **وحده** هو الحل؟.. أبـدا، هناك **طريقة** أخرى هى «باعد بينه وبين رفقاء السوء حتى لا يفسد»، وصدق ذلك الحكيم المصرى القديم.. الذى **أكد** مرارا على ضرورة اتباع وصاياه ونصائحه فيما يتعلق **بعملية** التنشئة الاجتماعية حيث **قال**: «فإن من يسير على دليل لا يضل».

* * *

خامس عشر : مسئولية التعليم فى مصر القديمة:

وعودة إلى **نظام** التعليم ذاته نجد أن مصر الفـرعونية كانت سباقة فى الأخذ بنظام **تربوى** خاص لعبت خلاله **المؤسسات** التعليمية بمستوياتها المختلفة دورا مميزا فى تحقيق **أهداف** التربية والتنشئة الاجتماعية.

ولو حاولنـا تحديد **ملامح** تلك المؤسـسات التى كانت مـسئولة عن تعـليم وتربية الأجيال الجديدة فـى مصر الفرعونية و**نوعية** ما كانت تـقدمه من **معارف** لاتضح لنا ما يأتى(٣٧):

أولا ـ الأسرة المصرية:

قامـت الأسرة المـصريـة من خـلال **تماسكها** وشيـوع الحب بيـن أعضائـها وحرصها عـلى كل **القيم** والأعراف، فـضلا عن قـيام كـل من الزوج والـزوجة بأدواره على **خير** وجه، قامت الأسـرة من خلال ذلك كله بـتوفير المناخ الـصالح لعملية التنشئة الاجتماعية، والذى كانت **محصلته** ابنا بارا بأسرته(*).

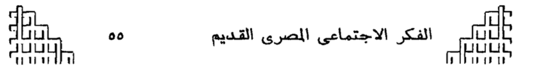
ثانيا ـ الدولة المصرية:

لم تكن الأسرة وحدها هى **المعنية** بمختلف عمليات التربية والتنشئة الاجتماعية، بل قامت **الدولة** المصرية القـديمة هى الأخرى بمهامها فى هـذا المجال على وجه نال **إعجاب** العالم القديم كله ونتج عنه **محبة** الشعب للعلم والتعليم، ويكفى أن المصريين الأقدميـن هم الوحيـدون من دون شعوب العالم القديـمة تقريبا الـذين اتخذوا للـعلم والمعرفة **إلها** أسموه «تحوتى»، **وللكتابة** ربة، بل وجعلوا لكـل واحد من آلهتهم **كاتبا** يقوم بخدمته وبتعليمه فى السماء وعرف هؤلاء باسم الكتبة المقدسون.

ويكفـى للتدليـل على **حرص** الـدولة المصريـة القديمـة على العـلم.. أنـها وضعت أكبر **حافز** للمتعلمين حيث(٣٨):

(أ) قصرت تولى **الوظائف** العامة والحكومية على المتعلمين دون غيرهم.

(*) دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٧١ ـ ٧٢ .



(ب) أعفت العمال والموظفين **الحكوميين** المتعلمين أعفتهم من الضرائب تقديرا لهم ولعلمهم، ويتضح أهمية ذلك الحافز لو علمنا أن **أداء** الضرائب وأعمال السخرة كان واجبا ملزما لم يعف منه حتى الكهان.

ثالثا ـ تعدد المؤسسات التعليمية والتثقيفية:

تعددت **مؤسسات** العلم والتعليم.. ومنها ما كان **يمارس** العملية التعليمية بشكل **مباشر** أو بشكل **غير** مباشر، فقد ثبت بعد قراءة الكثير من **كتب** التاريخ المصرى القديم **أنه كانت** هناك عدة **مستويات** من هذه المؤسسات **تقوم** كل واحدة **بدورها** المحدد فى العملية **التعليمية** سواء كان هذا الدور مباشرا أو غير مباشر، وذلك على النحو الآتى(٣٩):

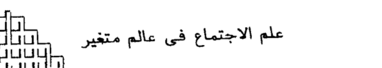
(أ) مؤسسات التعليم المدرسى:

وكان التعليم **خلالها** يتم فى أماكن خاصة **أشبه** ما تكون بمدارس الفصل الواحد المعروفة فى صحراوات **مصر** حاليا(٤٠). وكان التعليم فيها يسير وفق **برامج** محددة ترتبط **أولا** بالمرحلة السنية، **وثانيا** بالطبقة الاجتماعية المنتمى إليها الدارس وذلك على النحو الآتى:

١ـ تبدأ **أولى** مراحل التعليم من **سن** الرابعة حتى العاشرة، وكانت مسئولية التعليم فى هذه المرحلة مسئولية حكومية بالنسبة لأبناء **الطبقات** العليا، ومسئولية أسرية بالنسبة لأبناء **الشعب،** أما برامج التعليم فقد كانت **تدور** حول **تعلم** أصول اللغة والطقوس الكهنوتية علاوة على بعض **أصول** المخطوطات ولاسيما الدينية منها، وكان ذلك **ميزة** لأبناء الملك وأهل بيته وأبناء الوزراء وكبار الكهنة والكتاب وبعض القادرين من أبناء الشعب، أما أبناء **عامة** الشعب فقد كان عليهم أن يتعلموا بعض **المهارات** الحرفية علاوة على ما يعلمهم إياه **آباؤهم** من بعض الأمور الدينية والأخلاقية.

ولم تكن **المدرسة** أو الأسرة وحدها هى المسئولة عن عملية التعليم، فقد قام إلى **جوارهما** بعض المربين حيث كانت **تلجأ** إليهم بعض الأسر القادرة فتبعث لهم بأبنائهم **ليعيشوا** معهم بصفة **مستمرة** فترة تكفى لأن يأخذوا منهم بعض **الخبرات** فى القراءة والكتابة علاوة على مختلف **فنون** الحياة التى تتناسب وطبقة الدارس.





٢ـ أما المرحلة التعليمية **الثانية** فهى تبدأ من سن العاشرة حتى سن الخامسة عشرة، وبعد أن **يقضى** الدارس فى المرحلة الأولى ست سنوات كاملة تؤهله للالتحاق بالمرحلة التالية، **والتعليم** فى هذه المرحلة يكاد يكون قاصرا على أبناء **الطبقات** الراقية وحدهم، لأن برامج هذه المرحلة تعتمد على **نسخ** الكتب ليس بهدف النسخ وحده وإنما بقصد تنمية مهارة التلميذ وتعرفه على ما تضمه هذه الكتب من معارف ومعلومات من جهة، ولما تحتوى عليه من أساليب أدبية أو علمية من جهة أخرى، وبعد اطمئنان المدرس إلى **استيعاب** تلميذه يكلفه باستثمار ما حفظه وما وعاه ممن نقل عنهم فى **كتابة** موضوعات هى أقرب ما تكون إلى موضوعات الإنشاء اليوم التى يطلق فيها التلميذ العنان **لخيالاته** الخصبة، وغالبا ما كانت كل الموضوعات **موجهة** لتدعيم قيم ومثل **معينة** لدى التلاميذ والتى كان من أهمها بث روح **الولاء** للفرعون وأسرته.

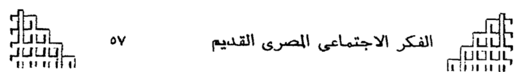
٣ـ أما المرحلة التعليمية **الثالثة**، فكانت أشبه بمرحلة التعليم **العالى** حاليا وكانت **قاصرة** على المعابد، وكانت لها **شهرة** واسعة. ولعل من أهم مؤسسات هذه المرحلة، **عين شمس** أو «أون»، وكانت تدرس بها العديد من **العلوم** كالفلك والطبيعة والرياضيات **والإلهيات**، وقد كان لها **شهرة** واسعة شدت إليها العديد من علماء العالم **القديم** أمثال أفلاطون وغيره وعلى النحو الذى **وضحناه** خلال **حديثنا** عن علمية المصرين القدماء.

ولم يكن **معبد** «أون» هو المعبد **الوحيد** الذى يقوم **بدور** الجامعة المعاصرة، لكن شاركه فى ذلك معابد عديدة مثل معبد **الكرنك** فى طيبة، ومعابد كثيرة فى تل العمارنة **وإدفو** وممفيس وغيرها.

والتعليم فى المرحلة العالية كان **منقسما** إلى نوعين.. تعليم دينى.. وهو قاصر على الكهنة حيث يكتسبون خلاله كل **المعارف** المتصلة باللاهوت فضلا عن ضرورة **دراسة** اللغات القديمة وقسط من علوم **الهندسة** والحساب والفلك علاوة على دراسة **أسرار** النفس البشرية.

أما التعليم **الدنيوى** فقد كان مباحا فيه للطالب أن يدرس الجغرافيا والفلك والنحت والرسم والموسيقا **والطب** والحساب والمقاييس والمكاييل علاوة على **الأخلاق** وبعض المبادئ المتضمنة للعقيدة الدينية.

هذا وكان التعليم الدنيوى **ينقسم** إلى نوعين، أحدهما مدنى وهو ما تحدثنا



عنه، وثانيهما عسكرى وكان قاصرا علـى من هم فى سلك الجندية خدمة للفرعون وأسرته بصفة خاصة ولنظام الحكم بصفة عامة، وكـانت الدراسة فى هذا الجانب العسكرى ليست قاصرة فقط عـلى المعلومات العسكرية النظرية بل لابد معـها من دراسة ميدانية لتطبـيق هذه المعلومات الـنظرية، علاوة على إكسـابهم مهارات رياضية تتيـح لهم أكبر قدر ممكن من اللـياقة البدنية المستمـرة، كل هذا إلى جانب تزويد هؤلاء العـسكريين ببـعض الأمور الثقافية الأخرى، عـلى أننا نـحب أن نوضح أن التـعليم العسكـرى لم يكن قاصرا على المـرحلة العلـيا إلا لمن أراد أن يمتهن العسكريـة فقط، لكن التثقيف العسـكرى كان متاحا حـتى للتلامـيذ فى المرحلتيـن السابقتين بدءا من زياراتـهم للثكنات العسكـرية وانتهاءً بتدريبهم على بعض الأسلحة وتزويدهم ببعض المعلومات حولها[٤١].

(ب) قصور الفراعنة:

كان بعض الفراعنة يتخذون من قصورهم مقرا لتعليم أبنائهم وأبناء المقربين إليهم، عـن طريق استدعاء عدد من الأساتذة فـى مختلف التخصصات لـتعليم هؤلاء الأبناء وتأديبهم فى نفس الوقت تجنبا لاختلاطهم ببقية أبناء الـشعب من جهة، وضمانا لسرعة تعليمهم وتأهيلهم حتى يكونوا فى خدمة الفرعون من جهة أخرى.

وكانت الـدراسة فى قصور الفـراعنة تستهدف إعداد جيـل من المخلصـين التابعين للفرعون للعمل فى خدمته سواء كحاشية فى البلاط أو كقواد للجيش أو للتعيين على رأس المصالح الحكومية أو كنواب للملك فى شتى أمور الحياة.

(جـ) دور الحياة:

عرف المجتمع المصرى القديم بعض مراكز التعليم والتثقيف الحكومية التى انتـشرت فى كبـريات المدن المـصريـة، وكـانـت هذه الـدور تقوم عن طـريق متخصصيها بحل العديد من المـشكلات التعليميـة والتثقيفية، وكـان من أبرز مهام تلك الدور توفير الكتب لمختلف الدارسين فى مختلف التخصصات، كما قدمت العديد من المعلومات(*) والمعارف العامة لمن كان ينشد علما غير أكاديمى، كل ذلك فضلا عن شهرة معلمـيها وبراعتهم فى فنون السحر وأساليـبه مع ما كان للسحر من أثر فى النفوس آنذاك.

---

* كان هذا الدور أشبه ما يكون بالمهام التى تقوم بها مراكز المعلومات حاليا.

(د) مراكز البحوث:

إلى جانب كل **أنماط** التعليم المشار إليها كانت **توجد** عدة مراكز بحثية، والتى كانت تشبه فى **مهامها** مراكز البحوث العلمية فى العصر الحديث، فقد كانت تلك المراكز ملتقى لكل **الباحثين** المتطلعين لمعرفة **أسرار** الحضارة والعقيدة المصرية القديمة.

وكان من **أشهر** تلك المراكز «**أونو**» بالقرب من هليوبوليس التى كانت لها شهرتها على امتداد **العالم** القديم كله، وخصوصا فى **مجالات** الفلك والفلسفة والدين **والطب** وما إليها.

ومن **أشهر** تلك المراكز أيضا «**أبيدوس**» و «**منف**» وقد كان لكل منهما **اتجاهاته** الفكرية والمذهبية والعقائدية المعروفة على مر **التاريخ** المصرى القديم.

ولقد كانت هذه المراكز كلها **مزودة** بمكتبات ضخمة تضم كل واحدة منها العديد من المخطوطات **القيمة** فى مختلف فنون العلم ومجالاته(*).

(هـ) دور الكتب والوثائق:

عرف المجتمع المصرى القديم **دور** الكتب، ولم تكن هذه الدور مجرد أماكن لحفظ الكتب أو الوثائق المصرية القديمة، وإنما كانت أيضا **ملتقى** لكل طالب معرفة، ولكل **باحث** فى موضوع ما.

وكان لهذه الدور متخصصوها الذين يعنون **بحفظ** الكتب والوثائق وتسهيل مهمة الرجوع أو **الاطلاع** عليها.

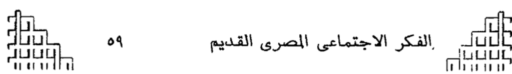
رابعا ـ مناهج التعليم وبرامجه:

سبق أن قلنا أن برامج التعليم ومناهجه كانت **تتدرج** وتتنوع على حسب المرحلة السنية التى **يحياها** الطالب من جهة، وبحسب **الطبقة** المنتمى إليها من جهة أخرى، ونحن سنلقى الضوء بصفة عامة على العملية التعليمية **ذاتها** حيث كان التعليم(٤٢):

(أ) يبدأ بتعليم **الحروف** الهجائية حتى يتمكن التلميذ من **تعلم** القراءة والكتابة بالتدريج من **البسيط** إلى المعقد.

(ب) ثم يبدأ التلميذ بعد اطمئنان معلميه على **حسن** كتابته وقراءته فى تعلم

(*) دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مصدر سابق ـ ص ص ٧٣ ـ ٧٥ .



بعض قواعد **النحو** والبلاغة والأدب والرياضة والفلسفة، مع **مطالبته** بكتابة بعض موضوعات **الإنشاء** التى كانت غالبا ما تدور **حول** الفرعون والأساطير والبطولات العسكرية وما إليها من **القصص** التى تشحذ خيال التلميذ وتقويه.

(جـ) أما التعليم **الجامعى** فقد كانت المناهج والبرامج فيه **تصمم** وفق المهمة التى **يعد** لها الدارس أو حسب **طبيعة** الدراسة ذاتها، كهنوتية أو مدنية.. إلخ(*).

هذا وتوجد العديد من **البرديات** التى تدل على أن التعليم **كان** فى بعض مراحله مختلطا يضم البنين والبنات **معا** وخصوصا فى أيام البطالمة، وقد يكون الاختلاط **راجعا** ـ فى رأينا ـ إلى أن التعليم كان آنذاك قاصرا على أبناء **الصفوة** الحاكمة وكان يمارس **داخل** قصور الفراعنة والحكام، فقد ورد فى بردية تعود إلى القرن الثانى الميلادى أن تلميذا **التمس** من معلمه أن يسأل له الوحى حتى يمده بما يحتاج إليه فى دراسته **وخصوصا** أنه ينشد كتابا يصلح لأن يقرأ منه لزميلته أو حبيبته «هرا يدوسى» التى كانت ابنة لأحد **حكام** الأقاليم.

والخلاصة.. أن التعليم والتربية فى مصر القديمة كانت **مهمة** الدولة فى بعض الأحيان، ومهمة الشعب فى كل الأحيان. وأن برامج التعليم ومناهجه كانت ترتبط أصلا بطبيعة المعرفة والثقافة التى يسعى إليها الدارس حسب مستواه الاجتماعى أو حسب الطبقة والمرحلة **العمرية** التى ينتمى إليها.

كما **تميزت** مصر القديمة بتنوع معاهدها وخصوصا **جامعاتها** التى نالت شهرة عظيمة كعين شمس والإسكندرية(**).

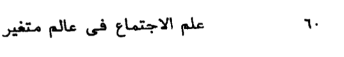
وبعد:

إن التاريخ المصرى القديم مازال فى حاجة ماسة إلى **قراءة** سوسيولوجية تلقى المزيد من الضوء على ما حواه من فكر اجتماعى ناضج وفاهم، ساهم ولا شك فى دراسة **وتفسير الواقع** الاجتماعى المصرى وفى حسن التعبير عنه، فضلا عما لعبه الفكر الاجتماعى الفرعونى القديم من دور تأثيرى هام فى تطور وتقدم الفكر الإنسانى العالمى وخاصة فى الجانب الاجتماعى منه.

* * *

(*) نهدى هذه الفقرة للمتخصصين فى إعداد البرامج التعليمية فى كل ربوع العالم العربى.

(**) المصدر السابق ـ ص ص ٧٦ ـ ٧٧ .



المصادر

١ـ الدكتور عبد الحليم منتصر ـ تاريخ العلم ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ ـ ص ص ٢٤ ـ ٢٧، وانظر كذلك:

دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ١٨.

٢ـ الدكتور صلاح قنصوه ـ فلسفة العلم ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٨١ ـ ص ص ١٠٤ ـ ١٠٦، وانظر كذلك دكتور صلاح الفوال سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ١٣.

٣ـ دكتور صلاح الفوال سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ المرجع السابق ـ ص١٩.

٤ـ الدكتور عبد الحليم منتصر ـ مرجع سابق ـ ص ٢٥.

٥ـ دكتور صلاح الفوال ـ مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية ـ مكتبة غريب ـ القاهرة ـ ١٩٨٣.

٦ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٠ ـ ١٢.

٧ـ للاستزادة انظر:

Aymard André et J. Auboyer: L'orient et la Grece antique. T.I. Paris, Liver Premier, 1957, p,p, 51 - 53.

٨ـ للاستزادة انظر:

Gorge sarton, The history of Science and the new hmenism, Brown Univerisity, New York, 1956.

٩ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ٢١.

١٠ـ المرجع السابق ـ ص ص ٢٢ ـ ٢٣.

١١ـ للاستزادة حول جامعة الإسكندرية ومكتبتها وعلمائها وفترات ازدهارها ثم كيف تم تدميرها.. انظر:

الدكتور عبد الحليم منتصر ـ تاريخ العلم ـ مرجع سابق ص ص ٣٦ ـ ٥٠.

١٢ـ الدكتور عبد الحليم منتصر ـ المرجع السابق ـ ص ٤٩ .

١٣ـ Sottas, Etude critique sur un acte de vente immobliere des pyramides. Paris. 1913 p. 8.

١٤ـ دكتور محمود السقا ـ تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ ـ ص ص ١٩٤ ـ ١٩٨ .

١٥ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص٣٩ .

١٦ـ المرجع السابق ـ ص ص ٣٩ ـ ٤٠ .

١٧ـ A, Aymard: L,orient et La Grece Antique, op. cit pp. 26-28, 53-56.

١٨ـ انظر فى ألقاب الكهان:

دكتور محمود السقا ـ مرجع سابق ـ ص ٢٠٦، وانظر أيضا:

فى Joujet, Histoire du droit public de L'Egypte ancianne

مجلة القانون والاقتصاد ـ القاهرة ـ ١٩٤٣ ـ ص ١٨٩ .

١٩ـ A. Aymard, op. cit. p. 57.

٢٠ـ آيمارد ـ المرجع السابق ـ ص ص ٥٧ ـ ٥٨ .

٢١ـ للاستزادة انظر:

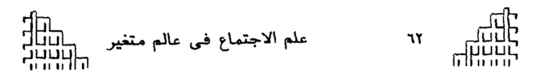
دكتور محمود السقا ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

٢٢ـ Monter. La Vie quotidience en Egypte au temps des Rames, Paris, 1948 p. 67.

٢٣ـ Maspero, Historie ancienne des peuples de L'orient, p.p. 43-45.

٢٤ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٥ ـ ٤٨ .

٢٥ـ A. Aymard. op. cit, p.p. 55-



٢٦ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٥ .

٢٧ـ المرجع السابق ـ ص ص ٤٥ ـ ٥٥ .

٢٨ـ المصدر السابق ـ ص ٥٥ .

٢٩ـ المصدر السابق ـ ص ٥٦ .

٣٠ـ المصدر السابق ـ ص ٥٧ ـ ٥٨ .

٣١ـ المصدر السابق ـ ص ٥٩ .

٣٢ـ المصدر السابق ـ ص ٦٤ ـ ٦٥ .

٣٣ـ انظر كتابنا علم الاجتماع البدوى ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٧٤ ـ ص ص ٢٣٠ ـ ٢٤٦ لتأخذ فكرة أوضح عن موضوع الزواج وأشكاله.

٣٤ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٧٣ ـ ٧٤ .

٣٥ـ مصطفى الأمير فى دكتور محمود السقا ـ تاريخ النظم ـ مرجع سابق ـ ص٢٣٢ .

٣٦ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٦٩ ـ ٧٠ .

٣٧ـ انظر المرجع السابق ـ ص ص ٧١ـ٧٢ .

٣٨ـ المرجع السابق ـ ص ٧١ .

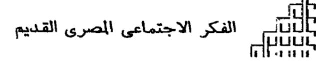
٣٩ـ نفس المرجع السابق ـ ص ٧٢ .

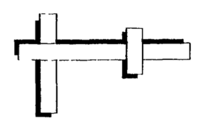
٤٠ـ انظر كتابنا تنمية المجتمعات الصحراوية ـ تطبيقات ميدانية ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ ـ ص ص ٧٨ ـ ٧٩ .

٤١ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٧٣ ـ ٧٤ .

٤٢ـ المرجع السابق ـ ص ص ٧٦ ـ ٧٧ .

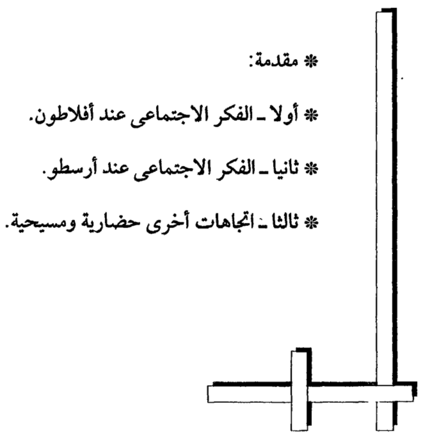
* * *



الفصل الثانى

التفكير الاجتماعى اليونانى القديم



* مقدمة:

* أولا ـ الفكر الاجتماعى عند أفلاطون.

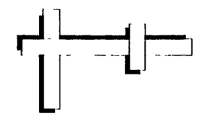
* ثانيا ـ الفكر الاجتماعى عند أرسطو.

* ثالثا ـ اتجاهات أخرى حضارية ومسيحية.

مقدمة:

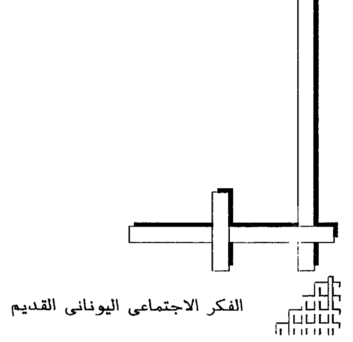
ارتبط الفكر الاجتماعى اليونانى القديم **بشكل** أو بآخر بكل من أفلاطون، وأرسطو، إلا أن كلا منهما لم **يرتد** مجال الفكر السوسيولوجى من فراغ، وإنما **مهدت** له الطريق أعمال خالدة للعديد من المفكرين اليونانيين سواء **كانوا** شعراء أو فلاسفة أو رجال سياسة أو قانون.

وعلى كل حال نحن **سنتناول** خلال هذا الفصل **الفكر** الاجتماعي لكل من أفلاطون وأرسطو. ثم **نعرج** بعد ذلك لإلقاء بعض الضوء علي بعض الاتجاهات الأخرى الحضارية والمسيحية التي أثرت مسيرة الفكر **الاجتماعى** عبر التاريخ.



أولا الفكر الاجتماعى عند أفلاطون

* مقدمة:
* كيفية تطور المجتمعات الإنسانية.
* الإنسان والمجتمع فى رأى أفلاطون.
* التنشئة الاجتماعية لدى أفلاطون
* خضوع أفلاطون لآراء منتقديه.





مقدمة:

احتل أفلاطون **مكانة** مبـرزة بين مفكرى العالم ـ ويعـد من القلائل الذين مازالت **بصماتهم** فى مخـتلف مجـالات المعرفة باقـية حتـى اليوم . . ومن أهم خصائص إسهـامات أفلاطون الفكرية أنها تكاد تكون **إسهامات** بكرا غير مسبوقة ولا مُقلَّدة وخصوصا من حيث **انتظام** تلك الإسهامات ضمن وحدة فكرية يميزها أسلوب ومنهج واضح.

هذا وقـد ترك أفـلاطون مـؤلفـات **ثلاثة** هى بحـسب سـياقـهـا الزمنى : الجمهورية، والسياسة، ثم القوانين، وخصص **أفلاطون** كتبه الثلاثة للبحث حول الحياة **المجتمعية**، إلا أن كتـاب الجمهـورية يعتبر فى رأى الـكثير من العلماء أخـصب ما كتب أفلاطون من حيث **مادته** السوسيولوجية، يليه فى ذلك كتابه القوانين(*).

المهم يمكننا أن نوجز أهم إسهامات أفلاطون السوسيولوجية فى النقاط الآتية[1]:

* كيفية تطور المجتمعات الإنسانية.
* الإنسان والمجتمع فى رأى أفلاطون.
* التنشئة الاجتماعية لدى أفلاطون.
* خضوع أفلاطون لآراء منتقديه.

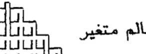
* * *

كيفية تطور المجتمعات الإنسانية:

يعـتبر أفـلاطون أول من **شرح** تطور الحـياة البـشرية على أسـاس **منهجى** وعقلى عندمـا صور **نشأة** المجتـمعـات الإنسانية عـلى أنها **ضرورة** طبيعيـة يجبر خلالهـا الإنسان على التـجمع **فى تضامن** وتكامل وتعـاون، وذلك حـتى يمكن إشباع حاجاته الضرورية.

هذا وقـد **أطلق** أفـلاطون عـلى أول مـرحلة من مـراحل ذلك **التجمع** الإنسانى اسم «**المرحلة البدائية**» التى كان التجـمع الرعوى هو أول مظاهرها، وتميزت المجتمعات الإنسانية خلالها بقلـة العدد واعتمادها على الحيوان، كما تميزت **بانتظام** الناس فى أسـر **صغيرة** منعزلة تحكمها العـادات والتقـاليد **والعرف**، وكانت الرئاسة فيها للأب[2].

(*) عاش أفلاطون فى الفترة من ٤٢٨ ـ ٣٤٧ قبل الميلاد.



وقد تلت **«مرحلة الزراعة»** المرحلة البدائية، وتميـزت بتكاثر عدد السكان مع النمو النسبى لحجم **الأسرة**،فـضلا عن ظهور تباشير نوع من **التنظيم** السياسى المرتكز على حكم **الأرستقراطية** أو الملكية المطلقة[٣].

ثم ما لـبث التنظيـم الاجتماعى والسـياسى أن **اكتمل** مع بـداية **«مرحلة الحياة الاجتماعـية المدنية»** لأن مجـتمع المـدينة الـيونـانية الـقديمـة فى رأى أفلاطون كان هو المجتمع **السياسى** الكامل[٤]. .

* * *

الإنسان والمجتمع فى رأى أفلاطون:

يرى أفلاطون أن الإنـسان ماهو إلا **نسيج** عنصرين أساسيـين أولهما مادى وهو **الجسم**، وثانيهما إلهى وهو **النفس**، والنفس عند أفـلاطون أهم من الجسم نظرا لخلـودها، كما قسم أفلاطون الـنفس إلى **ثلاثة** أقسام رئـيسية هى : الـعقل فالروح والشهوة ،وجـعل السيطرة **للعقل** الذى يـوجد فى رأس الجـسم **ويوجه** الروح المتـمركزة فى الصدر، أمـا الشهوة فتوجـد فى البطن وهى ـ أى الـشهوة ـ **جامحة** غير مستقرة بطبيعتها.

وتكون النفس **خيّرة** وصالحة فـى رأى أفلاطون إذا ما اسـتطاع **العقل** أن يحكم سيطرته على كل من الروح والشهوة[٥].

وترجم أفـلاطون فلسـفته تلـك إلى واقع **مثالى** خلال كتابه «الجـمهورية» عندما قسم المجتمع إلى ثلاث **طبقات** وضح خلالها تأثره الشديد بالأجزاء الرئيسية الثلاثة للـنفس البشرية وهى العقـل والروح والشهوة، فنجده مثـلا قد وضع على قمة التنظيم فى مدينته **الفاضلة** أو النموذجية، وضع **الفلاسفة** وجعلهم حكاما مهيمنين علـى كل شئون الجمهورية وموجهين لها، أى جعلـهم عقل **ذلك** المجتمع مع الأخذ فى الاعتبار أن أفلاطون وضع **مواصفات** للفيلسوف تجعله عملة نادرة فى أى مجتمع عندما **عرف** الفيلسوف بقوله «إنه كل شخص وصل إلى درجة عليا من المعرفة والثقافة».

ووضع أفلاطون بعد طبقة الفلاسفة والحكام طبقة **المحاربين**، وهم القلب الساهر على حماية مصالح الجمهورية ورعايتها، ثم جعل أفلاطـن طبقة الزراع والتجار فى قاع جمهوريته لأنهم بمثابة الشهوة التى تتنازعها رغبات وأنواء مختلفة[٦].

وحمَّل أفلاطـون العقل ـ أى طبقـة الفلاسفة أو الحـكام ـ مسئوليـة إحكام **السيطرة** على بقية الطبقات لإيجاد نوع من التعاون فيما بينها وفقا لتصورات غائية مختلفة، كما دعا إلى **تحريم** الزواج **وإباحة** الاتصال الجنسى **بين** الرجال والنساء بغير تحديد امرأة ما لرجل معين بهدف إضاعة **النسب** فلا يبقى أمام المواطنين خيار غير الدولة **فتكون** لهم أما وأبا ويتفانون فى خدمتها بالضرورة(*).

كما طالب أفـلاطون كذلك **بالإكثار** من النســل وتحريم **الملكية** الخاصة، ووجه اهتماما خاصا لطبقتى الحكام والمحاربين (٧).

* * *

التنشئة الاجتماعية فى رأى أفلاطون:

كان من رأى أفلاطون أن **نظم** التربية والتنشئة الاجتماعية السائدة فى عصره لابد أن **تستبدل** حتى يمكن أن تقوم جمهوريته الفاضلة على أسس قويمة، ورأى أن السبيل إلى ذلك يتمـثل فى مجموعة من **الأسس** والقواعد التى وضعها لتسير وفقا لها عمـلية التنشئة الاجتماعيـة للصغار لأنهم فى رأى أفلاطون عجـينة يمكن تشكيلها منذ البداية لنستخرج منهم المواطنين الصالحين القادرين على تحقيق وحماية المدينة الفاضلة.

* ويمكن تلخيص **منهج** أفلاطون فى هذا الشأن على النحو الآتى:

أ ـ تصنيف **الصغار** ـ إناثا وذكورا على حد سواء ـ إلى مجموعات، ثم تمييز أصحاب الـقوة الجسدية منـهم، وتعهدهم بـرعاية **خاصة** للمحافظـة على قوتهم الجسمية مع **تزويدهم** بقسط من الفنون والآداب، مع الـعمل على **أن** تغرس فى نفوس الأطـفال الصغـار مجموعـة من **الفضائل** من خـلال توجيه الـنصح لـهم وإرشادهم كلما **دعت** الضرورة لذلك(٨).

ونبـه أفلاطـون إلى **أهمية** الدور الـذى يلعبـه **الإيمان** بالعقائـد الدينية، واعتبار ذلك الدور أساسيا خلال مختلف مراحل **عملية** التنشئة الاجتماعية.

ب ـ وبعد **بلوغ** الصغار سن الثامنة عشرة، يـنقطعون عن الدرس ويتجهون إلى **مزاولة** تمرينات عـسكرية لمدة عامين، وبـعدها تتاح للمـمتازين **منهم** فرصة العودة إلى **الدرس** من جديد لـكن فى **مواد** أخرى غير الآداب والفنـون كالفلك

(*) هكذا يرى أفلاطون.

والحساب والهندسة علاوة على الموسيقى ، لأن هذه العلوم **الأربعة** فى رأى أفلاطون **هى** التى تثير فى الصغار **حب** الفلسفة والحكمة والمعرفة(٩).

جـ - وعند سن الثلاثين، **يصطفى** أصحاب الاستعداد الفلسفى ليتفرغوا لتعلم **فنون** الفلسفة والبحث فى حقائق الأمور، **ويبقون** على هذه الحالة حتى سن الخامسة والثلاثين، وبعدها **ينزلون** إلى معترك الحياة العامة ليزاولوا مختلف الوظائف **الإدارية** والحربية.

د - يوضع هؤلاء الموظفون الإداريون والحربيون تحت **المراقبة** حتى سن الخمسين، والممتازون منهم يرقون إلى **مصاف** الحكام، ويعهد إليهم بمقاليد الحكم، وذلك لبلوغهم مرتبة عالية من الحكمة والفلسفة(١٠).

هـ - أما عن مصير من **تخلفوا** ولم تمكنهم **قدراتهم** من مواصلة مختلف مراحل **الدراسة** المشار إليها قبلا، فهم فى رأى أفلاطون **لايصلحون** إلا لأن يكونوا جنودا.

ويرى أفلاطون أنه على **المجتمع** كله أن يهيئ المناخ الصالح لعملية التنشئة الاجتماعية تلك، وذلك عن طريق ضمان **تهيئة** مختلف سبل الحياة للدارسين حتى **يتفرغوا** لدراستهم بغير عوائق(١١).

* * *

خضوع أفلاطون لآراء منتقديه :

هذا وقد **تعرضت** أفكار أفلاطون وكثير من تلامذته ومعاصريه للعديد من النقد، حيث اعتمد أفلاطون على **قاعدة** «الغاية تبرر الوسيلة»، وتبنى منهجا **شيوعيا** قضى على الملكية الفردية ليس بالنسبة للأموال.. فقط.. وإنما بالنسبة للنساء **والأولاد** أيضا.. كما اتهم أفلاطون كذلك بتجاهله لضرورة **إشباع** الحاجات التى تعتبر من أهم **الدوافع** الإنسانية التى يؤدى عدم إشباعها إلى هدم المجتمع.. أى مجتمع؟!

ولم **يكابر** أفلاطون ويتحدى موجات النقد الموجهة إليه **فعاد** خلال كتابه «القوانين» الذى ألفه فى أواخر أيامه.. وعدل الكثير من أفكاره.. وتبنى نظام الأسرة ودافع عنه وحارب الفصل بين الزوجين، سواء بسبب الطلاق أو بغيره باعتبار ذلك هو الضمان الأكيد للاستقرار الأسرى ومن ثم لاستقرار المجتمع.

والأكثر من هذا أن أفلاطون أكد على **احترام** السنن الاجتماعية باعتبارها مصدرا لكل التشريعات الوضعية(١٢).





المصادر

١ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة، دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢.

١ ـ دكتور أحمد الخشاب ، دكتور محمد طلعت عيسى ـ علم الاجتماع ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٣. . وانظر أيضا دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق.

٣ ـ دكتور عبد العزيز عزت ـ فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ـ القاهرة ـ ١٩٥١. وانظر كذلك المرجع السابق.

٤ ـ دكتور مصطفى الخشاب ـ علم الاجتماع ومدارسه ـ الكتاب الأول ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٦.

٥ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع البدوى ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٦.

٦ ـ الدكتور عبد الحليم منتصر ـ تاريخ العلم ـ دارالمعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ وانظر أيضا ـ المرجع السابق.

٧ـ الدكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ ديوان المطبوعات الجزائرية ـ الجزائر ـ ١٩٩١.

٨ ـ Qu'est ce que la Propriété : c'est Le vo 1.

فى دكتور مصطفى الخشاب ـ علم الاجتماع ومدارسه ـ مرجع سابق ـ ص٤٢.

٩ ـ Compayyre ` Histaire des Doctrines de l'Education

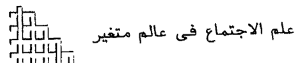
١٠ ـ Fénélon Les Aventures de Télémegaue.

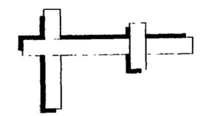
١١ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق.

١٢ ـ دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

* * *







ثانيا : الفكر الاجتماعى عند أرسطو :

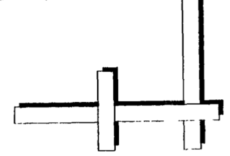
* مقدمة.

* إسهامات أرسطو السوسيولوجية

- الإنسان مدنى بالطبع
- الأسرة ـ مملكة الرجل والمرأة معا

* **العلاقات الطيبة بين الأسر ضرورية لنشأة مجتمعات الجيرة، والقرية، والمدينة.**

- كيف تتكاتف مختلف العوامل البيئية والاجتماعية والاقتصادية فى تحقيق الكمال لمجتمع المدينة.
- ما هي عوامل الهدم والتصدع التى تقضى على كمال المدينة ؟!.
- أشكال الحكومات ومنهجها فى الحكم وتأثيرات ذلك على بقاء أو فناء المدينة.
- مبدأ التغيير عند أرسطو.



مقدمة :

تلميذ أفلاطون **النابغة** الذى دانت شهرته شهرة أستاذه، وصارا معا **علامتين** مبرزتين علي طريق الفكر الإنسانى، هذا التلميذ **الفذ** كانت له العديد من الإسهامات والآراء والنظريات فى **مختلف** نواحي الحياة المجتمعية، ومنها ما تعلق بالأسرة، والتربية، والرق، وأسباب قيام الثورات، ودعائم **الحكومة** الرشيدة، وذلك كله تمهيدا لقيام مجتمع فاضل على نهج مدينة أفلاطون الفاضلة.

والملاحظ أن أرسطو قد **بذ** أستاذه فيما قدمه من **إسهامات** سوسيولوجية حيث ارتكز علي منهج يخالف منهج أفلاطون **العقلي**، وانتهج منهجا **تاريخيا** يتميز بالوصف والمقارنة والتحليل بهدف الكشف عن النقائص **والعيوب**، وذلك وفقا لمعايير **وأسس** وأغراض نبيلة وسوية كانت توجه بحوثه النظرية كلها*.

* * *

إسهامات أرسطو السوسيولوجية :

وعلي كلٌ يمكننا أن **نلخص** أهم إسهامات أرسطو فى **الفكر** السوسيولوجى علي النحو الآتى[1] :

١ - يري **أرسطو** أن الإنسان «مدني بالطبع» أو أن الإنسان «حيوان سياسى» وذلك **معناه** أن الإنسان لا يمكن أن **يحيا** إلا فى مجتمع.

٢ - من **رأى** أرسطو أنه لا يمكن للحياة الاجتماعية أن **تتحقق** أو تستقيم إلا من خلال الأسرة التى تعتبر فى رأيه **الخلية** الطبيعية الاجتماعية **الأولى** للمجتمع والتى **تهيئ** سبل التنشئة الاجتماعية للأفراد، فضلا عن أنها تمد المجتمع بمقومات وجوده[2].

---

* عاش أرسطو فى الفترة من ٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد واشتهر باسم معلم الإنسانية الأول.

٣ ـ الأسرة عند أرسطو هي «مملكة» صغيرة **يحكمها** الرجل وتنعم فيها المرأة بحق **المشاركة** في تسيير دفة الأمور فيها، كما «يشكل» العبيد جزءا هاما منها[٣].

٤ ـ ما تلبث **الأسرة** من خلال الصداقة الممتدة بينها وبين غيرها من العائلات أن **تؤلف** مع غيرها من الأسر مجموعة من **الخلايا** الاجتماعية للمجتمعات المحلية، ما تلبث **القرابة** أن تظهر كوحدة اجتماعية متماسكة، ثم تسير الحياة الاجتماعية بصورتها الطبيعية حتى ينشأ مجتمع **المدينة** التى تعتبر فى رأى أرسطو مجتمعا تاما يقوم بتحقيق جميع أغراض الحياة الضروري منها والكمالي[٤].

٥ ـ أما عن كيفية **تحقيق** ذلك الكمال لمجتمع المدينة، **فيري** أرسطو أن ذلك رهن بالعديد من **العوامل** البيئية والاجتماعية والديموجرافية.

فالمدينة لابد أن تكون **ممتدة** المساحة لأن ذلك يساعد علي **إشباع** حاجات سكانها بغير **إسراف** أو بذخ، كما أنها يجب أن تكون في **مكان** حصين يجعلها بعيدة عن متناول الأعداء، أما من الناحية الاجتماعية **فيجب** أن تقوم المدينة علي أساس تحقيق السعادة لمواطنيها من خلال **تقسيم** متكامل للعمل بين مختلف الفئات المكونة لمجتمع المدينة[٥].

٦ ـ ولم **تقتصر** دراسة أرسطو علي أسباب **كمال** المدينة أو تمام الدولة، وإنما امتدت لتشمل عوامل هدم وفناء المدينة أو الدولة، حيث **أرجع** أرسطو ذلك إلي مجموعة من العوامل، منها العامل **البيئي** كالموقع الجغرافي الذي لا يساعد علي تحقيق الوحدة أو **الاندماج** بين مختلف الأجزاء **المكونة** للدولة، ومنها كذلك **التصدع** الذي يصيب الهرم الطبقي نتيجة للنمو غير المتوازن لأي من **الطبقات** المكونة للبناء الاجتماعى للمدينة أو الدولة[٦].

٧ ـ حدد أرسطو خلال كتابه «السياسة» **ستة** أشكال للحكومات **يختلف** كل نموذج منها تبعا **لاختلاف** البيئة والزمان، وهو يري أن بعض تلك النماذج رديء وبعضها الآخر جيد، وكانت حكومة **الفرد** هي أول نموذج لتلك الحكومات، وهذا الفرد يحكم الأمة **استنادا** علي حكمته وعقله، وإذا ما فسد حكمه **نشأ** عنه النوع الثاني وهو الحكومة الاستبدادية، وهي كسابقتها تعتمد علي حكم الفرد ولكن بغير حكمة ولا عقل، وإنما تحكم بالقسوة أما النموذج **الثالث** فهو الحكومة الأرستقراطية وهي حكومة الأقلية الممتازة أو العاقلة، ولكن إذا ما فشل حكمها **نشأ** عنه النوع الرابع وهو الحكومة الإوليجاركية، وتتميز بحكم

الأقلية **القوية** أو الغنية، أما النموذج **الخامس** فهو حكومة **الشعب**، وهي حكومة الأغلبية، لكنها **أغلبية** فقيرة قليلة الكفاءة والحيلة، ثم لا تلبث أن تكون نهبا **لثورة** عارمة يتزعمها رجل واحد، لتبدأ **الدورة** من جديد(٧).. حكومة الفرد، الحكومة الاستبدادية، الحكومة الأرستقراطية، الحكومة الأوليجاركية، حكومة الشعب، ثم الحكومة الثورية.. وهكذا دواليك..(٨).

٨ ـ يري أرسطو أن **الطبيعة** تنهض علي مبدأ «التغير» وحدد أرسطو أشكال ذلك التغير **وهدفه** عندما قرر أن التغير قد يكون بطيئا وتدريجيا، لكنه **دائما** يكون مستمرا وموجها نحو **تحقيق** هدف معين ومحدد(٩).

ويتضح من استعراضنا السريع **لفكر** أرسطو أنه كان أكثر **واقعية** من أستاذه وأقل إفراطا في **الخيال**، فاعتمد علي **التجربة** سواء وهو **يكتب** في الاجتماع أو وهو **يؤلف** عن الفلسفة ... ولعل واقعية أرسطو هي التي **دفعت** واحدا من تلاميذه **المبرزين** ـ الإسكندر الأكبر ـ لأن يحاول **تطبيقها** في الواقع .. واعتقد أنه نجح في ذلك إلي **حد** كبير(١٠).

هذا .. ولقد **ترك** أرسطو عدة نظريات لعل من **أهمها** نظريته في الرق ونظريته في **نشأة** وتطور المجتمعات .. ونظريته في **الثورة** .. ونظريته التي سار فيها علي **نهج** نظرية أفلاطون في المدينة **الفاضلة** .. وتعرف **هذه** النظرية باسم نظرية «المجتمع الفاضل» .. ولكن علي **أساس** وشروط مغايرة لتلك التي اعتنقها أفلاطون(١١) لكن أرسطو استغرق في **الخيال** وهو يضع تلك الشروط فأبعدها عن **الواقع** في كثير من الأحيان.

إذن.. كانت لأرسطو مجموعة من **الآراء** اعتبرها الكثيرون **نظريات**(*) وتمحورت آراء أرسطو الاجتماعية.. كما بينا سابقا.. حول نشأة المجتمع **السياسى** ومقومات الأسرة، والرق، والحكومة **وخاصة** الصالحة منها، والثورة، وشروط **قيام** المجتمع الفاضل(١٢).

---

* للاستزادة حول أرسطو وفكره الاجتماعي انظر :
١ ـ دكتور صلاح الفوال : سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق.
٢ ـ دكتور مصطفي الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه ـ الكتاب الأول ـ مرجع سابق.
٣ ـ دكتور صلاح الفوال : علم الاجتماع البدوي ـ مرجع سابق.
٤ ـ دكتور صلاح الفوال : النظريات في علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

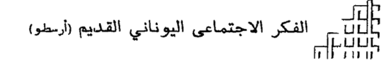


ومن خلال هذه الآراء.. عالج أرسطو كل شئون الاجتماع الإنساني.. بدءا اعتبار الاجتماع الإنساني ضرورة **والأسرة** هي أول خلية فيه.. لاتتحقق ياة **الإنسانية** بعيدا عنها.. وباجتماع الأسرة تنشأ القرية.. أو «المستعمرة لبيعية للأسرة».. علي حد تعبير أرسطو.. وباتحاد وتجمع عدة قري تنشأ المدينة الدولة.. التي يعتبرها **أرسطو** أكمل الوحدات الاجتماعية..!!

وعلي كل.. فقد كان لنا مع أرسطو حديث طويل ضمن **مؤلفنا** سوسيولوجيا الحضارات القديمة» ونحيل قارئنا العزيز إليه إن أراد **مزيدا** من طلاع[١٣].

وختاما فقد **حاول** أرسطو.. الذي بذ أستاذه أفلاطون وتفوق عليه.. أن **مسك** بأهداب **الواقعية** والبعد عن الخيال.. لكنه من خلال **حرصه** علي تلك واقعية.. وخاصة وهو **يضع** شروط «المجتمع الفاضل».. **استغرق في** الخيال وهو حدد تلك الشروط.. **فأبعدها** عن **الواقعية في** كثير من الأحيان..!![١٤].

* * *





المصادر

١ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٩٤ ـ ٩٥.

٢ ـ دكتور مصطفي الخشاب ـ علم الاجتماع ومدارسه ـ الكتاب الأول ـ مرجع سابق.

٣ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع البدوي ـ مصدر سابق.

٤ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٩١ ـ ٩٣.

٥ ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحات.

٦ ـ المرجع السابق ـ ص ٩٣.

٧ ـ Politque, Politique, Lbid. L.T. ch. 1. 43

٨ـ أرسطو ـ السياسة ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠.

٩ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق.

١٠ ـ دكتور صلاح الفوال علم الاجتماع ـ المفهوم والموضوع والمنهج ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٨٢.

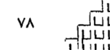
١١ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٩٦.

١٢ ـ دكتور مصطفي الخشاب ـ علم الاجتماع ومدارسه ـ مصدر سابق ـ ص ٥٧ وما بعدها.

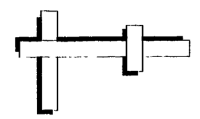
١٣ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مصدر سابق ـ ص ص ٩٥ ـ ٩٦.

١٤ ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة.









ثالثا ـ اتجاهات أخرى حضارية ومسيحية

* مقدمة
* اتجاهات وآراء أثرت علم الاجتماع
  - الحضارى
  - الدينى
  - الزمنى
* أعلام الفكر الاجتماعى المسيحى

مقدمة :

منذ بدأ علم الاجتماع **يتعرف** على هويته **ويحتل** مكانته كعلم وسط غيره من العلوم **الطبيعية** والإنسانية.. وكان ذلك فى أواخر **القرن** التاسع عشر.. منذ ذلك التاريخ.. وعلم الاجتماع **تتجاذبه** أو تتنازعه مجموعة من **الاتجاهات** والنزعات.. وأغلب هذه **النزعات** تنتمى.. إما لأصول **عرقية**.. كعلم الاجتماع **الفرنسى**.. والاجتماع **الألمانى**.. والاجتماع **الإنجليزى**.. والاجتماع **الروسى**.. والاجتماع **الأمريكى**.. وإما تنتمى إلى نزعات **ثقافية**.. أو تخصصية.. كعلم الاجتماع **التحليلى**.. وعلم الاجتماع **النفسى**.. وعلم الاجتماع **الفلسفى**.. إلى غير هذا وذاك من الاتجاهات..!![*]

* **اتجاهات وآراء أثرت علم الاجتماع.**

* **الاتجاهات الحضارية والدينية والزمنية في علم الاجتماع.**

* **أعلام الفكر الاجتماعى المسيحى.**

وعلى كل.. **نحن** سنحاول إلقاء الضوء على كل تلك **الاتجاهات** المعاصرة من خلال الباب الرابع بفصوله الأربعة، حيث ستتعرض لأهم الإسهامات فى هذا المجال، مع **مراعاة** أن هناك اتجاهات كثيرة، وأهمها تلك التى **تتناول** علم الاجتماع على أساس[1]:

١- **حضارى**.. ومنها **الإسهامات** الاجتماعية التى نمت فى أحضان الحضارات **القديمة** والعظيمة.. كالفرعونية، والإغريقية، واليونانية، والرومانية، والبابلية، **والآشورية**، والهندية، والصينية، والحبشية، والفارسية..، حتى أيام العرب فى جاهليتهم قبل الإسلام[2].

(*) انظر - دكتور صلاح مصطفى الفوال - علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٨٣.

وقد **كان** لـنا مـع هذا الـنمـط بالـذات **حديث** طويل امـتد عـبر مـؤلفنا «سوسيولوجيا الحضـارات القديمة» الذى صدر عن دار الفكر العربى عام ١٩٨٢، ويشرفنا أن نحيل القارئ الكريم إليه وسيجد فيه ـ إن شاء الله ـ ضالته(٣).

٢ـ **دينى. .** ونعنى به الإسهامـات السوسيولوجية التى ظهـرت فى أحضان بعض **المعتقدات** الدينيـة لعدد من المصلحـين العظام والتى لا ترقى إلى مـستـوى الديـن. . **كأفكار** حـمورابى. . وبوذا. . وكـونفـوشيـوس. . ومـاتشيـوس. . والزرادشتية. . والمزدكية. . حـتى نصل إلى الفكر السوسيولوجى المرتبط بالديانات الثلاث الكبرى. . اليهودية، والمسيحية، والإسلام(٤).

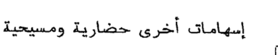
ونحن نجد أن علم **الاجتماع** الدينى. . قد **ارتبط** بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ـ التـوراة والإنجيل ـ وبرز فى هذا المجال **مفكرون** عظام أمثال. . كليمان الإسكندرى. . والقديس أوغسطين. . وتومـاس الإكوينى. . وأخيرا مارتن لوثر كنج(٥)(*).

علاوة على علم الاجتماع **الإسلامى** الذى ارتبط **بالقرآن** الكريم والسنة النبوية **المطهرة**، وكذلك اجتـهادات علماء المسلمين حـوله.. وكانت لنا أول دراسة منظمـة لعلم الاجتـماع **الإسلامى** خلال كـتابنا «التـصوير القـرآنى للمـجـتمع» **بمجلديه**، والذى ظهر عن دار الفكر العربى عام ١٩٨٦(٦)، ونحن **نزعم** أنه أول محاولة منظمة على المستويين المحلى والعربى لتأسيس علم الاجتماع الإسلامى(٧)، ويسعـدنا الرجوع إليها للتـعرف على وجهة النظر الـسوسيولوجـية الإسلاميـة كما قرأناها من القرآن **الكريم** بصفة أساسية، ومن السنة النبوية المطهرة أحيانا(٨).

أما فيما يخص **الفكر** الإسلامى لدى علماء وفلاسفـة المسلمين فقد كان لنا مع هـذا الفـكر **حديث** طويل خـلال مؤلـفنا «المقدمـة لعلم الاجـتـماع العـربى والإسلامى» الذى صدر عن دار الفكر العربى **أيضا** عام ١٩٨٢(٩).

٣ـ **زمنى. .** بمعنى **التأريخ** لعلم الاجتماع. . وفقا **للفترة** الزمنية. . التى برزت خلالـها **اتجاهات** سوسيـولوجية معينة. . مـنها إسهامات مـا قبل الميلاد. .

(*) مارتن لوثر كنج كـان زعيما لأول حركـة إصلاحية. . هزت الفكر المسيحى وغيرت العديد من مـلامحه، وعلى النحو الذى أوضحناه خلال مؤلفنا «سوسيولوجيا الحضارات القديمة» السابق الإشارة إليه ص ص ٢٨٢ ـ٢٨٤ ، ص ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

وإسهامات القرن **الثامن** عشر. . **والتاسع** عشر. . **والعشرين**، فنجد مثلا أن علم اجتماع ما قبل الميلاد[١٠]،وقد نما ذلك الفكر فى أحضان الحضارات القديمة والعظيمة من جهة، كما ارتبط من جهة أخرى **برواده** العظام. . بدءا من حكماء مصر الفرعونية وفلاسفتها. . وانتهاء بأفلاطون وأرسطو وغيرهم. . وعلى **النحو** الذى بيناه فى الباب الأول من هذا الكتاب بفصليه الأول والثانى.

وحتى تكتمل الصورة عن مسيرة علم الاجتماع، أو عن البدايات المبكرة لعلم الاجتماع سنخصص[*] خلال الباب **الثانى** من هذا الكتاب حيث **سنلقى** الضوء خلاله على الفكر السوسيولوجى عند بعض فلاسفة المسلمين، ثم نتحدث خلال الفصل السابع عن الإسهامات السوسيولوجية عند ابن خلدون باعتباره أحد الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع.

* * *

رواد الفكر الاجتماعى المسيحى:

وقبل أن نختم هذا الفصل. . لابد لنا أن نتحدث ولو بإيجاز عن ثلاثة من عظماء الفكر الاجتماعى المسيحى. . وذلك على النحو التالى[١١].

أولا ـ كليمان الإسكندرى:

كليمان الإسكندرى. . يعد **أول** فيلسوف مسيحى. . له إسهامات سوسيولوجية. . فقد كان **رئيسا** لمدرسة الإسكندرية المسيحية. . واستطاع بمعاونة تلاميذه ومعاصريه. . أن يكون لهم إسهام واضح فى. . الملكية الفردية. . وتحرير العبيد. . وحاربوا التمييز **العنصرى**، ودعوا إلى المحبة بين مختلف الطبقات. .

---

* انظر فى هذا المجال مؤلفاتنا الآتية:

أ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق.

ب ـ دكتور صلاح الفوال ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ مرجع سابق.

جـ ـ دكتور صلاح الفوال ـ تاريخ علم الاجتماع الإسلامى ـ مرجع سابق.

د ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكرالسوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق.

هـ ـ دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

و ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع ـ المفهوم والموضوع والمنهج ـ مرجع سابق.

ز ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مرجع سابق.





وأول من نادوا **بالمساواة** الاجتماعية بين الأحرار والعبيد. . ودعوا المؤمنين بهم إلى حياة شبه منعزلة ولفترات طويلة حتى تتحقق قيم المحبة والتراحم والمشاركة الوجدانية. . ومن أبرز معاونيه القديس **بولس** وغيره كثير(١٢).

* * *

ثانيا ـ القديس أوغسطين:

كان هذا عن ابن **الإسكندرية** وراعى كنيستها كليمان الإسكندرى. . ، أما عن القديس **أوغسطين**. . فتتمثل إسهاماته بكثير من الوضوح والتأصيل. . حيث **مزج** بين الفلسفة اليونانية وروح **المسيحية** السمحة. . ولعل من أوضح **أفكار** أوغسطين. . اعتباره المجتمع أكبر من مجرد اجتماع أو تجمع عشوائى لعدد من الناس كيفما اتفق. . بل إن **المجتمع** عنده. . «جماعة من الأفراد يرتبطون معا بوشائج من العواطف والمعتقدات والأهداف، ويؤلفون فيما بينهم وحدة معنوية تنهض على أساس من المحبة والتواد والقناعة. .وصولا إلى أهدافهم المشتركة». . وتصور **أوغسطين** ومدرسته أن هناك مجتمعين أو مدينتين. . الأولى. . مدينة أو مجتمع **السماء**. . بفضل محبة **الله** التى أودعها فى **قلوب** أعضائها. . والثانية. . مدينة أو مجتمع **الأرض**. .والذى نشأ هو الآخر نتيجة لما أودعه **الله** فى **قلوب** أعضائه من أنانية وشهوة، ومصير المُجتمَعَين واضح حيث تقود مدينة **الله** أو السماء. . ساكنيها إلى الجنة. . وتقود مدينة الأرض أو الشهوات الدنيا. . سكانها إلى **الجحيم**. . !!

كما كانت لأوغسطين **إسهامات** أخرى من خلال آرائه حول. . **القانون** الوضعى. . واعتباره ضرورة اجتماعية. . ، **وتبريره** للرق والملكية الفردية. . ، وضرورة قيام مجموعة من النظم الطبيعية والاجتماعية التى تحكم **مسيرة** المجتمع والدولة. . وخاصة فيما يتصل **بحق** الملكية،وحقوق الملوك **والحكام**، والحيازة والبيع والشراء، وتحديد وظائف الدولة التى من أهمها فى رأيه الدفاع عن الحقوق. . وخاصة منها **المتعلق** بالملوك والحكام، . . والدفاع عنها عند **اللزوم**، وكان من رأيه كذلك. . ضرورة توزيع **الثروة** داخل المجتمع بالعدل لأن ذلك أكبر **ضمان** ضد عوامل التحلل والانهيار بفعل الثورات.

هذا وقد اعتبر أوغسطين.. الحرب ضرورة اجتماعية لا غنى عنها، بل واعتبرها مشروعة إلا إذا سلكت دروب القسوة وبالغت فى سفك الدماء بدون مبرر(١٣).

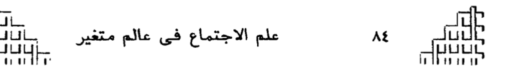
* * *

ثالثا ـ توماس الإكوينى:

وبعد كليمان الإسكندرى والقديس أوغسطين.. يأتى قديس آخر هو.. سان توماس أو توماس الإكوينى.. الذى كان من أهم إسهاماته.. كتابه «حكمة الأمراء».. الذى ناقش من خلاله ضرورة الوجود الاجتماعى وما يترتب عليه من تنظيمات تحكم علاقات أعضاء المجتمع، وقوانين تسير الحياة الاجتماعية، واعتبر توماس الإكوينى أن قيام الحكومات ضرورى لاستمرار المجتمع وتقدمه.. كما يتوقف صلاح أو فساد الحكومة على مواصفات تكوينها ومدى قيامها بالأعباء أو المهام المنوطة بها.. فهى حكومة صالحة إذا استهدفت صالح الدولة.. وحكومة فاسدة إذا اهتمت بالمصالح الخاصة..!!

كما اهتم توماس الإكوينى بنظام الرق.. وضرورة إلغاء وظيفته الاقتصادية، كما نادى بالقضاء على الفوارق بين الأغنياء والفقراء.. وطالب كذلك بوجود تحديد دقيق لمفهوم المسئولية والجزاء.. وربط بين ذلك وبين إصدار مجموعة من التشريعات.. وقيام عدد من الأجهزة التنفيذية.. تعمل على تطبيق الأحكام المرتكزة على تلك التشريعات، كما ناقش توماس الإكوينى بعض الظواهر المنتشرة فى عصره.. كالربا.. وطالب بتحريم الفوائد الناتجة عنه لخطورة ظاهرة الربا على المجتمع والدولة، كما اعتبر توماس الإكوينى الملكية الفردية.. حقا مباحا.. شريطة ألا تضر بصالح المجموع، ولكن توماس الإكوينى أقر ظاهرة الرق، واعترف بشرعيتها مرتكزا على دعاوى أن الرق يتيح للمجتمعات قدرا أكبر من الإنتاج بما له من تأثيرات على الاقتصاد واستقرار المجتمع(١٤).

* * *



المصادر

١ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سـوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ دار الـفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ ـ ص ص ٨١ ـ ٩٩.

٢ ـ المصدر السابق ـ ص ص ٧ ـ ٢٣.

٣ ـ المصدر السابق ـ فقرات كثيرة منه.

٤ ـ المصدر السابق ـ ص ص ٢٩٩ ـ ٣٠٢.

٥ ـ المصدر السابق ـ ص ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

٦ ـ دكتور صلاح الفوال ـ التصوير القرآنى للـمجتمع ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ المجلد الأول ـ ص ص ٧ ـ ٢٣.

٧ ـ دكتور صلاح الفوال ـ التصوير القـرآنى للمجتمع ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ المجلد الثانى ـ ص ص ٧ ـ ٢٥.

٨ ـ دكتور صلاح الفوال ـ المـقدمة لعلم الاجتماع العربـى والإسلامى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ص ٥٩ ـ ١٠٩.

٩ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سـوسيولوجيا الحضارات القديـمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٩٢ ـ ٢٩٩.

١٠ ـ دكتور صلاح الفوال ـ سـوسيولوجيا الحضارات القديمـة ـ المصدر السابق ـ ص ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣.

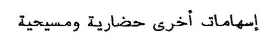
١١ ـ المصدر السابق ـ ص ص ٢٨١ ـ ٢٨٧.

١٢ ـ المصدر السابق ـ ص ص ٢٧٧ ـ ٢٨٧.

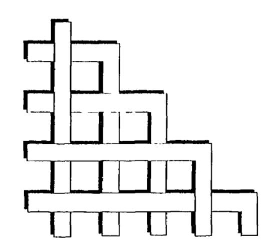
١٣ ـ المصدر السابق ـ ص ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

١٤ ـ نفس المصدر السابق.

* * *






الباب الثانى

الفكر الاجتماعى عند فلاسفة المسلمين

* مقدمة :
* **الفصل الثالث :**

الفارابى وإسهاماته السوسيولوجية.

* **الفصل الرابع :**

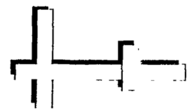
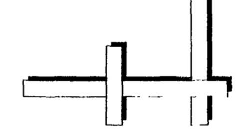
الفكر الاجتماعى عند إخوان الصفا.

* **الفصل الخامس:**

الإسهامات السوسيولوجية لابن مسكويه.

* **الفصل السادس :**

البيرونى وإسهاماته السوسيولوجية.

مقدمة :

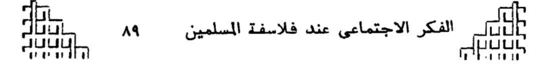
من تكرار القـول . . أن نؤكد ما **للفكر** الإسلامى من أيادٍ بيـضاء فى شتى مجالات **العلوم** والحيـاة . . وعنـدما انـتقـل هذا الـفكـر خارج **حدود** الدولة الإسلاميـة الأولى . . كان **العامل** المباشـر ـ ولا نقول الوحـيد ـ الذى **فتح** باب النهضة **والتقدم** على مصراعيه . . أمام كل الشعوب وبطول الدنيا وعرضها.

ودور علماء المـسلمين واضح فـى فتح **آفاق** المعرفـة أمام كل علماء الـدنيا ليعبروا من خلاله **بوابة** الجهل والـتخلف ـ الذى عاشـوا فيه **لقرون** عديدة . . ولقد اعترف **معظم** علماء الغرب ـ خلال عصر **النهضة** وما بعده ـ بفضل علماء المـسلمين علـيهم.. حيث نهلوا مـن التراث الإسلامـى فى كل مـجالات الحـياة المختلفة.

والفكر السوسيولوجى **الإسلامى** ـ كواحد من **إبداعات** علماء المسلمين ـ كان له **النصيب** الأكبر فى قيام علم الاجتماع . . بصرف النظر عن **اعتراف** الغرب بذلك حينا وإنكاره له أحيانا أخرى . . !!

وعلى كلٍّ نحـن سنتعرض **لأربع** علامات بـارزة فى **الفكر** السوسيولوجى الإسلامى . . . وهم :

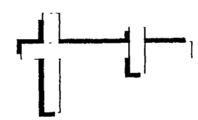
* الفارابى.
* ابن مسكويه.
* إخوان الصفا.
* البيرونى.



وقد يكون التعرض **باختصار فى** معظم الأحيان . . لأنه كـان لنا مع الفكر السوسيولوجـى الإسلامى حديث **طويل** خلال **مؤلفينا** «المقدمة لعـلم الاجتماع العـربى والإسلامـى» الذى صـدر عن دار الفـكر العـربى بـالقاهـرة عام ١٩٨٢ ، و«تاريخ علم الاجـتماع الإسلامى» الذى نشرته جـامعة الأمير عبد القـادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة بالجزائر عام ١٩٨٩ .

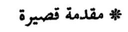
ونحن سـنحيل القارئ الـكريم إلى أى منـهما **عندما** يتطلـب الأمر ذلك، وخصوصا أن الـكتابين المذكـورين يضمان أعلاما مـبرَّزة أخرى على طريـق الفكر الاجتماعى كالإمام **الغزالى**، وابن **فضلان**، وابن **حوقل**، وابن **حزم**، والشيخ الرئيس ابن **سينا**، والقزوينى، **والمسعودى**، وناصـر **خسرو**، وابـن **بطوطة**، ويأتى قبل كل هـؤلاء الخليفة **الرابع** علىّ بـن أبى طالب كـرّم الله وجهه وكتـابه «نهج البلاغة» الذى احتوى على **فكر** سوسيولوجى متميز .



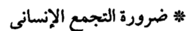


الفصل الثالث

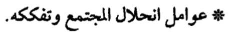
الفارابى وإسهاماته السوسيولوجية



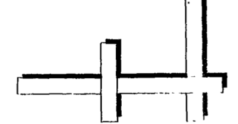
* مقدمة قصيرة



* ضرورة التجمع الإنسانى
* أشكال التجمع الإنسانى
* طبيعة المدن
* عوامل توحد المجتمع
* نشأة السلطة ووظيفتها فى المجتمع



* عوامل انحلال المجتمع وتفككه.



مقدمة :

تمثل الإسهامات السوسيولوجية للفارابى(*) من **خلال** كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» حيث **ضمن** هذا الكتاب العديد من آرائه الاجتماعية.

صحيح أن آراء الفارابى الاجتماعية قد **اختلطت** لديه بالكثير من الآراء الفلسفية والفقهية .. وخصوصا ما اتصل منها بالفلسفة اليونانية والإسلامية، إلا أن هذه الآراء إن دلت على شىء، إنما تدل على **اجتهاد** سوسيولوجى مبكر اتجه نحو **دراسة** المجتمع والعمل على صلاحه وفقا لأسس مثالية **تزاوجت** خلالها الفلسفة بالدين، ومثلت آراء أفلاطون **حجر** الزاوية فيها.

وعلى كل .. فإن الفارابى خلال **كتابه** «آراء أهل المدينة الفاضلة» المذكور قد تعرض للنقاط المحددة الآتية :

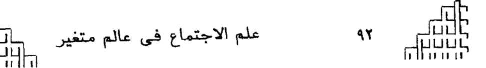
* * *

ضرورة التجمع الإنسانى :

أوضح الفارابى من خلال **إيمانه** بالكثير من آراء أفلاطون وأرسطو، أن الاجتماع الإنسانى ضرورى، وذلك راجع ـ كما أوضح الفارابى ـ إلى أن الإنسان **مفطور** على **حاجته** إلى الاجتماع والتعاون، «وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه وفى أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء **كثيرة** لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده، بل **يحتاج** إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه» ولا يتأتى ذلك **إلا** باجتماعات **جماعة** كثيرة «يقوم كل واحد ببعض ما يحتاج إليه قوامه»(1).

---

* عاش الفارابى ما بين عامى ٢٥٧ ـ ٣٣٩ هـ.



أشكال التجمع الإنسانى :

تناول الفارابى أشكال التجمع وبينها على **أساس** فريد حيث أوضح أن من هذه الأشكال ما يمكن أن يوصف بأنه اجتماعات إنسانية **كاملة**، ومنها ما يصفه بأنه غير كامل، ثم رتب تلك المجتمعات الكاملة تدريجيا إلى **ثلاثة** مستويات تتراوح ما بين العظمى والوسطى والصغرى، **وارتكز** الفارابى فى تقسيمه لأشكال المجتمعات الإنسانية على **حجم** كل منها **ومقدرته** على سد احتياجات أعضائه، ويرى الفارابى أن **المجتمعات** العظمى تتمثل فى اجتماعات الجماعة كلها على المستوى الإنسانى فى المعمورة، أما المجتمعات **الوسطى** فيمثلها اجتماع أمة على المستوى القومى فى جزء من المعمورة، أما المجتمعات **الصغرى** فتمثل اجتماع أهل مدينة على **المستوى** الإقليمى أو المحلى فى جزء من مسكن أمة.

أما عن المجتمعات غير **الكاملة** فيصنفها الفارابى أيضا إلى **ثلاثة** مستويات، أكملها اجتماع أهل **القرية** وأهل **الحلة** «الجيرة أو الحى» ويليها فى المرتبة الثانية اجتماع فى **السكة** «الشارع» أما المستوى **الثالث** للمجتمعات غير الكاملة فيمثله فى رأى الفارابى **اجتماع** فى المنزل(٢).

* * *

طبيعة المدن :

المدن عند الفارابى .. إما **مدن** فاضلة .. أو غير فاضلة .. **والفيصل** بين هذه وتلك كما يقول الفارابى أن يكون هدف **الاجتماع** الإنسانى **خلالها هو** «التعاون على الأشياء التى تنال بها السعادة» وإذا ما تحققت تلك **السعادة القائمة** «على الحقيقة» فتكون **تلك** «هى المدينة الفاضلة».

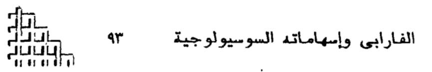
* * *

المدينة الفاضلة :

شبهها الفارابى **بأعضاء** الجسد الواحد الكامل والصحيح، حيث **تتعاون** كل الأجزاء لحفظ الحياة واستمرارها تحت **رئاسة** عضو أساسى وهو القلب الذى تعاونه بعض **الأعضاء** ومنها ما يدانيه مرتبة وما يقل عنه مراتب، **كذلك حال** المدينة الفاضلة .. تتكون من أجزاء مختلفة ومتمايزة ويشكل **الرئيس** رأس **هذه** المدينة وزعيمها ومصدر **الحياة فيها**.

وتكون المدينة **فاضلة** فى رأى الفارابى إذا ما أدى كل فرد فيها **دوره كما**





يجب فضلا عن شيوع **علاقات** التوافق والتعاون والانسجام بين **مختلف** هيئاتها، علاوة على ضرورة أن **يتوافر** فى رئيس المدينة الفاضلة العديد من **الشروط** منها المطبوع ومنها المكتسب(*).

وحدد الفارابى **الشروط** التى يجب أن تتوافر فيمن يتولى رئاسة المدينة الفاضلة فى اثنى عشر شرطا أو **فضيلة** على حد تعبير الفارابى منها **ست** فضائل موروثة ومنها ست أخرى **تعود** إلى «الملكة الإرادية» أو الاكتساب.

وعن الصفات **الموروثة** فى الرئيس فيجب أن يكون تام الأعضاء، وأن يكون سليم العقل، **وسلامة** العقل تعنى كما حددها الفارابى جودة الفهم وجودة الحفظ وجودة **الفطنة** والذكاء، وأن يكون حسن العبارة، محبا للعلم وعلى **خلق** حميد، **ومحكات** الخُلق الحميد عند الفارابى **تتمثل** فى عدم الشراهة باللذات الدنيوية، حب **الصدق**، عفة النفس، الزهد فى أعراض الدنيا، وحب العدل، وأخيرا قوة **العزيمة** مع الجسارة والإقدام.

أما عن الصفات **المكتسبة**، فهى أن يكون حكيما فيلسوفا لتعينه حكمته وفلسفته على **تسيير** أمور مدينته الفاضلة، وأن يكون **عالما** بالشرائع والسنن والسير، وأن يكون **قادرا** على الاستنباط والقياس ليعينه ذلك على **الاستفادة** من تراث السلف، وأن يكون قادرا على **الابتكار** حتى يبتكر من التشريعات ما يعينه على صلاح مدينته، وأن تكون لديه القدرة على **تعليم** الناس فى مدينته. وعلى الرئيس أخيرا أن يكون على **قوة** بدنية تمكنه من أن يكون القائد **الأعلى** للمحاربين فى مدينته.

ولكن هل **يشترط** أن يكون الرئيس واحدا؟! . . والجواب عند الفارابى أن ذلك أمر مستحب . . لكنه **ليس** ضروريا . . لأن الشروط إن لم **تتوافر** فى واحد. . وتوافرت فى اثنين . . **صارا** رئيسين. . وإن **لم** تتوافر فى اثنين وتوافرت فى ثلاثة أو حتى فى جماعة صارت لها الرئاسة . . المهم . . هو **توافر** هذه الشروط فيمن يكون **رأسا** لتلك المدينة الفاضلةفردا كان أو أكثر(**).

(*) الشرط المطبوع. . هو الشرط الموروث. . ويعنى به الفارابى كل الخصائص الوراثية.

(**) للاستزادة انظر: دكتور صلاح الفوال ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ص ١١٦ ـ ١١٨.



المدينة غير الفاضلة :

وهى **بالضرورة** مدن لا تتوافر بـها نفس **مواصفات** المدن الفاضـلة سواء من حيث طبيعة التكوين أو من حيث **الرئاسة**، ولكن الفارابى **قسم** المدينة غير الفاضلة إلى **خمس** مراتب أساسية تـتراوح ما بين المدن المستقلـة أو الكاملة وهى مدن الجاهلـية والمدن **الفاسقة** والمدن المـتبدلة والمـدن الضالة، حـتى **يصل** إلى «النوابت» أى النتوءات **الشاذة** التى تبرز من خلال المدن الفاضلة ذاتها.

وعلى كل حال فإن الفارابى قد رتب المدن غير الفاضلة بحسب **درجة** بعدها عن معرفة السعادة إلى **خمس** مراتب، والسعادة هنا هى **سعادة** العقل وفعل الخير والقرب من الله، فأهـل مدينة **الجاهلية** لم يعرفـوا السعادة **يوما** ولم يعـرفوا من الخيرات إلا **الحسى** منها وعاشوا فى بوهيمية بدنية، ولم يعرفوا الله يوما أو تقربوا إليه(*).

أما أهل المدينة **الفاسقة**، فهم يعرفون السعادة والخير والله، ولكن معرفتهم لا تتـعدى **حدود** المعرفـة النظريـة، بينما أفـعالهم هـى نفس **أفعال** أهل مديـنة الجاهلية. . والخلاصة أنهم **يعملون** بغير ما يعتقدون.

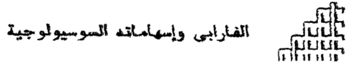
أما المدينة **المتبدلة**، فكما هو واضـح من الاسم . . فقد **بدل** الله بهم من حال إلى حـال . . أى كانوا أهل مـدينة **فاضلة** ثم انحرفوا نتيـجة لشيوع تيارات شاذة وانحرافات **بدلت** معتقداتهم وأفعالهم وحولتهم من **الفضيلة** إلى الرذيلة.

أما المدينة **الضالة**، فأهلها.. أهل **ضلال** وخداع وغرور، لا **يؤمنون** بالله ولا بالعقل ولا بالسعادة، وقد ضيعتهم **الأفكار** الفاسدة.

وأخيرا نـصل مع الفـارابى إلى ذلك الـنتوء . . أو **الخلل** الذى قد يـصيب المدينة الفـاضلة ذاتها. وقد أطلق علـيه الفارابى **مصطلح** «النوابت» وقد شـبهها الفارابى بالأشواك أو الحشائش التى **تنبت** وسط الزرع وتضره **بغير** أن تنفعه، ولا شك أن تـلك **النوابت** الـشاذة إن هـى إلا **بؤر** للجريمة والفـساد داخل مجتمع المدينة الفاضلة وغيرها من المدن.

* * *

(*) يقصد الفارابى بالمدينة الجاهلية، مدن الجاهلية الأولى فيما قبل الإسلام.





عوامل توحد المجتمع كما حددها الفارابى :

تناول الفارابى خـلال حديثه عن المدينة الفاضلة مـقومات **توحد** المجتمع، وصنفها طبقا لعوامل جنسية **عرقية**، كوحدة الجنس **والسلالة** والانحدار من أب واحد، وعوامل **ثقافية** كالاشتراك فى اللغة واللسان، وعوامل **طبيعية** كالاشتراك فى الصقع أو البيئة الطبيعية، وعوامل **اجتماعية** كالاشتراك فى النسب «المصاهرة» وأخيرا عوامل **نفسية** كتشابه الخلق والشيم الطبيعية.

* * *

نشأة السلطة ووظيفتها فى المجتمع :

تعرض الفارابى **للسلطة** من حيث نشأتها ووظيفتـها فى المجتمع، واعتبرها قـانونا ينهض فى المجـتمع ليـمنع **العدوان** «الغصب» والـظلم وليحقـق العدل، وضرب لذلك العديد من الأمثلة من واقع الحياة **الاجتماعية** للمجتمع وخصوصا ما تعلق منها **بعمليات** البيع والشـراء والأمانة فى رد الودائع **والكف** عن الجور «**الظلم**».

كـما بين الفـارابى أهميـة الخوف الناتج عن وجـود **السلطة** ودوره ـ أى الخوف ـ فى استمرار التزام الناس بالخصال الحميدة[٢].

* * *

عوامل انحلال المجتمع وتفككه :

كما تعرض الفارابى للعوامل **الموحدة** للمجتمع، تعرض أيضا للعوامل التى تؤدى إلى **تحلله** وفنائه، ولعل أهمّ عـامل فى فسـاد المجتمـعات أو المدن ـ كـما أوضح الفارابى هـو بعدها عن **أسباب** الفضيلة وعدم قدرتهـا على تحقيق السعادة بالمفهوم الذى قصـد إليه الفارابى[*]، علاوة علـى عدم **توافر** الرئيس القـادر على القيادة والريادة، فضلا عن غياب رابطة القهر والقوة التى تمثلها السلطة.

* وعلى كل **حال** فإن الفارابى[٣] :

١ ـ كـان **شديد** الإعـجاب والتـقليد لأفـلاطون سواء من حـيث **الأفكار** المعروضة أو **المنهج** المسـتخدم فى الاستدلال المعـروف باسم «تحليل المعانى» وهى طريقة طبقها كل من أرسطو وأفلاطون **وتعرف** بالطريقة الأرسطوطاليسية[٤].

* السعادة عند الفـارابى تعنى سعادة العقل وفعل الخيـر والقرب من الله سبحانه وتعالى مـن خلال اتباع أوامره واجتناب معاصيه.

٢ ـ شكّل **اتجاها** متميزا فى الفكر السوسيولوجى **الإسلامى** وهو ما يعرف بالاتجاه المثالى أو «اليوتوبى». ومن أبرز **عيوب** ذلك الاتجاه أنه **ليس** ممكن التطبيق على الإطلاق، لا فى ظل المجتمع الإسلامى ولا فى ظل غيره من المجتمعات(٥).

٣ ـ كان مدفوعا **للمغالاة** فى مثاليته **كرد** فعل للحياة المجتمعية المضطربة اجتماعيا **وسياسيا** وأخلاقيا، والتى عايشها والتى وجد معها أن لا **خلاص** إلا بالرجوع إلى **المثالية** التامة فى مدينة فاضلة على رأسها حاكم أو رئيس له من صفات الأنبياء أكثر مما له من **صفات** الناس العاديين «البشر».

٤ ـ على الرغم من **كل** ما قيل عن الفارابى وعن فلسفته الاجتماعية. . فإنه بغير شك سعى لأن **يعود** المجتمع الإسلامى إلى سابق **مجده** صفاءً وفضيلة وسعادة من خلال ما أرساه من **قواعد** المدينة الفاضلة، أو هو دق **ناقوس** الخطر حتى يتنبه ولى الأمر **ويتخذ** أولى خطوات الإصلاح(٦).

٥ ـ أرسى دعائم الاتجاه **العضوى** السوسيولوجى عندما شبه المجتمع بالكائن الحى وأقام **مماثلة** عضوية بين **وظائف** أعضاء الإنسان ككائن حى وبين وظائف **وحدات** المجتمع البشرى.

٦ ـ أثر الفارابى فى **الفكر** الاجتماعى الإسلامى إلى **حد** بعيد . . ويكفيه فخرا أنه **لقب** بالمعلم الثانى بعد أرسطو . . وأن تلاميذه نهجوا على **منهجه** لفترات طويلة أدت إلى تنمية وتعميق ذلك **الاتجاه** اليوتوبى(٧)(*).

* * *

(*) دكتور صلاح الفوال ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ المرجع السابق ـ ص ص ـ ١١٦ـ١١٨.

المصادر :

١ ـ أبو نصر محمد الفارابى ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ ـ ص ص ٧٧ ـ ٧٨.

٢ ـ وانظر كتابنا ـ علم الاجتماع البدوى ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ ـ ص ص ١١٠ ـ ١١٣.

٣ـ دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق.

٤ ـ للاستزادة انظر :

أبو نصر محمد الفارابى ـ كتاب المجموع ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٩٠٧.

٥ ـ دكتور صلاح الفوال ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢.

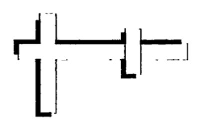
٦ ـ دكتور صلاح الفوال ـ تاريخ علم الاجتماع الإسلامى ـ مطبوعات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة ـ الجزائر ـ ١٩٨٩.

٧ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٩٦.

* * *

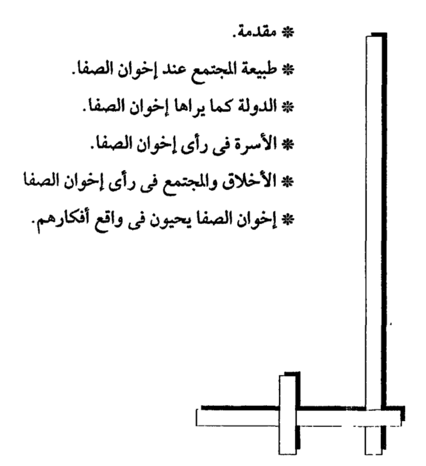






الفصل الرابع

الفكر الاجتماعى عند إخوان الصفا



* مقدمة.
* طبيعة المجتمع عند إخوان الصفا.
* الدولة كما يراها إخوان الصفا.
* الأسرة فى رأى إخوان الصفا.
* الأخلاق والمجتمع فى رأى إخوان الصفا
* إخوان الصفا يحيون فى واقع أفكارهم.

مقدمة :

إخوان **الصفا** أو إخوان الصفاء من **أكثر** الجماعات الفكرية الإسلامية إثارة للجدل، ولم يقتصر **الجدل** حول الغموض الذى اكتنف شخصياتهم فقط، وإنما امتد ليشمل أفكارهم أيضا، وخصوصا ما تعلق منها **بالأسباب** والأهداف الحقيقية التى جعلتهم ينشرون رسائلهم.

وسوف نحاول هنا ـ قدر الإمكان ـ أن نلقى بعض **الضوء** على إخوان الصفا من حيث النشأة وطبيعة الفكر، وإن كنا سنتعرض بالضرورة إلى **البيئة** التى أفرزت **إخوان** الصفا، ولا سيما ما تعلق منها **بالظروف** الدينية والسياسية التى اعترت الخلافة الإسلامية إبان **القرن** الرابع الهجرى.

* * *

من هم إخوان الصفا ؟!

يقال إن إخوان الصفا هم .. أبو سليمان محمد بن معشر **البستى** والمعروف بالمقدسى، وأبو الحسن بن **هارون** الزنجانى، وأبو **أحمد** الجرجانى، والعوفى، وكان معهم وفى **خدمتهم** زيد بن رفاعة.

ويقال أيضا أن هذه **العصابة** قد تآلفت بالعشرة، وتصافحت بالصداقة، واجتمعت على **القدس** والطهارة والنصيحة[1].

* * *

سماتهم العقلية والفكرية :

وصفهم أبو **حيان** التوحيدى فى **كتابه** المشار إليه «المقايسات»، فقال: «هناك **ذكاء** غالب، وذهن وقاد، ومتسع فى **قول** النظم والشعر، مع **الكتابة** البارعة فى الحساب والبلاغة، وحفظ **أيام** الناس، **وسماع** المقالات، **وتبصر** فى الآراء والديانات»(*).

* كان ذلك عن **سماتهم** العقلية، فماذا عن سماتهم الفكرية؟!

يواصل أبو حيان التوحيدى وصف مذهبهم قائلا: «فوضعوا بينهم **مذهبا** زعموا أنهم قربوا به **الطريق** إلى الفوز برضوان الله»، وإن هذا **المذهب** «لا ينتسب إلى شىء ولا يعرف برهط، **لجيشانه**(**) بكل شىء وغليانه بكل باب، ولاختلاف ما **يبدو** من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه».

* ولكن لماذا وضع إخوان الصفا **مذهبهم** هذا؟!

يقول أبو حيان **التوحيدى** فى مؤلفه «المقايسات» **المشار** إليه: إن إخوان الصفا قالوا . . «إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى **غسلها** إلا بالفلسفة، لأنها حادية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا ـ أى إخوان الصفا ـ أنه متى **انتظمت** الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ـ يقصد بها الإسلامية ـ فقد **حصل** الكمال»(٢).

* ولكن ـ ماذا **يقول** إخوان الصفا عن أنفسهم؟!

يشرح إخوان الصفا فكرهم وهويتهم خلال **الجزء** الرابع من رسائلهم فيقولون **مخاطبين** قارئهم:

«اعلم أيها **الأخ** البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، إنا نحن جماعة أصدقاء، وأصفياء كرام، كنا بتنا مرة فى كهف مدينتنا **تتقلب** بنا تصاريف الزمان،

(*) كان هذا القول من خلال وصف أبى حيان لواحد منهم وهو زيد بن رفاعة، عندما افتقده الوزير صمام الدولة عام ٣٨٣ هـ، وأنكر ما سمع عنه من آراء، فطلب من صديقه أبى حيان أن يوضح له الأمر.

(**) هكذا فى النص.. وبالرجوع للقواميس تبين أن «جَيَشان» تعنى فورة ebulli ion، أو غليان boiling، أو هياج agitation، ونعتقد أن المقصود أن مذهب إخوان الصفا .. مذهب رافض لكل شىء وتأثر عليه حتى صارت فورة الغضب سمة له.

ونوائب الحدثان، حتى **أشرقت** علينا الشمس، وجاء وقت المعاد، **فانتبهنا** لما انقضى دور **الرقاد،** واجتمعنا بعد تفرق فى البلاد، فى **مملكة** صاحب الناموس الأكبر ـ يقصدون الله سبحانه تعالى ـ وشاهدنا مدينتنا الروحانية، فهل لك يا أخى أن تبادر وتركب معنا سفينة النجاة التى بناه أبونا نوح عليه السلام، فتنجو من طوفان نار الطبيعة، قبل أن تأتى السماء **بدخان** مبين، تسلم من أمواج بحر الهيولى(*)، ولا تكون من المغرقين»[٣].

* لكن لماذا **كتب** إخوان الصفا رسائلهم ونشروها **بطريقة** سرية ولم يكشفوا النقاب عن **هويتهم،** ثم ما هو غرضهم أو **هدفهم** النهائى من ذلك كله؟!

السؤال طويل . . لكننا **سنحاول** الإجابة عليه بأكبر **قدر** ممكن من الإيجاز، وذلك على النحو التالى :

أ ـ فيما يتعلق **بالسرية** التى ضربوها حول هوياتهم أو التى **لجئوا** إليها فى نشر أفكارهم، **فالرأى** الغالب أن ذلك كان راجعا **للمناخ** السياسى والدينى الذى كان سائدا **أيام** حكم «بنى بويه» سلاطين **بغداد** أثناء القرن الرابع الهجرى، حيث حرص إخوان الصفا على أن **يكتموا** أسماءهم عن الناس حتى لا **تتسرب** إلى الحكام **خشية** أن ينزل بهم العقاب، لأن الخلفاء فى ذلك **العهد** كانوا يعرضون عن المذاهب العقلية **ويحرمون** الجهر بها فى المجالس، ويلحقون أشد **العقاب** بمن يخالف **مذهب** الفقهاء، وأهل النص.

ب ـ ويقول **المؤرخون** إن إخوان الصفا أرادوا أن **يجمعوا** بين الاشتغال بالفلسفة وبين عدم التعرض للعقاب، ومن هنا **آثروا** أن تكون دعوتهم سرية . . وإن كانت **السرية** لم تمنع أفكارهم وآراءهم من أن تكون فى كل مجلس وتحت يد كل قارئ أو محب **للعلم** أو للحكمة(**).

جـ ـ أما فيما يتعلق **بالغرض** أو بالهدف الذى من أجله **تكونت** جماعة إخوان الصفا وأصبح لها فكرها المميز، فقد **اختلف** فى ذلك كتاب السير، فمنهم

(*) نعتقد أن المقصود ببحر الهيولى . . يوم البعث حيث ترد الخلائق إلى سيرتها الأولى.

(**) بلغت رسائل إخوان الصفا إحدى وخمسين رسالة، جمعت كلها وصنفت ورتبت على فهرس وسميت «رسائل إخوان الصفا».



من يرى أن إخـوان الصفا ركبـوا موجة طلب الـسلطة التـى كانت **سمة** عصرهم حيث تفرقت **الأمة** الإسلامية إلى ولايات وشيع(*).

د ـ ومنهم من يرى أن إخوان الصفا قد يكونون على **حق** فى اعتقادهم بأن الشريعـة قد تدنست بأقـوال وتأويلات **لا صلة** لها بـالشريعة، وأن الحـكمة ـ أى الفلسفة ـ هى وحدها العلاج **الناجع** لذلك الخلل المشين.

هـ ـ ومنهم **كذلك** من يرى أن إخوان الصـفا إنما سعوا **للإصلاح** الدينى من خـلال **رسائلهم** فى تهـذيب النفـس والأخلاق، والتى هى تـعبير فـى نفس الوقت عن مذهبهم القائم على **الجمع** بين الوحى والعقل، أى بين مبادئ **الدين** والفلسفة ولاسيما **الإغريقية** منها.

و ـ ومن المؤرخـين من يرى أن **الغاية** الحقيقية لإخوان الـصفا ليست هى مجرد ركـوب موجة طلـب السلطـة، ولا تنقية الـشريعة ممـا علق بهـا، ولا حتى إصلاح الدين من خلال مـنهج لتهذيب النفس وإصـلاح الأخلاق، وإنما الحصول على **السلطان** كان هدفهـم الأوحد، لأن ما **ادعوه** من إصلاح دين أو تـهذيب أخلاق أو تنقـية شريعة لم يكن يـتفق مع **جوهر** الدين الإسلامى نـفسه، علاوة علـى أن فكرهـم ارتكز عـلى عـناصر ديـنية مـن عدة **مذاهب** مختلفة كـالمعتزلة والشـيعة، وأكـثر من هـذا فإن **فلسفة** إخوان الـصفا اختـلطت بديـانات **أخرى** كاليهودية والمسيحية، بل وكانت لها **أصول** لا دينية أو وثنية بتعبير أدق كالزرادشتيه والمانوية(٤)(**).

إذن إخوان الـصفا ـ فى رأى هـؤلاء ـ لم يكـونوا **طلاب** تنقيـة عقيدة ولا إصلاح دين ولا تهذيب أخلاق، **لأنهم** كانوا ميالين إلى المذهب **العالمى** الذى ينظر

(*) كانت الخلافة فى بغداد لبنى بويه، وفى الأندلس لبنى أمية، وفى إفريقيا للعبيديين، وفى مصر للإخشيديين، وفى حلب للحمدانيين، وفى الجزيرة الفراتية ـ العراق ـ للشيبانيين، وفى عمان والبحرين واليمامة للقرامطة، وفى خراسان وبلاد ما وراء النهر للسامانيين.

(**) الزرادشتية.. عقيدة فارسية قديمة ظهرت حوالى عام ٥٧٠ قبل الميلاد على يد «زرادشت» وانتمت إليه، أما المانوية فقد ظهرت فى فارس هى الأخرى على يد مدعٍ آخر للنبوة يدعى « انى»، وكان ذلك حوالى عام ٣٤٢ قبل الميلاد، وانتسبت إليه.

إلى كل الآراء الدينيـة والإنسانية **بمقياس** واحد، بمعنى أن ديـانتهم . . **كانت** كل الديانات السماوية وغير السماوية منها على حد سواء.

ويقول أبـو حيان التوحـيدى فى **كتابه** «المقايـسات» المشار إليه: إن أنـبياء إخوان الصـفا هم - بغـير **ترتيب** مقـصود - نوح وإبراهـيم وسقراط وأفـلاطون وزرادشت، وموسى، وعيسى، ومحمد، وعلى.

ر - إذن هدفـهم كـان **سياسيا**. . بمعـنى أنهم كـانوا **طلاب** سلطة زمـنية، ودليل ذلك **السرية** التى فرضوها حول أنفسهم، حتى **تقوى** عصبيتهم وشوكتهم فى مواجهة السلطان فيما بعد.

* إلا أن عددا غـير قليـل من العـلماء يرى أنـه من **الصعب** التعـرف على الهدف **الحقيقى** لإخوان الصـفا، ويحذر من مـحاولة **التوفيق** بين ما يـبدو من تعارض لأفكارهم، لأن هـذه المحاولة سوف تؤدى إلى **خلط** مؤكد بيـن ما قصده إخوان الصفا فعلا وبين محاولة استنتاج ما سعوا إليه(٥).

ونحن مع **هذا** الرأى الأخيـر . . ونزيد عليـه . . أننا **يجب** أن نأخذ فـكر إخوان الصفا كما **هو** ومباشرة من خلال تراثهم . . وعلى كل **متخصص** أن يهتم من فكر إخوان الصفا **بالجانب** الذى يريد، مع العلم أنه لا يهمنا كسوسيولوجيين فى كثير أو قليل ما **قيل** عن وحول إخوان الصفـا . . لأن شاغلنا **الأول** هو أن نجلى ما حواه فـكرهم من آراء **واتجاهات** سوسيولوجية(*). هذا، ويكفى إخوان الصفا اجتهادهم فى التوفيق بين مختلف الاتجاهات الدينية والفلسفية، علاوة على سعة **اطلاعهم** وحسن استيعابهم لمختلف المعارف **والعلوم** سواء منها المعاصرة أو السابـقة، فضلا عـن حسن **تعبيرهم** عن ذلـك كله فى أسـلوب واضح وبسـيط ومفهوم.

* * *

(*) يرى بعض الباحثين أن إخوان الصفا لم يأتوا بجديد فى أفكارهم، كما أنهم لم ينجحوا حتى فى محاولاتهم التوفيقية بيـن مختلف المذاهب، لذلك ففكر إخوان الصـفا - عند هؤلاء - ليست له أية قيمة علـمية تستحق عناء الدراسة أو تـبرر الجهد المبذول فيها، الـلهم إلا إذا كان المطلوب هو الـسرد التاريخى لكيفـية استخدام الدين فى السياسة، أو إذا ما كانت المحاولة تستهدف اسـتجلاء بعض صور البحث العلمى فى زمان إخوان الصفا، وقطعا هذا الرأى فيه من الظلم أكثر مما فيه من الإنصاف!!

الإسهامات السوسيولوجية لإخوان الصفا:

تتمثل الإسهامات السوسيولوجية لإخوان الصفا فى **رسائلهم** المشهورة التى جمعوا خلالها آراءهم فى **شتى** مجالات الحياة، ولا سيما تلك الرسالة الجامعة التى حوت **موجزا** لكل رسائلهم الإحدى والخمسين والتى **سميت** برسائل «إخوان الصفا وخلان الوفا».

هذا ويمكننا أن **نجمل** آراء إخوان الصفا فى **إيجار** شديد على النحو الآتى:

* * *

١ ـ طبيعة المجتمع كما يراها إخوان الصفا:

انتهى إخوان الصفا إلى أن المجتمع **بناء** صنعته الطبيعة ويضم **العديد** من الطبقات التى **تتفاوت** تفاوتا طبيعيا موروثا فى معظم **الأحوال**، وإن ذلك التفاوت شىء **ضرورى** إلى جانب أنه من نواميس الحياة، وبناء على ذلك التفاوت يتم تقسيم العمل وتتنوع **الوظائف** ويتم التعاون بين الجميع على **أسس** أخلاقية تؤدى بالضرورة إلى السعادة الكلية للمجتمع الذى لابد أن يقوم عليه رئيس أو ملك تكون مهمته الأولى إحياء سنن الدين وإقامة العدل بين الناس.

* * *

٢ ـ الدولة عند إخوان الصفا :

الدولة ركيزتها **الدين** الذى يقوم هو الآخر على الأخلاق، **والدولة** عند إخوان الصفا :

أ ـ لها **وظيفة** محددة هى إقامة **أحكام** الدين والمحافظة على أخلاقيات الإسلام، ولكن من الدول ما **يسعى** للخير ومنها ما يسعى للشر، **وآية** دول الخير الأخلاق والتعاون **والمحبة** ووحدة المصير والهدف، أما **مقومات** دول الفساد أو الشر **فهى** الصراعات والسلبيات والعلاقات **السيئة** بين أفرادها.

ب ـ للدولة عمر **محدود** وتمر بأطوار حتمية وتبدأ ساعية إلى غاية.. إليها تركض ثم ما تلبث بعد أن تبلغ **منتهاها** فى الانحطاط الذى يصيب المجتمع والأفراد على حدٍّ سواء، **وآية** ذلك الانحطاط **التخاذل** الذى يعترى أفراد المجتمع الأمر الذى يقود إلى نهاية **دورة** حياة الدولة ويأذن بميلاد دولة جديدة نتيجة لاستئناف شىء من القوة والنشاط لدى أفراد **آخرين** على حـ . تعبير إخوان الصفا.

* * *

٣ ـ الأسرة فى فكر إخوان الصفا :

الأسرة **قوامها** الرجل والمرأة والأبناء . . وإن كان **الرجل** سيد الأسرة وركيزتها وحاميها، إلا أن للمرأة **مكانتها** ودورها فيها، وإن كانت مكانتها ودورها ليسا فى حجم و**أهمية** مكانة ودور الرجل.

وإن الأسرة يجب ـ وهى تؤدى **دورها** فى الإنجاب ـ أن تتحلى بالأخلاق حتى **تتيح** تنشئة اجتماعية صالحة للأبناء، لأن الأسرة هى المسئولة عن **تهيئة** جو أخلاقى يمكن للصغير من أن **يتشبع** بالقيم الأخلاقية.

* * *

٤ ـ الأخلاق والمجتمع عند إخوان الصفا :

الأخلاق التى هى **قوام** المجتمع منها ما هو **موروث** ومنها ما هو مكتسب، والموروث منها يتأثر بالكواكب وما لها من سلطان على **الجنين** قبل الولادة، وبالأمزجة والطبائع، وأخيرا تتأثر تلك الأخلاق **الموروثة**، بالبيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان.

أما الأخلاق **المكتسبة** فإنها تتعلم وتتميز عن الموروثة بأنها يمكن أن تستبدل وتتغير.

* * *

إخوان الصفا يحيون فى واقع أفكارهم :

هذا ولم يكتف إخوان الصفا بالفكر **النظرى**، بل تعدوا ذلك إلى تطبيق الكثير من آرائهم على أنفسهم ومريديهم، حيث مارسوا هم أنفسهم نوعا من التنظيم الاجتماعى **الطبقى**، علاوة على التزامهم بميثاق أخلاقى يضمن لهم قدرا من **التكافل** الاجتماعى . . حيث التزم كل عضو من إخوان الصفا بمساعدة أخيه بكل ما يحتاج إليه فى شتى **مجالات** الحياة . . ولاسيما فيما يخص المال والعلم.

أما عن نوعية **التنظيم** الاجتماعى الذى طبقه إخوان الصفا على أنفسهم فهو كما سيتضح **نظام** طبقى يرتكز على السن والدور الذى تلعبه كل طبقة فى الحياة الاجتماعية والثقافية للجماعة، حيث توجد على **قمة** البناء طبقة عليا . . أو طبقة **الصفوة** التى تشبه طبقة القديسين فى الفكر المسيحى، **وتتميز** هذه الطبقة

بأن أعضاءها تجاوزوا الخمسين من عمرهم ويتمتعون **بقدرة** خاصة على مشاهدة حقائق الأشياء والأمور، وسيلتهم فى ذلك طاقة إشراقية **صوفية لا** تتوافر لغيرهم، وتليها طبقة تتراوح أعمار أعضائها ما بين الأربعين والخمسين، ويطلق عليها جماعة **العارفين** أو المدركين . . وهم عارفون ومدركون **لنواميس** الحياة وللقانون الإلهى الذى يسيرها، أما الطبقة الثالثة فهى طبقة **الدارسين**. وتتراوح أعمارهم فيما بين الثلاثين والأربعين . . **ووظيفة** هذه الطبقة هى دراسة الحكمة الدنيوية والتعرف على مختلف الوسائل والفنون التى تؤدى إلى اكتسابها. أما **قاعدة** النظام الطبقى لإخوان الصفا فهى طبقة **التلاميذ** وتتراوح أعمار أعضائها فيما بين الخامسة عشرة والثلاثين عاما، وهؤلاء التلاميذ . . إن هم إلا **جماعة** المريدين . . وعليهم خلال مرحلة التلمذة هذه أن ينقادوا تماما لمشايخهم الذين يوفرون لهم تنشئة اجتماعية على أسس **تربوية** ودينية تؤهلهم مستقبلا لأداء دورهم ضمن إطار البناء الاجتماعى لإخوان الصفا(٦).

* * *

والخلاصة :

أن إخوان الصفا يمثلون **اتجاها** أخلاقيا فى الفكر السوسيولوجى الإسلامى، وكانوا **سباقين** فى إبراز **دور** الطبقات فى المجتمع وفى تحديد **أطوار** الدولة وعوامل قيامها وفنائها مع **التأكيد** على دور الأسرة فى التنشئة الاجتماعية(*).

وكلمة **أخيرة** عن إخوان الصفا . . فإن رسائلهم كانت **تمثل** عصرهم أحسن تمثيل بما صاحبه من **رقى** عقلي على الرغم من الانحطاط السياسى الذى كان سائدا آنذاك، هذا علاوة على أن رسائلهم **اصطبغت** بالفلسفة والمنطق اليونانى علاوة على **حكمة** الهنود وأدب الفرس وعلى النحو الذى **فصلناه** فى أثناء حديثنا عن إخوان الصفا(٧).

* * *

(*) ترك إخوان الصفا كما أسلفنا.. أكثر من خمسين رسالة.. صنفها أستاذنا المرحوم الدكتور مصطفى الخشاب فى كتابه ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق.. فى أربعة موضوعات أساسية هى: الرسائل الرياضية التعليمية، والرسائل الجسمانية الطبيعية، والرسائل النفسانية العقلية، والرسائل الإلهية والشرعية الدينية.

المصادر والتعليقات

١ ـ للاستزادة انظر :

أ ـ أبو حيان التوحيدى ـ المقايسات ـ المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ـ ١٩٢٩ ـ ص ص ٤٥ ـ ٤٦ .

ب ـ دكتور صلاح الفوال ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

٢ ـ انظر فى ذلك :

أ ـ المرجع السابق.

ب ـ الدكتور محمد البهى ـ الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى ـ دار الكاتب العربى ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ ـ ص ص ٢٠٤ ـ ٢٠٧ «الهامش».

٣ ـ إخوان الصفا ـ رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ـ بيروت ـ ١٩٥٧ ، المجلد الرابع ـ ص ص ٨٤ ـ ٨٥ .

٤ ـ للاستزادة حول الزرادشتية والمانوية انظر :

دكتور صلاح الفوال ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢١٧ ـ ٢٣٠ .

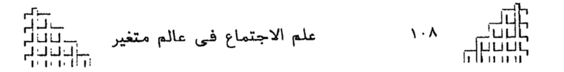
٥ ـ للاستزادة انظر :

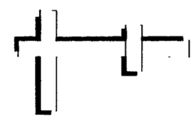
دكتور محمد البهى ـ مرجع سابق ـ ص ٧٠٣ «الهامش».

٦ ـ للاستزادة انظر :

إخوان الصفا ـ رسائل ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ـ ١٩٢٨ .

٧ ـ لأستاذنا المرحوم الدكتور مصطفى الخشاب أكثر من دراسة أكاديمية عن إخوان الصفا ، ولهم كذلك فصل وافٍ ضمن كتابه ـ علم الاجتماع ومدارسه ـ الكتاب الأول عن تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ ص ص ١٢٧ ـ ١٣٠ .

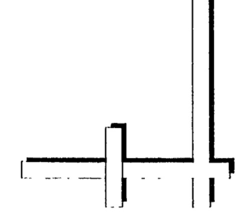




الفصل الخامس

الإسهامات السوسيولوجية عند ابن مسكويه

* مقدمة
* الأخلاق عند ابن مسكويه
* المجتمع فى فكر ابن مسكويه
* أثر البيئة الطبيعية على خواص البشر كما بينه ابن مسكويه
* مراتب النفس البشرية كما حددها ابن مسكويه
* أهمية المشاركة عند ابن مسكويه.



مقدمة :

قدم ابن مسكويه(*) خلال كتابيه «تهذيب الأخلاق» و «الفوز الأصغر» العديد من **الآراء** الاجتماعية الجديرة بالملاحظة والانتباه، والتى تعتبر فى رأينا دراسة فى السلوك الإنسانى لا تقل **أهمية** عن تلك الدراسات التى قدمها فى العصر الحديث العديد من السوسيولوجيين **المعاصرين** أمثال ماكس فيبر وفلفريدو باريتو وماركس وغيرهم.

على كل حال يمكننا أن **نعرض** لأهم الآراء الاجتماعية لابن مسكويه على النحو الآتى :

* * *

الأخلاق عند ابن مسكويه :

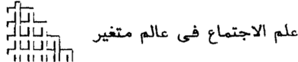
١ ـ تعتبر **دراسة** ابن مسكويه عن الأخلاق، دراسة **للقيم** التى تشكل عنده أساسا **للحياة** الاجتماعية من جهة، والتى تعتبر من جهة أخرى **مقياسا** لكمال الإنسان.

٢ ـ الأخلاق **كسلوك**، هى مصدر **الأفعال** الجميلة غير المتكلفة، وليس معنى هذا ـ فى رأى ابن مسكويه ـ أن تلك الأفعال أفعال **عفوية**، بل هى أفعال واعية بالدوافع والأهداف.

٣ ـ أوضح ابن مسكويه أن **الأخلاق** كمصدر للفعل الإنسانى إنما **تنبع** عن النفس لا عن الجسد، ومن هنا فإن الصراع لابد **أن يحتدم** بين الخير والرذيلة.. مع الأخذ فى الاعتبار أن **الصراع** هنا ـ هو صراع **قيمى** حتى تتحقق فى النهاية تلك الأفعال الجميلة .. أو الأخلاقية على حد تعبير ابن مسكويه.

(*) هو أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب المتوفى عام ٤٣١ ميلادية.





٤ ـ يؤمن ابن مسكويه بأن الأخلاق التى هى **مصدر** الأفعال الإنسانية. . يمكنَ أن **تكتسب** إما بالتعليم أو من خلال **عملية** التنشئة الاجتماعية وخصوصا من **خلال** عملية التقليد.

٥ ـ أوضح ابن مسكويه أن **الأخلاق** ـ كمصادر للأفعال الإنسانية ـ يمكن أن تتغير، كما حدد **أنماط** الفضيلة ـ كمشتق عن الأخلاق الحميدة ـ **بأربعة** أنماط. . هى العفة والشجاعة والعدالة والكرم . .

٦ ـ فرق ابن مسكويه **بين** قيم الخير والسعادة، واعتبر أن الأولى قيمة عامة، باعتبار أن الخير **يعم** المجتمع بأسره، بينما السعادة قيمة خاصة لعاملين ـ أولهما:أنها حالة **فردية** تختلف من فرد إلى آخر، وثانيهما-أن **الإحساس** بها نسبى يختلف من شخص لآخر.

* * *

المجتمع عند ابن مسكويه :

١ ـ اتفق ابن مسكويه مع غيره ممن سبقوه بأن **الاجتماع** الإنسانى ضرورة اجتماعية خلقية، أو هو «**خاصية اجتماعية**» على حد تعبير ابن مسكويه، لكنه اعتبر أن الأخلاق هى عماد ذلك الاجتماع، لأن الإنسان لا يبلغ **كماله إلا** مع أبناء جنسه وبمعونتهم.

٢ ـ المجتمع فى رأى ابن مسكويه هو **الإطار** الذى يجب أن يحتوى كلا من الأخلاق والأفعال الإنسانية، لأن كل **قيم** التعاون والمحبة والإخاء لا يمكن أن تظهر أو تتميز إلا مع جماعة، ومن هنا كانت **الجماعة** أو المجتمع ضرورة ـ بل وضرورة أخلاقية كما يقول ابن مسكويه[1].

٣ ـ لجأ ابن مسكويه إلى **تشبيه** المجتمع بالكائن العضوى، وهو **فى ذلك** متأثر بالفارابى، وسابق من حيث فكرة **المماثلة** العضوية التى اعتنقها عدد من السوسيولوجيين المعاصرين، المهم أن ابن مسكويه كان يرى فى المجتمع **كائنا** حيا تتضامن **أعضاؤه** من أجل تحقيق الخير والسعادة، وأن ذلك **التضامن** يرتكز فى رأى ابن مسكويه على العدالة والدين من حيث إن :

أ ـ **الدين**، يتمثل فى إقامة الشعائر التى أتى بها الإسلام الحنيف، وصلاة الجماعة فى المسجد تقوى **الشعور** الجمعى وتقضى على الفردية، وصوم رمضان

والزكاة وصلاة العيدين والحج وصلاة الجمعة كلها أمور **تجمع** الناس وتقوى لديهم مشاعر الإيثار والمحبة والتعاون والإخاء .. وهى كلها قيم تشكل **الملامح** الأساسية **للمجتمع** عند ابن مسكويه، ثم أن إقامة الشعائر الدينية تعتبر نوعا من التربية التى تُكسب الفرد الأخلاق **الحميدة** وتنميها لديه، ومن هنا فإن الدين وإقامة شعائره يعتبر فى رأى ابن مسكويه «رياضة خلقية **للنفوس** الآدمية».

ب ـ **العدل**، هو طريق **المساواة** بين المسلمين، والمساواة هى **محصلة** الألفة وحسن الجوار والصداقة وصلة الرحم **والتكافل** وحسن الشركة وحسن القضاء والتودد والعبادة[٢].

* * *

*** ولكن كيف يتحقق العدل فى رأى ابن مسكويه؟!..**

أ ـ يتحقق ذلك العدل بفعل إرادة **الله** سبحانه وتعالى المتمثلة فى **ناموسه** المتضمن لأوامره ونواهيه، **ويجب** أن يكون هذا الناموس **قدوة** للمجتمع وملزما للحاكم ومسيطرا على **مختلف** تعاملات الناس[٣].

ب ـ أما **العامل** الثانى الذى يحقق العدل فهو **الحاكم** ـ الذى يقول عنه ابن مسكويه ـ أنه العدل الناطق الذى يجب أن يحكم بناموس **الله** حتى يعيش كل الناس فى سلام واطمئنان.

جـ ـ والعامل **الثالث** والأخير المحقق للعدل .. هوالعامل الساكت ـ كما كان يسميه ابن مسكويه ـ وهو الدينار[*] باعتباره أساسا للمعاملات المادية والعلاقات التبادلية بين أفراد المجتمع، ومن هنا كان الدينار هو **المسوِّى** بين الناس وأحد عوامل تحقيق العدالة بينهم، لذلك يلزم أن يكون **الدينار** **تحت** إمرة سلطان عادل وناموس إلهى **مطاع** من الجميع حاكمين ومحكومين.

د ـ يؤمن ابن مسكويه بأن العدل **ضرورة** اجتماعية لصلاح **حال** المجتمع، وأنه على الحاكم أن يلتزم بالعدل وأن يجعله **شرعة** الناس، وإن كان ابن مسكويه يرى أن التزام الحاكم بالعدالة هو **الأساس** الأول لإقامة المساواة بين الناس، لأنه لا أمل فى التزام الناس بالحق والعدل والأخلاق ما لم **يلتزم** الحاكم بها.

* * *

(*) الدينار هنا رمز الاقتصاد ودلالة عليه.

ابن مسكويه وعوامل تفكك المجتمع :

تحدث ابن مسكويه عن عوامل **تفكك** المجتمع وانعدام التضامن بين أعضائه، وحددها فى عدم **اتباع** نفس مقومات قيام المجتمع وبقائه .. وهى عدم توافر العدل .. من خلال عدم اتباع **ناموس** الله، وعدم وجود **الحاكم** الذى يطبق أوامر الله وشريعته، وعدم احترام **العدل** فى مختلف المعاملات بين أفراد المجتمع، وهى كلها **أمور** تؤدى إلى فساد الحياة **وانحلال** القيم بما يستتبع ذلك كله من خلل فى **البناء** الاجتماعى للمجتمع.

* * *

أثر البيئة الطبيعية على خواص الناس :

ربط ابن مسكويه بين **البيئة** الطبيعية وبين العديد من الصفات والخواص الموروثة والمكتسبة، وذلك من خلال **كتابه** «الفوز الأصغر» وأبرز **التأثيرات** المختلفة لاعتدال المناخ أو جنوحه على خصال موروثة، كالذكاء وحسن الفهم والهمة، وأخرى **مكتسبة** كالثقافة والتيقظ للأمور والحذق فى **الصناعات** واستخراج غوامض العلوم. وابن مسكويه فى هذا سابق لغيره ممن تناولوا هذا الموضوع.

* * *

مراتب النفس البشرية :

رتب ابن مسكويه النفس البشرية إلى عدة مراتب، **وشابه** ما بين النفس البشرية فى بعض درجاتها المنحطة وبين الحيوان، **وقسم** النفس الإنسانية إلى أربع مراتب:

أ ـ **الأولى**... تقوم بينها وبين الحيوان **صلة** قوية، وأصحاب هذه الرتبة أشبه بالبهائم، هم ليسوا بأهل حكمة، بل حتى لا يقبلونها إن هى **جاءتهم من** الأمم التى تجاورهم، **وأناس** هذا حالهم ـ فى رأى ابن مسكويه ـ يحيون حياة بهيمية **ساءت** خلالها أمورهم وأحوالهم، وصاروا **بغير** نفع، ولا جدوى من إصلاحهم لأن **العبودية** هى أصلح الأمور لهم حيث يستخدمون **فيما تستخدم** فيه البهائم.

ب ـ **الثانية**... يحتلها قوم ذوو **ذكاء** وفهم ويقظة وعلم ببواطن الأمور وحذق فى الصناعات وقدرة على الخوض فى أعماق **العلوم** وعلى استيعاب مختلف **المعارف** وابتكارها.

جـ ـ **الثالثة**. . . يحتلها قوم بينهم وبين **الملائكة** خيط رفيع، اكتسبوا مكانتهم تلك من خلال **الفضائل** التى صيرتهم حكماء.

د ـ **الرابعة**. . . لا يرتقيها إلا **الأنبياء** بما لهم من صفات وخصال هى فوق صفات البشر وخصالهم[٤].

* * *

أشكال المشاركة وصورها وأهميتها عند ابن مسكويه :

يؤمن ابن مسكويه بأن **المشاركة** ـ سواء الوجدانية منها أو الفعلية ـ هى أساس تحقيق **التكافل** والتعاون بين مختلف أفراد المجتمع، واعتبر أن تلك المشاركة ليست منّة، بل هى تصل عنده إلى **حد** الواجب.

* وفى هذا يقول ابن مسكويه [٥] :

«اعلم أن **مشاركة** الصديق فى السراء وإن كانت **واجبة** عليك، حتى لا تستأثر ولا تختص بشىء منها، فإن مشاركته فى **الضراء** أوجب وموقعها عنده أعظم».

ثم يحدد ابن مسكويه **أشكال** وصور المشاركة. . هل **هى** بالمال أو بالنفس، أو بهما معا، حيث يقول[٦]:

«وانظر عند ذلك إن أصابته أو لحقته مصيبة، أو **عثر** به الدهر، كيف تكون مواساتك له بنفسك ومالك، وكيف يظهر له **بعفوك** ومراعاتك».

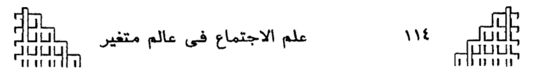
* ولكن **كيف** تتم المشاركة . . هل تقدم **بمبادرة** فورية عقب وقوع النكبة، أم يتم **الانتظار** حتى يطلب الصديق **المنكوب** ذلك تصريحا أو تلميحا؟!

والرد عند ابن مسكويه : «ولا تنتظر به أن **يسألك** تصريحا أو تعريضا، بل اطلع على قلبه واسبق إلى ما فى نفسه **وشاركه** فى مضض ما لحقه».

*** ولكن ما جدوى تلك المشاركة؟!**

يقول ابن مسكويه إن ذلك «ليخفف عنه».

* والمشاركة لا تكون فى **مصائب** الآخرين فقط، بل يجب فى رأى ابن مسكويه أن تشركهم **أيضا** فى **مسراتك**، وأن يكون لهم من عزك نصيب وخصوصا إذا كنت من **أصحاب** الغنى والسلطان، وفى هذا يقول[٧]:



* «وإذا بلغت مـرتبة من السلطـان والغنى **فاغمس** إخوانك فيهـا من غير امتعاض ولا تطاول»، لأن ذلك كما سبق أن أسـلفنا ليس منة بل هو **واجب** عند ابن مسكويه(٨).

* ولـكن مـا هـو الموقـف إذا **انصرف** الصـديق أو الأصـدقاء مـن **حول** صديقهم وكيف يكون تصرفه؟!

يقول ابن مسكويه(٩):

«وإن رأيت مـن بعضـهم نبـوًا عنك أو نـقصانـا مما عهـدته **فداخله** زيادة مداخلة، واختلط به واجتذبه إليك».

* وما هى **جدوى** هذه المداخلة .. وما هى **تأثيراتها** سواء علـى الجفوة أو المودة؟!.

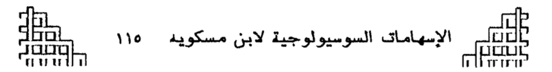
يقول ابن مسكويه محذرا من محاولة **التعالى** على الصديـق حتى ولو كان مخطئا(١٠):

«فإنك إذا **أنفت** من ذلك أو داخلك شيء من **الكبر** والصلف عليهم ـ أى على الأصدقاء المخطئين ـ **انتقص** حبل المودة وانتكثت قوته»(١١).

وكلمة **أخيرة** عن الفكر الاجتماعى لابن مسكويه، فقد جاء **ذلك** الفكر فى بعض خواصه نتاجـا طبيعيا **لهيمنة** الفكر اليـونانى عليه، حيث تـشابهت آراء ابن مسكويـه وخصوصا خلال كتـابه «الفوز الأصغر»، وفـى موضوع **النفس** البشرية بالذات، حيث **تشابهت** آراء ابن مسـكويه وآراء **أرسطو** فى هذا الشـأن بكل ما شابها من دعاوى العنصرية **والطبقية** التى تبعد كثيرا عن روح المثالية التى اتسمت بها بقية آراء ابن مـسكويه والتى **تتنافى** مع مـصدر إلهامـه الأصلى.. وهى روح الإسلام.

وعلى كل **حال** نحن لم نشأ هـنا أن نورد الأمثلة التى ضربهـا ابن مسكويه **لمراتب** النفس الـبشرية باعتـبارها **زلة** قـلم مـن عـالم قـدم ـ ولا شـك ـ فكـرا **اجتماعيا** فيه الكثير من الجدة والصواب(١٢).

* * *



المصادر

١ ـ ابن مسكويه ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ـ طبعة القاهرة ـ ١٢٨٩هـ.

٢ ـ المرجع السابق، وانظر أيضا :

كتابيه «تجارب الأمم وتعاقب الهمم»، «الهوامل والشوامل» ـ لجنة التأليف والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٥١ .

٣ ـ دكتور صلاح الفوال ـ تاريخ علم الاجتماع الإسلامى ـ مرجع سابق.

٤ ـ دكتور صلاح الفوال ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى الإسلامى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢م.

٥ ـ المرجع السابق ـ ص ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

٦ ـ المصدر السابق ـ ص ١٥٢ .

٧ ـ نفس المصدر السابق ـ ص ١٥٣ .

٨ ـ ابن مسكويه ـ الهوامل والشوامل ـ مرجع سابق.

٩ ـ المصدر السابق.

١٠ ـ دكتور صلاح الفوال ـ تاريخ علم الاجتماع الإسلامى ـ مرجع سابق.

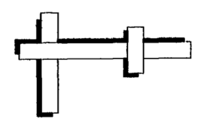
١١ ـ المرجع السابق.

١٢ ـ دكتور صلاح الفوال ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٤٧ ـ ١٥٥ .

* * *



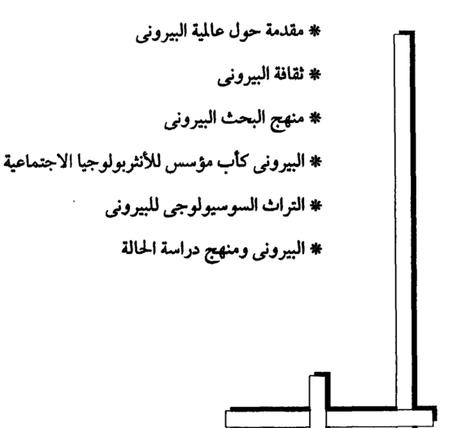




الفصل السادس

البيرونى وإسهاماته السوسيولوجية

* مقدمة حول عالمية البيرونى
* ثقافة البيرونى
* منهج البحث البيرونى
* البيرونى كأب مؤسس للأنثربولوجيا الاجتماعية
* التراث السوسيولوجى للبيرونى
* البيرونى ومنهج دراسة الحالة



مقدمة :

حول عالمية البيرونى فكرا وانتسابا :

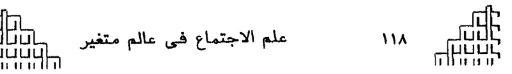
أبو الريحان محمد بن أحمد **البيرونى**(*) الذى نحن بصدده الآن ليس عالما سوسيولوجيا **إسلاميا** فقط، بل إنه تجاوز ذلك كله إلى **العالمية** . . العالمية من حيث الانتشار . . والعالمية من حيث ما وسعته **قدرته** على البحث والابتكار فى شتى **نواحى** المعرفة الإنسانية، وبحيث توفر على دراسة **عبقريته** علماء عديدون من شتى الأمم، وقد وصفه المستشرق الألمانى إدوارد **سخاو** بعد دراسة آثاره بأنه «أعظم عقلية عرفها التاريخ»، كما قال عنه الدكتور **سارتون** فى مقدمة كتابه (تاريخ العلم) : «إن البيرونى كان **باحثا** فيلسوفا رياضيا جغرافيا، من أصحاب الثقافة الواسعة، بل من أعظم علماء الإسلام، ومن **أكابر** علماء العالم»، بل أكثر من ذلك فقد سمى **النصف** الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى بعصر البيرونى.

وقال عنه **سميث** فى كتابه (تاريخ الرياضيات): «إن البيرونى كان ألمع علماء زمانه فى الرياضيات، وإن الغربيين **مدينون** له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها فى العلوم».

أما المستشرق جوزيف **شخت** فقد كان يرى أن «البيرونى عبقرى مبدع ذو بصيرة شاملة نفاذة».

وقد بلغ **إعجاب** إدوارد سخاو بالبيرونى حدا جعله **يقول** فيه: إن الشيخ أبا الريحان البيرونى أعظم مفكر ظهر على وجه البسيطة»[1].

(*) عاش البيرونى بين عامى ٣٦٢ هـ - ٤٤٠ هـ



أما المستشرق الروسى **بارتولد** فيقول عن إسهامات البيرونى إنها ما زالت جديرة بعناية قراء اليوم، وإن **مؤلفاته** تشغل مكانة ممتازة من حيث وفرة موادها، وما فيها من الاعتناء بتطبيق الأصول العلمية(٢).

ولم **تتوقف** عالمية البيرونى عند هذا الحد فقط، بل امتدت لتشمل العديد من الدول التى تدعى **شرف** انتسابها إلى البيرونى.. أو تقول إن هو إلا أحد مواطنيها، فكثير من الجمهوريات التى كانت منضوية تحت **لواء الاتحاد** السوفيتى السابق.. بل وما زالت كثير من الجمهوريات الإسلامية **المنضمة** للاتحاد الروسى «روسيا»(*) تعتبر البيرونى أحد **مواطنيها**، وأقامت له تمثالا فى متحف جامعة موسكو تقديرا له، كما سميت كلية الدراسات الشرقية بجامعة **طشقند** بكلية البيرونى، وتوفر عدد غير قليل من الباحثين الروس على **تحقيق** تراث البيرونى.

والترك هم الآخرون **ينازعون** الروس ادعاءاتهم بشرف **انتسابهم** إلى البيرونى حيث **يعتبرونه** تركمانى الأصل.

كما أن **الفرس**.. ينازعون هؤلاء وهؤلاء فى شرف انتماء البيرونى إليهم..!! والبيرونى.. حقيقة من **أصل** خوارزمى(**).. لكنه **حسم** هذه القضية بنفسه عندما اختار **العربية** لسانا **والإسلام** دينا.. بل كان لهما شديد التعصب لدرجة **أنه سخر** من دعوة **إحياء** الفارسية التى استشرت فى عصره، واغتنم كل **فرصة** سانحة لتحقير هذه الدعوة؛ لأن **فضل** العربية لا ينكر **وشرف** الانتماء إليها مع الإسلام لا يدانيه شرف.

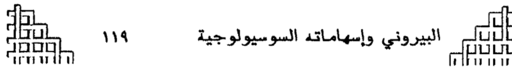
* إذن الرجل **عربى** اللسان.. **مسلم** العقيدة.. **عالمى** الفكر والمكانة.. وإن كان لايزال لم ينل **حظه** بين من أحبهم وأحس بشرف الانتماء إليهم **لغة** ودينا وتراثا.

وعلى كل حال نحن هنا سنلقى **الضوء** فى عجالة على بعض جوانب **شخصية** البيرونى وتراثه العلمى قبل أن نخوض معه **غمار** حديث طويل عن إسهاماته السوسيولوجية(٣).

* * *

(*) الاتحاد الروسى.. يطلق الآن على مجموعة من الجمهوريات التى فضلت أو لم تسمح لها الظروف بالاستقلال بعد انهيار الاتحاد السوفييتى.. فبقيت ضمن.. الاتحاد الروسى «الكومنولث الروسى».

(**) ولد البيرونى بخوارزم وإليها انتسب.. أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى.. والخوارزمى هنا.. بقية اسمه.. فضلا عن توضيح انتمائه إلى خوارزم.



ثقافة البيرونى :

تتلمذ البيرونى على يد **أساتذة** عصره فى الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ، **واتصل** بالعديد من فلاسفة ذلك العصر **وحاورهم** ومنهم الشيخ الرئيس **«ابن سينا»** كما تأثر البيرونى **بآراء** كل من الفارابى والكندى والمسعودى، كما تأثر بالثقافة **اليونانية**، وتطلع إلى الكشف عن مصادر أخرى للحكمة عساها أن تكون موجودة فى **الشرق** .. فتاقت نفسه إلى الهند وإلى التعرف على كنز **الحكمة** الهندية التى وجد الكثير منها فى مكتبة أحد **أمراء** الدولة السامانية ويدعى «نوح بن منصور السامانى» والتى **صحبه** إليها ابن سينا ذات يوم فلم تنقطع زياراته لها بعد ذلك أبدا.

وكان البيرونى **متمكنا** من أصول اللغة العربية عالما بأسرارها وقواعدها وآدابها، وكان يجيد إلى **جوارها** اللغة الفارسية واللغة السنسكريتية ـ لغة الهند ـ واليونانية والعبرية والسريانية.

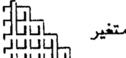
وعرف عن البيرونى أنه كان على **جانب** كبير من الدهاء والذكاء الخارق علاوة على سعة الحيلة، كما نال **الحظوة** والمكانة الأثيرة عند أمراء القرن الرابع الهجرى من آل سامان وآل شمكير، وبلغت هذه الحظوة وتلك المكانة **ذروتها** إبان عهد **السلطان** العظيم «محمود الغزنوى» حاكم بلاد الأفغان وبخارى وما جاورها علاوة على خراسان والمتوفى عام ٤٢١ هجرية(*).

وكان البيرونى إلى **جانب** علمه وسعة اطلاعه.. يتمتع بسمات الناقد الجرىء الذى ينقد الأمور ويبدى رأيه فيها فى **حرية** وشجاعة ممزوجتين بالإخلاص والتسامح، وكلها **صفات** جعلت البيرونى عملة نادرة.. تتألق بفخر البيرونى بكل أساتذته الذين **تعلم** منهم وأخذ عنهم ورد **الفضل** إلى أهله فى كل بحث علمى جديد.. علاوة على ما كان يتميز به البيرونى من زهد **شديد** وتقوى جعلا عنده العلم أرفع درجات **العبادة** وأقصر الطرق لمعرفة الله والاعتراف بقدرته وعزته.

* * *

(*) يوافق ذلك التاريخ عام ١٠٣٠ ميلادية.





تراث البيرونى :

ترك البيـرونى العديد من **المؤلفات**، وذكر «ياقوت الحمـوى» أن الفهرست الذى يحتوى على أسماء مؤلفات البيرونى يقع وحده فى ستين ورقة، ولكن الذى اشتهر عن البيرونى حوالى عشرة كتب **عالجت** معظم موضوعات المعرفة الإنسانية التى كانت سائدة فى عصره والتى ما زال للعديد منها **قيمته** وأصالته العلمية حتى اليوم . . نذكر منها :

أ ـ كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، **ولعله** ـ مع كتاب الهند الكبير ـ من أشهر كتبه على الإطلاق.

ب ـ كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة فى العقل أو مرذولة»، وهذا الكتاب **يعرف** أيضا باسم «كتاب الهنـد الكبير» وهو الآخر من **أشهر** وأخلد كتب البيرونى ويعتبر **تراثا** سوسيولوجيا ممتازا وفريدا فى عصره.

جـ ـ مـجـمـوعـة كـتب، القـانون المسـعـودى، باتا نجل **المعروف** باسـم «جوكاسوترا»، الصـيدنة أى الصيدلة، **الجماهر** فى معرفة الجـواهر، التفهيم فى التنجـيم، وهو من أشهـر الكتب فى **الفلك**، الإسطرلاب، الاستيـعاب للوجوه الممكنة فى صناعـة الإسطرلاب، وأخيـرا كتـاب «الكسوف والخسوف على خـيال الهنود».

د ـ وإلى جـــوار الكتب **المؤلفة** توجـد للبيـرونى العـديد من الكتب التى ترجمها من اليونانية والفارسية والهندية **إلى** العربية والعكس، ولعل من أشـهر ما ترجمه البيرونى **كتاب** «المجسطى» لبطليموس.

هـ ـ هذا وقد تحدث البيرونى بنفسه عن **مؤلفاته** وعما استغرقه فى إعدادها من وقت وما **حوته** من معلومات، **وحددها** بأربعة عشر كتـابا، **قسم بعضها إلى** عدة رسـائل بلغت اثنتى عشـرة فى كتابه «مـا يجرى مـجرى الأحمـاس من الهزل والسخـف» كما أن بعـض المصادر الأخرى تـقدر **تراث** البيرونى **بأربعـة وعشرين** كتابا(٤).

* * *

منهج البحث البيرونى :

(أ) **شرح** البيرونى منهجه فى **البحث** خلال مقدمة كتابه «الآثار الباقية» حيث قال:

«إن أقرب **الأسباب** لمعرفة «التواريخ التى تستعملها الأمم» هو «معرفة أخبار الأمم السابقة وأنباء **القرون** الماضية، لأن أكثرها أحوال عنها، **ورسوم** باقية من رسومهم **ونواميسهم**، ولا سبيل إلى التوصل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات، والقياس بما يشاهد من المحسوسات، سوى **التقليد** لأهل الكتب والملل، وأصحاب الآراء والنحل، المستعملين بعضها، ويعتبر ما هم فيه أساسا يبنى عليه بعده، ثم **قياس** أقاويلهم وآرائهم فى إثبات ذلك بعضها لبعض، بعد **تنزيه** النفس عن العوارض الموروثة لأكثر الخلق، والأسباب **المعمية** لصاحبها عن الحق، وهى كالعادة المألوفة والتعصب **واتباع** الهوى».

(ب) كان البيرونى يرى أن تحصيل **المعرفة** لا يمكن أن يتم بغير البحث والتجربة، وحارب اعتناق الآراء فى تسليم ودون تمحيص أو **تحقيق**، وطالب بحسن **استخدام** العقل فى إخضاع الأشياء محل البحث للعديد من التجارب.

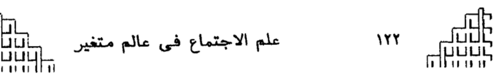
(جـ) كما حذر البيرونى من **التقليد**، وطالب كل صاحب رأى أن يستوثق جيدا مما يقول قبل أن **يجاهر** برأيه، ودعا إلى عدم **التمسح** بعبارة «الله أعلم» لمداراة الجهل بحقائق الأمور.

(د) ومما يروى عن البيرونى أنه كان يعود **للمصادر** الأصلية فيما يكتبه ويلتزم بما ورد فيها التزاما تمليه عليه **أمانته** العلمية، ولم يكن يطمئن أبدا إلى النقل عمن رجعوا إلى تلك المصادر وخصوصا إذا ما **استشعر** ضعفا فيما تحت يده من مراجع أو معلومات.

(هـ) كما دفعت **رغبة** البحث الأصيلة المتوافرة لدى البيرونى . . دفعته لأن يتعلم اللغات **الأصلية** للأمم والشعوب التى يكتب عنها أو يدرسها، فقد تعلم اليونانية والفارسية، كما لم **يكتف** بتعلم اللغة السنسكريتية(*) بل أجاد لهجاتها المختلفة أيضا **عندما** أراد أن يؤلف كتاب «الهند الكبير»، هذا علاوة على استقرار البيرونى فى الهند لمدة يقال أنها **بلغت** أربعين عاما(**).

(*) اللغة السنسكريتية Sankrit لغة الهند القديمة.. والسنسكريتية تعنى اللغة المهذبة أو التامة، وهى الآن لغة الخاصة أو الصفوة.. خاصة منهم العلماء، أما العامة فيتكلمون لغة البركريت Barkrit والثابت أن البيرونى.. تعلم اللغتين وأجادهما.. بل وألف بهما.

(**) وبذلك يكون البيرونى «أول من ابتكر وطبق واحدة من أهم طرق البحث السوسيولوجى المعاصر . . وهى الملاحظة بالمشاركة.



(و) كما أن ولع البيرونى بالرياضيات وعلوم الفلك والطب جعله ميالا إلى أسلوب **الاستقصاء** والحس فى طلب المعرفة، ويتضح مدى **عظمة** البيرونى وسبقه لو تبينا أن الأسلوب **الاستشراقى** هو الذى كان منتشراً آنذاك، وهذا الأسلوب **ركيزته** التصوف، حيث لا تحصل المعرفة إلا عن طريق **مجاهدة** النفس ورياضتها بوسائل **منها** الزهد والانقطاع إلى التأملات الباطنية.

ولكن البيرونى رفض منطق الاستشراق الذى رأى أنه **يجافى** العقل ولا يستخدمه، **وسلك** البيرونى طريق **الملاحظة** الحسية والتجريب ثم الاستنباط والتعليل.. وصولا إلى المعرفة.

* * *

الملامح العامة للمنهج البيرونى فى البحث :

على كل حال فإن أهم ما يميز **منهج** البحث البيرونى هو[٥]:

أ ـ الاعتماد على **الملاحظة** المباشرة والمشاركة أحيانا.

ب ـ الاعتماد على **التجارب** العملية والميدانية.

جـ ـ استخدام **العقل** فى الاستنباط والتعليل.

د ـ رفض أية وسائل **غير** حسية للوصول إلى المعرفة.

هـ ـ رفض **التقليد** لمن سبقه.

و ـ الرجوع إلى المصادر **الأصلية** حتى لا تضيع **الحقيقة** العلمية.

ز ـ التأكد من عدم فساد الآراء **قبل** الجهر بها عن طريق إخضاع المعلومات المتحصلة للنقد.

ح ـ الاعتماد على **أساليب** القياس الكمى والاستقصاء الحسى كلما كان ذلك ممكنا.

ط ـ الاستمرار فى البحث **والمواظبة** عليه، لأن نجاح الإنسان «موهبة» من الله تعالى ولكن لا يمكن **تحقيقها** إلا بالمواظبة **الدءوب** على الممارسة.

* * *

إسهامات البيرونى المنهجية:

هذا ومن أهم الإسهامات المنهجية للبيرونى من وجهة نظرنا كسوسيولوجيين ما يأتى :

أولا: أرسى البيرونى قواعد **المنهج** التاريخى والمقارن خلال كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» فنحن نراه فى هذا **الكتاب** قد اتبع الخطوات الآتية:

أ ـ الاتصال **بمصادره** المختلفة ممن توسم فيهم أن يكونوا عونا له فيما ينشده من معلومات.

ب ـ القيام **بمقارنة** المعلومات التى تحصل عليها من مختلف المصادر واستبعاد ما اعتمد **منها** على الهوى والتعصب.

جـ ـ القيام **بنقد** تلك المعلومات والأخذ بما يثبت صحته منها على أن يكون ذلك كله مقبولا ومعقولا **وبعيدا** عن كل شك أو ريبة.

(د) هذا ويصف البيرونى منهجه **التاريخى** فيقول «على أن الأصل الذى أصلته، والطريق الذى مهدته ـ ليس بقريب المأخذ، بل كأنه من بعده وصعوبته، يشبه أن يكون غير موصول إليه، لكثرة الأباطيل التى تدخل فى جملة الأخبار والأحاديث وليست كلها داخلة فى حد الإقناع، فتميز وتهذب، ولكن ما كان منها فى حد الإمكان جرى مجرى الخبر الحق، إذا لم تشهد ببطلانه شواهد أخرى»(*).

ثانيا : تميز البيرونى عن غيره من المؤرخين بأنه طبق طريقة **فريدة** فى البحث التاريخى **زاوج** خلالها ما بين الفلك والتاريخ، حيث كان يقدم لذكر الحوادث التاريخية بمقدمات **فلكية** عن طريق استخدام **الجداول** ذات الرموز الفلكية التى تضم **تواريخ** الأمم المختلفة.

ثالثا : كان البيرونى يقدم لموضوعاته **بمقدمة** قصيرة تتناول الخطوط العريضة لما سوف تتضمنه دراسته، ثم ما يلبث أن يسهب ويفيض بعد ذلك.

رابعا : أرسى البيرونى **دعائم** «الملاحظة المشاركة» بشكل خاص والملاحظة العلمية بشكل عام خلال قيامه **بتأليف** كتاب «الهند الكبير» ولنترك البيرونى يتحدث عن ذلك من خلال **مقدمة** كتابه المشار إليه حيث يقول :

(*) لعل هذه الرؤية البيرونية فى رأينا من أولى المحاولات الرائدة لتحصيل المعرفة على اساس نقدى مقارن يعتمد على الواقع ويجنح عن الخيال.



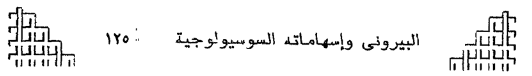
«ليس الخبر **كالعيان**، لأن العيان إدراك عين الناظر عين المنظور إليه فى زمان وجوده، وفى مكان حصوله»، **والخبر**.. هو الإخبار أو الإسماع، لكن العيان.. يعنى المشاهدة، **هو** المعايشة والملاحظة الظاهرة أو الموضوع المبحوث فى نفس زمان ومكان حدوثها.

* وحتى تكتمل **الصورة** عن فضل البيرونى فى ابتكار طريقته المنهجية الجديدة وهى **الملاحظة** العلمية سواء أكانت مشاركة أو غير مشاركة، نجده قد **تعلم** لغة المبحوثين بكل أسرارها **وتعرف** على عاداتهم وتقاليدهم **وعايشهم** فترة زمنية طويلة تكفيه للغوص **فى أعماق** مجتمعهم، وبل وقام **بتسجيل** كل ملاحظاته ومشاهداته، لأنه يؤمن بأن العيان لابد أن **يستتبع** بالكتابة ـ أى بالتسجيل ـ لأن الكتابة ذات فضل عظيم فى **حفظ** مشاهدات الباحث حتى يتسنى له بعد ذلك تصنيف ما كتب **وعرضه** فى تسلسل منطقى.

خامسا : أرسى البيرونى قواعد استخدام **المنهج** الكمى.. واللجوء إلى الاستنباط والتعليل أثناء تعامله مع **مختلف** الظواهر الاجتماعية من خلال دعوته إلى **البعد** عن الاتجاه الاستشراقى وعدم تعليق **أخطاء** الجهل على شماعة العبارة التقليدية «والله أعلم»، ودعا كل صاحب رأى إلى أن يقول ما هو **واثق** من صحته وما هو قادر على **تحمل** نتيجته فقط بغير استخفاف أو إسفاف.

سادسا : استخدم البيرونى المنهج **المقارن** عندما كان يتعرض لآراء أهل الهند خلال كتابه «الهند الكبير» ثم **يقوم** بالمقارنة بين هذه الآراء والأفكار وبين غيرها من آراء وأفكار **أهل** حضارات أخرى.. كالعرب والفرس واليونان.

سابعا : البيرونى بكل المقاييس يعتبر الأب **المؤسس** للأنثربولوجيا، **لأن** ما فعله إبان القرن الحادى عشر الميلادى هو **نفس** الشيء الذى فعله علماء الغرب وباحثوه فى **القرنين** الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى مع اختلاف الهدف بين البيرونى وعلماء الغرب.. فالبيرونى دفعه **حب** العلم ورغبته الملحة فى أن **يعايش** قوما سمع عنهم وعن حضارتهم الكثير، وكان يدفعه **وازع** دينى قوى.. هو أن ينقل إلى الحضارة الهندية وعنها حتى يفتح **نافذة** أمام الفكر الإسلامى ـ ويفتح فى ذات الوقت بابا أمام هذه البلاد الحديثة العهد بالإسلام حتى **تنهل** من ينابيعه الفياضة بما يصحح إيمانهم **ويقوى** من عزائمهم حتى يعزوا بالإسلام ويعز الإسلام بهم.



أما علماء الغـرب وباحثوه **فأقل** ما توصف به جهودهم الأنـثربولوجية التى قاموا بها لما **استعمروه** من بلدان أو لما كانوا **يمهدون** لاستعماره ـ أقل ما توصف به تلك الجهـود على الرغم من علميتهـا أنها لم تكن **خالصة** لوجه الله أو لـوجه العلم بقدر ما كانت **لأسباب** وأهداف أخرى.

* * *

البيرونى هو الأب المؤسس للأنثربولوجيا كيف؟!:

والجواب **ببساطة** شديدة لأنه:

أ ـ درس اللغة الهندية **وقارنها** باللغة العربية **وأوضح** ما بينهما من نقاط اتفاق واختلاف، كما درس مختلف **مجالات** الثقافة علاوة على الفنون والآداب الهندية السائدة آنذاك.

ب ـ درس البيـــرونى **الديانة** الهندية، وكـذلك الفلسـفات والمعـتقـدات والشرائع السـائدة علاوة على ما سمـعه من **أساطير** تتصل بالدين والحـياة الدنيا والآخرة، كمـا تعرض **لآرائهم** فى التـصـوف وأرجع الديانة الهندية إلى أصـول يونانية ومسيحية(*).

جـ ـ عرض العديد من مظاهر **البناء** الاجتماعى الهندى بما يضمه ذلك البناء من نُظم وظواهر اجتمـاعية **وأنماط** ثقافـية، ولم يكتـف بالعرض بل قـدم دراسة مقارنة لها بما **يماثلها** لدى المجتمعات العربية والفارسيـة واليونانية وهى مجتمعات عايشها البيرونى كالمجتـمعات العربية والفارسية أو **قرأ** عنها من مصـادرها الأصلية كاليونانيـة، أى أن دراسته **المقارنة** تلك لم تكن مـن فـراغ وإنما على أسـاس من المعايشة **والتجريب** أيضا.

د ـ تعرض البـيرونى **للعلاقات** داخل المجتـمع الهندى سواء أكـانت تلك العـلاقات بين النظم بعـضهـا وبعض، أو بين مخـتلف **الفئات** المكونة للمجـتمع الهندى أو بين ذلك كله مجتمعا.

(*) كما أوضح البيرونى ما بين المسيحية وكل من البوذية والبرهمية من صلات عرضنا بعضها عند الحديث عن الفكر الاجتماعى المسيحى ضمن كتابنا سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٨٢



وأوضح مثال لذلك دراسة البيروني عن **الطبقات** في المجتمع الهندى وتحليله **لأسباب** وجود ذلك النظام ورسوخه بأن أرجعه إلى **ضرورة** سياسية ودينية واجتماعية وثقافية.

هـ - شرح البيرونى أصل كثير من الأمم **الغابرة** خلال كتابه «**الآثار الباقية** عن القرون الخالية» كما عرض **جداول** لملوك آشور وبابل والكلدان والقبط واليونان فيما قبل عهد المسيحية وبعدها وللملوك الفرس قبل الإسلام(*).

* إذن البيرونى تعرض لمختلف **الموضوعات** التى تناولها الاتجاه الأنثربولوچى المعاصر بكل اهتماماته، مما يضع البيرونى فى مكانته اللائقة به كأب مؤسس للأنثربولوچيا كاتجاه سوسيولوجى **ومنهج** علمى متميز للبحث الاجتماعى.

* * *

التراث السوسيولوجى البيرونى :

يتجلى الإسهام السوسيولوجى للبيرونى ضمن **مؤلفه** الخالد «كتاب الهند الكبير» أو «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة».

والكتاب على الرغم من **جدته** وسعة معلوماته، يعتبر دراسة سوسيولوجية لمجتمع الهند فى **زمن** السلطان محمود الغزنوى(**) وتميزت هذه الدراسة بعدة سمات أساسية هى:

أولا: التزامها بمنهج علمى فى الدراسة والبحث **امتزجت** خلاله عقلية البيرونى الرياضى والفيلسوف والمؤرخ والباحث السوسيولوجى المدقق والمحلل والمفسر لكل ما يلاحظه فكانت النتيجة إسهاما عبقريا غير مسبوق على الإطلاق.

ثانيا: دقة المعلومات التى **حوتها** الدراسة، وإحاطتها بكل **جوانب** الحياة فى المجتمع الهندى، حيث لم يكتف البيرونى بدراسة **طبيعة** الهند وجغرافيتها بل تعدى ذلك إلى دراسة مختلف أحوال **السكان** ونظمهم الاجتماعية وطرائقهم فى العيش **وعلاقاتهم** المختلفة، علاوة على دراسة **لغات** المجتمع المبحوث وثقافته وعاداته وتقاليده (***).

(*) يقصد بالجداول.. الجداول السلالية التى تبين الأصول والفروع للمجتمعات محل الدراسة.

(**) كان ذلك عام ٤١٧ هـ الموافق ١٠٢٦ ميلادية.

(***) المجتمع الهندى مشهور بتعدد لغاته وتباين اللهجات المحلية حتى داخل إطار اللغات المختلفة.



ثالثا: النظرة **النقدية** التى كان يعرض بها البيرونى **آراءه**.. تدل على سعة اطلاعه وتمكنه من مختلف **فنون** البحث السوسيولوجى، علاوة على رغبته فى عدم الاكتفاء بمجرد البحث والدراسة، وإنما **ضرورة** العمل على **استثمار** المعلومات المتوافرة عند **التطبيق** حتى يتحقق حسن الاستفادة منها، فيكون البيرونى بذلك أول من قسم **علم** الاجتماع.. إلى علم نظرى وآخر تطبيقى.

رابعا: عرض البيرونى **الظواهر** التى سعى إلى دراستها فى المجتمع الهندى بصورتها التى عايشها عليها، ثم **راح** يحلل ويفسر ويجرى الكثير من المقارنات بين ما شاهده أو عايشه أو قرأ عنه، وبين **نظيره** فى الثقافات الأخرى ولا سيما اليونانية والفارسية والعربية.

* * *

البيرونى هو المؤسس الحقيقى لمنهج دراسة الحالة:

إذا كان تيماشيف Timacheff(*) خلال مؤلفه القيم عن «نظرية علم الاجتماع».. قد قال: أن استخدام «لوبلاى Le Play» لأساليب «منهج دراسة الحالة Case Study» يعتبر استخداما مبكرا لمنهج دراسة الحالة كما سيتضح لنا خلال الفصل التاسع(**) من هذا الكتاب، فإن الذى فعله لوبلاى الذى عاش فى المدة من ١٨٠٦ - ١٨٨٢م لا يختلف فى كثير أو قليل عما **فعله** «البيرونى» الذى ولد عام ٣٦٢هـ ومات ٤٤٠هـ الذى يوافق عام ١٠٤١ ميلادية تقريبا.. أى قبل لوبلاى بحوالى ٨٤١ سنة وهو ما يقارب ثمانية قرون ونصف حيث **اعتمد** كلاهما - البيرونى ولوبلاى - على **الملاحظة** الدقيقة الواعية ومنها **الملاحظة** بالمشاركة.. للظواهر الاجتماعية محل الدراسة، و**حالات** الدراسة.. كانت الناس وأفكارهم وانتماءاهم المختلفة.. وكذلك الطبقات والسلطة بمختلف أشكالها.. فضلا عن القادة المحليين، إلى جانب الديانات والمعتقدات والثقافات والسنن الاجتماعية.

كلاهما فعل **نفس** الشىء تقريبا - إلا أن البيرونى سابق على لوبلاى بما يربو عن ثمانية قرون.. ولم يتوافر له ما **توافر** للوبلاى من إمكانيات.. زد على ذلك أن البيرونى عاش **بين** المجتمعات المبحوثة - الهند خاصة - معظم سنى عمره.. وتعلم **لغتهم** بلهجاتها ولكناتها الكثيرة والمرهقة..!!.

(*) انظر - تيماشيف «نظرية علم الاجتماع» ترجمة الدكتور محمود عودة وزملائه - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٢ - الطبعة الثانية - ص ص ٦٣ - ٦٦.

** انظر الباب الثالث.. الفصل التاسع من هذا الكتاب.. لتتعرف على منهج دراسة الحالة عند لوبلاى.



ومن هنا.. نؤكـد أن الـبـيـرونى لم يكن **مسبوقا**.. لا وهو يـبتكر «طريقـة الملاحظة بالمشـاركة».. ولا وهو **يبتكر** ويستخدم منهـج «دراسة الحالة».. حتى وإن كان «البيرونـى».. مسبوقا فى أىٍّ من المجالين.. فـإن سابقه ليس بالطبع «لوبلاى».. وإنما هو بالضرورة عـالم مسلم من الرحالة أو الأنثـربولوجيين العـرب والمسلمين.. وهم(*):

(أ) أحمد بن فضلان.. وكان مبعوث الخليفـة المقتدر عام ٩١٢ ميلادية للتعرف على ظروف بلغاريا ووصف أحوال السكان **وعاداتهم** وتقاليدهم، كما قام بتعليم الناس قـواعد **الدين** الإسلامى واللغة العـربية تمهيدا للفـتح الإسلامى بعد ذلك.

(ب) المسعودى.. ويعـتـبـر كـتـابه «مـروج الذهب» من أدق الدراسـات الأنثربولوجية.. والكتاب أنجزه المسعودى فى عام ٩٨٥ من الميلاد.

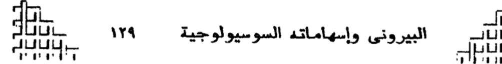
(جـ) أبو القاسم محمد بن حوقل.. الذى توفى عام ٩٩٠م ترك كتابه «المسالك والممـالك».. ليكون عونا لكل الباحـثين فى دراسة مخـتلف أحوال ونظم وعادات وتقاليد وجغرافية.. **وثقافة** دولة القرامطة فضـلا عن **نظمها الاشتراكية** فى السياسة والاقتصاد.

(هـ) أحمد بن أبـى يعقوب.. المعروف باليـعقوبى.. وقـد ترك عام ٨٩١ ميلادية مؤلفه الضخم عن «البلدان».. الذى وصف فيه مختلف أحوال الهند ومصر وأرمينية.. وصفا دقيقا(**).

* * *

(*) انظر دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتـماع العربى والإسلامى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ص ١٨٧ـ ١٨٩ أو فى فقرات كثيرة منه.

(**) هناك العـشرات من الأنثـربولوجيـين العرب والمسلمـين لكنهم تالون من حـيث الزمن للبيـرونى؛ لذلك اقتصـرنا على السـابقين له لنؤكد أن دراسـة الحالة، والملاحظة بالمشاركة، وكذلك مـنهج دراسة الحالة إنما هو اختراع عربى.



المصادر

١ـ للاستزادة حول تراث البيرونى ومؤلفاته انظر:

أ ـ الدراسة التى أعدها القس «بوالو» بمعهد الدومنيكان ـ القاهرة ـ عام ١٩٦٤ عن تراث البيرونى.

ب ـ أبو الفتح محمد التوانسى ـ أبو الريحان محمد البيرونى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة التعريف بالإسلام ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ ـ ص ص ٤٥ ـ ٤٦ .

جـ ـ أبو الريحان محمد بن أحمد «البيرونى» الآثار الباقية عن القرون الخالية ـ مرجع سابق.

٢ـ للاستزادة انظر:

دكتور إدوارد سخاو ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية ـ للبيرونى.«تحقيق» ـ ليبزج ـ ١٩٢٣ .

٣ ـ اعتمدنا فى الكتابة عن البيرونى على مصدرين أساسيين:

أ ـ دكتور صلاح الفوال ـ تاريخ علم الاجتماع الإسلامى ـ مطبوعات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة ـ الجزائر ـ ١٩٨٩ .

ب ـ دكتور صلاح الفوال ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

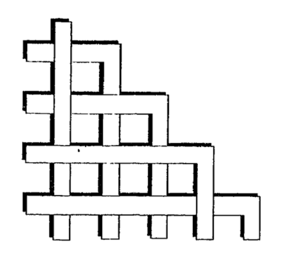
٤ـ انظر دكتور صلاح الفوال ـ المرجع السابق ـ ص ص ١٥٩ ـ ١٦١ .

٥ـ دكتور صلاح الفوال ـ تاريخ علم الاجتماع الإسلامى ـ مرجع سابق .

* * *








الباب الثالث

الآباء المؤسسون لعلم الاجتماع

* مقدمة

* الفصل السابع :

ابن خلدون.

* الفصل الثامن :

أوجست كونت.

* الفصل التاسع :

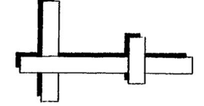
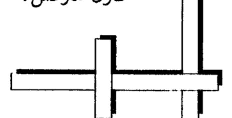
فريدريك لوبلاى.

* الفصل العاشر :

لويس هنرى مورجان.

* الفصل الحادى عشر :

كارل ماركس.

مقدمة :

ستتعرض خلال هذا الباب بفصوله الخمسة للرواد أو الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع . . ولقد اختلفت **بصمات** هؤلاء الرواد . . وتعددت، وهى تحدد ملامح علم الاجتماع . . منذ أن **اخترعه** العالم العربى المسلم ابن خلدون، وجاء بعده بستة قرون العلامة الفرنسى . . **كونت** . . ليعطى للعلم **الوليد** اسمه . . «علم الاجتماع». هذا وقد تعددت محاولات تحديد **ملامح** وهوية علم الاجتماع وعلى النحو الذى بيناه خلال مؤلفنا «علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج»(*) إلا أنه **يبقى** للرواد والآباء المؤسسين دورهم **البارز** وعلى النحو الذى سيتضح من خلال هذا الباب بفصوله الخمسة.

وبقيت كلمة . . عن ابن خلدون . . الذى **ينضوى** تحت تصنيف الفكر الاجتماعى الإسلامى لكننا آثرنا أن يكون على رأس قائمة الآباء **المؤسسين** لعلم الاجتماع . . لأن فكره كان من النضج **والأصالة** إلى حد . . جعله فى مقدمة المجيدين و**المبدعين** فى مجال علم الاجتماع.

وعلى كلٍّ . . فإن **قائمة** الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع سوف تشرف بكل من:

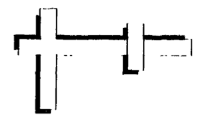
- ابن خلدون.
- أوجست كونت.
- فريدريك لوبلاى.
- لويس هنرى مورجان.
- كارل ماركس.

وإن كان الأمر لا يمنع من اعتبار كلٍّ من كيتليه، تايلور، جوبينو، بكل، دانيافسكى وغيرهم كثير . . من **زمرة** رواد علم الاجتماع. وسنخصص الفصل الثانى عشر للحديث عنهم إلا تايلور الذى سنتحدث عنه بإيجاز عند تناولنا للإسهامات السوسيولوجية عند مورجان ضمن الفصل العاشر من هذا الكتاب(**).

(*) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢.
وانظر كذلك ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ فى مواضع كثيرة منه.

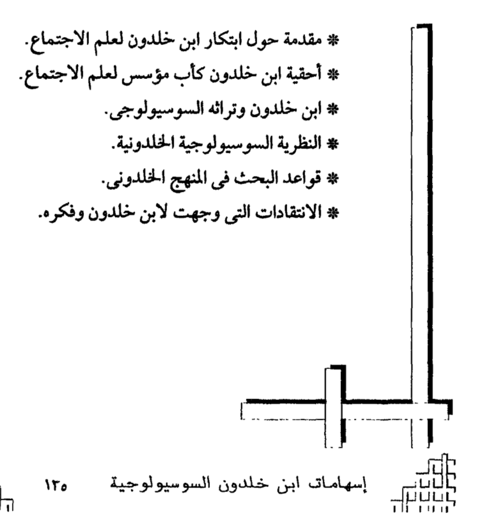
(**) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ ديوان المطبوعات الجزائرية ـ الجزائر ـ ١٩٩١.





الفصل السابع

إسهامات ابن خلدون السوسيولوجية



* مقدمة حول ابتكار ابن خلدون لعلم الاجتماع.
* أحقية ابن خلدون كأب مؤسس لعلم الاجتماع.
* ابن خلدون وتراثه السوسيولوجى.
* النظرية السوسيولوجية الخلدونية.
* قواعد البحث فى المنهج الخلدونى.
* الانتقادات التى وجهت لابن خلدون وفكره.

مقدمة حول ابتكار ابن خلدون لعلم الاجتماع :

ابن خلدون(*) هو صاحب أول محاولة **علمية** منظمة.. استطاع ابن خلدون من خلالها أن يبتكر **علما** وليدا.. أطلق عليه اسم «علم العمران البشرى»، أو «علم الاجتماع الإنسانى».

وأدرك ابن خلدون أنه **ابتكر** شيئا جديدا.. وبلغ ابن خلدون حدا كبيرا من **الثقة** سواء فى نفسه أو فى علمه الوليد.. عندما قرر بكل الصراحة والوضوح.. أنه **غير** مسبوق ليس فقط فى **ابتكار** «علم الاجتماع». وإنما فى تحديد **موضوعاته** وصلاته بغيره من العلوم ومجال الدراسة فيه و**المنهج** الذى يجب عليه - أى على علم الاجتماع - اتباعه فى **الوصول** إلى الحقائق العلمية التى توقعها ابن خلدون من «علم الاجتماع البشرى» الذى ابتكره.

وعلى كلٍّ نحن سنحاول - فى إيجاز - وإيجار **شديد** أحيانا(**) - أن نحدد معالم الفكر السوسيولوجى **الخلدونى** من خلال عدة نقاط هى:

١ - أحقية ابن خلدون **كمؤسس** لعلم الاجتماع.

٢ - ابن خلدون **وتراثه** السوسيولوجى.

٣ - النظرية **السوسيولوجية** الخلدونية.

٤ - قواعد البحث فى **المنهج** الخلدونى.

٥ - الانتقادات التى **وجهت** لابن خلدون وفكره(***).

(*) ولد ابن خلدون عام ١٣٣٢ وتوفى عام ١٤٠٦م الموافق ٨٠٨ هـ.

(**) يرجع ذلك الإيجار الشديد.. لأنه كانت لنا عدة لقاءات طويلة مع فكر ابن خلدون وامتدت هذه اللقاءات عبر مؤلفنا «البداوة العربية والتنمية» الذى صدر عن مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٦٧ .. حتى مؤلفنا «علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق» الذى صدر عن دار الفكر العربى عام ١٩٩٦، مرورا بمؤلفاتنا «علم الاجتماع البدوى» و«دراسة علم الاجتماع البدوى» و «المقدمة لعلم الاجتماع العربى الإسلامى»، «تاريخ علم الاجتماع الإسلامى» و«البناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية» و«تنمية المجتمعات الصحراويةبجزأيه» وغيرها.

(***) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على :

١ - دكتور صلاح الفوال - تاريخ علم الاجتماع الإسلامى

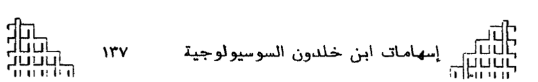
أحقية ابن خلدون كأب مؤسس لعلم الاجتماع :

على الرغم من أن ابـن خلدون يحظى **بإجحاف** متعمد سواء بالنسبة لدوره كمـؤسس حقيـقى لعـلم الاجتمـاع، أو حتى بـالنسبـة لأحقيـته لأن يكون عـالما سوسيـولوجيا عـلى الإطلاق، وهذا الإجـحاف **مصدره** بالـدرجة الأولى علـماء الغرب وخصوصا الفرنسيين منهم ودوافعهم فى ذلك معروفة، لأنه إما ابن خلدون أو كونت ودوركايم، أما المصدر الثانى لذلك الإجحاف **فيتمثل** فى عدم الفهم عن حسن نية أو عن سوئها لدى **مواطنى** ابن خلدون وأبناء جلدته وأعنى بهم بعض العرب الذين لم يفهموا ابن خلدون وراحوا يكيلون له التهم التى وصلت إلى حد اتهامه **بالخيانة** والدجل، ولكن ذلك كله لم يمنع محبى ابن خلدون من التصدى للدفاع عنه بتوضيح فكره **وتقريبه** للناس فعقدوا لذلك العديد من المؤتمرات العربية والدوليـة، كما صدر عـنه وعن **تراثه** العديـد من المؤلفـات، وقد كان ذلك كـله فرصة مواتية لـيحتل ابن خلدون مكانه الطبـيعى كمؤسس **حقيقى** لعلم الاجتماع نظرية ومنهجا.

وقد **يتساءل** متسائل ـ كـيف ؟! ـ وابن خلدون ولد عام ١٣٣٢ وتوفى عام ١٤٠٦ بالتقويم الميلادى.. أى منذ **ستة** قرون خلت؟

* والرد.. أن هنا تـكمن **عظمة** ابن خلدون.. حـيث كان سابقا لـعصره وأوانه.. حقيقة أنه عندما عنى بدراسة وشرح **الظواهر** الاجتماعية من حوله.. وعندما أسس علمـه الوليد.. وعندما قرر بصراحة ووضوح أنه غـير مسبوق إليه، صحيح أنه عندما فعل ذلك كله.. حدد **كل** معالم وملامح وموضوع ومنهج علم الاجتماع، ولـكن الذى لم يقله أن مـا أسسه هو علم «الاجتـماع»، وإن كان قال شيئا قريبا من ذلك وهو «العمران» وكلمة «العمران» قريبة لغة **ومضمونا** من كلمة «الاجتـماع». هـذا إضافة إلـى أن الرجـل قال **صراحة** فى مقـدمته وهو يـؤكد استقلاليـة علمه **الوليد** «وكأن هـذا علم مسـتقل بـنفسـه فإنه ذو موضـوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى..»!!

= ٢ ـ دكتور صلاح الفوال ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢.
٣ ـ دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ ديوان المطبوعات الجزائرية ـ الجزائر ـ ١٩٩١.
٤ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦.



ونحن لو قيمنا ابن خلدون وحاسبناه **بمقاييس** العصر، وتغاضينا عن ستة قرون خلت أو يزيد، لما ظلمناه **بقدر** ما ظلمنا أنفسنا وبعدنا عن أبسط قواعد التفكير العلمى عندما نقيم الماضى بمقاييس الحاضر، **لأن العكس** دائما هو الصحيح مهما اختلفت فى ذلك الآراء وتعددت الاجتهادات.

وعلى كل حال.. بعد هذه **المقدمة** الطويلة.. يحسن أن نعود إلى الإسهامات السوسيولوجية لابن خلدون حتى ولو **أدى** بنا ذلك لاستخدام مفهومات العصر فى تقييم تراث ابن خلدون.

* * *

ابن خلدون وإسهاماته السوسيولوجية :

تتضح الإسهامات السوسيولوجية لابن خلدون من **خلال** النقاط الآتية :

١ ـ أسس ابن خلدون علمه الوليد، ليتمكن عن طريقه المؤرخون من فهم الحوادث الماضية **وتفسيرها** من خلال الكشف عن قوانينها وأسبابها التى تدل على أن تلك الحوادث الماضية **تتفق** وطابع العمران البشرى.

ومن هنا يمكن القول **أن هدف** ابن خلدون من تأسيس علم العمران أو الاجتماع البشرى، كان هدفا نظريا إلى حد ما(*).. سعى من خلاله لتوفير مختلف **سبل** المعرفة التى تتيح للمؤرخين فهما **أعمق** لمختلف الظواهر التاريخية التى هم بصدد دراستها والكتابة عنها.

٢ ـ ذهب ابن خلدون إلى أن **المعرفة** التى هى هدف علمه الوليد، إنما تتحقق عن طريق **الاستقراء** الفطرى الذى هو فى حقيقته استقراء علمى تنقصه التجارب المعملية ووسائل البحث الحديثة التى استعان ابن خلدون عوضا عنها بالحس واستخدام **المنطق** وقياس الذاهب بالحاضر على حد تعبيره.

والمنهج الاستقرائى **الفطرى** الذى استخدمه ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر الميلادى لم يكن ضربة حظ بالنسبة له، وإنما كان شيئا **محدد** المعالم فى مخيلته، لأنه وصف ذلك **المنهج** قائلا: «هذه المعانى التى يحصل بها ذلك لا تبتعد عن الحس كل البعد ولا يتعمق فيها الناظر، بل كلها تدرك بالتجربة وبها تستفاد لأنها معانى جزئية تتعلق بالمحسوسات، وصدقها وكذبها يظهر قريبا فى الواقع، فيستفيد صاحبها العلم بها من ذلك»(**).

(*) اليس معنى هذا أن ابن خلدون غفل عن الجانب التطبيقى أو الإمبريقى لعلم الاجتماع.

(**) نظر مؤلفنا ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٧١ـ ١٨٤.

كـمـا حـدد ابن خلدون **خطوات** المنهج الاسـتـقـرائى الفطرى فى نقـاط محددة **تبدأ** من المعرفة الـتجريبية إلى محـاولة تطبيقها والـتحقق من **صدقها** عن طريق إخضاع تلك المعرفة للواقع الذى هو **المحك** الأساسى فى صدقها أو كذبها، ويقـول ابن خلدون نـفسه شارحـا كيف يـمكن للـمؤرخ أن **يتبع** قواعد المـنهج الاستقرائى «ثـم إن فكره ونظره يتوجه إلـى واحد من الحقائق، وينظـر ما يعرض لذاتـه واحدا بعد آخـر، ويتمرن عـلى ذلك حتـى يصبح إلحـاق العوارض بتـلك الحقيقة ملكة له، فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا».

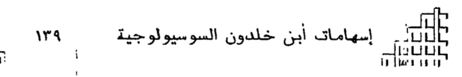
وإن كـان ابن خـلدون قـد أشار أيـضا إلـى **إمكانية** الاستعانـة بالشروط الصناعية؛ لتحصل المعـرفة المطلوبة، ولا تخرج تلك **الشروط** الصناعية التى نوه عنها ابن خلدون عن **الأساليب** المنهجية التى تـستخدم اليوم فى **مختلف** العلوم الاجتماعية.

٣ ـ على الرغم من أن ابن خلدون قد أسس علم العمران أو الاجتماع حتى تتوافـر للمؤرخين سـبل المعرفة بمخـتلف ظواهر الـعمران، أو حتى يمـكن دراسة التاريخ دراسة **علمية** تقوم على المنهج الاستقرائى بـعيدا عن الاكتفاء بمجرد النقل أوالسمـاع، على الرغـم من ذلك كلـه فإن ابن خلـدون قد أكد **استقلالية** علم الاجتماع عندما تحرر من **الطابع** الدينى الفلسفى الذى **ميز** الدراسات فى عصره، كما أنـه لم **يؤسس** علمه عـلى قواعد **مثالية** كتلـك التى صبـغت فكر كـل من أفلاطون والفارابى خلال دراسـتيهما الشهيرتين عن جـمهورية أفلاطون وآراء أهل المدينة الفاضلة(*).

٤ ـ حدد ابن خلـدون بعض موضوعات الدراسـة فى علم الاجتمـاع عندما أكد أنه على المؤرخ أن يحصل على قدر من **الثقافة** أثناء دراسته لمختلف الظواهر الموجودة داخل **المجتمع** لأن «القانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار» يكمن فى النظر «فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران».

وكان ابن خلدون أكـثر تحديدا **لميادين** علم الاجتماع عـندما قال:إن المؤرخ يحتـاج إلى «العلم بـقواعد السيـاسة وطبائـع الموجودات واختلاف الأمم والـبقاع

(*) انظر المرجع السابق ـ ص ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .



والأمصار فى السير والأخلاق والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها ودواعى كونها».

كما أن ابن خلدون قد **صنف** خلال مقدمته الشهيرة مختلف أنواع الظواهر الاجتماعية تصنيفا جعل كل واحدة أو مجموعة من تلك الظواهر **أساسا** صالحا للدراسة والبحث لعدد من **علوم** الاجتماع الحديثة كعلم الاجتماع السياسى والأنثربولوجيا وعلم الاجتماع الدينى وعلم الاجتماع الاقتصادى وعلم الاجتماع الحضرى وعلم الاجتماع البدوى - الذى كان لنا شرف السبق فى الكتابة فيه للمرة الأولى عام ١٩٧٤(*) علاوة على علم اجتماع الأخلاق «القيم» واللغة.

٥ - على الرغم من تأكيد ابن خلدون **لاستقلالية** علمه الوليد إلا أنه حدد الصلات الضرورية المشتركة بينه وبين غيره من العلوم التى **تشاركه** بحث الظواهر المجتمعية، فإلى جانب الصلة الواضحة بين كل من التاريخ والاجتماع نجد أن ابن خلدون قد أكد **الصلة** القائمة بين علم الاجتماع وعلم النفس عندما اعتمد على حقائق علم النفس فى **تفسير** بعض الظواهر المجتمعية لَمَّا بين أن المغلوب مولع بتقليد الغالب عن طريق **المحاكاة**، كما أكد ابن خلدون **أهمية** البيئة والعوامل الاقتصادية والجغرافية والحضارية فى **تفسير** وفهم الظواهر الاجتماعية.

وتحتوى مقدمة ابن خلدون على العديد من **النصوص** الصريحة التى تؤكد صلات علمه الوليد بغيره من العلوم من خلال علاقة تساندية فى فهم وتفسير مختلف الظواهر الاجتماعية.

٦ - كان ابن خلدون يؤمن **بتطور** المجتمعات - ليس من منطلق إصلاحى.. ولكن من منطلق أن التغير سمة المجتمع وقدره.. وحدد **مراحل** تطور كل مجتمع.. وبين خصائص كل مرحلة.. صحيح أن معظم ما قاله ابن خلدون حول هذا الشأن ما عاد **يصلح** طبقا للمعايير الحديثة لكن يبقى اجتهاد ابن خلدون على أصالته خصوصا ما اتصل منه بتشبيهه للمجتمع فى تطوره **بالكائن**

(*) للاستزادة انظر كتابنا - علم الاجتماع البدوى - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٨٥، وانظر كذلك مؤلفنا عن - دراسة علم الاجتماع البدوى - مكتبة غريب - القاهرة - ١٩٨٢ - وانظر كتابنا - البناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٣.



الحى وتحـديده **للحالات** أو الأجيال الأربـعة التى يـتطور خلالـها المجتمـع وهى حالات. . البداوة، الملك، الحضارة، والهرم[1].

٧ ـ كان ابن خلدون يرى أن المجتمع ما هو إلا **كيان** طبيعى تسيره مجموعة من القوانين العامة، ومن هنا كان لابد من الكشف عن تلك العوامل التى تؤثر فى ذلك المجتمع **سواء** من حيث نشأته أو تطوره أو من حيث ثباته أو استقراره.

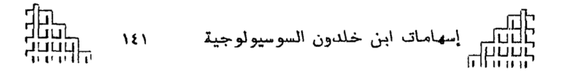
ومـن رأى ابـن خـلـدون أن **نشأة** المجتـمع إنما تـعود إلى مـجموعـة من الضرورات الـتى **تجبر الأفراد** عـلى تكـوين مجـتمع وخـصوصـا ما تعـلق منـها بالضرورات الاقـتصادية والأمنيـة، علاوة على **العديد** من الأحاسيس الـشعورية وغير الشعورية التـى تدفع الإنسان إلى الاستئناس بغيره من بـنى الإنسان ثم تدفعه فى النهاية إلى الانخراط فى **مجتمع** يمكنه من خلاله أن يحق ذاتيته وأهدافه.

٨ ـ أكد ابن خـلدون أن المجتمع الـبشرى **تتنازعه** مجموعتان من الظواهر تبـدوان للوهلـة الأولى **متنافرتين**. . ونعنـى بهما مجـموعة الظـواهر الطبيـعية ومجموعة الظواهـر الاجتماعية، **ويقرر** ابن خـدون أن المجتمع لـيس هو منـشئ الظواهـر الطبيـعية وإنما هـى موجودة وتتـمتع باسـتقلال **ذاتى** ولكـنها تؤثـر **فى** المجتمع، وعلـى المجتمع أن يكيف نفـسه طبقا **لنتائجها** ومؤثراتهـا، وذلك على العكس من الظواهر الاجـتماعية فإن نشأتها تعود للمـجتمع ذاته فضلا عن **تميزها** بالتساند والتشابك.

ويؤكد ابن خلدون أن **كلا** من الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية تربطها علاقة «اتحادية» **تمتزج** خلالها مختلـف النتائج والآثار المترتبة على **أيـهما فى** كيان معقد وبحيث لا يمـكننا أن نحلل **عناصر** أية ظاهرة مجتمعـية إلى أسباب وعوامل اجتماعية فقط.

إذن. . فقـد **أكد** ابن خـلدون علـى أن. . . الظواهز الاجـتماعـية **تتبادل** التأثير والتـأثر مع غيرها. . **علاوة** على أن الـظواهر **غير** الاجتماعية لـها قدرتها التأثيرية على المجتمع ولكن تبقى هذه القدرة **محدودة** ما لم تتعاون فى ذلك مع الظواهر الاجتماعية. . مرة أخرى.

ومن هنا. . فإن الظواهر الـطبيعية أو غير الاجتماعية لبست وحدها صاحبة



اليد الطولى فى التأثير على المجتمع، وإنما **تتبادل** التأثير معها الظواهر الاجتماعية التى تتميز بالتساند فيما بينها.

* * *

النظرية السوسيولوجية الخلدونية:

كانت **البداوة** والتحضر وما بينهما من صراع أزلى هما **محور** النظرية السوسيولوجية عند ابن خلدون، حيث **نظر** ابن خلدون فى أحوال مجتمعه فوجد الناس مستقطبين حول **فئتين** رئيسيتين هما البدو والحضر، ثم نظر فى هاتين الفئتين فوجد أن لكل منهما صفات وخصائص **مغايرة** تماما للأخرى إلى حد التضاد، وتعمق أكثر فوجد أنهما ـ أى البداوة والتحضر ـ فى **تفاعل** مستمر، فاستنتج أن المجتمع فى جميع حوادثه الماضية والمستقبلة ليس سوى نتاج لهذا **التضاد** بين هاتين الظاهرتين المتصارعتين دوما.

ومن أبرز ما أوضحته النظرية السوسيولوجية الخلدونية أن **العصبية** هى أساس البداوة وأنها لا تستقيم بغير **وازع** من سلطان أو دين ـ أى بالقهر ـ كما أن التفاعل بين البداوة والتحضر لا يتم فى فراغ، وإنما يتم **داخل** المجتمع أو الدولة التى اعتبرها ابن خلدون كالكائن الحى **العضوى** لها عمر محسوس قدره بأربعة أجيال.

وعلى كلٍ يمكننا أن نوجز أهم **ملامح** النظرية السوسيولوجية عند ابن خلدون على النحو التالى(٢).

١ ـ بين ابن خلدون خصائص **ظاهرة** البداوة بما تضم من متناقضات عديدة يرى ابن خلدون **أنها** ليست من صنع البدو بقدر ما هى من صنع **الطبيعة** لأن **الإنسان** «ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه».

٢ ـ أبرز ابن خلدون **التناقض** الموجود بين خصائص كل من ظاهرتى البداوة والتحضر، والنتيجة الطبيعية والحتمية **لذلك** التناقض ـ فى رأى ابن خلدون ـ هى **الصراع** الذى اتخذ أشكالا متعددة لعل من أبرزها موجات الهجوم المتتابعة من البدو على الحضر. وأوضح ابن خلدون أن ذلك الصراع يرتكز على دعامة أساسية ألا وهى **العصبية**، ولكن العصبية لا **تقوى** إلا من خلال التوحد نتيجة لدعوة دينية أو ما شابه ذلك، وبدون ذلك التوحد فإن العصبيات **المتفرقة** داخل المجتمع القبلى تكون مشغولة بالصراع **الداخلى** مع نفسها فى معظم الأحيان.



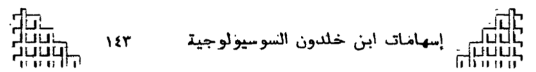
٣ ـ حدد ابن خلدون **المجالات** والأسباب المتعددة لصراع **القيم**، وأوضح أن من تلك الصراعات ما يكون **داخليا** ـ أى بين القبيل ونفسه أو بينه وبين غيره من القبائل ـ ومنها ما يكون **خارجيا**، أى ينحصر مجال الصراع ليكون صراعا قيميًا بين البداوة ونقيضها **الأزلى** الحضر، كما أكد ابن خلدون أن أى **تناقص** أو ضعف للقيم البدوية يؤدى بالضرورة **إلى تحول** البدوى عن بداوته بنفس درجة تناقص القيم البدوية لديه. . !!

٤ ـ فسر ابن خلدون أسباب ظاهرتى البداوة والتحضر **بإرجاعهما** إلى عوامل اقتصادية **وسياسية** وطبيعية ودينية.. إلخ، كما أوضح أن الظواهر الاجتماعية المختلفة لا تتوقف العلاقة بينها على حد **التأثر** فقط بل تتسع **بالضرورة** إلى حد التأثير أيضا وبحيث **يستتبع** أىّ تغير فى ظاهرة ما تغير فى غيرها من الظواهر المرتبطة بها بصرف النظر عن حجم ونوع ذلك التغير، ومن هنا يكون ابن خلدون قد آمن بوجود **علاقة** تساندية بين مختلف الظواهر المجتمعية، ويكون أول من فسر وعلل الظواهر الاجتماعية **بظواهر** اجتماعية أخرى سواء فى حالة الاستقرار أو التغير.

٥ ـ أكد ابن خلدون ما **للظواهر** الاجتماعية بدويه كانت أو حضرية من حتمية قننت **مسيرة** تطور العمران البشرى والاجتماع الإنسانى سواء كما عايشه ابن خلدون أو كما **سمع** أو قرأ عنه من خلال كتب التاريخ.

٦ ـ اقتصرت **استقراءات** ابن خلدون للظواهر الاجتماعية المختلفة على النطاق الإقليمى أو العربى فقط، وعلى وجه **التحديد** ما استطاع أن يعايشهم أو يقرأ **عنهم** من «العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» على حد تعبير ابن خلدون نفسه، ولم **يقصر** ابن خلدون استنتاجاته ـ كما قصر استقراءاته ـ على النطاق الإقليمى أو القومى فقط، بل **وسع** تلك الاستنتاجات لتضم **الاجتماع** البشرى كله.

وليست هذه نقطة **مذمة** لابن خلدون كما **يدعى** البعض، فقد فعل نفس الشيء **علماء** جاءوا بعده بعدة قرون ـ لعل من أبرزهم دوركايم خلال دراسته المشهورة عن الانتحار ـ حيث نادى **بصلاحية** نظريته عن الانتحار **للتطبيق** على كل المجتمعات بينما هى أجريت أصلا داخل نطاق المجتمع الأسبانى **المحدود** وفى ظل عقيدة دينية محدودة **الانتشار** هى العقيدة البروتستانتية.



٧ ـ قدم ابن خلدون **تصنيفا** للمجتمعات التى عايشها أو **عاصرها** أو تلك التى اتيحت له الفرصة للاطلاع على تراثها، وقسم تلك **المجتمعات** إلى نموذجين رئيسيين، **يتناقض** كل منهما مع الآخر على طول الخط، محاسن أيهما قبح للآخر، وبينهما صراع أزلى يمتد عبر **أجيال** أربعة ـ هى: **عمر** الدولة عند ابن خلدون(*) وينتهى بهرم الدولة وركوعها تحت أقدام قبيل غاز جديد قوى **العصبية** والشكيمة، ثم ما يلبث ذلك القبيل ـ بفعل **الاستقرار** والحضارة ـ أن يعتريه الضعف، ثم يزداد **ضعفه** عبر الأجيال حتى **يهرم** ويشيخ ويصبح نهبا لغيره.. وهكذا!!.

والنموذجان **الرئيسيان** صاحبا ذلك **الصراع** الشهير عند ابن خلدون هما: البداوة والتحضر ـ أو البدو والحضر[٣].

* * *

هذا، ويمكننا أن **نلخص** رأى ابن خلدون فى النقاط التالية :

أ ـ إن المجتمع يتكون من **قطاعين** رئيسيين، أولهما القطاع **البدوى**، وثانيهما القطاع **الحضرى** والقطاع البدوى أسبق إلى الوجود من القطاع الحضرى.

ب ـ إن القطاع البدوى **سائر** حتما إلى التحضر عبر أجيال أربعة تبدأ من حالة **البداوة** إلى حالة **الملك**، فحالة **التحضر** ثم حالة **الهرم** وهى نهاية دورة المجتمع البشرى عند ابن خلدون حيث تبدأ بعدها **دورة** جديدة وهكذا.

جـ ـ إن هناك **فوارق** ليس فقط بين النمطين الرئيسيين فى المجتمع، ولكن بين **البناء** الاجتماعى لكل نمط على حدة، وقد تكون هذه **الفروق** فروقا أيكلوجية أو حضارية بين الوحدات **المحلية** لكل من النمطين البدوى والحضرى على حدة.

د ـ قدم ابن خلدون **معيارا** مبتكرا للبداوة اتخذه **أساسا** للتفريق بين سكان البادية، أطلقنا عليه «مقياس البداوة»(**)، وقد طبق ابن خلدون هذا **المعيار** على

(*) الأجيال أو الحالات الأربعة للدول.. هى : حالة البداوة، حالة الملك، حالة الحضارة، ثم حالة الهرم.. للاستزادة حول هذا الموضوع انظر نظرية ابن خلدون فى تطور المجتمع ضمن كتابنا «علم الاجتماع البدوى» السابق الإشارة إليه ص ١١٥، ١١٦.

(**) انظر دكتور صلاح الفوال ـ البداوة العربية والتنمية ـ مرجع سابق ـ فى فقرات كثيرة منه.



البـداوة العربيـة حيث وضع البـدو على **مستويات** ثلاث طبـقـا لمدى ظعنهم فى الصحراء «أى تجـوالهم فيها» وتبعـا كذلك لمدى بعدهم عن مظاهر الحضـارة ووفقا أيضا **لطبيعة** الحيوان الراعى ودوره فى المجتمع.

ففى **أقصى** درجـات سلـم البـداوة عند ابـن خلدون نلمح البـــدو الذين يعتمدون على **الإبل** فى معاشهم، وهم من **يعرفون** بـ «الأبالة» أى رعاة الإبل، ويليهم فى الترتيب «الشاوية» أى أصحـاب الشياه، ويطلق عليهم رعاة **الضأن** أو الغنم، ووضع ابن خلدون مـعهم على **نفس** المستوى الحضـارى «البقارة» أو رعاة البقـر، ويأتى فى **أسفل** السلم ـ سلم البـداوة ـ الممتـهنون **للزراعة** أو الذيـن مارسوا نوعا من أنواع **الاستقرار** فى الواحات وحول الوديان(٤).

كما وضع ابن خلدون.. البربر وزناتة **بالمغرب** والأكراد والتركمان والترك بالمشرق على درجة **أقل** من العرب فى سلمه الحـضارى، وذلك لأن «العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لأنهم مـختصون بالقيام على الإبل فقط، وهؤلاء يقـومون عليها وعلى الشياه والبقر معا.. »(٥)(*).

* * *

قواعد البحث فى المنهج الخلدونى :

حدد ابن خلدون الكثير من **قواعد** المنهج الذى يجب أن ينتهجه المؤرخ من خلال نظره «فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران» ولم **يكتف** ابن خلدون فى هذا المجال **بنقد** من سبقـه من المؤرخين لاعتمادهم على مـجرد النقل من خلال **ثقتهم** بمن سبقهم من **الرواة** والمؤرخين دون التعرف عـلى مقاصدهم **الحقيقية** فيمـا يروون ويؤرخون، ومن خلال **تشيعهم** للعـديد من الآراء والمذاهب حـيث جـعلهم ذلك التشـيع **أسرى** لآراء مـعـينة، عـلاوة على جـهل أولئك المؤرخـين السابقين على ابن خلدون بطبائع **الأحوال** فى العمران فلم يمحصوا الحوادث كما يجب، كل ذلك فضلا عن تقرب العلماء والمؤرخين من أصحاب الجاه **والسلطان** من خلال ما يقدمونه أو يهدونه لهم من دراسات (**)

(*) استخدم ابن خلدون لفظ «العرب» للدلالة على البدو.

(**) حيث جرت عـادة عدد غير قليل من مؤرخى العـرب وباحثيهم على إهداء ما يكتـبون إلى ملوك وأفراد وسلاطين وولاة عصرهم

نقول إن ابن خلدون لم **يكتف** بنقد سابقيه وإنما قدم البديل منهجا واضحا للبحث يكاد يكون على **أصالته** حتى اليوم، حيث **حدد** ابن خلدون واجبات المؤرخ والباحث فى تناولهما لظواهر **العمران** على النحو الآتى :

أ ـ يجب الاعتماد على **الملاحظة** المباشرة وما تؤدى إليه التجربة.

ب ـ يجب **تفسير** الظواهر وتحليلها باستخدام منطق «التعليل».

جـ ـ يجب الاعتماد على منطق **المقارنة** أو منهج البحث المقارن.

د ـ يجب **قياس** الأخبار على أصول العادة وطبائع العمران.

هـ ـ يجب دراسة **تطور** الظواهر والنظم العمرانية.

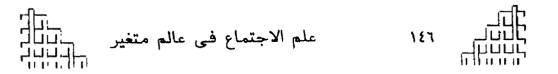
هذا وقد **ارتكز** ابن خلدون فى دراسته للظواهر الاجتماعية على ركيزتين أساسيتين، **أولاهما**: إخضاع تلك الظواهر **للاحظات** حسية وتاريخية، أو بمعنى آخر كان يقوم أولا بدراسة **استطلاعية** لتلك الظواهر معتمدا على مشاهداته واستقرائه لما فى كتب التاريخ، علاوة على معايشته **الذاتية** للعديد من تلك الظواهر، أما الركيزة **الثانية**، فتتمثل فى العديد من **العمليات** العقلية التى كان يجريها ابن خلدون على تلك المواد الأولية التى تحصل عليها، **وكان** هدفه الأساسى من تلك العمليات هو **الكشف** عما يحكم تلك الظواهر من قوانين(٦).

* * *

الانتقادات التى وجهت لفكر ابن خلدون :

رغم كل الذى قلناه فى صدر هذا الفصل عن أنه من **الظلم** لابن خلدون ولأنفسنا أيضا أن نقيِّمه، أو ننقد فكره وفقا **لمقاييس** عصرنا، وبيننا وبينه ستة قرون خلت.. وبعيدا عن نقد أو انتقاد الفكر السوسيولوجى الخلدونى نجد الكثير من مهاجمى فكر ابن خلدون ـ هاجموه على أساس أنه ضليع فى التاريخ بارع فى الاقتصاد.. عبقرى.. لأنه اكتشف مختلف التأثيرات الجغرافية والبيئية على مختلف مقدرات الناس وأمور حياتهم اليومية..!!.

وكأن العبقرية والشمولية والنجابة فى اكتشاف الظواهر المجتمعية المختلفة.. ووضع أسس وقواعد التعامل معها صارت عيبا أو نقيصة تستوجب العقاب بدلا من الثواب..!!



وعلى كل يمكن إيجاز أهم **الانتقادات** التى وجهت لابن خلدون فى النقاط التالية :

١ ـ قصور استنتاجات ابن خلدون وبعدها عن العالمية:

بمعنى أنه لا يمكن **تعميم** ما انتهى إليه ابن خلدون على مختلف شعوب الأرض وأممها: ليس هذا فقط. بل قال منتقدوه بغير دراسة أو **بغير** علم. . إنه حتى ما انتهى إليه ابن خلدون لا **يصدق** إلا على الأمم التى عاشت زمانه فقط. . !!

وابن خلدون لم **يدع** فى أى من مؤلفاته الضخمة. . أنه درس بلدان وشعوب أوربا أو اكتشف أمريكا أو غيرها من البلاد التى تركب الأفيال. . ولكن الرجل قال بصراحة إن المجال الجغرافى والإنسانى **لدراسته** هو «شعوب العرب والعجم والبربر» ـ هذا عن المكان ـ أما عن **الزمان** فقد أكد ابن خلدون **أنه** درس المجتمعات التى **عايشها** أو سمع عنها فقط. . !!

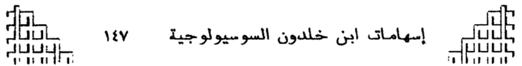
ولعل لفظ «العجم» الذى **استخدمه** ابن خلدون وهو يُعَنوِن مقدمته الشهيرة «مقدمة ابن خلدون» لم يفهمه البعض جيدا. . لأن **الأعجمى** قصد به كل من هو غير عربى. والعصر الذى **عاش** فيه ابن خلدون. . كان يضم أمما وشعوبا وقبائل كثيرة. . لا تنتمى للجنس العربى !!

٢ ـ عدم كفاية الاستقراء أو ضعف كفايته ونقصه عند ابن خلدون :

وبناء على ما سبق ـ فإن فكر ابن خلدون **ناقص** ما دام لا يصدق على المستقبل . أو على **أمم** وشعوب لم يعايشها ـ فى زمانه ـ ويسر الله اكتشافها ومعرفتها ـ كأمريكا مثلا ـ بعد مولد ابن خلدون ووفاته بمئات السنين. . !!، وعلى كل فإن مثل هذا الاعتبار **يفقد** منتقدى ابن خلدون مصداقيتهم.

٣ ـ المبالغة أو التحيز فى بيان تأثير البيئة الجغرافية على أحوال الناس:

وزعم **منتقدو** ابن خلدون فى هذا الشأن. . أنه **أرجع** كل ظاهرة إلى العوامل البيئية وتأثيراتها المختلفة **فى حياة** الشعوب والأمم والجماعات. . ويرون



أن العوامل البيئية ليست وحدها صاحبة اليد الطولى فى **التأثير** على مقدرات المجتمعات والشعوب.

أما عن الشطر الأول من الانتقاد والخاص **بتأثير** البيئة فقد وضحته دراسات كثيرة أكدت ووافقت ابن خلدون على ما انتهى إليه، وأما الشطر الخاص بالبيئة كعامل وحيد **ومؤثر** فى حياة المجتمعات فإن ابن خلدون لم **يقل** ذلك ولم يزعمه فى أى من مؤلفاته.. صحيح قد تكون البيئة هى العامل **الفارق** فى المجتمعات الصحراوية وشبه الصحراوية والحضرية التى **درسها** ابن خلدون ومن خلال معايشته لها - فمن الأمور الطبيعية أن تتسق النتائج مع المقدمات - نقول قد يكون صحيحا أن تأثير البيئة الجغرافية كان قويا على المجتمعات التى **عايشها** ابن خلدون أو سمع عنها.. لكن يبقى **العامل** البيئى والجغرافى.. هو الأكثر تأثيرا على مقدرات العديد من المجتمعات، ووافق الكثير من علماء الغرب **المحدثين** ابن خلدون على ما **انتهى** إليه من نتائج فى هذا الشأن..!!

٤ - تحامل ابن خلدون على العرب :

يرى **كثير** من الذين تعرضوا لنقد الفكر الخلدونى.. أنه تحامل على العرب.. وحط من شأنهم وأنقص من قدرهم.. ولو **رجعوا** للغة العرب وفهموا معنى العرب أو **الأعْرَاب** فى اللغة.. لما **هاجموه** بغير حق.

٥ - اتهام ابن خلدون بأنه بالغ فى تقدير أثر الملوك والأمراء فى تطور وتقدم المجتمعات.

اتهم ابن خلدون بأنه منافق.. سواء وهو **يجامل** الحكام والأمراء.. أو وهو يرجع إليهم **الفضل** فيما حل بمجتمعاتهم من نعم.. ويستند المنتقدون على مقولة «إن أى تطور لا يمكن أن **يتم** إلا إذا كانت الشعوب **مهيأة** أصلا له».

ومجاملة الحكام ليست **مذمة** لابن خلدون - ليس لأنها كانت **سمة** عصره وعصور كثيرة سابقة ولاحقة.. فالتاريخ العربى **مفعم** بحالات كثيرة من الأدباء والعلماء والشعراء.. كانوا محتاجين للحياة فى **كنف** الملوك . أو فى معية الأمراء.. حتى **يبدعوا** فى أمان.. ولم يقتصر ذلك على **المشتغلين** بالعلوم الدنيوية وحدها.. بل امتد ليشمل كثيرا من أعلام **الفكر** الدينى وعلى امتداد كل العصور..!!





المهـم. . أن **مجاملة** الحكام العـرب. . وإن كانت مـذمة أو نقـيصـة لابن خلدون كما يرى منتقدوه. . إلا أن هذه المجاملة ثبتت **دعائم** سنة اتبعها منذ القدم كثير من **المبدعين** وأصحـاب الفكر والرأى. . تقـديرا منهم لتأثـير **السلطان** أو الحاكم فى نجاة أو هلاك مجتمعاتهم، فضلا عن **الدور** غير المنكور ـ بكل المقاييس العلمية المعاصرة ـ الذى **يلعبه** السلطان أو الحاكم سـواء. . من خلال سلطانه أو سلطته. . أو باعتباره قدوة وأسوة يحتذى بها فى **تخلف** أو رقى الأمم والشعوب.

* * *

المصادر

١ ـ لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع عليه أن يعود إلى :

أ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع البدوى ـ مرجع سابق ـ ص ص ١١٥ ـ ١١٦، ١٣٥ ـ ١٣٧ .

ب ـ دكتور صلاح الفوال ـ البداوة العربية والتنمية مرجع سابق ـ ص ص ١٥ ـ ١٢٥ .

جـ ـ دكتور صلاح الفوال ـ تاريخ علم الاجتماع الإسلامى ـ مطبوعات جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة ـ الجزائر ١٩٨٥ .

٢ ـ علم الاجتماع البدوى ـ مرجع سابق ـ ص ص ٧٦ ـ ٨٢.

٣ ـ انظر خصائص كل نموذج ضمن المرجع السابق ـ ص ص ١٣٥ ـ ١٣٧ .

٤ ـ البداوة العربية والتنمية ـ مرجع سابق ـ ص ٥١، وانظر شرح ابن خلدون لكل فئة من فئات سلمه الحضارى ـ ص ٥٩ .

٥ ـ انظر :

مقدمة ابن خلدون ـ دار التحرير للطبع والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ ـ ص ١٠٨ .

٦ ـ البداوة العربية والتنمية ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٠ ـ ٢٨ .

وانظر دكتور صلاح الفوال ـ البناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ .

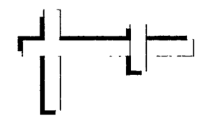
انظر أيضا : دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ ديوان المطبوعات الجزائرية ـ الجزائر ـ ١٩٩١ .

وانظر كذلك دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ ـ ص ص ١٣ ـ ١٤ .

* * *

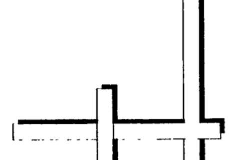






الفصل الثامن
أوجست كونت وزعامة علم الاجتماع

* مقدمة
* كونت ينتقد مفكرى عصره
* إسهامات كونت السوسيولوجية
* النظرية السوسيولوجية
* الانتقادات التى وجهت لكونت
* إنصاف كونت



مقدمة :

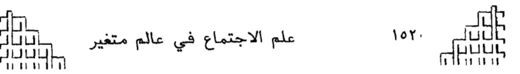
ثم يأتى بعد ابن خلدون بحوالى ستة قرون مفكر وفيلسوف مبدع هو العالم الفرنسى أوجست كونت(*) A. Comte الذى استطاع **ببراعة** المهندس أن ينفض الغبار عن أفكار ابن خلدون القديمة أو المتجاهلة بتعبير أدق(**) ودعا بقوة إلى ضرورة قيام علم جديد ينهض **مستفيدا** من كل الانتقادات التى وجهها كونت سواء لمفكرى عصره أو لطرق البحث **المستخدمة** فى زمانه.

وكانت **أول** تسمية لعلم الاجتماع عند كونت **هى**. . علم الطبيعة الاجتماعية Physique Sociale، ولكن ما لبث كونت أن **تراجع** عن هذه التسمية وأطلق على علمه الوحيد نفس **الاسم** المتعارف عليه حتى الآن «علم الاجتماع Sociologie»، وجعله **زعيما** لكل العلوم الطبيعى منها والإنسانى.

وزعامة علم الاجتماع لغيره من العلوم لم **تأت** ـ عند كونت ـ رمية من غير رام ـ أو بدون تأمل وتدقيق وتمحيص. . وإنما جاءت **زعامة** علم الاجتماع متسقة تماما مع خاصية التعقيد والتركيب فيه. . باعتبار أن علم الاجتماع مهتم بدراسة المجتمع الذى يعد من أكثر الموضوعات **تعقيدا** على الإطلاق. . فى رأى كونت وهو على حق فيما انتهى إليه من رأى. . !!

(*) عاش كونت فى الفترة من ١٧٩٨ ـ ١٨٥٧.

(**) أكدت دراسات كثيرة.. خاصة ما ظهر منها فى الغرب.. أكدت أن كونت ودور كايم.. كانا على وعى كامل بفكر ابن خلدون وإسهاماته السوسيولوجية.. بل أكدت هذه الدراسات تأثر كل منهما بفكر ابن خلدون.. وإن كانا لم يذكرا ذلك لا تصريحا ولا تلميحا لحاجة فى نفس يعقوب..!! انظر فى ذلك: دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٠١ ـ ١٣٥.



وعلى كل حال.. نحن سنتناول خلال هذا الفصل الإسهام السوسيولوجى لأوجست كونت من خلال المحاور التالية :

١ ـ انتقاد أوجست كونت لمفكرى عصره ولمناهجهم فى البحث.

٢ ـ الإسهامات السوسيولوجية عند كونت.

٣ ـ ركائز النظرية السوسيولوجية عند كونت.

٤ ـ الانتقادات الموجهة لفكر كونت.

٥ ـ إنصاف كونت.

* * *

كونت A.Comte ينتقد مفكرى عصره(*).

انتقد كونت الأسلوب الذى انتهجه مفكرو عصره للإصلاح الاجتماعى فى أعقاب الثورة الفرنسية، ودعا لأن تتم إعادة تنظيم المجتمع على أسس مثالية بعيدا عن الاضطراب فى التفكير الذى كان راجعا لتشيع المفكرين بين أسلوبين متناقضين تماما، أحدهما.. وضعى يستخدم عند التفكير والبحث فى الظواهر الكونية والبيولوجية والطبيعية، وثانيهما.. ميتافيزيقى.. دينى.. ينتهجه المفكرون عند دراسة الظواهر التى تتعلق بالمجتمع والإنسان، علاوة على ما استتبع ذلك الاضطراب فى التفكير من فوضى عقلية وما تجره بالتالى تلك الفوضى على المجتمع من فساد سواء فى الأخلاق أو السلوك.

* * *

*** خطة كونت لمواجهة تلك الفوضى الفكرية :**

تصور كونت أن الحل المثالى لهذه الفوضى لابد أن يرتكز على أربعة أسس رئيسية هى:

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الفصل على المصادر الآتية :

١ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مرجع سابق.

٢ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج ـ مرجع سابق.

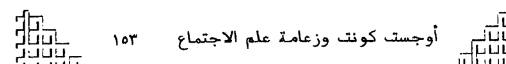
٣ ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٨٣.

٤ ـ دكتور صلاح الفوال ـ منهجية العلوم الاجتماعية ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ ,

٥ ـ دكتور صلاح الفوال ـ مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية ـ مكتبة غريب القاهرة ـ ١٩٨٣ ,

٦ ـ A. comte, A.: Le Systetde de Politique Positive. Paris, 1954.

٧ ـ Léviy Brubl: La Philasopie d'A. Comte. Paris, 1927.



١ ـ ضرورة إيجاد **صورة** يتم من خلالها التوفيق أو المزج بين أسلوبى التفكير السائدين، وهما . . الوضعى والميتافيزيقى.

٢ ـ ضرورة تعميم استخدام ذلك **المزيج** الذى أطلق عليه كونت . . «المنهج التيولوجى الميتافيزيقى»(*)، مع الدعوة لصرف النظر عن تلك **الحقائق** العلمية التى تم التوصل إليها عن طريق التفكير العقلى وحده.

٣ ـ ضرورة أن يسود مبدأ «وحدة المعرفة العضوية» وذلك من خلال تعميم المنهج الوضعى وجعله منهاجا **كليا** وأساسا وحيدا لدراسة مختلف الظواهر الكونية.

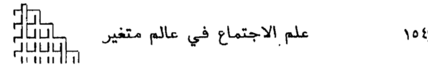
إلا أن كونت سرعان ما تيقن أن تصوره ذلك **قد جانبه** الكثير من الصواب عندما واجهته عند التطبيق **صعاب** ومشاق عديدة . . إذ كيف يتم المزج بين النقيضين وخصوصا أن وجود أحدهما يعنى **فناء** للآخر من الوجهة النظرية على الأقل . . ؟!

ثم **كيف** نعمم استخدام ذلك **المزيج** المعروف باسم «المنهج التيولوجى الميتافيزيقى» وخصوصا أن ذلك المزج صار مستحيلا علاوة على ما صاحبته من دعوة كونت لغض النظر عما أمكن التوصل إليه من **حقائق** علمية عن طريق التفكير الوضعى وحده؟! . . **وخصوصا** أنها حقائق علمية ـ على حد تعبير كونت ـ ولا شك أن هذه الحقائق **أثرت** بطريقة أو بأخرى فى حياة الناس والمجتمعات، ومن ثم تكون النتيجة المنطقية لإلغائها أو إهمالها . . هى **وقوع** مزيد من الخلل والاضطراب الذى **سعى** كونت أصلا لإيجاد حل له . . ! !

٤ ـ الأساس الرابع والمطالب بأن يكون التفكير الوضعى منهجا **كليا** وأساسيا عند التصدى لدراسة أية ظاهرة كونية، وما **يستلزمه** ذلك من القضاء نهائيا على **شتى** مظاهر التفكير الميتافيزيقى . . هذا الأساس ممكن التطبيق لكن بشرطين:

(أ) أن تفهم ظواهر المجتمع على أساس **علمى** وضعى، وهذا الفهم لن

(*) المنهج التيولوجى يعنى باختصار شديد المنهج الدينى فى التفكير، أما المنهج الميتافيزيقى.. فالمقصود به المنهج او التفكير التجريدى.. أما المنهج الوضعى.. فيقصد به المنهج العلمى فى التفكير والبحث.





يتحقق إلا إذا **خضعت** تلك الظواهر خلال مسيرتها للقوانين، وبحيث تصبح مهمة المنهج الوضعي هنا.. هى **الكشف** عن تلك القوانين التى تسير تلك الظواهر الاجتماعية والإنسانية.

(ب) أن تتاح فرصة **التعرف** على تلك القوانين حتى يتاح بالتالى **فهم** أعمق لمختلف الظواهر الإنسانية والاجتماعية وهى **تسير** وفق الحدود والأوضاع التى حددتها تلك القوانين.

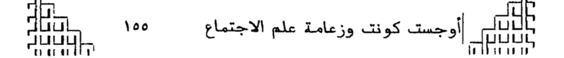
ولكن لن تتاح الفرصة **سواء** للتعرف على القوانين المسيرة للظواهر الاجتماعية أو لذلك الفهم الأعمق لها.. إلا إذا بذل **المتخصصون** جهدا أكبر فى سبيل تحقيق ذلك، وإلا إذا **توافر** علم جديد تكون مهمته القضاء على تلك الفوضى العقلية التى نشأت عن تضارب **أساليب** التفكير ومناهجه وما استتبعها من فوضى اجتماعية وأخلاقية؟!..

والنمطان **الفوضويان** ـ الفوضى العقلية والفوضى الاجتماعية ـ **يشكلان** معا العقبة الكأداء فى سبيل الإصلاح طبقا للأسس **المثالية** التى ينشدها كونت ويدعو إليها.

إذن فقد وجد **المهندس** كونت الحل الذى ينشده.. متمثلا فى «علم الطبيعة الاجتماعية» الذى وضعه كونت على **قمة** العلوم الوضعية وجعله زعيما لها.

ولم يأت **تزعم** «علم الطبيعة الاجتماعية» أو «علم الاجتماع» كما سماه كونت فيما بعد، لغيره من العلوم الطبيعية أو الإنسانية **اعتباطا**، ولكن لخصائص كامنة فى ذلك العلم على الرغم من حداثته، ولعل من أبرز تلك **الخصائص** فى رأى كونت أن موضوع علم الاجتماع ـ وهو المجتمع ـ هو أكثر الموضوعات **تعقيدا** وتركيبا على الإطلاق، زد على ذلك أن العلوم **الطبيعية** فى رأى كونت.. إن هى إلا **مقدمات** تفسح الطريق لعلم الاجتماع ـ زعيم كل العلوم ـ وتمهد المجال لبحوثه.

ويوضح كونت **سر** ذلك التعقيد والتركيب الذى **يتميز** به موضوع علم الاجتماع دون سواه واستحق لأجله أن يكون **قمة** العلوم جميعا، ذلك السر الذى



يكمن فى المجتمع الذى تتسم ظواهره الاجتماعية **بتفاعل** عناصره وتداخلها وشدة تأثرها بالنشاطات والتدخلات الإنسانية، ومن هنا اكتسبت تلك **الظاهرة** التى تتسع لتضم الإنسانية كلها ـ التى هى **موضوع** علم الاجتماع فى رأى كونت ـ سمة **التعقيد** والتركيب والغموض الذى يجعل من العبث التعرف عليها أو تحديدها بشكل دقيق و**حاسم** دون اعتماد كامل على **المنهج** الذى دعا إليه كونت(*).

* * *

الإسهامات السوسيولوجية لكونت :

تصور كونت من خلال فلسفته الوضعية أن هناك **مسارات** ثلاثة للتقدم الاجتماعى لم **يسلك** الكائن الاجتماعى ـ والذى يتكون فى رأى كونت من **عناصر** متساندة و**متمايزة** تعمل معا لتحقيق هدف واحد مشترك ـ تصور كونت أن ذلك الكائن الاجتماعى لم يسلك غير تلك **المراحل** خلال تطوره وتقدمه.

وهذه المراحل التى أطلق عليها كونت **قانون** المراحل أو الحالات الثلاث Lois des trois etats هى :

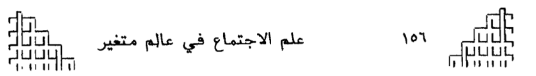
(أ) المرحلة اللاهوتية أو الدينية :

وهذه المرحلة مرت بها الإنسانية، فى **طفولتها** المبكرة، واللاهوتية لا تعنى هنا دراسة **الإلهيات** أو العقائد، وإنما تعنى فى مفهوم كونت **منهجا** أو طريقة لتفسير الظواهر الاجتماعية عن طريق إرجاعها إلى أسباب و**ظواهر** طبيعية خارقة أو قوى خفية فوق طاقة البشر، أو يردها إلى إرادة **الآلهة** التى كانت تعبد فى مجتمعات **مرحلة** الطفولة الإنسانية المبكرة.

والإنسان خلال هذه المرحلة كثيرا ما **وقف** حائرا أمام ما يراه من ظواهر وخوارق لم يستطع **عقله** فى ذلك الوقت أن يجد مبررا مناسبا لها، وبالتالى لم يجد أمامه من تفسير مقنع إلا أن يردها إما إلى تلك **القوى** الخفية أو الغيبية التى تسيطر على العالم من حوله، أو تهيئ له قناعاته بآلهته بأنها الوحيدة المسئولة عما حدث ويحدث من حوله.

ويرى كونت أن **الإنسان** خلال تلك المرحلة أضفى على آلهته الكثير من

(*) انظر ملامح المنهج التيولوجى الميتافيزيقى الذى ابتكره كونت خلال مؤلفنا ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.



الخصائص **الإنسانية** من فرح وغضب وتنازع على البقاء، وعلى هذا الأساس أعطى إنسان تلك المرحلة بعض السمات **الرمزية** لما يراه حوله من ظواهر طبيعية، فعندما تهب العاصفة فإن الآلهة **تتصارع**، وعندما يثور بركان أو يفيض نهر أو يعصف **ريح** أو يشب حريق أو يقع زلزال . . فهذا **معناه** أن الآلهة غضبى . . وهكذا !!.

وأكد كونت على أن تلك **التفسيرات** كانت ترضى إنسان ذلك العصر وتروى ظمأه لمعرفة ما يدور حوله من ظواهر، مع ملاحظة أن **مرحلة** التفكير اللاهوتى تلك قد **مرت** هى الأخرى بأطوار ثلاثة . . ابتداءً من الطوطمية . . ومرورا بتعدد الآلهة، وصولا إلى وحدانية الإله(*).

* * *

(ب) المرحلة الفلسفية أو الميتافيزيقية :

مفهوم الميتافيزيقية هنا . . لا يعنى البحث فى **أصل** الوجود أو فى غير ذلك من القضايا الفلسفية المتعلقة بأصل الأنواع وما إليها، ولكن . . **قصد** بها كونت طريقة التفكير **المرتكزة** على الفروض المجردة لتفسير مختلف الظواهر.

واعتبرت هذه المرحلة ـ فى رأى كونت ـ مرحلة **انتقالية** تمكن **الإنسان** خلالها من أن يتخيل أو يتصور **تفسيرا** جديدا للظواهر من حوله . . فبدلا من أنه كان يرجع ذلك لأسباب وقوى غيبية خارجة عن **نطاقه** ونطاق الظواهر المحسوسة من حوله، بدلا من ذلك راح **يفسر** ما يراه ويرجعه لأسباب تعود **لتلك** الظواهر نفسها، أو بمعنى آخر . . فإن سبب أو علة ما يحدث من **تغيرات** مجتمعية تحيط بذلك **الإنسان** إنما تعود **إلى طبيعة** الأشياء وليس لأسباب أو قوى خارجية . . وهكذا حلت «الطبيعة» محل «الإله» **فى تفسير** وتعليل الظواهر المحيطة بالإنسان.

* * *

(*) للاستزادة : انظر . . الدين والمعتقدات البدوية . . ضمن كتابنا علم الاجتماع البدوى ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ ـ ص ص ٣٢٦ ـ ٣٧٩. وانظر كذلك :

أ ـ دكتور صلاح الفوال ـ البناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ .

ب ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ص ٢٦ ـ ٢٧.

جـ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع المفهوم . . والموضوع والمنهج ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢.

(جـ) المرحلة الوضعية أوالعلمية :

وهى مرحلة بلغت الكمال فى العلم وفى التفكير الإنسانى، وأدرك خلالها العقل البشرى **حقيقتين** هامتين: أولاهما -أن انتظام الظواهر لا يمكن أن تبرره المعجزات أو تفسره رغبات الآلهة، وبالتالى لا يمكن تفسيرها **استنادا** على كلمات الفلاسفة أو ادعاءات الكهان، أما **الحقيقة** الثانية-فهى أنه ليس فى مقدور الإنسان أن يصل إلى تفسيرات **مطلقة** خلال بحثه عن أصل الأشياء وغاياتها.

وبناء على ذلك فإن **الإنسان** ـ خلال هذه المرحلة ـ قنع بالسعى لاكتشاف القوانين التى **تسير** مختلف الظواهر حوله فى **تعاقبها** المستمر وترافقها الدائم، وكانت ركيزته فى ذلك **عقلا** واعيا وملاحظة مقننة ومنهجا فى التفكير الوضعى لا يفتش عن **سبب** حدوث تلك الظواهر من حوله بقدر اهتمامه عن **كيفية** حدوث تلك الظواهر، وكانت هذه الخطوة ـ فى رأى كونت ـ هى **الحاسمة** فى سبيل تطور الاتجاه **العلمى** وتقدمه.

كما تميزت هذه المرحلة بانحسار **التأملات** الفلسفية والشطحات الفكرية.. لتحل محلها **ملاحظة** حسية مدعومة بالتجربة العلمية التى **تقود** الإنسان إلى نتائج يقينية فوق مستوى الحدس أو التخمين.

هذا ولم يكتف كونت بعرض **قانون** المراحل أو الحالات الثلاث السابق الإشارة إليه فقط، بل أقام مجموعة من **الارتباطات** بين تلك المراحل وبين مراحل تقدم ونمو الحياة المادية للإنسان.. واعتبر كونت **الحالات** الثلاث المشار إليها قبلا.. إن هى إلا حالات عقلية، **وقابل** بينها وبين أشكال الوحدات الاجتماعية السائدة **خلال** كل مرحلة، وبينها كذلك وبين كل من أنماط **النظم** الاجتماعية فضلا عن المشاعر **الإنسانية** السائدة، فنجد كونت مثلا قد ربط بين **اللاهوتية** كحالة عقلية وبين شيوع النمط العسكرى، وكذلك سيادة الأسرة **كوحدة** اجتماعية مع وضوح مشاعر المحبة والتعاون، أما **الميتافيزيقية** فقد ارتبطت فى مفهوم كونت بالمرحلة التشريعية وظهور الدولة كنظام جمعى مع **سيادة** مشاعر الاحترام والتبجيل، **أما الوضعية** كحالة عقلية فقد ارتبطت بظهور المجتمع **الصناعى** وبروز الإنسانية فى ظل نظام **عالمى** مؤمن بالإحسان والخير.



هذا ولم تكن **تلك** المراحل عند كونت مجرد مبدأ بل صارت عنده قانونا يحكم تقدم المعرفة وينطبق ليس **فقط** على المجتمعات الإنسانية إنما ينسحب بالضرورة على الأفراد فى تطورهم وتربيتهم وتعليمهم كذلك(*).

* * *

ركائز النظرية السوسيولوجية عند كونت :

أولا : يعتبر كونت قانون الحالات أو **المراحل** الثلاث المشار إليه قبلا الركيزة **الأولى** للنظرية السوسيولوجية عنده، أما الركيزة **الثانية** فتتمثل فى النظام المتسلسل **للعلوم** الذى وضعه كونت فى نسق مترابط قاعدته **الرياضيات** ويشكل علم الاجتماع **قمته** المتطورة والذى اعتبره كونت أكثر العلوم تعقيدا، وذلك شىء طبيعى فى رأى كونت لأن كل علم داخل ذلك **النسق** التسلسلى الذى تصوره للعلوم، **يمهد** بالضرورة للعلم الذى يليه فى السلسلة والذى لابد أن يكون أكثر **تعقيدا** منه، فالرياضة تأتى أولا وعند **قاعدة** النسق، وبعدها الميكانيكا ثم الفيزياء فالكيمياء فالبيولوجيا، حتى يحتل قمة ذلك **النسق** علم وليد - فى رأى كونت - هو **الفيزياء** الاجتماعية أو علم الاجتماع.

ثانيا : تمييز كونت Comte بين علم الاجتماع وبين **الفلسفة** السياسية، وإصراره على أن **الاستقصاءات** السوسيولوجية لابد أن تعتمد على **المناهج** الوضعية أو الموضوعية فى الملاحظة وعلى **التجريب** والمقارنة المميزة للعلوم الطبيعية[1] وكذلك على المنهج التاريخى[2].

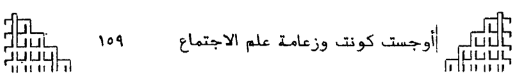
ثالثا: وضع كونت **أول** تعريف لعلم الاجتماع **وقال**: «إنه الدراسة الواقعية المنظمة للظواهر الاجتماعية» و «هو العلم النظرى المجرد للظواهر الاجتماعية. .»[3]، ولا يقلل من **قيمة** تعريف كونت لعلم الاجتماع أنه لم يعد **معترفا** به كلية الآن، كما قدم كونت تصورا ممتازا للثقافة باعتبارها **المحصلة** الكلية لإنجازات العقول الإنسانية المتفاعلة.

(*) انتقد دوركايم قانون كونت عن الحالات الثلاث، واعتبره ليس فقط خارجا عن دائرة القوانين، وإنما لا يصلح أيضا حتى ليكون مجرد فرض مقبول ما دام غير ممكن الاختبار.. انظر فى ذلك:

١ - دكتور صلاح الفوال - النظريات فى علم الاجتماع - مرجع سابق.

٢ - دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢ .

٣ - دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج - مرجع سابق.



رابعا: قسم كونت **موضوعات** علم الاجتماع إلى قسمين رئيسيين : أولهما- ما يعرف بـعلم الاجتماع الاستـاتيكى Social Statique، وثانيهما-مـا يعرف بعلم الاجتماع الديناميكى Social Dynamique، كما حدد اهـتمام الاستاتيـكا بدراسة **شروط** وجود المجتمع أو بما يعرف الآن **بالبناء** الاجتماعى، بينما تهتم الديناميكا بدراسة **الحركة** المستمرة للمجتمع أو ما يعرف الآن بدراسة التغير الاجتماعى.

ويقول نيقولا تـيماشيف Timachiff: إن **النظام** هو الحقـيقة الرئيسـية فى الاستاتيكا كما أن **التقدم** هو الحقيقة الكبرى فى الديناميكا عند كونت(٤). وبتعبير آخر فإن الاستاتـيكا هى **نظرية** النظـام، الذى يشير إلـى الانسجام والتـوازن بين مختلف **ظروف** وجود الإنسان فى المجتمع، بينما تعد الديناميكا نظرية فى **التقدم** الاجتماعى تهتم بدراسة النمو الأساسى فى المجتمع وتطوره(٥).

خامسا: أكد كونـت من خلال قناعـته بأن المناهـج يجب ألا **تنفصل** عن الظواهر التى **تستخدم** فى بـحثها، أكـد أنه **يجب** على عـلم الاجتمـاع أن يأخذ بالمنهج الوضعى.

صحيح أن كونت لم يشرح منهجـه الوضعى بشكل دقيق وكاف، إلا أنه أكد أن **منهجه** الوضعى يتطلب تبعية المفهومات للواقع من جهة، وقبول **الفكرة** التى تقول أن الظواهر الاجـتماعية إن هى إلا **موضوع** للقوانين العامة من جهة أخرى إلا أنه أكد على أن الوصول إلى الحـقائق أو كشفها فى **مجال** الظواهر الاجتماعية يعتمد على **نوعين** من الوسائل: أحدهما **مباشر** والآخر غير مباشر.. ولم **يهتم** كونت بالوسائل غير المباشرة وركز على **النوع** المباشر منها.. ويرى أنه ـ أى المباشر ـ يتمثل **فى**.. الملاحظة والتجربة والمنهج المقارن **وأخيرا** المنهج التاريخى.. وكان كونت **واعيا** تماما **لمفردات** منهج البحث الاجتماعى لديه.. فالملاحظة عنده ليست مجرد الإدراك الحسى المباشر للظواهر.. وإنما يمكن الاستعانة أو **الاستعاضة** عنها بوسائل أخرى قد تكـون أجدى فى **الملاحظة** «الاجتماعية».. ومـن أمثلة تلك **الوسائل** الأخرى.. دراسة العادات والـتقاليد **وتحليل** ومقارنة الـلغات والاطلاع على السجلات والوثائق التاريخية، فضلا عن دراسة النظم المختلفة.. مع **التأكيد** على أن ملاحظة الظـواهر الاجتماعية أمر لـيس سهلا.. أو هى ـ المـلاحظة ـ فى الحقـيقة أمـر معـقد، وذلك يـرجع **للتعقيد** البـالغ الـذى تتـسم بـه **الظواهر** الاجتماعية ذاتها.. فضلا عن **ولعها** بالتغير ودوام التفاعل.



كما حذر كونت من وقـوع الباحث فى خطأ **التأويل** ومن ثم يقع فى خطأ الاستنتاج.. لذلك **يحذر** كونت بوضـوح من الاعتماد علـى الملاحظة **كأسلوب** وحيد فى دراسة الظواهر الاجتماعية.

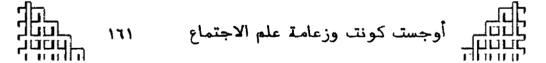
هذا، وتعد **التجربة**..(*) الأداة الثانـية فى **منهجية** كونت.. الذى حرص أن يطلق عليها مـصطلح «التجربة الاجتماعية».. تمييزا لها عن **التجربة** فى العلوم الطبيعية..وتنهض التجربة عند كونت على **مقارنة** ظاهرتين تتشابهان فى **كل** شىء إلا فى حالة واحدة.. ويطلق عـليها التجربة **المباشرة**.. حيث يمكن عـن طريقها استنتاج أثر العامل سبب الاختلاف فى الظاهرتين محل الدراسة.. إلا أن كونت.. **عاد** وحذر من مردود تلك التجارب لأنهـا تبقى فى معظم الأحوال.. **قاصرة** عن الاستنتاج ما لم يكن الباحث نفسه واعيا ومطلعا على مختلف الحالات التى **توجد** فيها الظواهر الاجتماعية محل التجربة.

أما الأداة **الثالثة** فى منـهج كونت فـهى **المقارنة** الاجتـماعية.. أو المنهج **المقارن**.. فهو تجربة.. لـكن فى مجال **أوسع** قصد به كونـت مقارنة **مجتمعين** بغرض التعرف على وجوه الاتفاق والاختلاف.. أو التشابه بينهما.. وخصوصا فى ظل **التطور** الـسريع لبعض الظواهـر المجتمعية فى مجـتمع دون الآخر.. كما قد تكون المقارنة فـى مجال مكانى **أصغر**.. كأن تكـون بين **طبقتين** أو هيئتـين فى نطاق أمة **واحدة** أو شعب واحد.

كما اعتبر كونت.. **المنهج** التاريخى أو المـنهج السامى ـ كما يـسميه ـ **آخر** أسـاس من أسس منهجـه الوضعى.. باعتبار المنـهج التاريخى هـو المنهج **الوحيد** القـادر على الـكشـف عن **القوانين** الأساسـية الـتى **تحكم** التطور الاجـتماعى للـبشرية.. وذلك من **وجهة** نظر كـونت الخاصة الـتى تعتـبر أن الجنس الـبشرى **وحدة** واحدة.. ترتقى من مرحلة إلى أخرى.

كما **أنكر** كونت إمكانية **التطابق** بين منـهجه الوضعى وبين اسـتخدام كل من الإحصـاء والرياضيـات، بينمـا أكد Comte أيضـا أنه يمـكن **تحصيل** المعرفة الوضعية عن طريق كل **من** الملاحظة، التجربة، المقارنـة، والمنهج التاريخى، كما **أكد** كونت أن **الملاحظة** لا يمكن أن تستخدم أو تؤدى دورها بنجاح إلا إذا كانت

(*) الأداة الأولى عند كونت كانت هى الملاحظة المباشرة.



موجهة أو مدعمة بنظرية، وحذر كونت كذلك من **اعتماد** الملاحظة «استخدام الحواس الفيزيائية» على **الاستنباطات** إلا بأقل قدر مستطاع.

وعلى كل فإن **كونت** Comte يعتبر الأب المؤسس **للاتجاه** الوضعى فى علم الاجتماع وإن لم تتسق **أفكاره** مع أفكار **الوضعية** الحديثة التى تسعى إلى البحث عن **نظرة** موحدة لعالم الظواهر طبيعية كانت أو اجتماعية من **خلال** تطبيق المناهج والنتائج التى **تصل** إليها العلوم الطبيعية(*).

سادسا : يرى إنكلز Alex Inkeles خلال **كتابه** «ما هو علم الاجتماع» الذى صدر عام ١٩٦٤، أن كونت على الرغم من أنه **أعطى** علم الاجتماع اسمه، إلا أنه اهتم بتأكيد **دعاواه** وآماله نحو هذا العلم الوليد أكثر من **اهتمامه** بتحديد موضوع ذلك العلم(٦)(**).

ويضيف إنكلز أن كونت لم يكن **متحمسا** لفصل علم الاجتماع عن دائرة العلوم الاجتماعية لأن ذلك **الفصل** فى رأى كونت لم يكن عمليا ولا **مرغوبا** فيه فى الوقت الحاضر «عصر كونت»، وأن تلك هى مهمة **المستقبل** البعيد، أما فى عصر كونت فإنه من **المستحيل** التعجيل بهذا **التقسيم** الرئيسى على حد تعبير كونت نفسه(٧).

ولكن ليس معنى **رفض** كونت للتحديد الدقيق والمفصل **لفروع** علم الاجتماع أنه **غفل** تماما عن هذه النقطة، فقد **قسم** علمه الوليد إلى قسمين رئيسيين: أولهما - **الاستاتيكا** الاجتماعية Social Statics، وثانيهما-**الديناميكا** الاجتماعية Social Dynamics، وحدد كونت طبيعة عمل الجانب الاستاتيكى **لعلم** الاجتماع من خلال قوله: «إن الجانب الاستاتيكى لعلم الاجتماع يتمثل فى دراسة **قوانين** الفعل ورد الفعل التى **تخضع** لها مختلف أجزاء النسق الاجتماعى» أما عن الجانب الديناميكى لعلم الاجتماع فإنه يجب أن **تتركز** الدراسة خلاله على مجتمعات كاملة، وبحيث **يعتبر** المجتمع ككل هو **وحدة** التحليل

* يتزعم هذا الاتجاه كل من لندبرج، أوجبرن، وتشابيين، وهم أقطاب الوضعية الحديثة أو المحدثة. وسنتحدث عنهم خلال الباب الثامن «الفصل الخامس والعشرين» من هذا الكتاب.
** عندما أطلق كونت كلمة Sociologic للدلالة على علمه الوليد كان ذلك حوالى عام ١٨٣٠.



السوسيولوجى بهدف إيضاح كيف **تطورت** وتغيرت تلك المجتمعات على مر العصور، وذلك لأن «قوانين الديناميكا الاجتماعية تبدو أكثر وضوحا عندما ينظر إليها في ضوء مجتمعات كبيرة[٨]. .» وذلك **بعكس** الإستاتيكا الاجتماعية التى تعتبر النظم الأساسية للمجتمع كالاقتصاد والأسرة والسياسة هى **وحدات** التحليل السوسيولوجى الرئيسية بالنسبة لها، وينصب **جهد** علم الاجتماع فى هذه الحالة على دراسة العلاقات **المتبادلة** بين تلك النظم.

سابعا : قدم كونت **تصنيفا** للمجتمعات، طبقا لقانون الحالات الثلاث والمرتكزة على **نوعية** المعرفة فى أى من المجتمعات، **وقسم** كونت المجتمعات إلى ثلاثة أنماط رئيسية هى :

(أ) المجتمع العسكرى : هو ذلك المجتمع الذى تفسر خلاله الأحداث والظواهر المختلفة بالرجوع إلى **قوى** غير طبيعية، وهو لذلك مجتمع متحكم ومتسلط، يعتمد على الزراعة، **وللأسرة** فيه مكانة ممتازة حيث تعتبر هى الخلية الأولى أو الرئيسية فيه، وهى كذلك الوحدة الاقتصادية ومن **خلالها** تنتقل الملكية والسلطة.

(ب) مجتمع الفقهاء : ويتميز ذلك المجتمع **بوضوح** السلطة الروحية عن السلطة الدينية، وتكون السيادة فيه **لأفكار** أخرى غير فكرة الدين، ومنها **أفكار** الوطن **والدولة**، وربما كان ذلك راجعا إلى أن **النوازع** الدينية فى مجتمع الفقهاء ـ كما أوضحه كونت ـ صارت **موضع** شك وجدل، وهذا المجتمع وإن كان معروفا عنه أنه مجتمع **التفكك** والأزمات والثورات إلا أنه ضرورى ـ فى رأى كونت ـ للتمهيد لظهور المجتمعات الصناعية.

(جـ) المجتمع الصناعى: وهو ذلك المجتمع الذى **يخضع** فيه **تفسير** الأحداث والأشياء والظواهر إلى **قوانين** وضعية، ويرى كونت أن ذلك النمط هو قدر الإنسانية **جمعاء** التى لابد لها أن تصله يوما ما.

* * *

النقد الموجه للفكر السوسيولوجى عند كونت :

يقرر تيماشيف Timacheff خلال كتابه "Sociological Theory" المشار إليه، أن **النظرية** الاجتماعية عند كونت **تشكل** نسقا يرتكز على محورين أساسيين.. **أولهما** ما يعرف عنده بـ«قانون المراحل الثلاث» **وثانيهما**.. «المبدأ النظرى» الذى

بين كونــت أنه بمقتضى ذلك المبدأ.. ارتبطت العلوم **جميعا** فى «نسق تسلسلى».. يشكل علم الاجتماع الوليد ـ فى رأى كونت ـ قمته..!!.

والعلوم جميعا ـ وفقا لنســق كونت ـ إما نظرية.. أو عملية.. وتهتم العلوم **النظرية** بمعالجــة الظواهر الملــموسة.. وتهتم الـعلوم **العملية** باكتشاف الـقوانين الطبيعية التى تحكم الظاهرة وتحدد مراحل وجودها **وكيفية** تتابعها.

ومن رأى كونت أيضا.. أن العلوم جميعا تشكل **سلسلة** وتعتمد خلالها كل حلقة عــلى التى تسبقها.. وبموجب هذه العلاقة **السُلمية** ـ عند كونت ـ فــالعلوم تتطور اهتماماتــها **إلى الأكثر** تعقيدا أو تركيبا.. وكان من رأيه أن العلوم **الرياضية** تشكل **قاعدة** السُلــم حيث ينــصب **اهتمامها** الأساســى على الجوانــب المجردة لجميع الظواهر، وتلى الرياضة فى الترتيب من **حيث** الأهمية.. علوم الميكانيكا(*) والكيمياء والبيلوجيا.. وهكذا.. حتى **يتربع** علم الاجتماع الجديد على القمة.

ومن رأى كونت كذلك ـ وفقا لقانون المراحل الثلاث أن كل ميادين **المعرفة** الإنسانيــة ـ قد مرت خلال **تطورها** بمراحل ثلاث.. هى.. اللاهوتية والمــيتافيزيقية والوضعية.. لكن **انتقال** أى علم من مرحلــة إلى التى تلــيها.. لــم يكن **بدرجة** واحدة وإنما توقف ذلك بالدرجة الأولى على **مكانة** ذلك العلم فى سُلم العلوم.

وكان كونت ـ كما يذكر تيمــاشيف ـ مقتنعا تماما **بوجهة** نظره.. لدرجة أنه بعث بنسخة من مؤلفه فــى الفلسفة الوضعية "Positive Philosophy" إلى نيقولا الأول **إمبراطور** روسيا حتى يستعين بما حواه من **أفكار** تساعد كثيرا على إصلاح المجــتمع.. والنتيجة كــانت ـ فى رأى تيماشــيف ـ أن ذلك السلوك مــن «كونت» جلب عليه **المزيد** من الانتقادات بل والسخرية!!.

* وعلى كل فقد **واجهت** أفكار كونت سواء فى حياتــه أو بعد مماته العديد من **الانتقادات** التى نوجزها فيما يلى :

١ ـ ما ادعاه كونت من أن **جميع** الناس فى عصره كانوا **يفهمون** الظواهر الطبيعية ويفسرونها بطـريقة وضعية علمية، ادعاء غير **صحيح**، لأنه يجافى المنطق على اعتبار أن **المنهجية** العلمية شىء غير متاح **لعامة** الناس، بل يكاد يتاح لخاصة

(*) يرى تيماشيف أنـه حدث خلط لدى كونت ما بين الميكانيـكا والفلك، كما يعتقد تيمـاشيف أن المقصود هو الفلك وليس الميكانيكا بالمفهوم السائد الآن.



الخاصة **منهم** بالكـاد، ومن هنا. . اعـتبر كثـيرون أن **ادعاءات** كونت فـى هذا المجال إن هى إلا **محض** خيال، ومن ثم تـصبح الأسباب التى دعتـه **إلى** **تأسيس** علم الاجتماع أسبابا لا محل لها من الصحة(*).

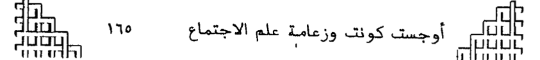
٢ ـ كونت متهم بأنه يقول **غير** ما يفعل. . أو يفعل غـير ما يقول. . بمعنى أنه أسهب فى **ضرورة** الالتزام بقواعد مـنهجية **ذات** سمة علميـة. . غير أنه عند التطبيق لم **يلتزم** بما نادى به. . بل ووقع فى المحظورات عندما توصل ـ فى غياب منهجيته ـ إلى قوانين **فلسفية** ذاتية بعيدة كل البعد عن **طبائع** الظواهر التى درسها أو تعرض لها . . ولعل أوضح **مثال** على ذلك هو قانونه المـسمى بقانون المراحل أو الأدوار الثلاثة، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن **دراسة** كونت للإستاتيكا لأنه **انتهى** خلالها إلى نهاية **فلسفية** نتيجة لتشبيهه للمـجتمع بجسم الإنسان فى نطاق قانون **التضامن** الذى دعا إليه(**).

٣ ـ انطـلق كونت فـى دراسته لـلإنسانـية ـ خلال سعـيه **للتوصل** لقانون المراحل الثلاث المشار إليه قبلا ـ انطلق وفى ذهنه تصور **خاطئ** عن أن **الإنسانية** ـ التى هى محور اهتمام علم **الاجتماع** لديه ـ كل لايتجزأ، ونتج عن ذلك ما نادى به كونت من أن العقل الإنسانى قد **سلك** فى سعيه لفهم وتفسير الظواهر الإنسانية ثلاثة مسارات حتمية، وهذا **المنطلق** وما استتبعه من نتائج **متهم** بالفساد ومجافاة الواقع والتعارض مع الحقـائق العلمية التى أكدت فيما بعد أن المجـتمعات الإنسانية **تختلف** وتتباين من حيث الزمان والمكان **بفعل** العديد من الـظروف . . **وأنها** لم تسر يوما على وتيرة واحدة **لأن** ذلك **مجاف** لطبيعة الأشياء.

٤ ـ أرجع كـونت **التطور** الذى يعترى الـظواهر الاجتماعية، إلى الـتفكير وربط بينهما ربطـا عضويا. . بمعنى أنه **كلما** تطور الفكر الإنسـانى تطورت ظواهر المجتمع، والثابت أنه لا يمكن أن **نرجع** التطور الحادث للظواهر المجتمعية لعامل واحد فـقط، هذا إلى جـانب أن الفكـر الإنسانى هـو الذى **يتأثر** بتطور **الظواهر** الاجتماعية **وليس** العكس.

(*) للاستزادة حول الانتقادات التى واجهت لفكر كونت ـ انظر :
دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مرجع سابق.

(**) نفس المـرجع السابق، وانظـر كذلك كتابنـا ـ معالم الفـكر السوسيولـوجى المعاصر ـ مرجـع سابق ـ ص ص٣٥ـ٣٧.
وانظر كذلك ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع. . المفهوم والموضوع والمنهج ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ص ١٢ ـ ١٤.



٥ - بشر كونت **بدين** وضعى جديد La religion de l'humanite خلاصته إحياء ذكرى الرجال العظام والفلاسفة جزاءً لما قدموه من **أعمال** جليلة للإنسانية جمعاء، وهذا **الدين** الكونتى(*) على الرغم من غرابتـه واتجاهه **لتأليه** فريق من البشـر، لا يمكن قبـوله، لأن الدين **كنظام** أو حـتى كظاهرة لا يـمكن أن يكون **مصدره** اتفاق بين مجـموعة من الأفراد لوضعه ثم اعـتناقه، وإنما ينشأ الدين عن مصدرين:

(أ) كرد فعل للحياة الاجتماعية ووفقا لرغبات **العقل** الجمعى فى حالات الديانات البدائية وغير السماوية.

(ب) عن طـريق **الرسل** الذين يختارهـم الله سبحانه وتعالى لتـبليغ رسالة محددة لطائفـة من الناس فى مكان أو زمان **معين** أو محدود **كدعوة** لوط وهود والأسـباط، رضى الله عنهم، وأحـيـانا لمجال مكانى وزمـانى **أوسع** مـثل الديانة اليهوديـة ورسولها **موسى** والمسيحيـة ورسولها **عيسى** عليهـما وعلى نبـينا أزكى السلام، وأحيـانا أخرى **لكل** زمـان ومكان كرسـالة **الإسلام** - الدين الخـاتم - ورسولها محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى الأنبياء والرسل أجمعين.

* * *

إنصاف كونت:

أ - على الرغم من أن **الأفكار** التى اعتنقها كونت أفكار **قديمة** أو أنها لم تقدم نظرية اجـتماعيـة متكاملة، إلا أن جهـد كونت **مقدر** حتى وإن لم تتـجاوز محصلته النهـائية مجرد **تجميع** تلك الآراء والأفكار وإعـادة ترتيـبـهـا، لأن ذلك التجميع والترتيب قد أديا بغير شك إلى نمو **المعرفة** الاجتماعية وخصوصا ما تعلق منهـا بالبناء الاجتـماعى **والتغير** سـواء فـى البنـاء أو فى **الثقافة** والجمـاعات الاجتماعية والعلاقات الشخصية.

ب - ما زالت كتابات وأفكار كثيرة لكونت على **أصالتها** حتى اليوم، بل إن الكثير منها يعتبر **أفكارا** عصرية، كـتصوره عن **الثقافة** باعتبارها الحـصيلة الكلية لإنجازات العقـول الإنسانية **المتفاعلة**، إلى جـانب إدراكـه السليم للتأثير **المتبادل** بين الفرد والمجتمع(٩)، كما أن كونت قد تعرض فى كتاباته **للكثير** من المسائل والموضوعات التى تعد اليوم **أساسا** للاتجاهات الحديثة فى علم الاجتماع المعاصر(١٠).

* * *

(*) انتسابا لكونت.

المصادر

١ ـ دكتــور محمد عــاطف غيــث ـ علم الاجـتماع ـ الجزء الأول ـ دار المـعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ ـ ص ٣٦.

٢ ـ نيقولا تيمــاشيف ـ النظرية الاجتماعــية المعاصرة ترجمة الدكتــور محمود عودة وآخرين ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٠ ـ ص ٣٣.

٣ ـ نيقولا تيماشيف ـ المرجع السابق ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٢ ـ ص ٢٨.

٤ ـ Nicolas. S. Timacheff, Sociogical Theroy, New York, pp. 9 - 11 . 1955.

٥ ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ الطبعة الأولى ـ ص ص ٣٥ـ٣٦.

٦ ـ Alex Inkeles, what is Sociolgy: An Introduction Tothe Discipline and profession prentice - Hall, Inc. Englewood cliffs, N.J., U.S.A. 1964.

٧ ـ المصدر السابق.

٨ ـ المصدر السابق.

٩ ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الأولى مرجع سابق ـ ص ص ٤٤ ـ ٤٥.

١٠ ـ انظر :

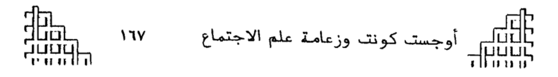
ـ Nicolass Timachiff, op, cit, pp. 26 - 28

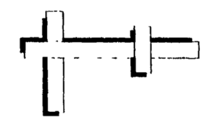
ـ دكتور صلاح الفوال ـ معــالم الفكر السوسيولوجى المعــاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٧ ـ ٣٨.

ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مرجع سابق.

ـ دكتــور صلاح الفوال ـ عــلم الاجتــماع.. المفــهوم والموضوع والمـنهج ـ مـرجع سابق.

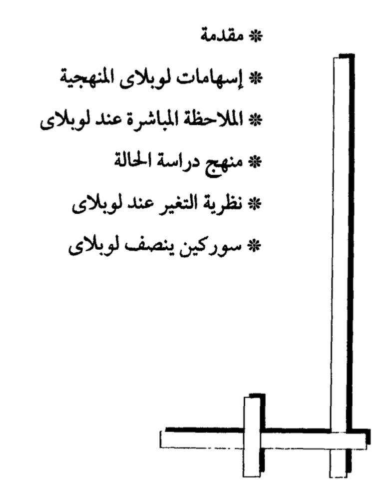
* * *





الفصل التاسع

لوبلاى وإسهاماته السوسيولوجية



* مقدمة
* إسهامات لوبلاى المنهجية
* الملاحظة المباشرة عند لوبلاى
* منهج دراسة الحالة
* نظرية التغير عند لوبلاى
* سوركين ينصف لوبلاى

مقدمة :

كان لوبلاى Le play(*) ـ شأنه فـى ذلك شأن كونت ـ مـهتما بـالانحلال والتفكك الاجتماعى **المعاصر** له، والـذى كان يعـتقد أنه واحـد من آثار الـثورة الفرنسية، وترك هذا الاهتمام **بصمات** واضحة على إسهامات لـوبلاى فى النظرية السوسيولوجية حيث كان شاغله الأول هو . . كيفية إيجاد نوع من **التوافق** يمكن أن يعيد التوازن أو الاستـقرار لذلك المجتمع أو **النظام** الاجتماعى العام (المفكك والمنحل).

وتطلـع لوبلاى إلى تحقيـق ذلك الهدف على أسـاس الحلول **القائمة** على المعرفة الإمبريقة Emprical، وارتكز منهـجه فى ذلك على الدراسات التـى تستند على المـلاحظة الدقـيقة والواعـية للظـواهر الاجتمـاعية من خـلال مجموعـة من المصطـلحات التـى وضعها فـى إطار موحد يطـابق فى أسســه وجوانبه واتجـاهاته مايعرف الآن بمنهج دراسة الحالة Case Stady [١]

* * *

إسهامات لوبلاى المنهجية:

يمكننا أن نوجز إسهامات لوبلاى المنهجية من خلال ما يأتى:

أولا: الملاحظة بالمشاركة Non contrlled particpant observation:

اعتبر كثير من العلماء أن **الإطار** الموحد للدراسة والذى قدمه لوبلاى يعتبر الإضافة الحـقيقية لـه فى النظريـة السوسيولـوجية، كما يـرى البعض أن الطـريقة

(*) عاش لوبلاى افى المدة ١٨٠٦ إلى ١٨٨٢.

الجديدة التى **انتهجها** لوبلاى خلال بحثه عن الأسرة كانت **الأساس** لما يعرف اليوم بطريقة «الملاحظة بالمشاركة»، وهى **إسهام** لاشك أنه أضاف الكثير إلى المنهجية العامة للعلم الاجتماعى.

هذا وقد أطلق المرحوم الدكتور عاطف غيث على **اكتشاف** لوبلاى «الملاحظة المشاركة»(*) .. كما سمى تيماشيف **تكتيك** لوبلاى الجديد فى البحث «ملاحظة المشارك»(**).

ونحن **نرى** أن المسميين لايختلفان عن «الملاحظة بالمشاركة» أو ما يطلق عليه «الملاحظة البسيطة بالمشاركة» Non controlled particpant observation، وهذه تتضمن مشاركة الباحث الفعلية فى حياة الأفراد والجماعات الذين هم محل الدراسة، كما تتضمن **الملاحظة** بالمشاركة.. مساهمة الباحث فى أوجه نشاط الناس المبحوثين، ولو أن تلك المساهمة فى حياة المبحوثين اليومية تكون **مساهمة** مؤقتة وقاصرة فقط على فترة الملاحظة أو **مدة** البحث، كما تستخدم الآن الملاحظة بالمشاركة بكثرة فى **الدراسات** الأنثربولوجية(***).

* * *

ثانيا: دراسة الحالة Case stady:

يمكن لنا تعريف **منهج** «دراسة الحالة» بأنه المنهج الذى يتجه **إلى جمع** البيانات العلمية المتعلقة بأية وحدة سواء أكانت فردا أو **جماعة** أو نظاما اجتماعيا أو مجتمعا عاما، وهو يقوم - أى منهج **دراسة** الحالة - على أساس التعمق فى دراسة مرحلة معينة من تاريخ الوحدة، أو دراسة **جميع** المراحل التى مرت بها، وذلك بقصد الوصول **إلى تعميمات** علمية متعلقة بالوحدة المدروسة وبغيرها من الوحدات المشابهة لها(****).

(*) للاستزادة انظر - دكتور محمد عاطف غيث - علم الاجتماع - مرجع سابق - ص ٤٢.

(**) للاستزادة انظر - تيماشيف - مرجع سابق - ص ٧٣.

(***) للاستزادة حول الملاحظة بالمشاركة - انظر - دكتور صلاح الفوال - مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية - مرجع سابق - ص ص ٢٦١ - ٢٨١، وانظر كذلك دكتور جمال زكى - أسس البحث الاجتماعى - مرجع سابق - ص ص ١٧٦ - ١٨١.

(****) انظر - دكتور عبد الباسط محمد حسن - مرجع سابق - ص ٣٢٩.

ومن **التعريفات** المميزة التعريف الذى وضعه كليفورد شو K.Shaw والذى يذهب إلى أن طريقة دراسة الحالة «ترتكز على الموقف **الكلى** خلال تتابع الأحداث التى يقع السلوك فى مجراها، مع **دراسة** السلوك الفردى داخل الموقف الذى يقع فيه، مع تحليل **الحالات** ومقارنتها، الأمر الذى **يؤدى** إلى تكوين الفروض»، وأوضح شو أن الحالة قد تكون فردا أو جماعة أو مجتمعا **محليا** أو نظاما.. وجميع هذه **الحالات** تعتبر وحدة للدراسة طبقا لمنهج دراسة الحالة(*).

هذا وتوجد **طريقتان** شائعتان فى فهم واستعمال «دراسة الحالة» أولهما مايعرف «بتاريخ دراسة الحالة Case history» ويعنى الباحث **خلاله** بجمع المعلومات المختلفة التى **توضح** تطور الحالة المبحوثة، أما الطريقة الثانية التى تعرف باسم «التاريخ الشخصى للحياة life history» ويهتم الباحث خلالها بدفع المبحوث الى عرض مختلف الحوادث والمواقف التى مر بها، علاوة **على** سعى الباحث للتعرف على مختلف اهتمامات المبحوث واتجاهاته ومعتقداته وخبراته من **وجهة** نظر المبحوث ذاته وعلى الباحث بعد ذلك أن يقدم التعليلات **والتفسيرات** لكل مالاحظ من خلال المراحل التطورية المتعاقبة من **الناحيتين** السلوكية والانفعالية للمبحوث.

وعلى كل فإن **استخدام** «دراسة الحالة» بشقيها يستلزم **مهارة** خاصة لأن الباحث عليه أن يتأكد من مدى صدق المبحوث خلال تاريخ الحالة Case History والتاريخ الشخصى للحالة Case of life history person(**).

* * *

إسهامات لوبلاى السوسيولوجية:

يمكن لنا أن **نتعرف** على هذه الاسهامات من خلال مايأتى:

أولا: قام لوبلاى عام ١٨٣٣ بمسح جيولوجى لأحد الأقاليم **الإسبانية**، كما نشر عام ١٨٥٥ فى ستة مجلدات مؤلفه **الممتاز** عن العمال الأوروبيين، وهذا فى رأى تيماشيف يعد نقطة **التحول** الهامة فى حياة لوبلاى، إذ أنه **فضلا** عن الشهرة الواسعة التى **جناها** من ورائه.. جعله **يكرس** بقية حياته لدراسة المجتمع. كما

(*) W., Social Seince Research Methads, p230.

(**) للاستزادة انظر دكتور صلاح الفوال - مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية - مرجع سابق - ص ص ١٨١ - ٢٠٧.

نشر لـوبلاى ثلاثة مجلـدات عن «الإصلاح الاجتمـاعى» عام ١٨٦٤، **ويقال** أن ذلك تم **بإلحاح** وتوجيـه شخصى من إمـبراطور **فرنسا** نابليون الثـالث، ثم نشر مؤلفه عن «تنظيم العمل» كما أعد **مجلدا** ضخما ضمنه «دستورا أساسيا للإنسانية» عام ١٨٨١ وكان ذلك آخر أعماله حيث توفى بعد ذلك بوقت قصير عام ١٨٨٢.

ثانيا : أكد لوبـلاى فى مختـلف **دراساته** على الأسرة والعـمل والمكان، على اعتبار أنهم **يشكلون** معا فى رأيه الثلاثية المركزية **للدراسة** السوسيولوجية، مع استخدام ميزانية الأسرة بوصفها تعبيرا **كميا** عن حياة الأسرة من جهة، وعلى اعتبار أنها من جهة أخرى **أساسا** للتحليل الكمى للوقائع الاجتماعية.

ثالثا : وضع لوبلاى **بداية** لنظرية عـامة جديدة فى البناء الاجـتماعى من خلال مفـهومى السـعادة والشقـاء، وفى رأيه أن **السعادة** تتـحقق ـ لو تم إشـباع حاجتين أساسـيتين، أولاهما **مادية**.. وتتـمثل فـى الحاجة إلى الخـبز اليـومى، وثانيتهما حاجة لامادية.. وتتمثل فى **السنن** الأساسية.

وحيـنما يحـقق **البناء** الاجتـماعى القـائم إشبـاعا تامـا لهاتيـن الحاجتـين الأساسيتين فالسعـادة تتحقق بالضرورة، أما **الشقاء** فهو حادث لا محـالة لو عجز البناء الاجتماعى القائم عن تقديم **إشباع** كامل لهاتين الحاجتين المادية واللامادية.

رابعا: أوضح تيـمـاشـيـف أن **البناء** الاجـتمـاعى الذى يتـحقق من خـلاله مفهوما السعادة والشقاء كما أوضحهما لوبلاى يتكون من **سبعة** عناصر تكون هى الأخرى **ثلاث** طبقات على النحو الآتى:

(أ) أساسان Two Bases هما **القانون** الأخلاقى العام **والسلطة** الأبوية.

(ب) لحمتان Two Cements **تتمثلان** فى الحكومة والدين.

(جـ) ثلاث مواد patronage **هى** على التوالى.. الملكية الجماعية، الملكية الفردية، والرعاية.

هذا وتتولى **الطبقتان** الأولى والثانية «الأساسان واللـحمتان» إشباع السنن أو الأعراف الاجتمـاعية، أما **مهمة** الطبقة الثـالثة ـ الملكية بنوعيـها العام والخاص فضلا عن الرعاية ـ **فقاصرة** على تحقيق حاجة الجنس من الخبز اليومى(*).

(*) مفهوم الجنـس هنا ـ كما يقول تيماشـيف ـ لم يقصده لوبلاى بمعنـى إشباع الرغبة الجنسية وإنمـا المقصود هو الجنس البشرى أو ربما قصد لـوبلاى باستخدام مصطلح الجنس أن يشير إلى المجـتمع ككل أو ربما إلى بعض الجماعات العرقية ـ للاستزادة انظر : تيماشيف مرجع سابق ـ الترجمة ـ الطبعة الثانية ـ ص ٦٥.

نظرية التغير عند لوبلاى

قدم لوبلاى **نظرية** فى التغير، وقد لقيت هذه النظرية الكثير من الاعتراضات، حيث اتهم تيماشيف لوبلاى من خلال **نظريته** تلك أنه - أى لوبلاى - لم يكن **يؤمن** بالتطور (٢)، وعلى كل فإن نظرية لوبلاى فى **التغير** اعتبرت دائرية فى المقام الأول، بمعنى أنها تمثل **حلقة** مفرغة لايمكن الخروج منها، حيث تبدأ الدائرة **بالبساطة** فالتعقيد ثم الهرم، حتى تصل الى واحد من **احتمالين**، الأول الإصلاح . أما الثانى فهو الدمار، على أنه تجدر **الإشارة** هنا إلى أن لوبلاى قد ركز معظم اهتماماته على المرحلة الانحلالية من **التغير** الاجتماعى التى تشير إلى التحول من السعادة إلى الشقاء (٣).

* * *

سوروكين ينصف لوبلاى

أنصف سوروكين Sorokin خلال **مؤلفه** الممتار عن «النظريات السوسيولوجية» الذى نشره عام ١٩٢٨ ، أنصف **لوبلاى** ومدرسته، بل وخلده كعالم مبدع فى **تاريخ** علم الاجتماع لأن لوبلاى فى رأى سوروكين:

(أ) اكتشف منهجا محددا لتحليل **الحقائق** الاجتماعية، والمنهج الذى يعنيه سوركين **بالطبع** هو منهج «دراسة الحالة»(*).

(ب) استطاع أن يصل إلى **نسق** سوسيولوجى واضح **علاوة** على التعميمات الكبيرة التى توصل إليها من خلال دراساته **المتعددة** والمنوعة (٤)

(جـ) إن لوبلاى تمكن من الوصول إلى عدة فروض علمية، **وقدم** العديد من **المقترحات** العلمية المتعلقة بتحسين **الأوضاع** المجتمعية، فاستحق لوبلاى بذلك - فى رأى سوروكين - أن يكون **رائدا** مبرزا لعلم الاجتماع التطبيقى (٥)

هذا ونود أن **يراجع** القارئ الكريم ماسبق أن قلناه عن **ابتكار** البيرونى للمنهج الأنثربولوجى ولدارسة الحالة وللملاحظة بالمشاركة خلال الفصل السادس من هذا الكتاب.

(*) كان عالم الاجتماع الأمريكى توماس W. thomas تلميذ هيلى Healy هو أول من ارتكز على منهج دراسة الحالة كما وضع أسسه لوبلاى le play للاستزادة انظر

(١) william healy . Individual delinquent, Atextbook of diagnasis and proqunosis boston, litte Broun 1915.

(ب) تيماشيف - مرجع سابق - ص ص ٢٠٧ - ٢١٥، ص ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

المصادر

١ ـ انظر تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٧٣.

٢ ـ تيماشيف ـ المرجع السابق ـ ص ٦٦.

٣ ـ انظر تيماشيف ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ الطبعة الأولى ـ ص ٧٤.

٤ ـ للاستزادة حول رأى سوركين فى لوبلاى انظر :

(أ) Sorokin,p. Contemporag Sociplogical theories new york 1928, p. 66.

(ب) دكتور محمـد عاطف غيث ـ علم الاجتمـاع ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٢ – ٤٣.

(جـ) دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق.

(د) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

(هـ) دكتور صلاح الفوال ـ منهجية العلوم الاجتماعية ـ مرجع سابق

(و) دكتور صلاح الفوال ـ مناهج البحث فى العلوم الاجتماعية ـ مرجع سابق.

(٥) للاستزادة انظر مؤلفات لوبلاى:

العمال الأوربيون Le play, The European Workers, Paris, 1855.

الإصلاح الاجتمـاعى فى فرنسا ـ ثـلاث مجلدات Le play, Sociol Reform in France, Paris, 1864.

تنظيم الأسرة Le play, Organization Constit of The Family, Paris, 1871.

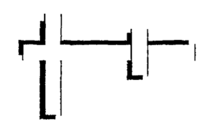
تنظيم العمل Le play, Organization of Labor, Paris, 1976.

الدستور الأساسى للإنسانية Le play, Esseentid Constit of Humanity, Pris, 1881.



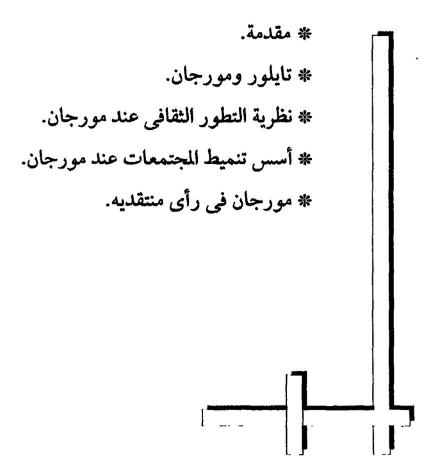






الفصل العاشر

الإسهامات السوسيولوجية عند مورجان



* مقدمة.
* تايلور ومورجان.
* نظرية التطور الثقافى عند مورجان.
* أسس تنميط المجتمعات عند مورجان.
* مورجان فى رأى منتقديه.

مقدمة :

تتضح **الإسهامات** السوسيولوجيــة عند لِويس هنرى **مورجان** Morgan(*) من خلال نظريته المسماة بنظرية **التطور** الثقافى، التى تؤكد عـلى الأهمية البالغة للعوامل الـتكنولوجية فى المجـتمع والتغيرات التـى تحدث فيه، وقد **ميز** مورجان خلال نظريـته تلك بين ثلاث مـراحل رئيسية فـى التقدم **الثقافى** وربط بيـن كل مرحلة منـها وبين **اختراع** تكنـولوجى عظـيم، وما استـتبع ذلك كـله من **تطور** واضح فى الدين والأسرة والملكية والتنظيم السياسيى.

ولقـد آمن مـورجان **بحتمية** خضـوع كل الـناس أيًّا كـانوا فـى تطـورهم للمراحل التى حددها هو للتطور، **واستند** مورجان فى زعمه هذا على أساسين: أولهمـا ـ تَوحُّد الخبرة البشـرية، وثانيـهما ـ **تماثل** الحاجـات الإنسانيـة لدى كل بـنى الإنسان أينما وجدوا.

المهـم أن مورجـان قد أوضـح أن **المجتمعات** تمر أو مـرت خلال تطـورها بثلاث مراحل رئيسية هى . . **الوحشية، البربرية، والمدينة،** كما بين أيضا أن مرحلتى الوحشية والبربرية **تنقسم** كل واحدة منهما إلى ثلاث مراحل فرعية وعلى النحو الذى **سنوضحه** فى السطور التالية(**).

(*) عاش مورجان فى المدة من ١٨١٨ ـ ١٨٨١

(**) للاستـزادة انظر ـ دكتور صـلاح الفوال ـ النظـريات فى علم الاجـتماع ـ مرجع سـابق، ومعالم الـفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق. ص ١٨٥ ومابعدها.

تايلور ومورجان:

وقبل أن نتناول الإسهامات السوسيولوجية عند مورجان وخاصة نظريته عن التطور الثقافي.. يجدر بنا أن نشير هنا إلى باحث أنثربولوجي Tylor إليه يرجع كل الفضل في **اكتشاف** مابين الثقافة والتطور من **علاقات** وثيقة.. ساعدت دارسي الأثنولوجيا والاجتماع، وبالذات الاجتماع **الثقافي** فيما بعد، ساعدهم على التنبؤ بأنه من الممكن أن توجد نفس الظاهرة الثقافية الناتجة عن **أسباب** متشابهة. إذا ماتكررت نفس الأسباب والظروف في **أي** مكان وأي زمان!!

وقد سعى تايلور R.B. Tylor(*) دوما إلى **اكتشاف** وسائل وأدوات تمكنه من قياس التطور. وكان يعتقد اعتقادا راسخا أن هناك بعض **المحكات** التي يمكن الاعتماد عليها في هذا الشأن، واعتبر أن **المحك** الأساسي للتطور الثقافي يتمثل في تطور القوى الصناعية والتكنولوجية ونموها، أما المحك الثاني فإنه يتمثل في المدى الذي وصلت إليه **المعرفة** العملية في أي مجتمع.. كما اعتمد تايلور على **طبيعة** المعتقدات الدينية فضلا عن درجة **التنظيم** في المجتمع وخاصة التنظيم الاجتماعي والسياسي.

وأخذ **تيماشيف** Timasheff على **تايلور** أنه رغم كل ذلك، لم يكن يؤمن ـ أي تايلور ـ بأن التقدم يشكل عاملا **ضروريا** لتقدم الثقافة(**).

إلا أن الإسهام **الحقيقي** لتايلور هو في **تعريفه** للثقافة بأنها «ذلك الكل المركب الذي **يتضمن** المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات الاجتماعية.. علاوة على مختلف القدرات والعادات التي **يمكن** للإنسان اكتسابها باعتباره عضوا في مجتمع(***).

* * *

نظرية التطور الثقافي عند مورجان:

نشر مورجان نظريته تلك **خلال** كتابه «المجتمع القديم» الذي **ظهر** عام ١٨٧٧، هذا ويمكننا أن نلخص آراء مورجان من خلال **نظريته** على النحو الآتي:

أولا: يرى مورجان أن التقدم التكنولوجي **يستتبعه** بالضرورة تغير في النظم

(*) عاش تايلور في المدة من ١٨٣٢ ـ ١٩١٧.

(**) تيماشيف مرجع سابق ـ ص ص ٧٠ ـ ٧١.

(***) Tylor. Primitve Cultuer, Jhon Murray, London, 1871, p. 1.

الاجتماعية السائدة حتى يكون هناك **توافق** ما بين تلك النظم وبين ما أحدثه التقدم **التكنولوجى** من تغيرات.

ثانيا : قسم مورجان **المجتمع** الإنسانى على امتداد **تاريخه** الطويل إلى ثلاثة تصنيفات رئيسية، يتسم كل منها بمظاهر و**خصائص** متميزة، مع تركيز مورجان المستمر على أن كل **مرحلة** من هذه المراحل الثلاث تبدأ أو بدأت **باختراع** تكنولوجى عظيم، ويبين مورجان تلك **المراحل** على النحو الآتى:

(أ) مرحلة التوحش Savagery.

(ب) مرحلة البربرية Barbarism.

(جـ) مرحلة الحضارة Civilization.

كما أن المجتمع خلال **مرحلتى** التوحش والبربرية قد مر بمستويات ثلاثة: دنيا، وسطى وعليا، وأن **جوار** المرور بين ذلك كله كان **اختراعا** تكنولوجيا عظيما[1](*).

ثالثا : من أبرز ما أوضحته نظرية التغير **الثقافى** عند مورجان أن المجتمع البشرى قد بدأ من أول **السلم**.. متوحشا.. ثم بربريا.. ثم متحضرا، وقد تقف بعض **قطاعات** من البشرية عند مرحلة من هذه المراحل وقد **تمتد** شواهدها حتى اليوم، ومن الأمثلة التى **ضربها** مورجان فى هذا الشأن التشابه الكبير بين ثقافة مرحلة البربرية الدنيا والثقافة السائدة حاليا بين **جماعات** الإيروكوا(**)[2].

رابعا : أكدت نظرية مورجان أن أية تطورات فى المجالات **الاقتصادية** تتبعها بالضرورة **تغيرات** فى شكل الملكية والقرابة والأسرة والسلطة وما إليها.

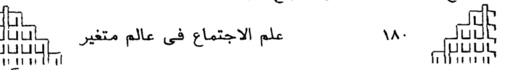
* * *

أسس تنميط المجتمعات عند مورجان

ميز مورجان خلال نظريته عن التغير الثقافى.: بين **نمطين** من المجتمعات.. أولهما المجتمع **البدائى** الذى سماه Societasn، والمجتمع **الحضرى** الذى أطلق

(*) لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع عليه أن يعود لمؤلفنا علم الاجتماع البدوى ـ مرجع سابق ـ ص ص ١١٨ ـ ١٢٠. أو لمؤلفنا معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ص ص ٤٧ ـ ٤٨.

(**) الإيروكوا Iroquois هى إحدى قبائل الهنود الحمر التى كانت تعيش بالقرب من نيويورك، وقد نشر مورجان نتائج بحثه عنها عام ١٨٥١ ـ انظر مؤلفنا دراسة علم الاجتماع البدوى ـ مكتبة غريب ـ مرجع سابق، وكتابنا ـ البناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية ـ دار الفكر العربى ـ مرجع سابق، وكتابنا ـ علم الاجتماع البدوى ـ دار النهضة العربية ـ مرجع سابق.



عليه Civitas، واعتمد فى ذلك على **أربعة** محكات رئيسية.. تبرز كل **منها** سمات وخواص كل من المجتمع البدائى والمجتمع **الحضرى** وعلى النحو الآتى:

(أ) مكانة الفرد ودوره:

تعتمد **مكانة** الفرد ودوره فى المجتمع البدائى على **أساس** من العلاقات الشخصية، بينما فى المجتمع الحضرى تتحدد مكانة الفرد ودوره عن طريق آخر غير طريق العلاقات الشخصية[٣](*).

(ب) الطبقات ودورها فى المجتمع:

لاتوجد **طبقية** بين أفراد المجتمع فى النمط **الأول** «البدائى» حيث يعتقد الجميع أنهم ينتمون **لأصل** واحد وأنهم جميعا سواسية، بينما تبرز الطبقات الاجتماعية **ويعظم** دورها فى النمط الثانى «الحضرى».

(جـ) العلاقات الاجتماعية :

أكد مورجان من **خلال** نظريته الثقافية أن العلاقات الاجتماعية **ترتكز** على القرابة فى النمط الأول، بينما **ترتكز** فى النمط الثانى على **نظم** أخرى كالملكية والسلطة وتقسيم العمل .. إلخ [٤].

(د) السيادة فى المجتمع:

أكد مورجان على أن **السيادة** فى المجتمع البدائى هى للعشيرة والقبيلة، بينما السيادة فى النمط الثانى ـ المجتمع الحضرى ـ إنما هى للدولة وما ينتج عنها من **مؤسسات** مختلفة.

* * *

مورجان فى رأى منتقديه:

أكد تيماشيف أنه على **الرغم** من أنه ـ أى تيماشيف ـ لايعتبر مورجان أحد الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع على حد تعبيره، أكد على أن مورجان **ونظريته** عن التطور الثقافى أثرا **تأثيرا** كبيرا على ماركس وزميله إنجلز وعلى الماركسين من بعدهما حتى **صارت** كتابات مورجان جزءا **هاما** من علم الاجتماع الماركسى.

(*) بمعنى أن الفرد فى النمط الأول يرث دوره ومكانته، بينما الفرد فى النمط الثانى يكتسب دوره ومكانته.

كما أكد تيمـاشيف على أن **تأثير** نظرية مورجان فى التـطور الاجتماعى لم يتوقـف عند أصحاب الـفكر **الماركسى** الاجتماعـى وحدهم. . وإنما امتد تـأثيرها ليشمل معظم الدوائر السوسيـولوجية ولسنوات طويلة. . حيث **تأكدت** من خلال نظرية مورجان الأهمية **البالغة** للعوامل التكنولـوچية فى المجتمع وما **يعتريه** من تغيرات (٥).

ويذكر تيماشيف أيضا أن **مورجان** Morgan قد طور وجهة نـظره تلك فى التغير. . حتى **اكتملت** رؤيته تمامـا ونضجت من خلال مـؤلفه **القيم** «المجتمع القديم». . السابق الإشارة إليه.

ويرى تـيماشـيف أن مورجـان قد **ميز** بين ثـلاث مراحل رئيـسية للـتقدم **الثقافى**، وهى: الوحشية، والبربرية، والمدنية. . ثم عاد مورجان **وقسم** المرحلة الأولى والـثانـية إلـى ثلاث مـراحل فـرعيـة وربط مـيلاد كـل مرحـلة **باختراع** تكنولـوچى، ورتب - أى مورجان - ظهـور المرحلة **الثانية** من «الوحشـية» على اختراع فن «**إشعال النار**» أما المرحلة الثالثة فقـد ارتبط ميلادها باختراع **القوس** والسهم، أمـا المرحلة البربـرية فقد بدأت مع بـروز صناعة **الفخار**. . بينما بدأت المرحلة الثانية من البربرية مع **استئناس** الحيوان، أما المرحلة **الثالثة** فقد بدأت مع نجاح الإنسان فى **تشكيل** الحديد وتحويله.

ويرى تيماشيف أن تلك **المراحل** التكنولوچية قد ارتبطت هى الأخرى - من وجهـة نظـر مورجان - بـتطور مـتمـيز فى الـدين والأسـرة والتنـظيم الـسيـاسى والملكية(*).

* * *

(*) تيماشيف - مرجع سابق - ص ص ٧ - ٧٣.

المصادر

١ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع البـدوى ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٠ ص ص ١١٨ ـ ١٢٠ .

٢ ـ دكتور صلاح الفوال ـ البناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ ـ فى فقرات كثيرة منه.

٣ ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسـيولوجى المعاصر ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ص ٤٧ ـ ٤٩ .

٤ ـ دكتـور صلاح الـفوال ـ الـنظريـات فى علـم الاجتـماع ـ ديوان المـطبـوعات الجزائرية ـ الجزائر ـ ١٩٩١ .

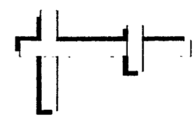
٥ ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الثانية ـ ص ٧١، وانظر كذلك:

(أ) M.J. Herskovits, Man his works, new york, 1956 .p.p. 485 - 489.

(ب) E.E. Evans - pritchard, social Anthroplogy, london, 1951, p.p.25 - 30.

(جـ) دكتـور صلاح الفوال ـ علـم الاجتماع بيـن النظرية والـتطبيق ـ دار الـفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ .

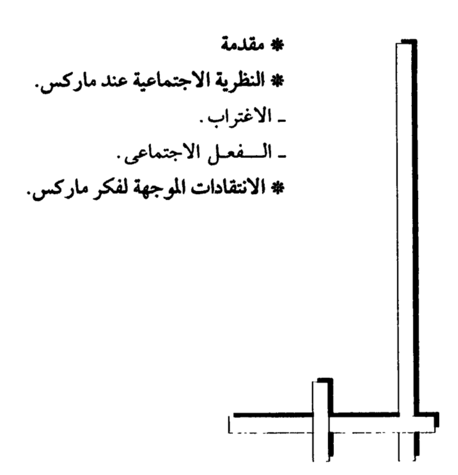
* * *



الفصل الحادى عشر

إسهامات ماركس السوسيولوجية

* مقدمة
* النظرية الاجتماعية عند ماركس.
- الاغتراب.
- الفعل الاجتماعى.
* الانتقادات الموجهة لفكر ماركس.



مقدمة :

يرى ماركس K. Marx(*) أنه يجب على علم الاجتماع أن **يقوم** بمهمة إثبات الطابع الإنسانى للمجتمع، وذلك باعتباره حلقة **اتصال** بين مختلف العلوم سواء الطبيعية منها أو المعنية مباشرة **بدراسة** الإنسان.

ويوضح **تراث** ماركس اهتمامه بهذه الحقيقة، ابتداءً من اهتمامه بدراسة فلسفة التاريخ كدليل على أهمية الدراسات **التاريخية** كمدخل لعلم الاجتماع، مرورا بتركيزه على دراسة **الظواهر** الاجتماعية وتفسيرها إلى جانب توضيحه لديناميات **التغير** واهتمامه بتطور النظام العائلى، حتى نصل إلى الدراسة المتعمقة له حول الطبقات الاجتماعية **والبناء** الاجتماعى بنوعيه الفوقى والتحتى وعلى النحو الذى سنوضحه فيما بعد.

وارتكز ماركس فى دراساته على **المنهج** التاريخى المقارن علاوة على المنهج الإحصائى.. تأكيدا لدعوته المستمرة بضرورة الاهتمام بالتاريخ **وفلسفته** سعيا وراء إعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر اجتماعية من جهة، ولإعطاء علم الاجتماع من جهة أخرى **دفعة** قوية تتيح له تكاملا منهجيا ونظريا يجعلانه - أى علم الاجتماع - قادرا على تحديد ملامحه بصورة **أوضح** تدعم قدرته فى النهاية على الوصول إلى التعميمات والقوانين العلمية التى ينشدها(**).

(*) عاش ماركس فى المدة من ١٨١٨ - ١٨٩٣.

(**) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على مؤلفينا - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر والنظريات فى علم الاجتماع السابق الإشارة إليهما.

النظرية الاجتماعية عند ماركس:

يمكننا أن نقول أن الإسهامات السوسيولوجية لماركس **تكمن** خلال نظريته التى ترتكز على **حقيقتين** أساسيتين، تتمثل أولاهما فيما يعرف اليوم بالحتمية الاقتصادية والتى تعنى أن العامل **الاقتصادى** هو الذى يحدد وبصفة أساسية ومباشرة بناء المجتمع وتطوره، ويرى ماركس أن ذلك **العامل** الاقتصادى هو الذى يحدد أيضا التنظيم الاجتماعى للإنتاج.

أما عن الحقيقة **الثانية** للنظرية السوسيولوجية عند ماركس فتتمثل فيما يعرف بميكانزمات **التغير** الذى يجب أن يتم فى رأى ماركس وفقا لمراحل ثلاث أزلية هى:

(أ) الإثبات Affirmation أو الموضوع Thesis.

(ب) النفى Negation أو نقيض الموضوع Antithesis.

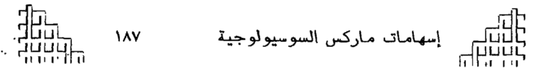
(جـ) تصالح الأضداد أو مركب الموضوع Synthests[1].

وتقرر نظرية ماركس نتيجة **تحليلها** للمجتمع الغربى المعاصر أن المجتمع بصفة عامة يتكون من طبقتين رئيسيتين **والصراع** بينهما حتمى ومحتدم بالضرورة لأن الصراع **الطبقى** - فى رأى ماركس - هو الوسيلة الوحيدة القادرة على نقل المجتمع من مرحلة إلى أخرى، وتمثل الطبقة الأولى نظام **الإنتاج** البائد، وتمثل الطبقة الثانية **نظام** الإنتاج المستحدث(*).

ويؤكد ماركس أن **النصر** فى النهاية إنما يكون للطبقة التى تمثل **النظام الجديد** الذى ما **يلبث** أن يصير نظاما بائدا نتيجة لما يحمله بين طياته من **عوامل** هدمه وفنائه، ثم ما يلبث أن ينشأ نظام **جديد** ينتصر عليه ويحل محله وهكذا.

ومن خلال ذلك الإطار **الجدلى** الذى تميزت به النظرية السوسيولوجية عند ماركس وتلاميذه، يتضح أن التنظيم الاجتماعى **للإنتاج** فى المجتمع الغربى المعاصر للثورة الصناعية، يتضح أن ذلك التنظيم **يبرز** من خلال طبقتين رئيسيتين، أولاهما طبقة **بورجوازية** تمتلك كل وسائل الإنتاج، وثانيتهما طبقة عمالية «بروليتاريا» لا تملك سوى جهدها وعرقها، وأن **الصراع** بين الطبقتين صراع حتمى سينتهى بالضرورة - كما قرر ماركس - إلى انتصار البروليتاريا وسيادة النظام

(*) دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص ٥١ - ٥٥.



الاشتراكى الذى يتميز بالملكية **الجماعية** لوسائل الإنتاج فى ظل مجتمع بغير دولة ولا طبقات، وتظلله مجموعة من شعارات السلام والحرية والسعادة والعمل بغير أنانية ولا فردية ولا استغلال(*).

* * *

نظرية الاغتراب :

قدم ماركس بالتعاون مع أنجلز **نظرية** فى الاغتراب، ومجمل ما **تؤكده** هذه النظرية أن الإنسان ينفصل عن بيئته الطبيعية التى يعد **جزءا** منها فلا تصبح علاقته معها علاقة **ودية** أو مباشرة، ومعنى هذا أنه على الرغم من **تطور** المجتمع من البدائية إلى مرحلة حضارية أكثر **تقدما** نتيجة لإحكامه ـ أى المجتمع ـ السيطرة على الطبيعة بما استحدثه من وسائل تكنولوجية وما **يستتبعه** ذلك من نمو فى قواه الإنتاجية، على **الرغم** من ذلك كله فإن إنسان ذلك المجتمع لا يشعر **بالسعادة** على طول الخط لأن الآثار الناشئة عن التطور ليست كلها بالضرورة آثارا طيبة نظرا لما يصاحب تلك الآثار أو ينبثق عنها من **شرور** وآثام تتضاعف كلما تقدمت الحضارة، ولعل من أبرز **مشاعر** الخيبة هذه عند ماركس.. هى.. الإحساس بالغربة أو الاغتراب(**).

والمهم أن كلا من ماركس وإنجلز **قد صوروا** المجتمع البورجوازى بأنه يمثل قمة **الاغتراب** فى العصر الحديث.

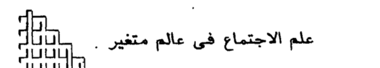
* * *

أهم الإسهامات السوسيولوجية لماركس:

أولا ـ ارتكز ماركس فى **تحليله** ودراسته للظواهر الاجتماعية على الظروف والعوامل المادية مبتعدا عن الاعتماد على **القوى** الغيبية والروحانيات والمثاليات،

(*) أثبت الواقع.. خطأ أفكار ونظريات ماركس.. من خلال انهيار الاتحاد السوفيتى الذى كان يمثل فى معظمه حلم ماركس ولينين وغيرهما من رموز الشيوعية.. وتحول الصراع بين الاتحاد السوفيتى والغرب الرأسمالى إلى صراع داخلى وتحلل الاتحاد السوفيتى إلى جمهوريات مستقلة.. وحتى تلك الجمهوريات ومن بينها روسيا التى تكاد تتفكك هى الأخرى.. بفضل الصراع بين الجمهوريات المكونة للاتحاد الروسى.. كالصراع الدائر بين روسيا وجمهورية الشيشان، والحرب الضروس التى تدور هناك من أجل الاستقلال.. أو بين الجمهوريات التى استقلت بعد انهيار ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى..!!

(**) انظر شرحا وافيا لنظرية الاغتراب عند ماركس وإنجلز ضمن كتابنا علم الاجتماع البدوى المشار إليه قبلا ـ ص ص ١٢٦ ـ ١٢٧، وانظر كذلك مؤلفنا عن «معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر» السابق الإشارة إليه ص ص ٥٣ ـ ٥٥.

وهو لذلك يعتبر قد يسر **تعريف** الظواهر الاجتماعية بطريقة تمكن من **إخضاع** تلك الظواهر الاجتماعية **للدراسة** العلمية(*).

ثانيا - أدى تأكيد ماركس على ضرورة **تفسير** العمليات التاريخية المختلفة بالاعتماد على **دراسة** العلاقات الاجتماعية القائمة بين الجماعات بدلا من التركيز على الأفكار البيولوجية الخاصة بالتطور، أدى ذلك **التأكيد** من قبل ماركس إلى أهمية الاعتماد على العوامل **السوسيولوجية** فى تفسير العمليات التاريخية(**).

* * *

الفعل الاجتماعى عند ماركس :

يرى بعض **علماء** الاجتماع أن ماركس قد تعرض قبل **بارسونز** لما يعرف اليوم «بالنظرية الاختيارية للفعل الاجتماعى» عندما قرر أن **الثورة** لا تحدث من تلقاء نفسها، وإنما تصبح **ممكنة** عندما يدفع الناس للقيام بها.

واستخدم ماركس فى سبيل **إثبات** نظريته فى «الفعل الاجتماعى» **أو** «الفعل الثورى» استخدم **نموذجا** بسيطا جدا يمكن أن **نسميه** بالمذهب الآلى الرشيد، حيث افترض ماركس أن الأفراد لهم **أهداف** أساسية يسعون لتحقيقها، **ويستغلون** كل الفرص المتاحة لمتابعتها.

ويبدو أن ماركس قد **اشتق** مفهومه عن «الفعل الاجتماعى» من المبادئ الاقتصادية **الكلاسيكية** التى تدور فى معظمها حول أن **الغاية** تبرر الوسيلة، ثم حاول كارل ماركس نقل هذا الأسلوب التحليلى من المجالات **الاقتصادية** إلى الأنساق الاجتماعية(***).

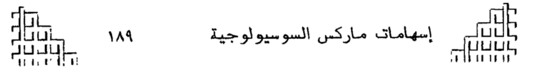
هذا ويرى ماركس أن الأفراد **يتحركون** نحو تحقيق غاياتهم بطريقة آلية، وإن كان لم ينكر فى نفس الوقت أن للأفراد حاجات **عاطفية** وقيما محددة، إلا أنه يرى أن اتجاه التعبير **العاطفى** للأغراض الاجتماعية محكوم عليه **بالفشل** من

(*) للاستزادة انظر - دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢، لتأخذ فكرة أوضح عن مفهوم علم الاجتماع عند ماركس.

(**) للاستزادة انظر :

T. B. Bottomore and William Ruben. karl marx, Selected Writing in Sociology and Social Philosephy, London, 1956, p.p.67-71.

(***) من المعروف أن ماركس كان فى الأصل عالم اقتصاد قبل أن يكون عالم اجتماع.. ويعد كتابه «رأس المال» من أشهر كتبه.. بل من أشهر كتب الاقتصاد على الإطلاق..!!



خلال الممارسات العملية من قبل بعض الأفراد **المؤثرين** على المشاعر والأحاسيس الاجتماعية، كما أن **القيم** هى الأخرى تعبـر فى معظم الأحيان عن الطـبقة التى تسيطر **بنفوذها** على المجتمع.

وافترض ماركس أن **سعى** الأفراد لتحقيق أهدافهم يلزمهم بضرورة التفاعل مع العالم **المادى** الذى يستتبع بالضرورة وجود **علاقات** اجتماعية تنشأ عنها بالتالى الحاجة إلى الأساليب التكنولوجية وغير ذلك من الأشكال **المتشابكة** من العلاقات التى **يطلق** عليها ماركس «قوى علاقات الإنتاج»، وقوى **علاقات** الإنتاج هذه هى التى يمكن علـى أساسها ـ فى رأى ماركس ـ **تفسير** سلوك الأفراد من خلال كل موقف يواجهونه، وبمدى **إسهامات** هؤلاء الأفراد **فى حل** المشكلات التى التزموا بحلها(*).

وعلى كل فإن ماركس **تمكن** من خلال هذه الفكرة البسيطة ـ الترشيد الآلى ـ من رؤيـة **سمات** كل جـزء من أجزاء الـنسق الاجتـماعى عـلى **اعتبار** أن هـذه السمات هى **نتيجة** طبيعية للتفاعل بيـن بعض أو كلٍ تلك الأجزاء من الأنساق مع البعض الآخر.

هذا ومن أبرز سمات **نموذج** الفعل الاجتماعى عند ماركس، هو تأكيده على بناء **المواقف** الاجتماعية والتلاحمات المنطقية المتبادلة لمختلف المواقف المترابطة.

ويرى مـاركس أن **التفاعل** يجـب أن يتخـذ ـ وخصوصا فـى المجتمـعات الرأسمالية ـ أساليب ثورية حتى تتحقق مصالح الطبقة **المقهورة** التى طالما استغلت من قبل **بعض** أجزاء النـسق الاجتماعـى، ويضيف ماركـس أن تلك **الأساليب** الثورية هى الوسـيلة الوحيدة **القادرة** علـى أن تمكن لتـلك **الطبقة** المقهورة من الغلبة ثم السيطرة.

ومن هنـا جـــاء **تبنى** مـاركس لنمـوذج «الحتـمـية الاقـتـصـادية»، والتى على

---

* للاستزادة انظر:

F. Engeles, The Origin of the Family, Private Propcrty and the State, N. Bukharin, Hisrorical , Materialism, M. Baber, Karl Marx, Interpretation of History, 1948.



أساسها يمكن القول بأن الأفراد بصرف النظر عن **وضعيتهم** داخل المجتمع الجديد يتفاعلون طبقا **لمتطلبات** المواقف الاجتماعية(*).

* * *

الانتقادات التي وجهت لفكر ماركس:

لقيت آراء ماركس ونظرياته **جدلا** كثيرا بين مؤيد ومعارض، ومن علماء الاجتماع ما **يفرد** لماركس وآرائه ولتلاميذه **مكانة** خاصة، ومنهم من **لا يعتبره** عالما **سوسيولوجيا** على الإطلاق، ومنهم من **اكتفى** بتوجيه العديد من الانتقادات لما خلفه ماركس والماركسيين من **إسهامات**، وذلك على الوجه الآتى:

(أ) أكد عدد من العلماء على **أهمية** كارل ماركس باعتبار **الدور** المبرز الذى لعبه فى تطور علم الاجتماع، كما أشادوا بدور **تلاميذه** الذين بذلوا غاية الجهد لتوضيح وشرح ما **غمض** من أفكار ماركس وآرائه وكتاباته، **حتى** تكاملت مجهودات ماركس وتلاميذه **لتصل** فى النهاية إلى **نظرية** سوسيولوجية متكاملة عن بناء المجتمع وتغيره، وذلك بصرف النظر عن أن تلك النظرية **أبرزت** عنصرا واحدا وجعلته هو **المسئول** عن مختلف صور وعمليات ونتائج **التغير الاجتماعى** فى المجتمع (**) (٢).

(ب) اتهم **سوروكين** ماركس بأن نظريته تقوم على **مجموعة** من التصورات الخاطئة، التى من أبرزها التصور **الخاطئ** لدى ماركس عن علاقة **السببية** أو الحتمية والتى بنيت على أساس ميتافيزيقى، وأكد سوروكين أنه لايمكن قبول ذلك التصور، كما **يتعذر** تطبيقه على العلاقات بين **مجموعات**

---

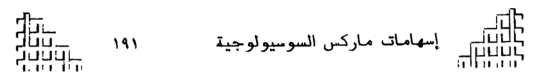
* اعتمدنا فى كتابة آراء ماكس حول الفعل الاجتماعى على المصدر الآتى:

Percy. S. Cohen; Modern Sociol Theory; London Heine Mann Enducatinal Books; Ltd; 1968.

وعلى الترجمة العربية القيمة له للدكتور عادل مختار الهوارى ـ سلسلة كتب علم الاجتماع والتنمية ـ القاهرة ـ ١٩٧٧.

وعلى ما كتبناه ضمن كتابنا ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ١٨٥ـ٢١٠، وعلى ما كتبناه أيضا ضمن مؤلفنا ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ السابق الإشارة إليه ـ ص ص ٥١ ـ ٦٠.

** ولو أننا نرى أن قوى الحتميات والضروريات التى ارتكز عليها ماركس وبشر بأنها ستكون أدوات انتصار فكره هى التى خذلته فى النهاية.. وحولت فكره المنتصر إلى فكر صار الآن مجرد إسهام يحسب له فى ذاكرة التاريخ..!!



كبيرة من الظواهر وخصوصا فى **المجال** الاجتماعى، لأن العلاقة بين **مختلف** الظواهر الاجتماعية علاقة **تبادلية** التأثير أى تتأثر وتؤثر فى نفس الوقت.

وذلك - فى رأى سوروكين - هو على **عكس** ما ذهب إليه ماركس حيث سلم سلفا بأن العلاقة **العلية** تقوم فقط من جانب واحد يصبح خلاله **للسبب** أو للعلة كل **الفاعلية** والحركة بينما تتسم النتيجة أو المعلول **بالسلبية** لأنها ظل لذلك السبب وعالة عليه.

ومن هنا **رفض** سوروكين القضية التى انتهى إليها ماركس والتى **مؤداها** أن أسلوب الإنتاج فى المجتمع هو الذى **يحدد** الطبيعة العامة لمختلف أوجه الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية لمجتمع ما وخصوصا فى **ظل** العديد من الدراسات الحقلية التى أثبتت أهمية **عوامل** كثيرة مثل الدين والسحر والعلم، ولم تقتصر **أهمية** تلك العوامل على نواحى بعينها من حياة المجتمع بل **امتدت** أيضا لتؤثر على الظواهر **الاقتصادية** ذاتها.

(جـ) انتقد **تيماشيف** النظرية السوسيولوجية عند ماركس موضحا أن الأحداث **التاريخية** الفعلية كثيرا ما أثبتت عكس **مفهوم** التغير عند ماركس، وأوضحت أن التغير من نموذج لآخر من نماذج التنظيم الاجتماعى للإنتاج كثيرا ما يتم بعيدا عن **الحتمية** أو المسلمة التى افترضها ماركس، وهى أن **التغير** لا يحدث إلا بانتصار الطبقة المقهورة أو المستغَلة، كما **أثبتت** أيضا تلك الأحداث التاريخية - كما يقول تيماشيف - عدم صدق **التنبؤات** التى توقعها ماركس فيما يتعلق بزوال الطبقات المتوسطة.(*)

وأخيرا فإن **تيماشيف** يرى أن نظرية ماركس - وإن كانت تقوم على أساس أن **العامل** الاقتصادى هو العامل الوحيد المؤثر والفعال فى **التغير** الاجتماعى - إلا أنها أولا وأخيرا.. مجرد نظرية **مثلها** مثل نظرية سبنسر وكونت.

(*) والنتيجة المنطقية بدلا من أن تكون انتصار مجتمع البروليتاريا على مجتمع البورجوازية الرأسمالية اصبحت - فى الواقع الحى المعاش - انهيار ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية.. التى كانت سائرة فى فلكه والتى عرفت يوما باسم دول المعسكر الشرقى.. أو دول أوروبا الشرقية..، النتيجة كانت هرولت الاتحاد السوفييتى إلى أحضان المجتمع الرأسمالى.. عساه يجد جنته الموعودة التى طال حلم شعوبه بها..!!

(د) من رأى **بوتومور** خلال كتابه «علم الاجتماع من منظور اجتماعى نقدى» أن نظرية ماركس عادت إلى دائرة **الضوء** باعتبارها النقيض للنظرية الوظيفية التى سادت علم الاجتماع خلال الحقبة الأخيرة، والتى بدأ **نجمها** يأفل - فى رأى بوتومور - لعدم كفايتها، وأقام بوتومور **مقارنة** نقدية لكل من الماركسية والوظيفية، ويقول: إنه بينما تؤكد **الوظيفية** على **التجانس** الاجتماعى؛ فإن **الماركسية** تؤكد على **الصراع** الاجتماعى، وبينما **توجه** الوظيفية اهتمامها إلى الأنماط الاجتماعية الثابتة والدائمة، فإن الماركسية تؤكد على البناء المتغير للمجتمع، وفى ذات **الوقت** الذى ترتكز فيه الوظيفية على **نظم** الحياة الاجتماعية من خلال قيم وأنماط عامة، فإن الماركسية ترتكز على اختلاف المصالح والقيم داخل كل مجتمع.

* ويقرر بوتومور أن الماركسية هى النظرية **الوحيدة** التى تهتم كما يجب بالصراع الاجتماعى، **ويؤكد** على أهمية هذه النظرية نظرا لما **تتسم** به المجتمعات الإنسانية من **طبيعة** تاريخية متقلبة(*).

ثم يوجه **بوتومور** للماركسية عدة **انتقادات** لعل من أهمها:

١ - أن نظرية ماركس **تعتريها** أخطاء سواء فيما يتعلق **بالوصف الفعلى** لنمط «الصراع والتوازن» فى المجتمع، أو فيما يتعلق **بتفسير الصراع فى** المجتمع، أو فيما يتعلق **بتماسك** الطبقة.

٢ - أن كثيرا من فروض ماركس **لها صيغة** القوانين العامة بينما هى ليست إلا مجرد قوانين **خاصة** أو مجرد مبادئ(**).

(هـ) وأخيرا فإن هناك بعض المفكرين الذين **ينكرون** أن يكون ماركس عالما سوسيولوجيا على الإطلاق، حتى وإن **تضمنت** الماركسية بعض الأفكار

(*) أثبتت الأيام - وفى عام ١٩٩١ وبعد انهيار الاتحاد السوفييتى جنة ماركس المزعومة - وهرولته إلى الغرب الرأسمالى للعيش فى فلكه.. نقول أثبتت الأيام بعد نظر سوروكين والخطأ الفادح الذى وقع فيه بوتومور رغم انتقاداته لماركس وأفكاره..!!

(**) للاستزادة انظر: بوتومور - علم الاجتماع، من منظور اجتماعى نقدى - ترجمة الدكتور عادل مختار الهوارى - مكتبة نهضة الشرق - القاهرة - ص ص ٩١ - ١٠٦.

السوسيولوجية، وعلى **رأس** هؤلاء الباحث الفرنسى هنرى لوفيفر خلال مؤلفه عن «ماركس وعلم الاجتماع» الذى **أصدره** فى باريس عام ١٩٦٦[٣] (*).

(و) مع كل ما قيل عن **النظرية** السوسيولوجية عند ماركس فإن جمهرة كبيرة من العلماء لا **تقلل** من أهمية الفكر الماركسى فى مجال **تطور** علم الاجتماع حيث أسهم ذلك الفكر فى **صياغة** نظرية علمية منظمة عن البناء والتغير الاجتماعيين، هذا فضلا عما أدى إليه الفكر **السوسيولوجى** الماركسى من ضرورة أن يكون علم الاجتماع هو **علم** المجتمع.

* كما أننا **نحب** أن نؤكد أننا عرضنا هنا **لفكر** ماركس وإسهاماته السوسيولوجية من منطق أن الرجل اجتهد.. وكان اجتهاده **مقدرا**.. وستبقى إسهاماته فى ذاكرة التاريخ بغير **شماتة** ولا نكران..!!

* * *

(*) قال تيماشيف ما يشبه هذا الرأى عندما قال أن كلا من ماركس وجوبينو ودانيلفسكى كانوا يصنفون أعمالهم بوصفها تنتمى إلى فلسفة التاريخ - انظر - تيماشيف الترجمة - الطبعة الثانية - ص ٨٠.

المصادر

(١) تيماشيف - مرجع سابق ـ ص ٧٦.

(٢) انظر دكتور عاطف محمد عاطف غيث ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ص ٤١ ، وانظر أيضا لنفس المؤلف ـ الموقف النظرى فى علم الاجتماع المعاصر ـ دار الكتب الجامعية ـ الإسكندرية ـ الجزء الخاص بالتقاء علم الاجتماع بالتيار الماركسى ص ص ٢٣٠ ـ ٢٦١، وفى فقرات أخرى كثيرة غيرها.

(٣) Hncri Le Febvre, Sociolgie de Marx, P.U.F. Paris, 1966, P.P. 20 _ 25.

وانظر أيضا :

(أ) دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق.

(ب) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج ـ مرجع سابق.

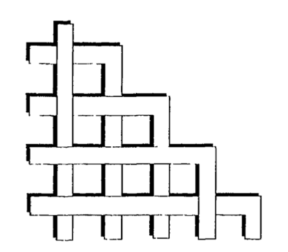
(جـ) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦.

(د) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

* * *

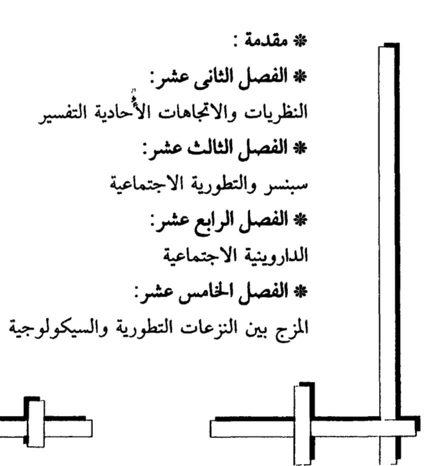








الباب الرابع
الاتجاهات والنزعات المتصارعة ومسيرة علم الاجتماع

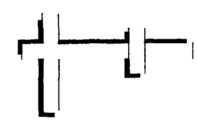


مقدمة :

لعبت النظريات **الأحادية** التفسير أو **الحتميات**.. دورا **هاما** يقره اليوم ويعترف به **عدد** غير قليل من أساتذة علم الاجتماع ورواده، بينما **كان** الآباء المؤسسون لعلم الاجتماع **يرفضون** تدخلات أصحاب النظريات **الأحادية** من منطلق أنهم غير **متخصصين** أو دخلاء.. ولأنهم لايمكن **الاطمئنان في** ظل تدخلاتهم إلي **مستقبل** علم الاجتماع.. وخالصة أنه - أي علم الاجتماع - **كان** في بداياته ومازال محتاجا إلي تدعيم **الدور** وتثبيت الهوية.. فضلا عن أن **خبرتهم** في غير علم الاجتماع كانت **تشدهم** دوما نحو ما تخصصوا فيه..!!

المهم أن **مؤرخي** علم الاجتماع اعتبروا - آنذاك - **كثيرا** من العلماء الذين اعتُرِف بهم وبقدرهم فيما بعد - أمثال **ماركس**.. صاحب الحتمية **الاقتصادية**، **وكتيليه**.. رائد الاتجاه **الإحصائي**، **ولوبلاي**.. أول من استخدم منهج **دراسة** الحالة، **وتايلور** وهنري **مورجان**.. أول من أكدا علي ارتباط التطور **بالتكنولوچيا**، **وبكل**.. صاحب الحتمية الجغرافية، **ودانيلفسكي** ونظريته **التطورية** في تفسير تطور **الحضارات**، نقول إن **الآباء** المؤسسين لعلم الاجتماع لم **يعترفوا** بكل هؤلاء - رغم ما **تميز** به بعضهم من شهرة **وصيت** بعد اعتراف علماء الاجتماع **المحدثين** بهم وبإسهاماتهم التي **اعتبرت** في رأي الكثيرين تطورا تراكميا للنظرية السوسيولوجية(*).

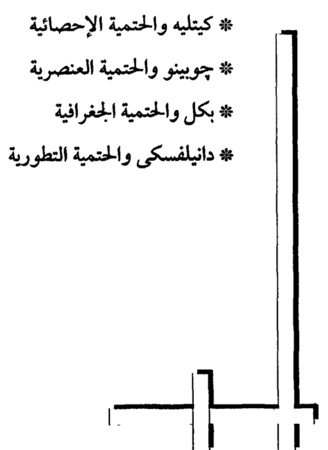
(*) اعتبرنا - من وجهة نظر شخصية - كلا من ماركس، لوبلاى، تايلور، ومورجان ضمن منظومة الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع رغم بعدهم - من حيث التخصص - عن علم الاجتماع.



الفصل الثانى عشر

النظريات والاتجاهات الأحادية التفسير

* مقدمة
* كيتليه والحتمية الإحصائية
* چوبينو والحتمية العنصرية
* بكل والحتمية الجغرافية
* دانيلفسكى والحتمية التطورية



مقدمة :

سنتناول خلال هذا **الفصل**. . كلا من «أودلف كيتيليه Quételet» الرياضى **الإحصائى** البلجيكى ومحاولاته المستمرة **لتطبيق** الرياضيات والإحصاء على **الظواهر** الاجتماعية.

كما سنتحدث أيضا عن «آرثر دى جوبينو Gobineau» الذى **حظى** بأكبر قدر ممكن من **سخط** الغالبية العظمى من معاصريه وخاصة علماء الاجتماع منهم، وذلك بسبب **حتميته** العنصرية.

كما **سنعرض** لـ «هنرى بكل H. Buckle» والذى **حظى** ـ على العكس من جوبينو ـ بتقدير خاص من معاصريه ـ وحتى الآن ـ **لدوره** البناء فى **تطور** الفكر السوسيولوجى **وازدهاره** ممثلا فى «حتميته الجغرافية».

أما «نيقولا دانيلفسكى Danilevsky» **فستتحدث** عنه ليس باعتباره عالما **طبيعيا**. . ولكن باعتبار أنه من الرواد الذين **قدموا** بالفعل بديلا **مبكرا** للنظرية التطورية، وحاول من خلال ذلك **البديل** أن يقدم **تفسيرا** للعديد من **الظواهر** الاجتماعية. . وخاصة محاولاته لإقامة **نظرية** عن تطور المجتمعات الإنسانية ولكن على **أساس** مخالف للنظرية التطورية التى كانت **سائدة** فى عصره.

* * *

أولاـ كتيليه Quételet (*):

كان أودولف كتيليه بارعا فى **الرياضيات**.. واستطاع أن يؤسس ويطور **الاتجاه** الإحصائى.. من خلال ولعه الشديد بمحاولة تطبيق **معطيات** الرياضيات على الظواهر الاجتماعية.. وضمَّن كتيليه كل **فلسفته** فى مؤلف حمل اسم «مقال فى **الفزياء** الاجتماعية» وكان ذلك عام ١٨٣٥ .. وأهم **النتائج** المترتبة على هذا المقال ما يلى:

(أ) أنه أكد على **انتظام** الأحداث الاجتماعية فى **المجال** الاجتماعى وبخاصة فى مجال الظواهر التى يعتبرها البعض غير منتظمة[١].

(ب) أنه **جلب** على كونت Conte الكثير من المتاعب.. فقد كان **كونت** ينوى أن **يسمى** علمه الجديد «علم الفزياء الاجتماعية».. لكن عالما بلجيكيا ـ هو كيتليه ـ اغتصب الاسم.. **ولابد** لكونت أن يختار اسما **جديدا**.. فكان «علم الاجتماع».. هو البديل **الاضطرارى** لعلم «الفزياء الاجتماعية»[٢].

(جـ) أكد كيتليه على **إمكانية** استخدام الإحصاء باعتباره **أداة** لفهم الظواهر الاجتماعية.. **وكانت** له فى ذلك مقولة **مشهورة**.. حيث قال: «إننا يمكن أن نقيس كمال العلم بمدى **السهولة** التى يتمكن من خلالها هذا العلم أن يستخدم العمليات الحسابية»[٣].

ويرى **كثير** من علماء الاجتماع.. أن مقولة كيتليه تلك.. **صارت** هى المبدأ الأساسى الذى ترتكز عليه اليوم **الوضعية** الحديثة أو المحدثة(**)، كما يرون أيضا.. أن كل العلوم الاجتماعية بما فيها علم الاجتماع فى **توجهاتها** نحو القياس الكمى.. تعتمد على **المنهج** الإحصائى الذى **آمن** ونادى به كيتليه.

* * *

(*) عاش كتيليه فى المدة من ١٧٩٦ ـ ١٨٧٤ ,

(**) الوضعية الحديثة أو المحدثة.. هى أحد الاتجاهات المعاصرة فى علم الاجتماع، سنتحدث عنها تفصيلا خلال الفصل الخامس والعشرين من هذا الكتاب.

ثانيا- جوبينو Gobineau (*):

هو واحد من الذين لم ولن **يرضى** عنهم علماء الاجتماع على امتداد تاريخ علم الاجتماع كله.. **ليس** فقط لأن الرجل يعتمد ويفاخر بأصوله **العرقية** وانتماءاته الطبقية الأرستقراطية.. وإنما **لإصراره** فى كل مناسبة على **احتقار** كل من هم دون الفرنسيين عراقة وأقل منهم تميزا.

ويرجع جوبينو الانحطاط الذى **يتسم** به غير الفرنسيين إلى الاختلاط **البيلوجى**.. وخصوصا إذا تجاوز ذلك الاختلاط الحد المطلوب **لصفاء** ونقاء العنصر الأسمى.

ومن هنا.. **أكد** جوبينو على الأهمية البالغة للعامل **العنصرى** فى التطور الاجتماعى.. وأقام بناء على ذلك **التصور** ما يعرف بـ«الحتمية العنصرية»..!!

ويُرجع جوبينو **إلى الحتمية** العنصرية تلك اضمحلال الأمم وتفسخها، ورفض جوبينو **اشتراك** أو إدخال أية أسباب أو عوامل أخرى **لانهيار** الأمم والحضارات. واعتبر عامل التكوين العنصرى هو **المتغير** الفاعل الوحيد فى عملية الانهيار تلك، فلا **تصلح** - فى رأيه - كأسباب لتفسير اضمحلال الأمم أية **تصورات** أو دعاوى بيئية أو جغرافية أو اقتصادية أو ثقافية أو دينية، ولا حتى الانحلال الدينى أو الطغيان أو الترف أو الفساد أو الفجور أو الظلم بمختلف أنماطه، أو **القهر** بكل صوره وأشكاله. . إلخ.

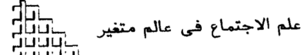
ويؤكد جوبينو.. على أن الظروف العنصرية هى المتغير **السببى** والوحيد الذى يحكم ويفسر كل المشكلات سواء على **المستوى** الأممى أو العالمى.. وتبقى الأجناس الراقية وحدها هى **القادرة** على تجاوز المشكلات و إحراز التقدم.. وما عداها يظل **محكوما** عليه اجتماعيا وثقافيا **بميراثه** العنصرى.

ويؤكد كثير من العلماء - الاجتماعيين وغير الاجتماعيين - على أن نظرية «الحتمية العنصرية» عند جوبينو **خاطئة** من كل النواحي.. ولذلك لم تلق شهرة ولا نجاحا **خلال** حياة جوبينو وخاصة فى بلده فرنسا.. إلا أنه فى نهاية القرن التاسع عشر عرفت نظرية «الحتمية العنصرية» **طريقها** إلى ألمانيا.. من خلال تلميذ له ألمانى الجنسية.. وتأثر الإمبراطور **وليم** الثانى وحاشيته **بكل** ما نادى به جوبينو.. وامتد هذا التأثير الضخم فيما بعد إلى **النازية** التى ظهرت فى ألمانيا.. وكان من آثارها **المدمرة** على الإنسانية كلها ما كان..!!

* * *

* عاش جوبينو فى المدة من ١٨١٦ - ١٨٨٢ .





ثالثا- هنرى بكل Buckle :

يرى **الكثيرون** من مؤرخى تطور النظرية السوسيولوجية.. أن **بكل** Buckle قد لعب دورا أساسيا فى تطور **الفكر** السوسيولوجى من خلال تصوره عن «الحتمية **الجغرافية**» والذى اعتبر العمليات **التاريخية** والاجتماعية ما هى إلا **رد** فعل للظواهر الخارجية وتأثيراتها المختلفة على العقل، فضلا عن **اعتباره** لتلك العمليات **نتاجا** للعقل وتأثيراته المختلفة على **الظواهر** المجتمعية.

ويؤكد **بكل** Buckle.. على مختلف **مكونات** البيئة الجغرافية وعلى **تأثيراتها** المختلفة على مختلف الظواهر والنشاطات الاجتماعية **والإنسانية**.. ومنها الظروف **المناخية** المواتية والتربة والغذاء المتاح.. ويعتبر أن **المناخ** هو الذى يحدد **نوعية** العمل كما يحدد **طبيعة** النشاط الإنسانى فى مواجهة المتطلبات الاجتماعية كالعمل وما شابه.. وضرب لذلك العديد من **الأمثلة** من بلدان ذات مناخ بارد وأخرى **ذات** مناخ حار.

وذهب **بكل** Buckle إلى الاعتقاد بأن **البيئة** الجغرافية تؤثر بقوة ومباشرة على مجتمعات دون الأخرى.. وربط ذلك بمدى **قوة** سيطرة الإنسان على الظواهر البيئية، وضرب لذلك العديد من **الأمثلة**.. منها المجتمعات **البدائية** حيث يتعاظم تأثير البيئة الطبيعية.. والمجتمعات **المتقدمة** حيث تتزايد سيطرة الإنسان على مقدرات حياته ومن ثم تقل **تأثيرات** العوامل الجغرافية عليه.

هذا ولم تتضح كل أفكار **بكل** Buckle نظرا لأنه مات صغيرا، لكن **كتابه** عن «تاريخ المدنية فى إنجلترا»(٤) حوى الكثير من أفكاره التى مازال **الكثير** من **الجغرافيين** المعاصرين **يتبنون** وجهة نظر **بكل** Buckle.. وخصوصا فى ظل الاعتراف **بأهمية** ودور تدخل العوامل الجغرافية ولو بدرجة ما فى تحديد طبيعة وشكل **التطور** الاجتماعى والثقافى للمجتمعات.

* * *



رابعا- دانيلفسكي Danialwsky (*) :

اشتهر نيقولا دانيلفسكي من خلال محاولاته المتكررة لإقامة **نظرية** عن كيفية تطور المجتمعات الإنسانية تختلف بالضروة عن النظرية **التطورية** التى كانت سائدة آنذاك - عام ١٨٦٩ - ويرى تيماشيف أن الملاحظة كانت نقطة **الارتكاز** عند دانيلفسكي(٥).. حيث **رفض** تجاهل التطورات التى حدثت وتحدث فى مناطق أخرى بعيدة عن مجال **الخبرة** الأوروبية.. كما رفض دانيلفسكي أن **نتعامل** مع هذه التطورات **بغير** الأهمية المناسبة لها، كما رفض دانيلفسكي أيضا أن يتم **التعامل** مع المصادر **التاريخية** ودراستها بعيدا عن إطار النماذج **الثقافية** التاريخية التى تتيحها **الحضارات** القديمة.

وقد **حدد** دانيلفسكي ثلاث عشرة حضارة تتفاوت من حيث درجة الكمال والاستقلال.. وهذه الحضارات هى **المصرية**، والصينية، **والسامية** القديمة، والهندية، والإيرانية، والعبرية، والإغريقية، والرومانية، **والعربية**، والجرمانورمانية، والسلافية، والمكسيكية، **وأخيرا** حضارة بيرو(**).

ومن رأى دانيلفسكي.. أن كل هذه **الحضارات** مرت **فى تطورها** من خلال **دورة** تشبه دورة النمو عند الكائن العضوى.. طفولة، شباب، نضج، ثم هرم أو انحلال، ويرى أن هناك من **الحضارات** ما توقف عند مرحلة مبكرة ولم **تستكمل** دورتها فى التحضر والنمو مثل حضارة **بيرو** والمكسيك.. بينما وصلت الحضارة السلافية إلى مرحلة **النضج**، وبلغت الهرم والانحلال **حضارة** كالحضارة الجرمانورمانية..!!

ومن رأى دانيلفسكي أن طريق **الحضارة** ليس **متاحا** لكل القبائل والشعوب.. كما أنه - أى طريق الحضارة - فى ذات الوقت ليس **حكرا** على أحد، فالقادرون على السير نحو الحضارة هم الذين **يملكون** طاقات عقلية وروحية تعينهم على أعباء **التحضر** وتكاليفه.. لأن بعض الشعوب تمتلك خاصية الحضارة،

(*) عاش دانيلفسكي فى المدة من ١٨٢٢ - ١٨٨٥.

(**) حدد دانيلفسكي هذه الحضارات.. بناء على ما تركته تلك الحضارات من شواهد وآثار تاريخية مرئية ومتاحة.. كالأهرامات المصرية وغيرها من الآثار الرومانية.. أو من خلال ما كتب عن تلك الحضارات.





والبعض الآخر لديه **مناعة** ضد الحضارة، وأورد دانيلفسكى مجموعة من الأمثلة لكل نوع منهما.

هذا ويؤكد دانيلفسكى أن كل حضارة لها **أسلوبها** الخاص فى التطور.. بمعنى قدرتها على التوهج فى مرحلة ما من مراحل النضج.. أو فى عدد محدود من آفاق **النشاط** الإنسانى ومجالاته.. تماما كما **برز** الإغريق فى الجمال والرومان فى القانون، والحضارات السامية فى المجال الدينى..إلخ.

ومن رأى دانيلفسكى أيضا .. أن الحضارات غير **قابلة** للتداخل أو الانتقال، لكن **السمات** الفردية للحضارات يمكن لها أن **تستعار** أو تنتشر. بصرف النظر عن **محدودية** الاستعارة.. وعدم كفاية الانتشار بفعل استعمار أو غيره من **أشكال** الانتشار الأخرى.. ومنها التهجين أو التطعيم.. وضرب لذلك مثلا **بالاتصال** الحضارى الذى تم بين الحضارة المصرية القديمة والحضارتين **الرومانية** والصقلية.

ويؤكد دانيلفسكى على أن **عمر** الحضارة **محدود** مهما امتد ولابد لها أن تموت **وتنتهى** ولأسباب داخلية، وعندها تعود الشعوب إلى حالة المادة الإثنوجرافية.. أى تدخل **متحف** التاريخ.. كما يرى تيماشيف[٦] رغم أنها تحمل للمستقبل **لواء** حضارات جديدة.

ولم تنل **نظرية** دانيلفسكى التطورية ما كان **متوقعا** لها من الانتشار والشهرة.. ربما لأن اللغة الروسية التى كُتب بها مؤلفات دانيلفسكى كانت **ضعيفة** الانتشار.. أو ربما لاعتبار كثير من العلماء **المعاصرين** لدانيلفسكى **أن** آراءه **فى** التطور المجتمعى لم تكن مناسبة لعصره.. حتى جاء عام ١٨٩٠ ـ بعد **وفاته** بخمسة أعوام ـ لتعرف نظرية دانيلفسكى **الشهرة** فى روسيا.. كما **اشتهرت فى** أوروبا نتيجة لظهور ترجمة فرنسية لها.. واعتبر بعض علماء أوروبا مؤلفاته وخاصة **مؤلفه** عن «روسيا وأوروبا».. والذى يبحث فى **الأسباب** الكامنة وراء **كراهية** أوروبا لروسيا[٧]. نقول أن بعض علماء **أوروبا** اعتبر مؤلف دانيلفسكى عن «روسيا وأوروبا» مصدر **إلهام** لهم فى كثير من الأعمال[٨].

ورغم كل ما **قيل** عن دانيلفسكى إلا أنه بشهادة تيماشيف **أسهم** فى التطور التراكمى للنظرية السوسيولوجية وبخاصة فى **مجال** دراسة التغير الثقافى والاجتماعى[٩].

* * *

المصادر

١ ـ انظر تيماشيف ـ مرجع سابق، ص ص ٦١ ـ ٦٣ .

٢ ـ انظر تيماشيف ـ المرجع السابق، ص ٢٨ .

٣ ـ تيماشيف ـ المرجع السابق، ص ٦٢ .

٤ ـ M. Buckle. The History of Civilization in England, London, 1861.

٥ ـ تيماشيف ـ مرجع سابق، ص ص ٧٦ ـ ٧٧ .

٦ ـ تيماشيف ـ المرجع السابق، ص ص ٧٦ ـ ٧٧ .

٧ ـ انظر:

Nicholas. Danialwsky, Russia and Europe, In Timasheff, Ibid. p.76.

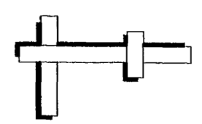
٨ ـ منهم على سبيل المثال Spengler حيث تأثر بآراء دانيلفسكى واعتبرها تيماشيف مصدر إلهام لشبنجلر وهو يعد مؤلفه الشهير عن «تدهور الغرب».

٩ ـ للاستزادة: انظر تيماشيف ـ مرجع سابق، ص ٧٨ .

وانظر كذلك :

Oswald Spengler. The Decline of the west, 1918.

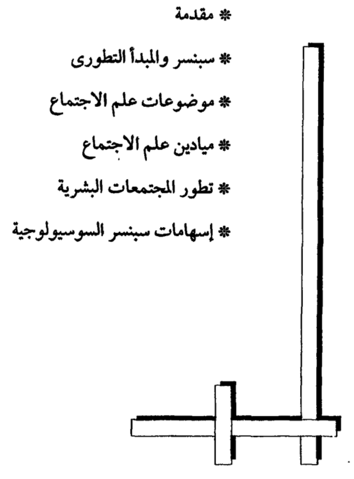
* * *



الفصل الثالث عشر

سبنسر والتطورية الاجتماعية

* مقدمة
* سبنسر والمبدأ التطورى
* موضوعات علم الاجتماع
* ميادين علم الاجتماع
* تطور المجتمعات البشرية
* إسهامات سبنسر السوسيولوجية



مقدمة :

كان لابد لعلم الاجتماع من تحديد أكثر **لهويته** ولطبيعة الدراسة فيه، ولابد من طفرة جديدة تأخذ علم **الاجتماع** بعيدا عن دنيا **الزعامة** الزائفة.. أو الاكتفاء بأن يكون همزة الوصل، أو مجرد **حلقة** اتصال بين مختلف العلوم بغير أن يكون له دور واضح أو هوية(*).

وكانت يد هربرت سبنسرH. Spencer هى **أول** يد ممدودة فى هذا المجال، حيث حدد بطريقة واقعية الموضوعات التى يلزم على علم **الاجتماع** - فى رأى سبنسر - أن **يتناولها** بالدراسة والبحث، بدءا **بالوحدات** الاجتماعية وانتهاءً باعتبار المجتمع كله وحدة **للتحليل** السوسيولوجى(**).

وعلى كلٍّ نحن سنوضح **إسهامات** هربرت سبنسر السوسيولوجية **انطلاقا** من خمسة **محاور** أساسية هى:

* المبدأ **التطورى** عند هربرت سبنسر.

* موضوعات علم **الاجتماع** كما حددها سبنسر.

---

* صاحب هذا الرأى هو ماركس - انظر كتابنا - علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٣ - ص٣٤ . وانظر أيضا الدراسة التى أعددناها عن كارل ماركس وفكره الاجتماعى خلال مؤلفنا - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢ - ص ص ٥٢-٦٠ .

** عاش سبنسر فى الفترة من ١٨٢٠ - ١٩٠٣ ولمزيد من الاطلاع على سبنسر وآرائه انظر مؤلفنا - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - المرجع السابق - ص ص ٦٣- ٦٩، وانظر كذلك مؤلفنا - النظريات فى علم الاجتماع - السابق الإشارة إليه، وكتابنا - علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق - مرجع سابق.



* ميادين علم الاجتماع وفقا **لمفهوم** سبنسر.

* تطور **المجتمعات** البشرية عند سبنسر.

* الإسهام الحقيقى لهربرت سبنسر فى **النظرية** السوسيولوجية.

كما أننا **نحب** أن نوضح أن سبنسر تعرض للنقد بين مؤيد ومعارض وسنحاول قدر الإمكان أن نتناول ذلك كله فى الصفحات التالية.

وعلى كلٍّ فقد ظهرت بداية النظرية السوسيولوجية عند سبنسر Spencer عام ١٨٥٠ من خلال كتابه «الاستاتيكا الاجتماعية» الذى أوضح من خلاله أن **التقدم** إنما هو تطور من الأشكال **المتجانسة** والموحدة إلى الأشكال المتعددة وغير المتجانسة، وأن ذلك التطور **ينسحب** على المجتمع تماما كما **ينسحب** على الكائنات العضوية.

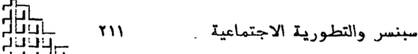
* * *

سبنسر والمبدأ التطورى:

كان المبدأ التطورى يشكل وحده **أساس** نظرية سبنسر فى علم الاجتماع، حتى أضاف إليه **اجتهادا** آخر يمكن أن يوصف بأنه الركيزة الثانية للنظرية الاجتماعية لدى هربرت سبنسر، ألا وهو «المماثلة العضوية» الذى **اعتبره** سبنسر مبدءا يجب الاعتراف به، وأوجد على أساسه نوعا من **التماثل** والمقارنة بين المجتمع وبين الكائن الحى، واعتمد ذلك **التماثل** بين المجتمعات والكائنات الحية فى مفهوم سبنسر على عدة **تطابقات** من أهمها ظاهرة النمو الواضحة والمستمرة لدى كليهما سواء أكان ذلك النمو فى **الحجم** أو فى الوظيفة[١].

وعلى كلٍّ يمكننا أن نوضح **أبرز** إسهامات سبنسر **السوسيولوجية من** خلال النقاط الآتية:

أولا: قدم سبنسر **تحديدا** للموضوعات التى **يلزم** - فى رأيه - على علم الاجتماع أن يهتم بها حيث أوضح سبنسر خلال كتابه «**أسس علم الاجتماع**» ذى المجلدات الثلاثة والمنشور عام ١٨٧٧، أنه يلزم على علم الاجتماع أن يهتم بوصف:

(أ) الوحدات الاجتماعية(*) **محل** الدراسة من حيث.. كيفية **ظهورها**.. كيفية تتابع أجيالها.. كيفية نموها.. وأخيرا كيفية إعداد تلك الأجيال للتعاون سواء فيما بينها.. أو بينها وبين غيرها من الوحدات الداخلية أو الخارجية عنها. ومن هنا يتحتم - فى رأى سبنسر - أن يحتل موضوع تطور الأسرة الاهتمام الأكبر فى الدراساتُ السوسيولوجية.

(ب) كيف نشأ تتطور التنظيم **السياسى** داخل المجتمع، مع الأخذ فى الاعتبار أن **التنظيم** السياسى هو الذى يتولى تنظيم شئون المجتمع من خلال التنسيق بين أفعال الأفراد الذين يعيشون داخل المجتمع عن طريق **ضوابط** معينة تفرض عليهم **خلال** تعامل كلٍّ منهم مع الآخرين.

(جـ) كيف نشأت وتطورت **الأبنية** الكنسية «الدينية» وما هى وظائفها، علاوة على وصف وتوضيح كيفية تنظيم نسق **الضوابط** للأفعال الأصغر(**).

(د) المراحل التى مر بها القطاع **الصناعى** فى المجتمع، علاوة على تطور ونمو **الأبنية** التنظيمية التى أمكن للقطاع الصناعى أن يوجدها **ويطورها** داخل المجتمع[٢].

ثانيا: حدد سبنسر **ميادين** علم الاجتماع من خلال دراساته لكل من: الأسرة، السياسة، الدين، الضبط الاجتماعى، والصناعة أو العمل، **علاوة** على دراسة **الاتحادات** والمجتمعات المحلية، وتقسيم العمل، والتباين، فضلا عن دراسته للفنون والجماليات فى المجتمع.

ثالثا: من رأى إلكس **إنجلز** خلال كتابه «ما هو علم الاجتماع» أنه من المؤكدً أن **سبنسر** لم يكن ليوافق على **اقتصار** علم الاجتماع على عدد محدود من النظم أو العمليات **الاجتماعية** كالأسرة أو الضبط الاجتماعى، حيث **أكد** على التزام علم الاجتماع بدراسة علاقات **التفاعل** بين مختلف عناصر المجتمع وبيان التأثير المتبادل **بين** الأجزاء والكيان الكلى للمجتمع[٣].

رابعا: اعتبر سبنسر أن المجتمع ككل هو **وحدة** التحليل السوسيولوجى التى يجب أن **يهتم** بها المشتغلون بعلم الاجتماع.. مع الأخذ فى **الاعتبار** أن أجزاء المجتمع مع التسليم بأنها تعتبر وحدات **منفصلة** ومتميزة إلا أن ذلك ليس

(*) المقصود بالوحدات الاجتماعية هنا هى الأسرة

(**) المقصود بنسق الضوابط هنا هو «الضبط الاجتماعى» بالمفهوم السوسيولوجى الحديث.

معناه أن وجود تلك الوحدات وجود عشوائى.. بل هناك بالضرورة **رباط** يربط الجزء بالكل من خلال علاقة دائمة ومتصلة تجعل المجتمع **بكل** وحداته «كيانا كليا له مغزى» على حد **تعبير** إنكلز(٤).

خامسا: من أبرز **إسهامات** سبنسر السوسيولوجية تصوره **لتطور** المجتمعات والتى سلكت فى رأيه **خطين** رئيسيين:

أولهما.. أن المجتمعات البسيطة **تتطور** خلال نموها إلى مستويات مختلفة من المجتمعات المعقدة، وبعبارة أخرى فإن المجتمعات **المركبة** تنبعث عن المجتمعات البسيطة، ومركب المركب من المجتمعات **انبثق** عن المجتمعات المركبة.. وهكذا، وأوضح سبنسر أن المجتمع **البسيط** يتكون من الأسر، أما المجتمع **المركب** فإنه ينشأ نتيجة **لاتحاد** تلك الأسر فى عشائر، أما إذا **اتحدت** هذه العشائر فى قبائل فينشأ عنها ما يسميه سبنسر **بمجتمع** مركب «٢^٢» أى مركب المركب، أما إذا اتحدت القبائل فى **دول** وأمم فإن المجتمع الجديد هو **مركب** «٣^٣» أى مركب مركب المركب، وهكذا كلما **كبر** الحجم كبر البناء وتطور.

أما الخط الثانى لتطور المجتمعات فى رأى سبنسر، **فيتمثل فى** التحول الكبير الذى **يطرأ** على تلك المجتمعات سواء من حيث **نماذج** التطور فيها أو من حيث وظائفها، علاوة على التحول الذى **يبدل** المجتمعات العسكرية مثلا **إلى** مجتمعات صناعية.. إلخ.

سادسا: يعتبر سبنسر الممثل **الحقيقى** للنظرية التطورية، والتى **ترتكز** على مبدأ «البقاء للأصلح»، حيث يعتمد التقدم التطورى على **الصراع** من **أجل** البقاء، ويرجع سبنسر **التوازن** الاجتماعى من حيث **النشوء** أو الاستمرار لذلك الصراع الذى هو **ضرورى** حيث يحل التجانس محل عدم التجانس.

سابعا: من رأى تيماشيف أن **الإسهام** الحقيقى لسبنسر **فى** النظرية السوسيولوجية **يتمثل فى**(*):

(أ) **نظريته** التطورية.

(ب)المقابلة **بين** المجتمع والكائن الحى(٥).

(*) للاستزادة انظر:
دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ٦١ـ٧٠.

ومن رأى بعض العلماء أن سبنسر إن هو إلا **مناصر** للاتجاه العنصرى السوسيولوجى، ومن رأى البعض **الآخر** أن سبنسر إن هو إلا **تطورى فى** المقام الأول[٦] (*).

ثامنا: لم يقدم سبنسر **تعريفا** مباشرا لعلم الاجتماع **رغم** مؤلفاته المتعددة(**) عنه، ولكنه كان يرى أن علم الاجتماع هو «علم المجتمع»، ومن رأيه أيضا أنه يجب على علم الاجتماع أن **يفسر** الحالة الراهنة للمجتمع من خلال التركيز على مراحل **التطور** الرئيسية وتطبيق قوانين **التطور** عليها، وهدف علم الاجتماع كما **يراه** سبنسر هو « تفسير الحاضر المعروف بواسطة الماضى غير المعروف».

ويقول تيماشيف:إن علم **الاجتماع** بالنسبة لسبنسر هو «العلم الذى يدرس الظواهر فوق العضوية، أو التطور فوق العضوى» ويشرح تيماشيف تصور سبنسر لما **فوق** العضوى فيقول.. إن هناك **اتصالا** فى التطور الذى يحدث فى العالم غير العضوى للمادة غير الحية، ثم التطور فى العضوى أو العالم **الحى** وأخيرا التطور فى تجمعات من **الكائنات** الحية داخل المجتمع[٧] (***).

(*) انتقد تيماشيف النظرية السوسيولوجية لدى هربرت سبنسر واعتبرها نظرية فلسفية أولا قبل أن تكون نظرية سوسيولوجية، وإن كان هذا لا يمنع أن سبنسر قام بصياغة نظرية تكاملية عن الحقيقة كلها، فقانونه عن التطور قانون كونى، كما لا يمنع من جهة أخرى أن الفيزياء التى نهضت على أساسها نظرية سبنسر قد أخذت تنهار فى كثير من جوانبها الأمر الذى عرض بالتالى جانبا كبيرا من نظرية سبنسر إلى أن يعفو عليه الزمن - انظر تيماشيف - الترجمة - الطبعة الأولى - ص ص ٦٣ - ٦٧.

(**) كتب سبنسر العديد من المؤلفات حول علم الاجتماع منها «الاستاتيكية الاجتماعية» و«دراسة علم الاجتماع» و«مبادئ علم الاجتماع»، وغيرها كثير.

(***) انتقد بوتومور خلال كتابه «علم الاجتماع مدخل للمشكلات والمؤلفات» التصنيف الذى قدمه سبنسر والذى انتهى خلاله إلى تصنيف المجتمعات إلى أربعة نماذج رئيسية هى:
(أ) المجتمعات البسيطة. (ب) المجتمعات المعقدة. (جـ) المجتمعات الأشد تعقيدا. (د) المجتمعات بالغة التعقيد. وأوضح أن هناك قصورا واضحا فى ذلك التصنيف نظرا لأن الأنماط الثلاثة الأولى لا تشتمل إلا على المجتمعات البدائية، بينما يستوعب النمط الأخير جميع المجتمعات المتحضرة، وذكر بوتومور أيضا أن سبنسر نفسه قد أقر بأن تصنيفه هذا يتعارض مع التفرقة التى أقامها هو نفسه بين المجتمعات العسكرية والصناعية. انظر:

T.B.Bottomore,Sociology, A Guide to Problems and Literture, George Allen and unwin Ltd, 8 th Jmpression, London 1969.

وانظر أيضا الترجمة العربية له للدكتور محمد الجوهرى وآخرين - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٩٧٨ - ص ص ١٤٧ - ١٤٨.

تاسعا: قدم سبنسر إلى جوار **نظريته فى** طبيعة المجتمع أربع نظريات أخرى تدور حول:

(أ) الحكومة: التى اعتبرها ظاهرة عرضية فرضتها **ضرورة** التنظيم الذى هو **لازم** لتكامل المجتمع.. ومن التنظيم ما هو **تلقائى** يحقق رغبات ومصالح الأفراد ومنه ما هو **مقصود** تلجأ إليه الحكومة وتفرضه على الشعب بالقوة والقهر **بهدف** تحقيق الصالح العام.

ويشترط سبنسر **لقيام** الحكومة أن تكون البيئة ممهدة وصالحة من الناحية السياسية، وأن تكون جميع هيئات المجتمع وطبقاته على **درجة** متساوية من حيث التشابه والحساسية **والوعى** الجمعى والاستجابة لمختلف **المؤثرات** والعوامل الاجتماعية والسياسيةالطارئة.

(ب) الاقتصاد: يؤمن سبنسر إيمانا مطلقا بالمقولة الاقتصادية الشهيرة «دعه يعمل.. دعه يمر»(*) وكان لذلك من **غلاة** المدافعين عن الفردية وعن النظريات الاقتصادية الحرة، وطالب الحكومات.. حتى تحت ظروف **النكسات** - الاقتصادية التى عايشها - بعدم التدخل فى **الشئون** الاقتصادية.. التى دعا لأن تكون غير مقيدة فى نطاق **المنافسة** الحرة.

(جـ) السكان: كان سبنسر من أشد **المشايعين** لمالتس، وقرر أن عدد النسل يجب أن يتناسب **تناسبا** عكسيا مع درجة النمو الجسمى بالنسبة للحيوان والنمو **الحضارى** بالنسبة للمجتمعات، على اعتبار أن **النسل**(**) **إن هو إلا تأكيد** للوجود الذاتى وإضافة مقومات جديدة تتخذ **كرصيد** للمقاومة **فى** ميدان الصراع.. **بمعنى** أن الحيوان كلما كان قويا فى حد ذاته يكون فى غنى عن **ذرية** كثيرة تسانده فى صراعه من أجل البقاء، أما بالنسبة للإنسانية **فإنها كلما** تطورت وأصبحت فى مستوى راقٍ من **حيث** التفكير أوالذكاء.. **فإن الأفراد** عندئذ سيلجئون إلى استخدام **الكيف** لا الكم فى صراعهم من أجل **حياة أفضل**(٨).

(*) وهذا المصطلح يعنى بالفرنسية: Laissez_Faire، ويعنى بالإنجليزية: Economic Freedom.
(**) النسل هنا.. يعنى الإنجاب.. وما ينشأ عنه من مشكلات إذا ما اختل الميزان بين الموارد والسكان.

(د) **الأخــلاق:** عرف سبنسـر الأخـلاق بأنـها «سـلـوك الإنسانية»، والعـمل(*) أو الفعل الأخلاقى فى رأيه هو «ما **اتفق** مع ظروف الحياة وكان أكثر مطابقة **للطبيعة** الإنسانية».

والإنســان ـ فى رأى سبنـسر ـ **يتجه** دوما وراء لـذة أو تجنبا لحـدوث ألم، وعليـه فإن **الفعل** الأخلاقى.. هـو «ذلك الفعـل أو العمل الـذى يحقق للـفرد سعيه».. والمقياس هنا دوما هو حصـول المنفعة عن طريق تحصيل **اللذة** أو تجنب الألم.

وعليه فإن **المعيار** الأخلاقى كما يراه سبنسر هو.. أن اللذة أو **المنفعة** هى الأساس فى **الحكم** على مدى أخلاقية أو **عدم** أخلاقية أى فعل من الأفعال.

عاشرا: لقـيت نظريـات سبنـسر وآراؤه العديـد من **الانتقادات** لعـل من أهمها:

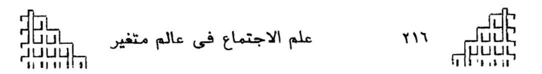
(أ) أن نظريـته فى التـطور **تنطوى** على العـديد من **المغالطات**.. لأن التطور لايسير دوما من البسيط إلى المركب أو من البساطة إلى التعقيد.

(ب) أخطأ سبنسر عندمـا تعامل مع المجتمع **ككائن** حى وطبق علـيه نفس قوانين **علم** الحياة.. وعـلى الرغم من أن أعـضاء المجتمع كأفـراد يمكن تطـبيق قوانين علم الحياة علـيهم.. ولكن ذلك لا يعنى أن **المجتمع** كائن حى كبير نظرا للاختلاف **والتفرد** الذى هو **سمة** كل عضو من أعضاء المجتمع.

(جـ) التقسيم **الذى** انتهى إليـه سبنسر للمجـتمعات **تقسيم** لا يستـند إلى حقائق الأمور.. وخصوصـا تقسيمه لها على أساس الوظـيفة.. وإن كان ما ذكره ينطبق على **بعض** المجتمعات التى عايشها أو قرأ عنها.. فإنه لا **ينطبق** دوما على كل المجتمعات خلال **مراحل** تطورها المختلفة.

(د) اتسمت **نظرياته** فى الحكومة والاقتصاد والسكان والأخلاق بالفردية والأنانية **والانتهازية** أحيانا.. وممـا يؤخذ على سبـنسر أنه **استغل** الظروف غير المواتية للحكومة فى بلاده **فأطلق العنان** لنظرياته فى السياسة والاقتصاد.

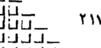
(*) يقصد بالعمل هنا.. السلوك.. والسلوك الأخلاقى بالذات.



(هـ) تورط سبنسر فى العديد من **الأخطاء** المنهجية، فبالرغم من مناداته بضرورة الاعتماد على الملاحظة والتجربة إلا أنه **أغرق** نفسه فى الفروض والاحتمالات التى تنطوى على الكثير من الفلسفة والقليل من العلم، هذا إلى جانب ميل سبنسر إلى إصدار الأحكام **التقويمية** خلال تعامله مع الحقائق العلمية فى ذات الوقت الذى كان يجب عليه فيه أن تكون أحكامه من النوع **التقريرى** لا التقويمى. كما اتهم سبنسر بعدم الدقة و**عدم** الأمانة معا. . فأما عدم الدقة فراجع إلى عدم **قدرته** على الاستقراء وقلة صبره على البحث وعلى جمع المؤيد والمعارض من الآراء، أما عدم الأمانة فراجع إلى أنه **استخدم** المنهج التاريخى بطريقة تحيزية. . أى أنه جمع واختار من **النماذج** ما يؤيد وجهة نظره فقط(*)

* * *

(*) للاستزادة حول آرائه ونظرياته انظر:
(أ) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق - مرجع سابق.
(ب) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع. . المفهوم والموضوع والمنهج - مرجع سابق - ص ص ٣٣ - ٣٥.
(جـ) دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق ص ص ٦٠ - ٧٠.



المصادر والتعليقات

(١) Thmashhff, op. cit., p. 53.

وما بعدها.

(٢) Herbert Spencer, The Principles of Socialagy, 3rd, ed Vol-I (New York : D. Appelton and Company. 1910

(٣) Alex Inkeles, What is Sociogy An Introducion To The Discipline and profession prentice _ Hall, Inc; Englewood Cliffs, N.J., U.S.A; 1967. pp. 12-14.

(٤) هربرت سبنسر ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٣٣ -٤٤٣.

(٥) Timacheff, op. cit. p. 36.

(٦) دكتور محمد عاطف غيث ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ٣٩.

(٧) تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الثانية ـ ص ٤٦.

(٨) وضع توماس روبرت مالتس عام ١٧٩٨ ما يعرف بـ «نظرية مالتس فى السكان Malthushan Theory of Population». وتنهض نظريته تلك على افتراضين:

أولهما.. أن غريزة الجنس تدعو إلى التناسل والتكاثر، وثانيهما.. أن الطعام من المقومات الأساسية للحياة البشرية، وانتهى مالتس إلى أن **قدرة** الإنسان على زيادة إنتاجيته من الطعام **أقل** بكثير من قدرته على التناسل والتكاثر، بمعنى أن نسبة الزيادة فى **السكان** أقل من نسبة زيادة **إنتاج** الطعام، أى أن هناك تناسبا عكسيا بين زيادة النسل وزيادة الطعام، وانتهى بحث مالتس إلى أن إعادة **التوازن** ما بين زيادة النسل وإنتاج الطعام هو **مسئولية** الطبيعة بكوارثها وأوبئتها ومجاعاتها من جهة، ومسئولية **الإنسان** من جهة أخرى سواء فيما يقوم به من حروب أو فيما يلجأ إليه بإرادته لتقليل نسبة التناسل والتكاثر كأن يتعفف أو يؤخر سن الزواج أو أن يلجأ لاستخدام موانع النسل.

ولقد أثـرت نظرية مالتـس هذه فى **الفكر** الاقتصادى لفتـرات طويلة امتدت حتى القرن الـتاسع عشـر، وعرف علم الاقـتصاد خلالـها بأنه الـعلم **المتشائم**، وامتد هذا التشاؤم ليكون سمة الفكر **الإنسانى** كله آنذاك، ولكن ما لبثت نظرية مالتس **أن** فقدت الكثير من بريقها وخصوصا مع **زوال** الظروف التى قادت مالتـس لاستنباطها ومـن أهمها **عجز** موارد الثـروة فى بريطانـيا عن مواكبة الزيادة الرهيبة فى السكان آنذاك ـ أواخر القرن الثامن عشر ـ، علاوة على **البؤس** المصاحـب للحروب الفرنـسية، **والطرق** البالية التـى سلكتها الحكومات فى مواجهة مشكلة الفقر.

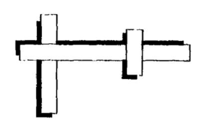
كل ذلك إلـى جانب **تصدى** عدد غير قليـل من المفكرين الاقتصاديـين للرد على نظرية مالتس، وإن كان ذلك التصدى قد ارتكز على ركيزتين، **أولاهما**.. الخطأ **المنهجى** الذى وقع فيه مالـتس عندما استخلص نتائـجه وفقا لظروف الحرب وعجز الحكومات فى بعض الدول عن مواجهة مشكلة الفقر، علاوة علـى عدم دقة مقـاييسه الـتى **استخلص** بناءً عـليها معـدلاته الاجتمـاعية **للتناسب** ما بين السكان والمـوارد..، أما الركيزة الثانية لنقد نـظرية مالتس **فتكمن** فى النظريـة ذاتها، بمعنى عدم قدرتهـا على التنبؤ بما يـمكن أن يطرأ على موارد الإنتاج من تغيرات كمية وكيفية **نتيجة** للتقدم العلمى المستقبلى.

ولكن يبقى لنظرية مالتس إيجابياتها الكثيرة.. كناقوس خطر للمجتمعات الغربية فى **أعقاب** الثورة الصناعـية والتحول عن الإقطاع، فضلا عن صـلاحية العديد من آراء مالتس بالنسبة لكثيرمن المجتمعات **النامية** فى وقتنا الراهن.

(٩) انظر حول إسهامات سبنسر وفكره :

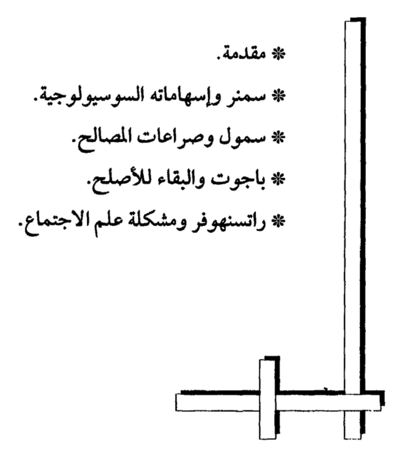
Herbert Spencer, Descriptive Sociology, Vol. I. (Leuest races) London, 1874.

* * *



الفصل الرابع عشر

الداروينية الاجتماعية وتطور علم الاجتماع



* مقدمة.
* سمنر وإسهاماته السوسيولوجية.
* سمول وصراعات المصالح.
* باجوت والبقاء للأصلح.
* راتسنهوفر ومشكلة علم الاجتماع.

الإسهامات السوسيولوجية لسمنر

مقدمة:

وليم جرام سمنر W.G. Sumner(*) هو واحد من الذين **تحولوا** لدراسة علم الاجتماع بعد أن هجر تخصصه الأول **كواعظ** دينى إلا أنه استطاع أن يشكل نمطا متميزا من أنماط الداروينية وتتلمذ على يديه عدد غير قليل من علماء الاجتماع الأمريكان المعاصرين - وانتهى به المطاف لأن يكون رئيسا للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع خلفا لوارد الذى كان أول رئيس لها.. إلى جانب عمله أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة ييل Yale.

ويقول تيماشيف إن سمنر من **أصحاب** العمل الرئيسى **الواحد**، واعتبر أن دراسته «الطرق أو الأساليب الشعبية Folkways» هى **ذلك** العمل الواحد[1].

على كل حال نحن **سنتتبع** إسهامات سمنر من خلال النقاط التالية:

* * *

سمنر وإسهاماته السوسيولوجية:

أولا - اعتبر سمنر المجتمع **نسقا** من القوى التى تخضع للقوانين الاجتماعية، والمهمة الأساسية لعالم الاجتماع هى دراسة **وفحص** تلك القوانين، وعلى الناس **الاستجابة** لتلك القوانين بنفس القدر الذى يستجيبون به للقوانين الفيزيائية، أو بعبارة أخرى على الناس أن **يتفهموا** القوانين الاجتماعية وأن يطيعوها.

واعتبر سمنر أن قانون **التطور** هو القانون الأساسى الذى يجب أن يسود، **وقانون** التطور عند سمنر عملية **تلقائية** تسير فى اتجاه واحد، وهذه العملية التلقائية لايمكن **إعاقتها** أو ردها، كما أنه ليس فى **مقدور** المجهودات الإنسانية أن **تغيرها**، ويعتقد سمنر أن التطور **يندفع** قدما.. ووسيلته فى ذلك التطور هى

(*) عاش سمنر فى الفترة من ١٨٤٠ إلى ١٩١٠.

الصراع من أجل البقاء، وذلك باعتبار أن الصراع **نضال** حربى وتنافس حاد سواء بين الإنسان والطبيعة، أو بين الإنسان والإنسان.

واعتبر سمنر إن من حق أى إنسان أن يضع ما فى وسعه من **عراقيل** وعقبات أمام أى إنسان آخر - لأن تلك - فى رأيه - هى سنة الحياة(٢).

لذلك فقد اعتبر **تيماشيف** أن دراسة «الطرق الشعبية» كانت من جانب سمنر محاولة لتبنى أسلوب الداروينية الاجتماعية **لتفسير** الأصل التطورى للعادات الاجتماعية.. وخصوصا من **حيث** طبيعة ووظيفة وكيفية **استمرار** تلك الطرق والأساليب الشعبية.

ومن **رأى** سمنر أنه طالما كان العمل الأول **للإنسان** هو توفير مقومات الحياة نفسها، فإن الطبيعى أمن يبدأ الناس **بالأعمال** لا بالأقوال أو الانغماس فى متاهات **التفكير**، ومن هنا كان على الناس انتقاء أصلح أساليب الأفعال المحققة لأهدافهم.. وكان أسلوب «المحاولة والخطأ» هو **أنسبها** جميعا.. وخصوصا أنه يؤدى فى النهاية إلى تحقيق الهدف **الانتقائى** من خلال تكرار تلك المحاولة، التى من نتائجها - المحاولة والخطأ - المباشرة إيجاد عادة **فردية** عند الأفراد Habit، وعادة جمعية Custam عند الجماعات والمجتمعات.

لكل ذلك.. كانت الأساليب والطرق الشعبية هى كما **حددها** سمنر «أساليب التصرف أو التفاعل المقبولة من المجتمع بشكل عام»، كما يرى سمنر أن تلك الطرق والأساليب تتطور بطريقة **لاشعورية**، كما تتسم تلك **الأساليب** والطرق بالقدرة على الظهور وعلى **الرسوخ** دون أن يكون ذلك الظهور أو التطور **معلوما** أو معروفا من قِبَل المجتمع.

أما فيما يتعلق **بالقوة** التى تخلق الطرق والأساليب الشعبية وتنميها، فقد حاول سمنر توضيحها من خلال تقديم ثلاثة **نماذج** مختلفة للتفسير، هى:

(أ) **المصلحة** (ب) **اللذة** والألم (جـ) الدوافع الأربعة.. وهى: الجوع، الجنس، الزهو، والخوف. إلا أن **المحاولة** لم تفلح فى إزالة ذلك الغموض.

كما بين **سمنر** أن العادات والأساليب الشعبية مالم تتطور وتصبح قانونا.. يمكن تعديلها فى أضيق الحدود عن طريق الجهود **العمرية** سواء على مستوى

الفرد أو الجماعة أو المجتمع، كما يـمكن أن تفقد تلك الطرق **سطوتها** وسيطرتها فى وقت ما. . ومن ثم تتدهور وتموت أو تتغير(٣).

أما إذا كانت **تلك** الطرق على قوتها وتوهجها. . فبصرف النظر عن **قدرتها** على ضـبط السلـوكيات الفرديـة والمجتمعـية فإنها تـتطور لتـصبح **أعرافا** وسنـنا اجتماعية(*).

ثانيا ـ يعتبر تيماشيف أن **الطريقة** التى عالج بها سمـنر دراسته عن «الطرق الشعبية والسنن» يمكن أن تعد إسهاما جيدا فى علم الاجتماع **التحليلى**، وخاصة فيما يتعلق بفهم بناء الجماعات الاجتماعية وطرق عملها(٤).

أما الإسـهام الآخر لعلم الاجتماع التحليلـى الذى قدمه سمنر.. فيتمثل فى **التفرقة** بين مفهومـى جماعتنا We group وجماعتهم The Group ، وكذلك التضاد بين ذواتنا والجماعة التى ننتمى إليها(٥).

ثالثا ـ ابتكر سمنر مـايسمى بـ«الاتجاه **المعيارى** أو النظامى. . Normative لدراسة الظواهـر الاجتماعية، وذلك عنـدما بدأ بدراسة **أصل** المعايير الاجتماعية ووظائفها، وكان هذا الابتكار أثناء دراسته للطرق الشعبية(٦).

رابعا ـ عالج سمـنر موضوع **الضبط** الاجتماعـى بشكل جيد أثـناء دراسته المشهورة عن «الأساليب والطـرق الشعبية» وذلك من خلال **تحليل** لنشأة العادات والتقاليد وكيفية **تكرارها** وانتقالها عبر السنين، وخاصة وهى **تتسرب** إلى عقول وقلوب الأفراد حتى **تستقر فى** أعماقهم. كما أكد سمنر على أن الإنسان هو الذى **اخترع** تلك الـعادات والتقـاليد **للتكيف** مع البـيئة المحيـطة، وأن تلك الـعادات والتقالـيد كانت فى البـدء على **هامش** الشعـور حتى انتقـلت إلى **مركز** الشعور **وملكت** على الأفـراد عقولهـم وقلوبهـم، وعندئذ تحـولت العادات إلـى أعراف يحترمها الناس ويعملون على تثبيتها من خلال التنشئة الاجتماعية(٧).

خامسا ـ يرى نقاد علم الاجتماع ومنهم تيماشيف. . أن سمنر فى **محاولته** الناجحة إلى حد ما لإثراء دراسة الحياة الاجتـماعية من خلال التركيز على **معايير**

(*) انظر كتاب «الـطرق الشعبيـة» لـسمنر والذى ظـهر عام ١٩٠٦، باعتـباره مقدمة للـكتاب الممتاز عـن «علم المجتمع The Science of Society» والذى ألفه بالاشتراك مع تلميذه كيلر Keller ونشر عام ١٩٢٧، أى بعد وفاة سمنر بسبعة عشر عاما.

(**) أى عن معايير وقيم الصواب.



الصواب، وخصوصا بعد انصراف كثير من الأمم الحديثة **عنها**[8] (*) إلا أن محاولته تلك - التمسك **بمعايير** الصواب - لم ترق إلى مستوى إسهامات سمنر فى مجال علم الاجتماع التحليلى، وخصوصا بعد أن **دحضت** العادات الضارة الموجودة.. نظريته عن البقاء للأصلح. . عندما **قادت** تلك العادات الضارة الجماعات التى تتبناها وتلتزم بها. . **قادتها** إلى الانحطاط، هذا بالإضافة إلى ثبوت **خطأ** وجهة نظر سمنر التى تقرر أن الطرق الشعبية بمثابة قوى **مستقلة** عن الناس، وهذه النظرية لم يمكن **إثباتها**، وخصوصا أن ظاهرة نشوء واستمرار العادات الاجتماعية يمكن أولا أن **تُرَد** إلى الأنساق المركبة للفعل والتفاعل **الإنسانيين**، وثانيا. . يمكن **تغيير** السن ذاتها بالقانون[9].

* * *

---

* أى عن معايير وقيم الصواب.

المصادر والتعليقات

(١) تيماشيف ـ الترجمة ـ مصدر سابق ـ ص ٩٦.

(٢) W.G. Summer Folkwoys, N,y 1906.

(٣) للاستزادة انظر مقالة سمز: Sumner The Absiad Effort to make World over 1894.

(٤) انظر ـ تيماشيف الترجمة ـ مصدر سابق ـ ص ٩٧.

(٥) المصدر السابق ص ١٠٠.

(٦) تيماشيف ـ المصدر السابق ـ ص ١٠٠

(٧) انظر دراسة سمنر المسماة ـ الطرق أو الأساليب الشعبية ـ مرجع سابق.

لتتعرف على الأهمية البالغة للسنن والطرق الشعبية ـ فى رأى سمنر ـ والتى أوضح خلالها كيفية تحكُّم الطرق الشعبيـة فى الحياة الاجتماعية رغم أن تلك الحياة الاجتماعية هى الـتى تُوجد وتطبق تلك الطرق، كما بين سـمنر أن القوانين الاجتماعية هـى التى تعكس السنن والأعراف؛ لذلك فـلابد أن يكون هناك تنسيق ما بين القوانين والسنن إذا ما أريـد لتلك القوانين الاجتماعية أن تظل على قوتها وفعاليتها.

(٨) سمنر ـ المرجع السابق، وانظر أيضا: دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٦٩.

(٩) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ١٠١.

* * *

سمول وإسهاماته السوسيولوجية

مقدمة :

يعد أليوت **سمول** Small (*) من أكثر العلماء **إسهاما** فى مسيرة التقدم الأكاديمى لعلم الاجتماع، على **الرغم** من أنه كان دارسا للاهوت وأستاذا للتاريخ والاقتصاد، إلا أنه كان محبا لعلم الاجتماع.. ودفعه ذلك **الحب** لتدريب جيل كامل من **علماء** الاجتماع.. ولتأسيس المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع **عقب** تعيينه رئيسا لقسم **الاجتماع** الوليد فى جامعة شيكاغو عام ١٨٩٢ بعد أن عمل لفترة عامين من ١٨٩٠ ـ ١٨٩٢ **عميدا** لكلية كولبى Colby .

ودفع الحب.. سمول لأن **ينشر** عمله الممتاز ـ فى رأى تيماشيف ـ عن «علم الاجتماع» ولأن ينمّى الاعتراف بعلم الاجتماع، وخاصة من وجهة النظر الأمريكية.. فكانت المكافأة أن **رأس** المجمع الدولى لعلم الاجتماع منذ عام ١٩١٣ وحتى وفاته ١٩٢٦[١].

* * *

سمول وصراعات المصالح:

وسنحاول ـ هنا أن نلقى بعض الضوء على **الإسهامات** السوسيولوجية عند سمول، وذلك على النحو التالى:

أولا ـ لم يوافق سمول **الكثيرين** من علماء الاجتماع الذين **آمنوا** بالداروينية الاجتماعية سواء **المتطرفة** أو المعتدلة، المتطرفة التى اعتمدت بصفة أساسية على **أفكار** داروين التى ضمنها **كتابه** «أصل الأنواع The Origin of species» الذى

(*) عاش سمول فى الفترة من ١٨٥٤ إلى ١٩٢٦ ,

ظهر عام ١٨٥٩، وكتابه الذى أصدره عام ١٨٧١ عن «أصل الإنسان Descent of Man»، وكان من **أبرز** فرسان الداروينية الاجتماعية:

(أ) والتر **باجوت** Bagehot (*) الذى قدم **تصورا** صعد خلاله مبدأ «البقاء لُلأصلح» عند المستوى السوسيولوجى واعتبر باجوت أن أهم عامل فى **تماسك** الجماعة هو ميل الأبناء إلى **التشبه** بالآباء، ليس فقط من الناحية البيولوجية وإنما من الناحية **العقلية** كذلك، وأطلق باجوت على ذلك **العامل** «كعكة العادات الاجتماعية The Cak of Custom»، واعتبر باجوت أن القوى التى تحفظ العادات الاجتماعية هى قوى **الدين** بما يحتويه من جزاءات مروعة، والميل إلى **قمع** كل انحراف يهدد النظام المستقر، أما القوة الثالثة التى تصون العادات الاجتماعية فهى.. ميل الإنسان إلى محاكاة أو تقليد ماهو موجود أمامه(٢).

وبعد أن **حدد** باجوت مجموعة القوى التى تحمى العادات الاجتماعية. . ذكر أن **الهدف** هو صيانة **تماسك** الجماعة حتى يمكن إحراز النصر فى الصراع الجماعى فى ظل المبدأ الذى وضعه **داروين** وهو «القابلية للتغيير أو التحول varia-blity»، ولأنه فى رأى باجوت - بدون هذه **التغيرية** يصبح **الصراع** من أجل البقاء خلوا من أى معنى وبالتالى لايمكن أن **يترتب** عليه أية تحسينات لا فى التنظيم **البيولوجى** أو الاجتماعى(٣).

(ب) جوستاف راتسنهوفر Ratzenhofer(**) كان تطوريا **معتدلا**.. آمن بأن علم **الاجتماع** هو «علم العلاقات الإنسانية المتبادلة» وأن الهدف الحقيقى لعلم الاجتماع هو «كشف **الاتجاهات** الأساسية للتطور الاجتماعى **فضلا** عن بيان **الشروط** اللازمة لتحقيق الرفاهية الاجتماعية للإنسان»(٤).

واعتبر راتسنهوفر أن **مشكلة** علم الاجتماع الأساسية هى **كشف** الطابع الفريد **للانتظام** الاجتماعى وتميزه عن عالم الظواهر، ومن هنا أكد راتسنهوفر على أنه **يجب** على علم الاجتماع أن يكتشف **المبدأ** الذى يحكم جميع المسائل الاجتماعية بما فى ذلك إمكانية **حل** المشكلات الاجتماعية(٥).

(*) عاش باجوت فى الفترة من ١٨٢٦ إلى ١٨٧٧ .

(**) عاش راتسنهوفر فى الفترة من ١٨٤٢ إلى ١٩٠٤ .



كما اعتبر راتسنهوفر **«المصلحة»** هى المبدأ المسيطر أو القوة المحركة Forces القادرة على فتح **المغاليق** أمام علم الاجتماع ليؤدى **دوره** فى حل مشكلات المجتمع، كما أكد على أن **الحياة** الاجتماعية عبارة عن مجموعة من المصالح تمتد جذورها **بعمق** فى داخل الإنسان.

كما عرف راتسنهوفر ـ **المصلحة** بأنها «التعبير عن حاجة من خلال الوعى بضرورتها» لأن **الإدراك** للحاجات موروثة كانت أو طبيعية.. إدراكا **عقليا** هو الذى **يحولها** إلى مصالح.

كما **صنف** راتسنهوفر **المصالح** إلى خمسة أنماط هى: مصالح **تناسلية** «جنس»، **وفسيولوجية** «غذاء»، وفردية «تأكيد الذات»، واجتماعية «القرابة»، ومتعالية «الدين». كما أكد راتسنهوفر على أن تلك المصالح الخمس.. تمثل القوى الحقيقية أو الدافعة **للفعل** الفردى أو الجماعى، كما اعتبر أن **الصراع** هو الذى **يحكم** فعل الجماعة، وأن النظام الاجتماعى العام ماهو إلا تنظيم للصراع من أجل البقاء[٦].

* وعودة **إلى** سمول.. بعد أن تعرفنا على آراء سابقيه(*) التى **خالفها** وهو يعتبر أن «الجماعة» هى وحدة **التحليل** السوسيولوجى، وجعلها **نقطة** انطلاقه لأى دراسة اجتماعية.. وخالفها كذلك وهو يطالب بعدم **تقسيم** علم الاجتماع إلى علوم فرعية، كما **خالفها** أيضا وهو يدعو إلى اعتبار مختلف **الأنشطة** وخاصة السياسية والاقتصادية **والبيئية** والأسرية.. مجموعة من الظواهر الاجتماعية المتشابكة بل **والمتكاملة** فى كثير من الأحيان..[٧].

ثانيا ـ حدد سمول **الهدف** النهائى لعلم الاجتماع بأنه «التوافر على الدراسة العلمية للنظم الاجتماعية بغرض الكشف عن القيمة الاجتماعية»[٨].. كما اعتبر سمول أن **القيم** ـ خاصة الأخلاقية ـ هى **المحرك** القوى لمختلف الأنشطة الاجتماعية؛ لذلك فإن سمول يعتبر أنه من **واجب** علم الاجتماع.. تحديد تلك القيم الأخلاقية والعمل على **الارتفاع** بها من خلال ما أطلق عليه «عملية الإصلاح الاجتماعى»[٨].

(*) من السابقين كذلك سمنر الذى أفردنا له قبلا مبحثا خاصا.

ثالثا - عارض سمول **النظام** الرأسمالى وماينطوى عليه من «أنانية» تتيح **تركيز** الأموال فى يد حفنة صغيرة من المواطنين، الذين **يسيطرون** فى ذات الوقت على **مقدرات** الدولة والشعب، وامتدت معارضة سمول للنظام الرأسمالى إلى الحد الذى جعله يطالب بضرورة **وضع** مجموعة من **الضوابط** على عملية التوريث **والملكية** الفردية المطلقة[٩].

وليس معنى هذا أن سمول كان اشتراكيا أو ماركسيا - **ينادى** بإهدار الملكية الفردية وحق الناس فى **التوريث** - وإنما كان يخشى المظهر **الاستغلالى** للثروة والملكية ومايصاحبها من **تأثيرات سلبية** على النسيج العام للمجتمع[١٠].

رابعا - رغم أن سمول قد **تأثر** كثيرا براتسنهوفر - مؤسس الداروينية الاجتماعية المعتدلة - إلا أن تيماشيف رأى أن سمول **اختزل** الداروينية فى **نظرية** عن المصالح **وصراعاتها**، والمصلحة كما **عرفها** سمول هى: «قدرة أو طاقة غير مشبعة ومطابقة لشرط لم يتحقق».

ويرى **تيماشيف** - أن الغموض الذى يكتنف مقولته السابقة عن «المصلحة».. **يشكل** - أى الغموض - الطابع العام لمعظم أعمال سمول، إلا أن تيماشيف **يؤكد** على أن «المصلحة» كانت هى **محور** نظرية سمول السوسيولوجية، والمصلحة عند **سمول** هى «أبسط أساليب الحركة التى يمكن تتبعها فى السلوك الإنسانى» وهذا السلوك **يتجلى** - فى رأى سمول - فى عملية التطور **والتوافق** وإشباع المصالح[١١](*).

كما أكد سمول على أن عملية إشباع المصالح «تحتوى على **أنماط** ستة هى: الصحة، الثروة، المشاركة الاجتماعية، المعرفة، الجمال، والحق. **ويقرر** سمول أن **فهم** المصالح يتم على مستويين.. أحدهما **ذاتى**.. تفهم المصالح بموجبه على أنها **رغبات**. والثانى.. **موضوعى**.. تفهم المصالح من خلاله باعتبارها مطالب[١٢].

خامسا - من رأى سمول أن المصالح هى التى **تحكم** الحياة، فردية كانت أو جماعية، ومن رأيه أيضا أن **الفرد** عبر تاريخه الطويل، ماهو إلا **نتاج** لصراعه المستمر فى سبيل تحقيق **مصالحه** الفردية، وأن المجتمع هو المحصلة كذلك **للجهود** المتواصلة التى يبذلها الأفراد فى سبيل تحقيق **مصالحهم** المجتمعية،

(*) واضح تأثر سمول بفكر راتسنهوفر الذى يكاد يصل إلى حد التطابق فى موضوع المصالح وتعريفها وتصنيفها.

وحتى تتحقق تلك **المصالح** ـ فردية كانت أو اجتماعية ـ لابد من وجود **علاقة** تساندية بين الأفراد والمجتمع وذلك **لأن** الفرد ليس «وسيلة للمجتمع كما أن المجتمع ليس وسيلة للفرد» لأن التكامل أو **التساند** بينهما يقتضى أن يكون **كل** منهما وجها للآخر، وذلك **باعتبار** أن المجتمع «مركب من أوجه نشاط الأشخاص». والشخص «هو مركز الدفعات الشعورية التى لايمكن أن تتحقق وبصورة كاملة إلا فى المجتمع»[١٣].

سادسا ـ ومن المآخذ التى احتسبها **النقاد** السوسيولوجيون ضد سمول التأكيد على أن الصراع **سيتحول** فى النهاية.. **إراديا**.. إلى تعاون.. ويبدو أن سمول كان يدرك **صعوبة** ذلك التحول فقرر أن ذلك سيتم بواسطة **التنشئة** الاجتماعية[١٤].

سابعا ـ رغم **الغموض** الذى اتسمت به معظم أعمال سمول.. إلا أن **الشرح** الذى اتضحت من خلاله طبيعة **العلاقة** بين علم الاجتماع **وغيره** من العلوم الاجتماعية جاء **متسقا** إلى حد كبير مع **التفسيرات** الراهنة لهذه العلاقة، وخصوصا من حيث دعوته إلى وحدة العلوم الاجتماعية، وإلى ضروزة **تعاونها** فى دراسة الظواهر المجتمعية، كل من الجانب الذى يخصه، لكن من **منظور** متكامل أو تكاملى. وأوضح سمول **كيفية** التكامل فى دراسة الظواهر.. من خلال **مثال** للتعاون بين علم النفس وعلم الاجتماع ـ حيث يقول: «يتخذ عالم النفس المجتمع بوصفه **الحقيقة** الثابتة والمعروفة.. ليكون ذلك سبيله إلى دراسة ميكانزمات **الفاعلين** الأفراد، أما عالم الاجتماع فعليه أن يسلم **جدلا** بالفرد.. حتى يتجه إلى دراسة المجتمع[١٥].

* * *

المصادر

(١) N.S. Timasheff. op cit .p. 93

(٢) المرجع السابق ص ٧٦ ـ ص ٧٧ .

(٣) Bagehot. Physics and poltics' London. 1872

(٤) Ratzenhofer. Sociological Studiess and ,Sociology, 1898, 1908.

(٥) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٩٢ .

(٦) Small. Origins of Sociology, N,g. 1913.

(٧) Small General Socolgy N.Y.1905.

(٨) سمول أصول علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ٢٠٠ .

(٩) سمول علم الاجتماع العام ـ مرجع سابق ـ ص ٦٢ .

(١٠) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ١٨٠ .

(١١) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص٩٤ .

(١٢) سمول ـ علم الاجتماع العام ـ مرجع سابق ـ ص ٦٣ .

(١٣) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ١٨٣ .

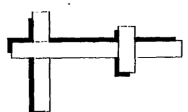
(١٤) سمول ـ علم الاجتماع العام ـ مرجع سابق ـ ص ٦٦ .

(١٥) Small ,The Meaning of Social Science N,y. 1910

* * *



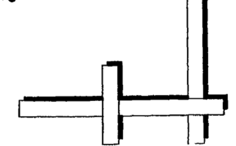




الفصل الخامس عشر

المزج بين النزعات السيكولوجية والتطورية عند وارد

* مقدمة
* التواصل الفكرى بين كل من وارد وكونت وسبنسر وسمول
* الأسس التى ارتكزت عليها نظرية وارد
* المبدأ التطورى
* تشعب التطور
* علم الاجتماع والدراسة المنظمة للقوى
* مبدأ التكامل الإبداعى وتوازن القوى
* علم الاجتماع ومنهجه عند وارد
* وارد وفروع علم الاجتماع
* تطور الإنسانية عند وارد
* الانتقادات الموجهة لوارد



مقدمة:

من المعـروف عن لستـر وارد L. Ward[1](*) أنه تأثر كثـيرا بأعـمال كل من كونت Comte وهربرت سبنسر Spencer، ولم يقف هذا التأثر عند حد **الإعجاب** أو الفهم وإنما امـتد إلى مـحاولة **التقليد** فى أحيـان كثـيرة بما فى ذلك التقـليد من **موافقه** فى كثيـر من الأحيان أو **الاختلاف** فى أحايين أخـرى.. وما **نريد** قوله بالضبط أن **السياق** العام لأفكار وارد واجتهاداته يكاد يكون **مطبوعا** بخاتم كونت أو سبنسر سواء عندما يختلف معهما وارد أو يتفق!!

وليس هذا **دليل** اتهام لوارد.. بقدر ما هو **علامة** على **التواصل** الفكرى عبر الأجيال الذى لازم **مسيرة** علم الاجتماع عبر التاريخ.. لكن الأهم.. هو أننا **أردنا** توضـيح هذه المسـألة حتى لايـظن القارئ أننا نـعود لعـرض **أفكار** كونت عن.. الاستاتيكا والديناميكا..أو أفكار سبنسر **التطورية**، بينما ward هو محور الحديث!!

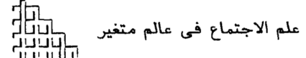
لكن ذلك لايمنع أن يكون وارد من العلـماء **القلائل** الذين تركوا بصمات واضحة على مسيرة عـلم الاجتماع سواء من خلال **تراثه** السوسيولوجى الضخم المتـسم ـ وخـاصـة فى أواخـر أيامـه ـ بالتطويـر والتـجديـد ـ وكـان هذا التطوير **والتجديد** لم يقتصـر على آرائه فقط وإنما **امتد** إلى آراء كل من كونت وسـبنسر أيضا..!!

* * *

وعلى كل حـال نحن سنتناول إسهـامات وارد السـوسيـولوجيـة من **خلال** النقاط التالية:

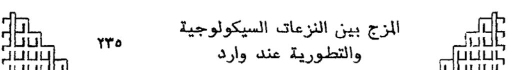
(*) عاش وارد فى الفترة من ١٨٤١ ـ ١٩١٣.





أولا ـ يقول تيماشيف Temashiff خلال **مؤلفه** القيم عن «طبيعة وتطور نظرية علم الاجتماع» والمشار إليه قبلا ـ إن اهتمامات وارد قد مرت بالعديد من التحولات **أولها** أنه هجر عمله ككبير للمتخصصين فى **حفريات** النباتات عام ١٨٨٣، ثم تعلق بدراسة **الاجتماعيات** خاصة علم الاجتماع كما قرأه فى أعمال كونت وسبنسر، وكانت لنظريات كل منهما دور فى **عشق** وارد لعلم الاجتماع وللنظريات الأساسية التى **صاغها** كل من كونت وسبنسر **وخاصة** «نظرية التطور الكونى» عند سبنسر، وأن **اختلف** معهما فى بعض **الجزئيات** خاصة ما انتهى إليه سبنسر من نتائج.

ثانيا ـ أن نقطة **التحول** فى الإبداع السوسيولوجى عند وارد **ارتبطت** بتعيين زميله A.small عميدا لكلية كولبى Colby. وشجع على **الاعتراف** بأفكار وإسهامات وارد فتحول **تجاهل** أفكار وارد ـ باعتبارها رجعية عديمة الفائدة ـ إلى **إقبال** وتشجيع لدرجة أن مؤلف وارد الضخم عن علم الاجتماع الديناميكى Dy-namic Sociology الذى صدر عام ١٨٨٣ وظل راكدا **متجاهلا** حتى عام ١٨٩٠ ـ تاريخ تولى سمول للعمادة ـ **نال** مايستحقه من رواج وشهرة.. بل وكان الحافز الرئيسى **لتوالى** مؤلفاته التى منها «العوامل السيكولوجية فى **الحضارة** فى المدينة Psychological Facrors of civilization» والذى صدر عام ١٨٩٣، ومؤلفه «**الموجز** فى علم الاجتماع Outlin of Sociology الذى صدر عام ١٨٩٨، و«علم الاجتماع **النظرى** أو الخالص Pure Sociology » الذى أصدره عام ١٩٠٣، ومؤلفه عن «علم الاجتماع **التطبيقى** Applid Sociology الذى صدر عام ١٩٠٦ وتعد هذه **المؤلفات** مع مؤلفه الضخم المكون من جزأين والذى أصدره عام ١٨٨٣ «علم الاجتماع الدينامى «Dynamic Sociology» تعد هذه المؤلفات من **أعظم** إسهامات وارد فى النظرية الاجتماعية، وقد عمل وارد نفسه على **إثبات** ذلك عام ١٩٠٢ من خلال **العرض** الذى قدمه عن النظريات السوسيولوجية ضمن المقال النقدى فى «المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع The American Journal of Sociology واحتل ذلك المقال الجزء السابع بأكمله(٢).



ثالثا ـ انطلقت نظرية لستر وارد الاجتماعية وفقا لأربعة **أسس** أو مسلمات تعد **حصيلة** لكل التراث السوسيولوجي عنده. وسنتناول هذه المسلمات في إيجاز شديد لأننا سبق أن تناولناها في غير هذا المكان(٣):

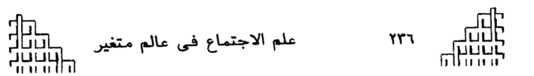
* * *

(أ) الأساس الأول:

يعتبر مبدأ **التطور** بالصيغة التي صاغها سبنسر هو **الأساس** الأول أو المسلمة الأولى التي **انطلق** منها لستر وارد خلال **مساهماته** السوسيولوجية، وقبل أن نسترسل مع تارد، نحب أن **نذكّر** بالمبدأ التطوري عند سبنسر لنجد أن Spencer قد صاغ فكره التطوري وفقا **لسبعة** قوانين أو مبادئ. . قدم أولا **ثلاثة** منها، هي: قانون «استمرار القوة Persistense of Force» وقانون «عدم قابلية المادة للفناء Indistruet ibility of Matter» و «قانون استمرار **الحركة** أو اتصالها» Continuitiy of Motion .

ثم قدم سبنسر بعد ذلك أربعة مبادئ ثانوية هي: قانون «استمرار **العلاقة** بين القوى» أو الشكل الموحد للقانون وقانون «**تحول** القوى وتعادلها» وقانون «**ميل** كل شيء إلى التحرك في الاتجاه الذي تقل أو تضعف فيه **المقاومة** ويتزايد فيه الجذب» وقانون «**التغير** أو إيقاع الحركة» ويغض النظر عن **استنباط** سبنسر لقوانينه السبعة من القوانين الخاصة **بالفزياء**، وبصرف النظر كذلك عن **ثبوت** عدم صحة بعضها الآن كقانون «عدم قابلية المادة للفناء» إلا أن سبنسر ورغبته في **استثمار** نتائج قوانينه من خلال تقديم **حصيلتها** العامة فضلا عن اعتقاد Spencer أن قانونه **السامي** «قانون التطور» هو الحصيلة المشتركة للقوانين السبعة السابقة، وعندما حاول سبنسر أي يعرِّف قانون التطور قال: «إن التطور هو **تكامل** للمادة وتشتت مصاحب للحركة حيث تتحول المادة من **تجانس** غير محدد ومفكك إلى **لا** تجانس لكنه محدد ومترابط، وأما الحركة الباقية فتمر بتحول **مواز** من خلاله أيضا.

إلا أن شروح سبنسر وتعريفاته ـ كما يقرر تيماشيف ـ جاءت **مشوشة** الصياغة وغير واضحة المعالم(٤).



وزاد لستر وارد على أستاذه **تقسيمه** للعملية التطورية من خلال نظرة **كلية** فقسمها إلى أربع مراحل هى: «التطور **الكونى** Cosmogey» والتطور **الحيوى** Bisgeny» و«التطور **البشرى** أو الإنسانى Arthropogeny» وأخيرا «التطور **الاجتماعى** Sociogeny» (٥)

(ب) الأساس الثانى:

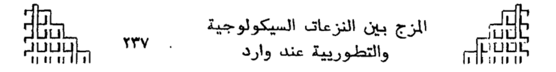
يمثل تشعب التطور بعد المرحلة الإنسانية المسلمة **الثانية** فى النظرية السوسيولوجية عند «Ward» وبحيث يصاحب التطور التلقائى ظهور **الغائية** «Telesis» أو السلوك العمدى للإنسان والذى ينهض على المعرفة وعلى توقع الفرد لنتائج أعماله(٦).

(جـ) الأساس الثالث:

يتضح الأساس أو المسلمة **الثالثة** من خلال اعتبار Ward أن كل علم إنما يمثل دراسة منظمة **لمجموعة** محددة من القوى Forces وعندما حاول وارد تعريف القوى الاجتماعية التى **يهتم** بدراستها علم الاجتماع قال عنها «إنها قوى **نفسية** واضحة وإن كانت تنحصر فى **الشعور**.. باعتبار ذلك الشعور هو القوى المحركة **للظواهر** الاجتماعية..(٧) واتسمت **تعريفات** وارد للقوى المحركة أو الفاعلة **بالغموض** خاصة ما اتصل منها بالظواهر الاجتماعية، ولكن Ward **عاد** خلال مؤلفه علم «الاجتماع النظرى Pure Sociology » عام ١٩٠٣.. **فصنف** القوى الاجتماعية بفهم وعمق أكثر.

واعتبر وارد تلك الصياغة **نهائية** عندما صنف **القوى** بشكل عام .. إلى قوى ترتبط **بتطور** وجود الإنسان ontogeaic، وتلك القوى **تنطوى** عند Ward أولا على قوى **ايجابية** تعمل على تحقيق **اللذة** وتنطوى ثانيا على قوة **سلبية** تعمل على محاولة تجنب **الألم**، ثم تحتوى ثالثا على قوى **خاصة** بحفظ النوع وبقائه Philogenic وهذه القوى الخاصة ببقاء النوع وحفظه **تنقسم** إلى قوى **مباشرة**، ومن أمثلتها.. الجنس.. وإلى قوى **غير** مباشرة كالحب(٩).

أما فيما يخص «القوى **الاجتماعية** Sociogenic فيرى Ward **أنها تتكون** من قوى ثلاث أولها «القوى **الأخلاقية**» وغايتها تحقيق **الأمن** والخير، وثانيها



«القوى **الجمالية** التى تنشد **الجمال** وأما القوى الثالثة التى تتألف منها القوى الاجتماعية فهى «القوى **الفكرية**».. التى تسعى إلى تحقيق **الحق** والمنفعة(١٠).

(د) الأساس الرابع :

كان الأساس والمسلمة الرابعة عند Ward هى مبدأ التكامل **الإبداعى** وتوازن القوى «Synergy» ويرى Timasheff أن هذا المبدأ كله هو الفكرة **المحورية** لكتاب Ward «علم الاجتماع النظرى» والذى عالج خلاله **تناول** بعض **مصطلحاته** وتعريفاته الغامضة.. ومنها مصطلح «**القوى**» الذى غيَّره - غير آسف - إلى مصطلح «**الطاقة**» وأكد على أن الطاقة الاجتماعية **تتدفق** فى المجتمع كله وفى كل الاتجاهات، ومن **رأيه** أن المجتمع سواء فى الجانب الطبيعى منه أو الإنسانى هو ميدان **الصراع** بين مختلف القوى والبناءات.. ويؤدى **تكرار** الصراعات إلى نشوء بناءات جديدة تنعم بدرجات متفاوته من الاستقرار، إلا أن تلك البناءات ما تلبث أن **تتصارع** مرة أخرى. وهكذا دواليك.. تتكرر **عملية** الصراع.. وتقدم باستمرار بناءات جديدة.. **تستقر** أحيانا لكن **مصيرها** إلى الصراع لتحل محلها بناءات جديدة وفى كل **آفاق** الوجود.. ونبه ward إلى أن البناءات التى **تنشأ** نتيجة لتوزان القوى أو **التكامل** الإبداعى **تتفوق** دائما على مجموع العناصر **الداخلة** فيها (١١).

رابعا - لم يشأ Ward أن يضع تعريفا **اصطلاحيا** لعلم الاجتماع.. واكتفى أن يسميه خلال مؤلفه «علم الاجتماع النظرى» **أنه** «علم إنجازات الإنسان» باعتباره علما **واقعيا** يهتم بدراسة **سلوكيات** الناس بعيدا عن ماهيتهم أو طبيعتهم، كما أنه - أى علم الاجتماع - **يقتصر** على دراسة مجموعة محددة من الظواهر التى تسير على **نهج** منظم كنتيجة لأسباب وقوى طبيعية (١٢)، وعلى ذلك **فإن** علم الاجتماع **يهتم** فقط بدراسة مختلف **الأنشطة** **والوظائف** الاجتماعية أما البناء **الفسيولوجى** فبعيد عن اهتمامات علم الاجتماع.

وذكر Ward وهو **يحدد** العلاقة بين علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية مستعينا **بمبدأ** توازن القوى السابق الإشارة إليه أن علم **الاجتماع** هو صيغة مركبة **نتجت** عن التكامل الإبداعى بين العلوم الاجتماعية الخاصة (١٣).

خامسا ـ عنى Ward بمشكلة **الفروع** الرئيسية لعلم الاجتماع ويقول -Tim asheff «إن وارد ميز بين علم الاجتماع **النظرى** وعلم الاجتماع **التطبيقى**، وحدد مجال دراسة علم الاجتماع النظرى بدراسة المجتمع وقوانينه فى صورتها الواقعية فى المجتمع **وبحيث** يتمكن علم الاجتماع من الوصول إلى تقييم سببى من خلال الإجابة على تساؤلات مثل .. ماذا .. وكيف ؟! بعد **استبعاد** التساؤلات ذات الصفة **العلاجية** أو التى ترتكز على اعتبارات أخلاقية.

كان ذلك عن علم الاجتماع النظرى عند Ward أما علم الاجتماع التطبيقى فإنه يسعى فى المقام الأول إلى الإجابة على **سؤال** وحيد.. ماهى **النتائج**..؟! وذلك باعتبار علم الاجتماع التطبيقى عند Ward علما يهتم بالمثاليات الاجتماعية والاعتبارات الأخلاقية، كما أن علم **الاجتماع** التطبيقى **يهدف** كذلك باعتباره علما وليس فنا ـ إلى **تقويم** الأساليب التى يستخدمها الإنسان **للنهوض** بالظروف الاجتماعية(١٤).

إذن.. مهمة علم الاجتماع النظرى ـ كما يحددها وارد ـ هى **التوصل** إلى القوانين الاجتماعية ـ وإن هذه القوانين يجب أن **تستثمر** فى النهوض بالمجتمع خصوصا فى **ظل** إيمان Ward بأن القوانين الاجتماعية ثابتة ولايمكن **أن تتغير** ومن ثم يصبح فى مقدور الإنسان أن **يستخدم** تلك القوانين الاجتماعية **لتحقيق** أهدافه .. تماما كما يستخدم **القوانين** الطبيعية .. أما كيف يتم ذلك .. فقد **أجاب** Ward على هذا السؤال وهو يطور نظرية الغائية Teleslogy(١٥).

سادسا ـ خصص Ward **فرعا** من فروع علم الاجتماع لدراسة **النشوء**.. وقسم وارد« علم اجتماع النشوء» إلى قسمين رئيسيين هما **«الاستاتيكا** starics **والديناميكا** dynamics» **متأثرا** فى ذلك.. بأعمال كل من Comte وسبنسر، ولكن من **منظور** نقدى جديد.. حيث اعتبر كونت و Spencer أن **مهمة** الاستاتيكا هى دراسة **البناءات** الاجتماعية فقط، ومهمة الديناميكا هى بحث **وظائف** تلك البناءات.. إلا أن Ward يرى أن **الوظيفة** «هى مايؤديه البناء بالفعل»، ومعنى هذا أن الـ Statics **تدرس** الوظيفة والبناء معا، بينما الـ Dynamics فهى التى تتولى دراسة التنفيذ داخل تلك البناءات(١٦).

سابعا ـ لم يشغل Ward نفسه كثيرا بقضية تحديد **منهج** يستخدمه علم الاجتماع، ويقول تيماشيف:«إن التعميم» كان هو المنهج الرئيسى لعلم الاجتماع من وجهة نظر وارد. . لأن منهج **التعميم**. . كان يمكِّنه من **تجميع** الظواهر ومعالجتها باعتبارها **وحدات**، ويعتقد تيماشيف أن Ward كان **منطقيا** مع نفسه. . عندما لم يهتم ـ كبقية علماء عصره ـ ويجعل شاغله الشاغل هو **قضية** المنهج فى علم الاجتماع. . **ومنطقية** Ward مع نفسه. . جاءت نتيجة للغموض الشديد الذى اكتنف معظم مفاهيمه ونظرياته السوسيولوجية، وخصوصا وهو **يعرض** تلك النظريات والمفاهيم معتمدا على قضايا **تطورية** مستمدة من علوم الفلك والفيزياء والكيمياء والبيولوجياً والأنثربولوجيا، واستغل **براعته** فى التأليف واعتبرها **براهين** لقضايا تتصل بالظواهر الاجتماعية[١٧].

ثامنا ـ قدم وارد من خلال دراسته **لتطور** الإنسانية ـ شأنه فى ذلك شأن فلاسفة التاريخ ـ **نظرية** مؤداها أن الإنسانية خلال تطورها مرت **بأربع** حالات أو مراحل:

الأولى.. هى **«المرحلة الفردية»** وتتسم **بضعف** الإنسان وعدم قدرته على **مواجهة** أخطار الطبيعة والحيوانات الأمر الذى دفعه إلى **التجمع** لحماية نفسه، ونتيجة لانخراط هذا الإنسان فى **جماعات** صغيرة نشأت المرحلة الثانية التى تواكبت مع ظهور المعاشر والعشائر والقبيلة والقبائل. . وبعد أن **نمت** عند ذلك الإنسان مشاعر **الانتماء** وقويت لديه قيم التضحية فى سبيل المجموع. ظهرت **«المرحلة الجماعية»**. . ومع ظهور مرحلة تطورية أخرى هى **«المرحلة القومية»**. . ظهر المجتمع المدنى، ومع ميل الحياة المجتمعية إلى **الاستقرار** ومن ثم ظهور الأمم. . نشأت الحروب كنتيجة طبيعية **للرغبة** فى السيطرة والاستغلال والتوسع الإقليمى. . وكان لابد من ظهور المرحلة **المستقبلية** عند Ward وهى «المرحلة العالمية» التى تتخفف فيها البشرية من **كل** سوءات المراحل السابقة[١٨].

تاسعا ـ حدد Ward وهو **يفسر** الحركة الاجتماعية للتفاعل **أربعة** قوانين. . واعتبرها المسئولة عن كل ما يحدث من تغيرات أو **تطورات** اجتماعية فى الحاضر والمستقبل. . وهذه **القوانين** باختصار شديد هى: اختلاف أو **تباين**

الإمكانيات Difference of potenntial . . والابتكار أو **الاختراع** Innovation . . والجهد البناء Connation . . و«الغائية الاجتماعية «Sociol teleatogy»(*) .

عاشرا ـ يرى تيماشيف أن Ward **اقترب** إلى درجة كبيرة أثناء مناقشته للغائية . . من النظر إلى **الثقافة** باعتبارها **الموضوع** الرئيسى للدراسة السوسيولوجية ـ وذلك من خلال **نظرته** إلى علم الإجتماع باعتباره . . «العلم الذى يتناول دراسة المنجزات الاجتماعية» . . وقد **أطلق** Ward على كافة المنجزات التى يتناولها . . أو من المفروض أن يتناولها «علم الاجتماع» بالدراسة ـ أطلق عليها . . مصطلح **«الحضارة»** Civillization شريطة أن يتحصل الإنسان عليها عن طريق **المعرفة**، ورفض وارد استخدام مصطلح الثقافة Cultural واعتبره قاصرا على الجوانب الإنسانية، ويعتبر تيماشيف أن ذلك كان من وارد **إنجازا** مكنه من **التنبؤ** بالتطور الهام الذى حققه علم الاجتماع فى القرن العشرين . . ويقصد تيماشيف بذلك . . اعتبار الثقافة **موضوعا** أساسيا من موضوعات الدراسة السوسيولوجية[١٩] .

* * *

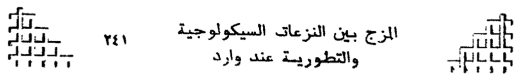
الانتقادات الموجهة لوارد:

(أ) يأخذ معظم **النقاد** السوسيولوجيين وعلى رأسهم تيماشيف . . على Ward أنه لم **يعبأ** ـ رغم مايتمتع به من قدرة خاصة على التأليف ـ بوضع **تعريف** محدد **للمجتمع**، وخصوصا أن وارد لم يجد داعيا لوجود مثل هذه **الصياغة** مادام هناك **اتفاق** عام حول هذا الموضوع[٢٠] .

ولم **يتجاهل** لستر وارد مسألة صياغة تعريف محدد **للمجتمع فقط بل لقى** عنده علم **الاجتماع** نفس التجاهل.. وعلى **النحو** الذى وضحناه **خلال الفقرة** الرابعة من هذا الفصل.

(ب) المفاهيم التى اجتهد وارد أن يصوغها أو يحدد **معانيها بدقة اختلطت** لديه.. وصارت إما مشوشة ، وإما غير **معبرة** عن مقاصده الحقيقية.. والمثال على

(*) انظر شرحا وافيا لأفكار Ward السابق حول تلك القوانين ضمن مؤلفنا ـ النظريات فى علم الاجتماع الإشارة إليه.



ذلك.. مفهوم الثقافة.. والذى استخدم وارد فى التعبير عنه مصطلح «الحضارة» مع العلم أن المفهوم كما **حدده** وارد يشير إلى «المنجزات المتراكمة والمستمرة التى يقدمها العقل الإنسانى»[٢١].

(جـ) تعامل وارد بنفس الغموض والتشويش مع موضوعات **أضحت** أساسا للدراسة فى علم الاجتماع المعاصر.. ومنها العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية.. فهو **يقول** من خلال مؤلفه «علم الاجتماع الدينامى» إن الإنسان رغم **اندماجه** فى العملية **النشوئية**.. إلا أنه ـ أى الإنسان ـ يستطيع فى نفس الوقت أن **يؤثر** فيها ـ أى فى العملية النشوئية ـ عن طريق **الغائية** وذلك باعتبار ـ على حد تعبير Ward نفسه ـ «أن البيئة **تملك** القدرة **على إحداث** تغييرات مهمة بالحيوان.. ولكن يبقى الإنسان دوما هو الوحيد **القادر** على تعديل ـ ولم يقل تغيير ـ البيئة ذاتها»[٢٢].

(د) صدق Ward نفسه عندما انساق وراء دعاوى من سبقوه من الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع وعلى رأسهم كونت ـ بأن علم الاجتماع هو **المتصدر** للعلوم جميعا ـ طبيعية كانت أو اجتماعية ـ وعاش فى وهم **الزعامة** الزائفة لعلم الاجتماع.. فجاءت كل إسهاماته **منسجمة** مع تلك النظرة التى هى فى رأى النقاد السوسيولوجيين تبدو قاصرة وإن كان وارد يراها.. تمثل **تكاملا** إبداعيا لكافة العلوم[٢٣].

(هـ) صحيح أن إسهامات Ward تكاد تكون كلها ضمن **منظومة** العلوم التاريخية.. أو فلسفة التاريخ بتعبير أدق ـ إلا أنه **رفض** وبإصرار.. أن يعترف بأن **الكم**(*) مطلب أساسى للعلم عامة.. ولعلم الاجتماع بشكل خاص إذا أراد ـ أى علم الاجتماع ـ أن يكون له **مكان** على خريطة العلم[٢٤].

(و) وأخيرا **يتهم** تيماشيف وارد.. بأن الطابع العام فى نظريته السوسيولوجية.. اتسم بالطابع الفلسفى أكثر منه بالطابع الإمبريقى.. وذلك

(*) المقصود هو الكم والقياس وقضية اعتماد أو عدم اعتماد علم الاجتماع عليه كسبيل وحيد لتحقيق الموضوعية.

لانسياق وارد وراء الاعتقاد الخاطئ في زمانه.. والذي **يعتبر** التطور الكوني.. هو القانون العام في كل الوجود بما في ذلك الوجود الاجتماعي، كما **اعتبر** تيماشيف محاولة وارد **لتفسير** الظواهر الاجتماعية معتمدا على نظرية تتعلق بالواقع ككل ـ يعتبرها سقطة.. رغم تأكيده ـ أي وارد ـ **للخصائص** الفريدة للتطور الاجتماعي والتي تستمد جذورها من المَلَكَة العقلية للإنسان[٢٥].

(ز) يرى تيماشيف كذلك.. أن **نظرية** Ward عن القوى الاجتماعية.. قد انطلقت من مفهوم خاطئ.. فقد أكد وارد أنه **بمقدور** علم الاجتماع أن يتطور بشكل ملحوظ إذا اعتمد كلية على مفهوم **التساند** الآلي بين مختلف أنماط السلوك الإنساني **الناتج** عن الشعور، كما أن لـ Ward **أفكارا** كثيرة ـ منها الغائية كمثال ـ جاءت **مختلطة** ببعض المفاهيم الخاطئة في علم النفس.. فضلا عن أن كثيرا منها كان محتاجا إلى **الاتساق** ، فضلا عن أن الكثير منها اتسم بسوء العرض[٢٦].

(ح) ورغم كل الذي **وجهه** تيماشيف لوارد وأفكاره من انتقادات .. إلا أنه ـ أي تيماشيف ـ **اعترف** بأن مؤلفاته السوسيولوجية كانت لها **جاذبية** وحظيت باهتمام كبير.. **وأرجع** تيماشيف ذلك.. إلى ما **انطوت** عليه تلك المؤلفات «من بصيرة نافذة، وذكاء متقد، واطلاع وفير»..[٢٧].. وخصوصا **إذا قيمت** بمقاييس عصرها..!!.

* * *

المصادر

(١) N.S. Timadheff,Sociological Theory, op . cit. p.82.

(٢) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٤٠.

(٣) المرجع السابق ـ ص ٢١١ ـ ٢٤٥ . وانظر أيضا تيماشيف ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٤) تيما شيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ٣٠ ـ ٣٢ وانظر أيضا الترجمة ص ص ٤٣ ـ ٤٦ ..

(٥) L. Ward. Dynamic. Sociologg , N.Y. 1883.p.p 91 98

(٦) لستر وارد ـ علم الاجتماع الدينامكى ـ المرجع السابق ص ٩٢ .

(٧) المرجع السابق ـ ص ٩٣، وانظر كذلك مؤلفنا النظريات فى علم الاجتماع ـ مصدر سابق ص ١٤٢ .

(٨) L.Ward, Pure Sociology, N.Y. 193

وانظر كذلك تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٩) لستر وارد ـ علم الاجتماع النظرى ـ مرجع سابق ـ ص ٨٣ .

(١٠) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٧٨.

(١١) لسترد وارد ـ علم الاجتماع النظرى ـ مرجع سابق ـ ص ٨٤ وانظر كذلك تيماشيف ـ مرجع سابق ص ١٠٨ .

(١٢) المرجع السابق ـ ص ٨٥.

(١٣) تيماشيف ـ الترجمة ـ مصدر سابق ـ ص ١١٠ .

(١٤) انظر ـ المرجع السابق ـ ص ١١٠، وانظر كذلك مؤلفنا عن النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ١٤٣ .

(١٥) النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ١٤٤ .





(١٦) لستر وارد ـ علم الاجتماع النظرى، وانظر ـ دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ المرجع السابق ـ ص ١٤٥.

(١٧) تيماشيف ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ ص ١١١.

(١٨) لستر وارد ـ علم الاجتماع النظرى ـ مرجع سابق ـ ص ٨٦.

(١٩) تيماشيف ـ الترجمة ـ مصدر سابق ـ الطبعة الثانية ـ ص ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٢٠) تيماشيف ـ الترجمة ـ المصدر السابق ـ الطبعة الثانية ـ ص ١١٦.

(٢١) لستر وارد ـ علم الاجتماع الديناميكى ـ مصدر سابق ـ ص ٦٧.

(٢٢) المرجع السابق ـ ص ١٦.

(٢٣) لستر وارد ـ علم الاجتماع النظرى ـ مصدر سابق ـ ص ١٥٠.

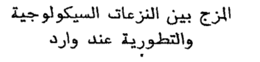
(٢٤) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ١٥٦.

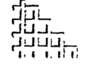
(٢٥) تيماشيف ـ مصدر سابق ـ ص ص ٩٧ ـ ٩٨.

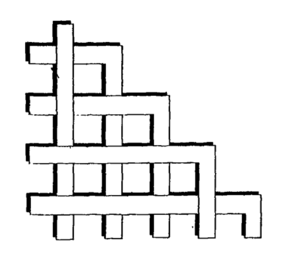
(٢٦) المصدر السابق ـ ص ٩٩.

(٢٧) تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الثانية ـ ص ١١٨.

* * *






الباب الخامس

الاتجاه التحليلى ودوره فى النظرية الاجتماعية

* مقدمة

* **الفصل السادس عشر**

تارد وإسهاماته السوسيولوجية

* **الفصل السابع عشر**

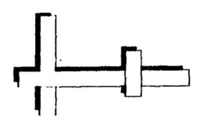
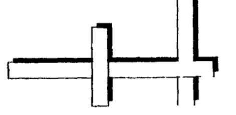
سيمل وما أضافه لنظرية علم الاجتماع

* **الفصل الثامن عشر**

تونيس وإسهاماته فى النظرية الاجتماعية

* **الفصل التاسع عشر**

دوركايم مؤسس علم الاجتماع التحليلى

مقدمة

تعتبر **إسهامات** كل من تونيس وسيمل وتارد.. **إضافة** حقيقية للنظرية السوسيولوجية .. كما تعتبر **تمهيدا** حقيقيا لإقامة **نظرية** سوسيولوجية منظمة ومرتكزة على البحث الإمبريقى.

وإذا ما أردنا **التحديد** لأهمية إسهامات ـ كل منهم.. يرى تيماشيف خلال كتابه «نظرية علم الاجتماع ـ طبيعتها وتطورها» أن **الإسهام** الجوهرى **لتونيس** فى النظرية السوسيولوجية الحديثة.. يتضح من خلال **دراسة** تونيس..«للنماذج الأساسية للجماعات الاجتماعية»، علاوة على ماقام به تونيس من **تصنيف** تلك الجماعات وفقا لنسق مبتكر لم يسبقه إليه أحد.

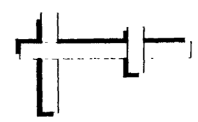
أما سيمل فقد تمثلت إسهاماته السوسيولوجية بصفة أساسية فيما **قدمه** ـ أى سيمل ـ من **نماذج** للعمليات الاجتماعية التى تبدو من خلال **التفاعل** بين الأفراد، ويؤكد تيماشيف خلال كتابه المشار إليه.. يؤكد على أن مقولات أو **صياغات** سيمل مازالت قائمة **ومقبولة** حتى الآن.

كما يقول تيماشيف عن **تارد**.. إنه كان أول من أقام أساسا قويا **لنظرية** فى التغير الاجتماعى والثقافى، وأن معظم ماقدمه تارد مازال على **أصالته** حتى اليوم.. رغم عدم تقدير علماء جيله لما قدمه من إسهام كما شكلت آراء تارد مع كل من أفكار تونيس وسيمل **التمهيد** المطلوب **لإقامة** نظرية سوسيولوجية حديثة(*).

هذا وسنتعرض خلال دراستنا **للاتجاهات** التحليلية المبكرة لكل من :

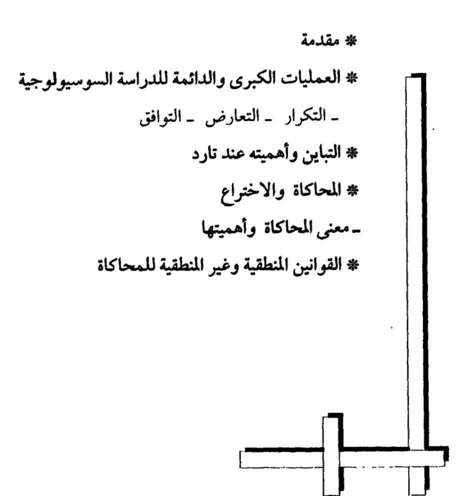
* تارد وإسهاماته فى النظرية السوسيولوجية الحديثة.
* سيمل وما أضافه للنظرية السوسيولوجية.
* تونيس وإسهاماته الجوهرية فى النظرية السوسيولوجية.
* دوركايم مؤسس علم الاجتماع التحليلى.

(*) انظر تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٥٦ ـ ١٥٧.



الفصل السادس عشر

تارد وإسهاماته فى النظرية السوسيولوجية



* مقدمة
* العمليات الكبرى والدائمة للدراسة السوسيولوجية
  - التكرار - التعارض - التوافق
* التباين وأهميته عند تارد
* المحاكاة والاختراع
- معنى المحاكاة وأهميتها
* القوانين المنطقية وغير المنطقية للمحاكاة

مقدمة

ترتكز شهرة جبرايبل تارد Gabriel Tarde (*) على **كتابيه** اللذين أصدرهما عام ١٨٩٠ باسم «قوانين المحاكاة Laws of Imitation» وعام ١٨٩٨ باسم «القوانين الاجتماعية» «Social Laws» الذى تضمن تلخيصا وافيا لكل أعماله وإسهاماته السوسيولوجية المتفرقة(**).

وكما تركزت **شهرة** تارد فى عمل واحد تقريبا هو «قوانين المحاكاة»، تركزت إسهاماته فى تطور النظرية الاجتماعية فى **موضوع** واحد أيضا هو «عملية المحاكاة» ومالها من أثر لاينكر فى الحياة الاجتماعية (١).

وعلى كل حال ـ نحن سنحاول **تتبع** مكانة ودور جبرايبل تارد فى النظرية السوسيولوجية من خلال النقاط التالية.

* * *

العمليات الكبرى والدائمة للدراسة السوسيولوجية:

أولا ـ أكد تارد على وجود ثلاث **عمليات** دائمة فى نطاق البحث السوسيولوجى ـ وهذه العمليات هى على الترتيب ـ **التكرار** Repetition، **والتعارض** Opposition، **والتوافق** Adaptiton ووفقا لقانون التكرار الكونى ـ كما يعتبره تارد ـ فإن كل صنوف **التشابه** إنما تعود إلى التكرار .

وحدد تارد **تجليات** قانونه الكونى فى العديد من الصور المختلفة والمتنوعة

(*) عاش تارد فى المدة ١٨٣٤ ـ ١٩٠٤

(**) تارد له العديد من المؤلفات الأخرى. . لعل من أهمها كتابه «المنطق الاجتماعى Social Logic» الذى صدر عام ١٨٩٤، وكتابه «التعارض الكونى Universal Opposition» الذى صدر عام ١٨٩٧.



حسب طبيعة **انتسابها** إلى عالم الطبيعة. . أو عالم الحياة. . فالتكرار فى عالم **الطبيعة** يتمثل فى **الموجات**، والتكرار فى عالم **الحياة** يتمثل فى عملية **التوالد**، كما يأخذ التكرار ـ طبقا لوجهة نظر تارد ـ صورة «**المحاكاة**» على المستويين. . النفسى والاجتماعى. . وهذا يعنى ـ كما يؤكد تارد ـ أن كل **الظواهر** المجتمعية إنما تعود بشكل نهائى إلى **العلاقة** الناشئة بين شخصين. . أحدهما يمارس ـ من خلال التفاعل ـ تأثيرا **عقليا** على الآخر. . وأكثر من هذا فإن تارد قد أرجع الفضل فى **ظهور** المجتمعات إلى عملية «التشابه» ـ عندما أكد على أن المجتمع يأخذ فى الظهور عندما يتجه الفرد الى **تنميط** سلوكه وفقا لسلوك الآخرين[٢].

ثانيا ـ ويؤكد تارد على أهمية «**التباين**» ـ باعتباره الحافز الذى يجعل شخصا بالذات ـ نموذجا وقدوة لشخص آخر، وتستمد «عملية التباين» **تأثيرها** من الاختراع والمحاكاة **اللذين** يشكلان ـ فى رأى تارد ـ النمط المميز **للعمليات** الاجتماعية[٣].

ثالثا ـ يعرف تارد **المحاكاة** « بأنها العملية التى يصبح الاختراع بواسطتها مقبولا اجتماعيا». . وبناءً على ذلك فإن المجتمع عند تارد عبارة عن «جماعة من الأفراد لديهم **القدرة** على محاكات بعضهم البعض. . أو تربط بينهم ـ كحد أدنى ـ **سمات** مشتركة تعتبر نسخا متكررة **لنموذج** واحد»[٤].

رابعا ـ بذل تارد جهدا **كبيرا** ـ سواء وهو يبين **أهمية** عملية «المحاكاة» أو وهو يحدد معناها من وجهة **النظر** الفلسفية، والعصبية، وكذلك السيكولوجية أو من حيث رد «المحاكاة» إلى عملية نفسية أخرى هى «الإيحاء». . وأخيرا من وجهة نظر علم الاجتماع[٥].

فالمحاكاة تعنى فلسفيا أنها «نموذج لمبدأ **التكرار** الكونى عند تارد»، والمحاكاة تعنى **عصبيا** ـ من وجهة نظر طبية.. وخاصة ما اتصل منها **بشبكة** الأعصاب لدى الفرد ـ أن المحاكاة هى «وظيفة الذاكرة» أما **عملية** المحاكاة من وجهة النظر السيكولوجية ـ أو **بالمعنى** السيكولوجى ـ على حد تعبير تارد نفسه ـ تعنى إمكانية

رد المحاكاة إلى الإيحاء.. وبلغت ثقة تارد في مقولته تلك حدا. جعله **يماثل** مابين المحاكاة وبين ظاهرة **التجوال** أثناء النوم [٦].

وآخر الميادين **الأربعة** التي استهدف تارد من خلالها الكشف عن أهمية «المحاكاة» فكان علم الاجتماع.. حيث **أكد** تارد على أن المحاكاة تستطيع أن تقدم إجابات عن بعض **التساؤلات** الهامة، وضرب تارد مثالا لتلك التساؤلات حول عملية قبول الاختراع قائلا: لماذايتقبل الجمهور عشرة **اختراعات** من بين مائة مثلا؟! وبذلك يكون **مصير** الاختراعات المتبقية أو غير المقبولة في طي النسيان[٧]

خامسا ـ في محاولة تارد الإجابة على **السؤال** المطروح.. قال إن هناك قوانين منطقية وأخرى غير **منطقية** لعملية «المحاكاة» ومن أهم القوانين المنطقية:

أ ـ أن الأفراد **يقلدون** أو يحاكون نماذج أو نموذجا بالذات لأنهم يعتقدون أنها أو أنه أكثر نفعا أو أكثر توافقا مع النماذج **السائدة** والتي عرفوها قبلا [٨].

ب ـ النماذج في **انتشارها** أو انتقالها من مجتمع ما إلى بقية قطاعات المجتمع.. أو حتى مجتمعات أخرى، هذه النماذج المتنقلة.. تتعرض **للتعديل** خلال **عملية** الانتقال.. خاصة ما تم منها عن طريق وسائل الاتصال المختلفة [٩]

أما عن القوانين غير المنطقية فقد أكد تارد أنها **متضمنة** في التعميمات الآتية:

أ ـ أن محاكاة النماذج **الذاتية** «الأفكار» تسبق دوما محاكاة النماذج **الموضوعية**.. مع العلم بأن المحاكاة على هذه الصورة تنتقل **بصفة** عامة من الطبقات العليا إلى الطبقات الدنيا.

ب ـ يؤكد تارد على أن النموذج **السائد** للمحاكاة غير المنطقية.. هو مايعرف «**بمحاكاة الماضي**» بينما في بعض الحالات يعيش الأفراد في **الحاضر** فقط.. وأكبر مظهر لذلك **النمط** هو.. «سيادة **التقاليد**».. وهي بالقطع نوع راسخ من محاكاة الماضي.

جـ ـ اعتبر تارد.. أن **محاكاة** «الموضة» أو «النماذج الجديدة» .. نوع من **المحاكاة** غير المنطقية[١٠].

سادسا ـ رغـم الاعتـراف لتـارد بـأنه قـد **أضاف** من خـلال نظـريتـه فى «المحاكاة» عدة عناصر أساسية **للنظرية** السوسيولوجـية المعاصرة ـ إلا أن **العديد** من أفكـاره لم تلق ـ أو ما عادت تـلقى ـ **قبولا** فى الوقت الراهن خـاصة ماتعلق منها **بقانونه** الأول ضمن قوانينه غير المنطقية حول انتشار «المحاكاة»(١١).

إلا أن أهم ماوجه لـتارد من **انتقاد** يتمثـل فى عدم **قدرة** تارد على تـطبيق النتائج **العملية** لنظرية «المحاكاة» عنـده، إلا أن العلماء رغم ذلك **يقدرون** جهد تارد فـى تقديم أداة صـالحة **لهدم** النزعـة التطورية، فـضلا عن أن قواعد نـظرية «المحاكاة» التى أسسـها تارد أصبحت الآن **أساسا** صالحا لإقامة نظـرية شاملة عن الانتشار الثقافى(١٢).

* * *

المصادر

(١) Nicholas S. Timasheff, Sociolgiccal Theory, op.cit.p.79,

(٢) دكتور صلاح الفـوال ـ النظريات فى علم الاجتمـاع ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٨٠ ـ ١٨٣ .

(٣) Gabril Tarde, Laws of Imitation, Paris, 1890

(٤) G. Tarde, Saial Logic. Paris, 1894.

(٥) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ١٥٣ .

(٦) G. Tarde, Universal Opposition, Paris, 1897

(٧) G. Tarde, Saial Logic. Paris, 1898.

(٨) Bourdier, The Life of Societies,. Paris, 1877 وانظر أيضا ـ دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ١٨٠ .

(٩) M.M. Davis, Psychological Interpretation of Society, 1909

(١٠) M.M. Davis, Gabriel tard, 1906.

(١١) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص١٥٦ .

(١٢) النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

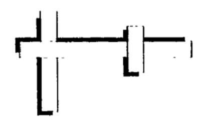
وانظر أيضا :

(أ) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مرجع سابق .

(ب) دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق .

(جـ) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية ـ مرجع سابق .

* * *



الفصل السابع عشر

سيمل وما أضافه لنظرية علم الاجتماع

* مقدمة.
* مفهوم المجتمع.
* مفهوم علم الاجتماع.
* علم الاجتماع والمنهج المقارن.
* علم الاجتماع الصورى.

مقدمة :

جورج سيمل G. Simmel (*) أو زيمل من أكثر علماء الاجتماع **شهرة**. . بدأت منذ عام ١٨٩٠ مع نشره لمجموعة من المقالات السوسيولوجية الممتازة المسماة «بحوث فى أشكال المجتمع» **وتدعمت** بصدور كتابه عن «علم الاجتماع» عام ١٩٠٨، وتعتبر إجابة سيمل عن السؤال الذى كان مطروحا بشدة خلال تلك الأيام «ما المجتمع؟!» هى أساس **شهرة** سيمل. وقد تعرض سيمل فى إجابته على السؤال المطروح لتحديد العديد من **المفاهيم** التى أثرت علم الاجتماع وعلى النحو التالى:

* * *

أولا ـ يؤكد سيمل أنه **يصعب** فهم المجتمع باعتباره وحدة سوسيولوجية **مستقلة** عن ذاتية الأفراد أو عن عقولهم. . لأن **المجتمع** ـ فى رأى سيمل ـ **ومجموع** الأفراد يكونان معا **وحدة** موضوعية تتجلى فى العلاقات المتبادلة بين مختلف **عناصرها** الإنسانية «أفراد + جماعات + مجتمعات»[1].

* * *

ثانيا ـ أن تلك العلاقات المتبادلة بين الناس جميعا. . هى **نتيجة** منطقية لمجموعة من **الدوافع** النوعية ومنها ماهو. . غريزى أو دينى أو اجتماعى.. أو هادفة ـ أى الدوافع ـ إلى تحقيق **غايات** اجتماعية خاصة[2] ذكر منها سيمل.. الدفاع **واللعب** وما إليها، ومن رأيه أنه **مازالت** هناك نماذج لاحصر لها من العلاقات المتبادلة لم تدرس بعد من طرف العلوم الاجتماعية ومنها علم الاجتماع، ويضرب لذلك مثلا بكثير من علاقات **التفاعل** المتضمنة فى ظواهر الحياة اليومية. . ومنها **مساعدة** الآخرين وتبادل الرسائل **والاشتراك** فى تناول الطعام

(*) عاش سيمل فى المدة من ١٨٥٧ ـ ١٩١٨.



والشكر على الخدمات المتبادلة، ومن هنا يرى سيمل أن **المجتمع** يشير إلى الأفراد وهم **يمارسون** أنواعا متعددة من العلاقات المتبادلة والتى يتطلب **فهمها** . . قدرة خاصة على تحليل التفاعل النفسى[٣] .

* * *

ثالثا ـ ومن هنا كانت **معارضة** سيمل لمن **عرفوا** علم الاجتماع بأنه «العلم الذى يدرس كل الظواهر الاجتماعية» وبنى سيمل اعتراضه على **أساس** . . أنه ليس فى **مقدور** علم وحيد مهما كان . . أن **يدرس** كل الظواهر الإنسانية والاجتماعية، وخصوصا مع **اتجاه** كل العلوم الإنسانية منها والطبيعية إلى **التخصص** فى موضوع واحد محدد المعالم. وقد يكون ـ ذلك **الاتجاه** ـ إلى التخصص فى **جزئية** محدودة من مكوناته[٤].

ومن هنا . . كان **تعريف** سيمل لعلم الاجتماع . . «أنه العلم الذى يهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية». وحتى يكون تعريفه **مفهوما** . . أكد سيمل أنه لا يقصد **بالعلاقات** الاجتماعية . . تلك العلاقات **الواقعية** التى تنشأ بين مختلف الأفراد فى المجتمع. وإنما **يعنى** بها «مجموعة الأشكال الصورية المجردة التى يتحدد من خلالها **جوهر** العلاقات الواقعية» . . وأكد سيمل على أن علم الاجتماع هو **المنوط** به دراسة تلك العلاقات الاجتماعية فى ضوء **تجريدها من التجسيد** الواقعى[٥] .

* * *

رابعا ـ أقام سيمل فهمه لعلم **الاجتماع** على أساس أنه علم **يطبق** المناهج العلمية، والمنهج الذى يجب على علم الاجتماع أن يطبقه ـ فى رأى سيمل ـ هو **المنهج** المقارن . . لكن من **منظور** مختلف عن المنظور الذى استخدمه التطوريون أمثال سبنسر . . وهذا **الاختلاف** راجع ـ فى رأى سيمل ـ **إلى أن علم الاجتماع** لايعنى مباشرة بالظروف **الواقعية** للحالات التى يدرسها . . أو يجب على علم الاجتماع أن **يختار** لدراسته حالات منتقاة بصرف **النظر** عن التضارب أو التماثل الذى يغلب على المصالح أو صور التفاعل داخلها [٦].

ورغم أن سيمل لم يحدد أو يقدم أية **قواعد** أو نماذج تعتمد على فهم واستخدام المنهج **المقارن** من طرف علم الاجتماع . . الا أنه من **المعروف** عن

سيمل أنه استخدم **الملاحظة** بالمشاركة فى الكثير من البحوث والدراسات التى نشرت له . **خاصة** ما كان منها عن الصراع والمنافسة والعلاقات الرئاسية والمدنية الحديثة. . إلخ[٧].

* * *

خامسا ـ تزعم سيمل ما يعرف بعلم الاجتماع **الصورى**. . القائم على التفرقة مابين **الشكل** الصورى للظاهرة المدروسة **والمضمون** أو التجسيد الواقعى لتلك الظاهرة. . ولقد **تأثر** بسيمل علماء كبار مثل روس Ross وسمول Small وبيكر Beckeer وفون فيزه Von Wiese ولويس كوزر Coser وغيرهم كثير. . ولدرجة أن هناك من **يؤكد** الآن. . على أن المهمة الأساسية لعلم **الاجتماع** هى «الدراسة المنظمة للصور الاجتماعية»[٨].

هذا وقد تعرض سيمل لسيل من **الانتقادات**. . والتى كان من أهمها. أن دعوة سيمل **لتجريد** العلاقات الاجتماعية من الواقع الاجتماعى وردها لعناصرها الأولى. . أمر غير **ممكن**. . فضلا عن أنه **يجرد** العلاقات من معناها. . أو مضمونها **ويباعد** بينها وبين الواقع المعاش ويحد كثيرا من **فهم** وظائف تلك العلاقات وكيفية **تطورها**، وخصوصا خلال تفاعلها داخل المجتمع[٩].



المصادر

(١) N.S. Timasheff, Sociological, Theory, its Nature and Growth, Second Printing third Edition, Random Hause., Newyork. 1967.

(٢) K.Wolff, Trans, The Sociology of George Simmel, 1950.

(٣) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٤) Gearge Simmel, Sosiologie, Paris, 1910.

(٥) النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ١٩٢ .

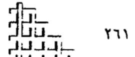
(٦) K. Wolff; The Sociology of G.Simmel, N.spykman,the sociological Theary of Simmel, 1925.

(٧) النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ١٩٤ .

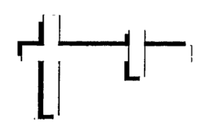
(٨) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٩) وولف ـ علم الاجتماع عند جورج سيمل ـ مرجع سابق ـ ص ٣٠.

* * *

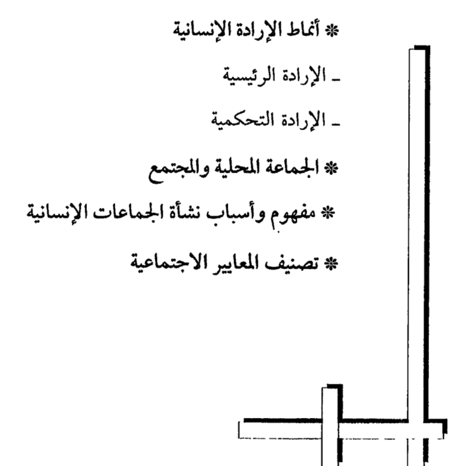






الفصل الثامن عشر

تونيس وإسهاماته في النظرية الاجتماعية



* مقدمة .
* أنماط الإرادة الإنسانية
  - الإرادة الرئيسية
  - الإرادة التحكمية
* الجماعة المحلية والمجتمع
* مفهوم وأسباب نشأة الجماعات الإنسانية
* تصنيف المعايير الاجتماعية

مقدمة:

تبدو الإسهامات السوسيولوجية لتونيس Ferdinand Toennis(*) أوضح ما تكون خلال مؤلفه الضخم «الجماعة المحلية والمجتمع» الذى يعد **أول** وأهم عمل له، والذى يعتبره **تيماشيف** حادثة فريدة فى دراسة النظرية فى علم الاجتماع[1].

* * *

أنماط الإرادة الإنسانية ودورها في المجتمع:

يمكننا أن نحدد فى إيجاز الإرادة الإنسانية **ودورها** الفاعل فى المجتمع كما بينه **تونيس** من خلال النقاط التالية:

اعتبر تونيس أن الإرادة الإنسانية هى المصدر والركيزة الأساسية لكل العلاقات الاجتماعية، ومن رأيه أن هذه الإرادة تتخذ عادةً **نمطين** متميزين هما:

(أ) الإرادة الرئيسية Essential Will أو الإرادة **الطبيعية**، وتمثل هذه الإرادة اتجاها أساسيا وغريزيا وعضويا **يكمن** وراء النشاط الإنسانى ويدفعه، وتسيطر الإرادة **الرئيسية** ـ كاتجاه ـ على حياة القرويين والحرفيين وعامة الناس.

(ب) الإرادة التحكمية Arbitrary Will أو الإرادة **العقلية**، وتمثل الشكل المتعمد **والقصدى** للإرادة، وتعتبر الإرادة التحكمية ـ كنمط ـ الطابع المميز لنشاط رجال السلطة والأعمال والعلماء **والمنتمين** إلى الطبقة العليا فى المجتمع.

* * *

الجماعة المحلية والمجتمع:

أبرز تونيس إلى الوجود **نوعين** من الجماعات، **أطلق** على الجماعة الأولى مصطلح «الجماعة **المحلية** Gemeischaft» وأطلق على النوع **الثانى** من الجماعات **مصطلح** «المجتمع Geselischoft» وأوضح تونيس أن الجماعة الأولى

(*) عاش تونيس فى المدة من ١٨٥٥- ١٩٣٦ .

«المحليـة» هى **تعبير** عن «الإرادة الرئيسـية» أو «الإرادة الطبـيعيـة»، أما **الجماعة** الثانية «المجتمع» **فتمثل** «الإرادة التحكمية» أو «الإرادة الفعلية».

* * *

الإرادة والعلاقات الاجتماعية:

ويرى تونيس أن الإرادة الطبيعية أو الرئيسية **تتمثل** فى:

(أ) العلاقات التى تقوم على رابطة الدم:

وتبدو هذه العلاقات Relation Ships أوضح ما يكون بين:

- الأم Mather and her Doughters وأبنائها أو بناتها.
- الأب Father and his Sons وأبنائه.
- الزوج Husband and his Wife وزوجته.
- الإخوة Brothers والأخوات Sisters وخصوصا الأشقاء منهم للأم.

(ب) العلاقات التى تقوم على الجوار:

وخصوصا تلك Neighbouring التى تقـوم على وحـدة المكان والتى **تمثلها** بصورة واضحة. . القرى والتجمعات الريفية والصغيرة.

(جـ) العلاقات التى ترتكز على الصداقة:

وتتميـز هذه العلاقات Friendship بالمنفعة المشـتركة وتمثلها بصـورة واضحة الملكية المتبادلة و**وحدة** الاتجاه نحو الخير أو الشر.

* * *

أما فيما يتعلق بالإرادة **التحكمية** أو العقلية فإن تونيس يرى أن هذه الإرادة تتمـثل فى **المجتمع**. . الذى يتكـون من أفـراد **يتفاعلون** ويندمجون مـعا وفقا لرغباتهم التى مبعـثها العقل، والتى تهدف إلى تحقيق مصـالح مشتركة، و**المجتمع** بهذا التصور ليس **ناتجا** عن الطبيعـة وإنما هو نتاج للعديد من العمليـات الصناعية التى تتسم بالمصلحة الذاتية وتحكيم العقل إلى جانب **التضامن** العضوى **أو** التعاقدى.

ومن أبرز **أنماط** تلك الإرادة. . العلاقات(*) القائمة بين أفراد المجتمع حول التبادل والمنفعة المشتركة للنقد والسلع والعقود والخدمات. . إلخ.

* * *

(*) للاستزادة انظر:

(أ) دكتور صلاح الموال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مصدر سابق ص ص ٧٥ـ٧٧.

(ب) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مصدر سابق ـ الفصل الخاص بالجماعات الاجتماعية.

أسباب نشأة الجماعات الاجتماعية:

قدم تونيس تفسيرا لأسباب نشأة الجماعات الاجتماعية انطلاقا من **مفهومه** لدور وطبيعة **الإرادة** الإنسانية، وحيث توجد الجماعات الإنسانية ـ جماعة محلية كانت أو مجتمعا ـ فنتيجة **لانتمائها** لأى نمط من النمطين الأساسيين «رئيسية طبيعية فى مقابل تحكمية عقلية»، يبرز نوع من **التعاطف** بين أفرادها الأمر الذى يجعلهم يشعرون بأن لتلك العلاقة **قيمة** فى حد ذاتها، وقد تنشأ الجماعة الاجتماعية كوسيلة **لتحقيق** أهداف متفق عليها(*).

مفهوم تونيس عن الجماعة المحلية والمجتمع:

لم يضيِّق تونيس أو يقصر **مفهومه** عن الجماعة المحلية أو المجتمع على ظاهرة التجمع الإنسانى فقط، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما **فسر** على أساسها التطورات المختلفة لمراحل نمو المجتمعات البشرية، وانطلق تونيس من **فرض** مؤداه أن المجتمع يظهر إلى الوجود **عندما** ينفصل الأشخاص وتتحرر الخدمات من إطار الجماعة المحلية.

* * *

خصائص المجتمعات وطبيعتها:

حدد تونيس وبوضوح **خصائص** كلٍّ من المجتمع المحلى Community والمجتمع العام Society وجعلهما على طرفى **نقيض** حيث نجد أن:

١ ـ المجتمع **العام** حقيقة عامة، بينما المجتمع **المحلى** وحدة محدودة النطاق.

٢ ـ بينما يخضع المجتمع العام لسيطرة القانون وتبرز فيه **الروابط** التعاقدية وتنمو فيه الطبقية، نجد **المجتمع** المحلى يسيره **مزيج** من سلطة الدين والعادات والأعراف والتقاليد.

٣ ـ العواطف والمشاعر والمشاركات **الجمعية** لها الغلبة فى المجتمعات المحلية، بينما لا سلطان فى المجتمع العام لغير المصلحة **الخاصة** والمنفعة، ومن هنا يبرز دور التنافس والصراع والانتهازية.

٤ ـ أساس وحدة المجتمع المحلى هو **الأسرة**، بينما تلعب **الجماعة** الدور الأساسى فى المجتمع العام بتنوعها واختلاف **مظاهر** نشاطها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والدينى والثقافى.. إلخ(٢).

(*) معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مصدر سابق ـ ص ص ٧٨ـ٨٠.





ويرى تونيس أن تيار التطور **الحديث** قد جذب معه الكثير من مظاهر **الحياة** فى المجتمعات المحلية، فهو - أى تيار التطور الحديث - **قد حد** من شوكة العصبية الدينية والقبلية، **وقلل** من أهميـة كثيـر من الروابط المحلية إن لم يكن قـد قضى عليها نهائيا.

كما أرجع تونيس الفضل كله إلى **التطور** الذى مكن الأفراد والجماعات من الانتقال من **دائرة** المجتمعات المحلية الضيقة إلى مـجال الحياة الاجتماعية الأرحب والأعم.

* * *

عدم سعادة تونيس بما انتهى إليه من حقائق:

والغريب أن **تونيس** لم يكن سعيدا باكـتشافه هذا.. بل مال إلى **التشاؤم** لأن الإنسـانية فى رأيه سـوف **تتعذب** نتيـجة انتقـالها من بؤرة الجمـاعة إلى دائرة المجتمع، وأن عذاب الإنسانية سوف يتمثل فى **تأخرها** وتقهقرها.

* * *

التصنيف الذى وضعه تونيس للمعايير الاجتماعية

قدم تونيس **لأول** مرة تصنيفا مبتكرا ومميزا للمعاييـر الاجتماعية، وقسمها - إلى جانـب القانون - إلى قـواعد **أخلاقية** واتفاق وأعراف ومواضـعات، ويفسر تونيس هذه المعايير حيث **يرى** أن:

١ - **القانون..** يتألف من **المعايير** الاجتماعيـة التى يتعين على المحاكم أن تطبقها.

٢ - **القواعد الأخلاقية..** هى تلك **القواعد..** التى تنطوى على معانى معينة يجب أن تطبق بواسطة قاضٍ مثالى.

٣ - **الاتفاق..** يتكون مـن تلك **القواعد** التى تعتمد علـى علاقات تنتمى إلى نموذج الجماعة المحلية **وتعتبرها** علاقات ضرورية أو طبيعية.

٤ - **الأعراف..** هى قواعد لها **جذور** فى العادات الجمعية.

٥ - **أما المواضـعات..** فتعـتمد على **اتفاق** ضـمنى أو صريح يأخـذ فى اعتباره الأهداف المشتركة، وتكون **القواعد** المحددة هى أفضل الوسائل لتحقيقها(*).

* * *

(*) انظر - دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص ٧٥-٨٠. وانظر كذلك كتابنا النظريات فى علم الاجتماع - مصدر سابق - ص ص ١٤٠-١٥٥.

المصادر

١ ـ تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ١٥٩ .

٢ ـ انظر :

Toennis, Gemeinschaft and Geselischaft; 1913 (Tr; By, Ch. Lommis) As Fundamental Concepts of Sociology, N.A, 1940.

وانظر أيضا :

(أ) دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٨٢ .

(ب) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

(جـ) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع البدوى ـ مرجع سابق.

(د) دكتور صلاح الفوال ـ دراسة علم الاجتماع البدوى ـ مكتبة غريب ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

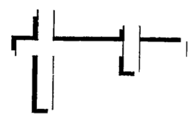
(هـ) دكتور صلاح الفوال ـ البناء الاجتماعى للمجتمعات البدوية ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ .

(و) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

(ز) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع . . المفهوم والموضوع والمنهج ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

(ح) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ .

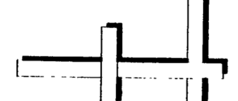
* * *



الفصل التاسع عشر

دوركايم مؤسس علم الاجتماع التحليلي

* مقدمة .
* مكانة دوركايم فى النظرية السوسيولوجية.
* تحديد مفهوم وخصائص الظواهر الاجتماعية
* مفهوم الضمير الجمعى
* تقسيم العمل وتأثيراته على البناء الاجتماعى
* دراسة ظاهرة الانتحار
* مسيرة تطور المجتمعات
* علوم الاجتماع الخاصة
* أهمية العلاقات واعتبارها وحدة التحليل السوسيولوجى
* تحديد هوية علم الاجتماع
* التفسير السوسيولوجى للدين
* منهج البحث السوسيولوجى عند دوركايم
* النقد الموجه لدوركايم



مقدمة:

صحيح أن دعوة سبنسر(*) حتى يقوم علم الاجتماع بدور **واقعى** فى دراسة المجتمع قد حصرت موضوعات الدراسة فيه على عدد محدود من المسائل، إلا أن دوركايم Emil Durkheim(**) عاد بعد ذلك وأعلن صراحة أنه **يعارض** كل تلك الاتجاهات، واعتبر أن **الظواهر** الاجتماعية هى موضوع الدراسة فى علم الاجتماع، كما **كان** من رأيه أن «تمييز علم الاجتماع وتحديد موضوعه يتوقف على تحديد معنى الظواهر».

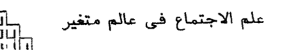
واتفق دوركايم مع سبنسر فى اعتبار المجتمعات هى **وحدات** التحليل السوسيولوجى واعتبر بناءً على ذلك أن علم **الاجتماع** هو «علم دراسة المجتمعات»، مع **تأكيده** على **الاهتمام** بالدراسات المقارنة التى لم يعتبرها فقط لب علم الاجتماع، بل وطالب بأن **يتوافر** عليها «علم الاجتماع المقارن» الذى لم يعتبره دوركايم مجرد فرع من فروع علم الاجتماع بل هو **عنده** «علم الاجتماع **ذاته**».

كما طالب دوركايم علم **الاجتماع** بأن يتخلى عن دعواه الأولى بضرورة الدراسة **الشاملة** للواقع الاجتماعى ككل، وأكد على أن يقوم علم الاجتماع بالتمييز بين المزيد من الأجزاء والعناصر والجوانب التى **يمكن** أن تكون موضوعا للدراسة من طرف علم الاجتماع.

ومن هذا **المنطق** قام دوركايم خلال تخطيطه لموضوعات المجلة السوسيولوجية السنوية التى **صدرت** عام ١٨٩٦، بتقسيم فروع علم الاجتماع

(*) انظر الباب الرابع ـ الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب لتأخذ فكرة أوضح عن إسهامات سبنسر السوسيولوجية.

(**) عاش دوركايم فى الفترة من ١٨٥٨ إلى ١٩١٧.




بالشكل الذى **يتصوره** مبتدئا بعلم الاجتماع العام، والدينى، والقانونى، والأخلاقى، والجنائى، والاقتصادى، والديموجرافى، **وأخيرا** علم الاجتماع الجمالى.

كما ضمَّن دوركايم بعض تلك **الفروع** الخاصة لعلم الاجتماع عددا من الموضوعات كالشخصية والتنظيمات سواء الاجتماعية منها أو السياسية، **علاوة** على موضوعات الزواج والأسرة **والمجتمعات** الريفية والحضرية، والجماعات المهنية، فضلا عن **قياسات** القيم(*).

* * *

مكانة دوركايم فى النظرية السوسيولوجية :

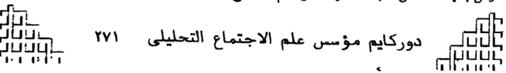
هناك ما يشبه **الإجماع** بين علماء الاجتماع **على** أن إميل دوركايم يمثل اتجاها متميزا ومؤثرا فى النظرية السوسيولوجية، ليس فى **فرنسا** وحدها وإنما على امتداد **العالم** كله الأمر الذى يجعل محاولتنا لإلقاء الضوء على إسهامات دوركايم السوسيولوجية أمرا **بالغ** الصعوبة والتعقيد، ولعل **منشأ** ذلك التعقيد وتلك الصعوبة لا تعود إلى **قلة** ما كتب إميل دوركايم أو ما كُتب عنه، **ولكنها** تعود بالدرجة الأولى إلى **الكثرة**.. سواء فيما كتب دوركايم نفسه أو فيما كُتب عنه وعن إسهاماته وبالعديد من **اللغات**: الفرنسية، والإنجليزية، والعربية، وغيرها(**).

* * *

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على المصادر الآتية:
أ ـ دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مصدر سابق
ب ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق.
جـ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج ـ مرجع سابق.

(**) انظر بالعربية على سبيل المثال:
ـ دكتور أحمد الخشاب، دكتور محمد طلعت عيسى ـ علم الاجتماع أصوله ومناهجه ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٩٢ ـ ٢٥٠.
ـ دكتور محمد عاطف غيث ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٦ ـ ٥٥.
ـ دوركايم ـ قواعد المنهج فى علم الاجتماع ـ ترجمة دكتور محمود قاسم ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦١.
دكتور صلاح الفوال ـ البداوة العربية والتنمية ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٧.
وانظر بالإنجليزية على سبيل المثال أيضا:
- Emil Durkheim, Suicide, tranclated by Gorge Shmposon, London, 1952.
- Nic0las. S. Timashiff, Sociological Theory; New york, 1955 and 1967.
- Gorges Gurvitch, Essays in Sociology, 1936. and the Vocation of Sociology, 1950.
- A. Alpert, Emile Durkheim and his Sociology, 1939.

أما باللغة الفرنسية فتوجد المئات من الكتب والدراسات والمقالات والأبحاث علاوة على العديد من الرسائل العلمية لنيل دكتوراه الدرجة الثالثة أو دكتوراه الدولة، انظر تفصيلا لهذه المؤلفات التى كتبت عن دوركايم وعن إسهاماته ضمن كتابنا ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ السابق الإشارة إليه.



إسهامات دوركايم السوسيولوجية :

* وعلى كل حال فإننا سنحاول **إبراز** أهم إسهامات دوركايم السوسيولوجية من خلال النقاط الآتية:

أولا: عارض دوركايم النزعة الذاتية فى **التفسير** التى كانت سائدة فى عصره، عندما قرر أن أى **تفسير** للظواهر الاجتماعية لا يجب أن يتم على ضوء رغبات الباحث و**حالاته** الشعورية والنفسية، وإنما **يجب** أن نفسر هذه الظواهر على اعتبار أن لها طبيعة **موضوعية** خاصة بها، أو على حد تعبير دوركايم نفسه «إننا يجب أن **نعالج** الظواهر الاجتماعية على اعتبار أنها **أشياء** أو باعتبارها ظواهر شيئية Comme des choses»[(1)].

ولا يقلل من قيمة ما قرره دوركايم **غموض** عبارة «أشياء» لدى الكثيرين من علماء الاجتماع وباحثيه **واتهامهم** إياه بأن نظرياته السوسيولوجية إنما **تقوم** على مجموعة قليلة من نتائج «الحدس السوسيولوجى..»[(2)].

ثانيا: طالب دوركايم بضرورة تحديد **مفهوم** دقيق لمعنى الظواهر الاجتماعية، ويرى دوركايم أن ذلك **التحديد** ضرورى لأنه يحقق هدفين:

(أ) تحديد **الطريقة** المناسبة لدراسة تلك الظواهر الاجتماعية.

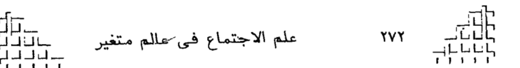
(ب) تحديد موضوع علم الاجتماع و**تمييزه** عن غيره من العلوم.

ويقول دوركايم بهذا **الخصوص**: «إنه يجب علينا أن نعلم قبل البدء فى البحث عن الطريقة التى تتناسب مع دراسة الظواهر الاجتماعية - **يجب** علينا أن نعلم حقيقة تلك الظواهر التى **يطلق** عليها الناس هذا الاسم»[(3)].

ويضيف دوركايم «كما أن تمييز علم الاجتماع و**تحديد** موضوعه يتوقف على تحديد معنى الظواهر»[(4)].

ثالثا: حدد دوركايم **خصائص** الظواهر الاجتماعية من خلال كتابه «قواعد المنهج فى علم الاجتماع»[(*)] على اعتبار أنها «ظواهر عامة تميز مجتمعا بأسره، وتتميز من جهة أخرى **بممارستها** لقوة القهر على الأفراد، **وبعموميتها** فى الجماعة»[(5)].

(*) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٨٩٥، والطبعة الثانية عام ١٩٠١ وهو جزء من رسالة الدكتوراه الخاصة بدوركايم، كما عرف هذا الكتاب باسم «قواعد المنهج الاجتماعى Les Regles de la methade: Socioligique».



رابعا: عرف دوركايم الظاهرة الاجتماعية بناءً على **خصائصها** المشار إليها قبلا. وقال إنها «كل درب من السلوك ثابتا كان أم غير ثابت، يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجى على الأفراد» أو «هى كل سلوك يعم المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصورة التى يتشكل بها فى الحالات الفردية»(٦).

خامسا: ميز دوركايم بين خصائص **الظاهرة** الاجتماعية أو الحقيقة الاجتماعية، كما كان يحب أن يسميها، وبين غيرها من **الحقائق** من خلال أن الظاهرة الاجتماعية:

(أ) **تلقائية،** بمعنى أن الظواهر **الاجتماعية** لا تدين بوجودها لفرد لأنها موجودة قبل أن يوجد الأفراد.

(ب) **جبرية،** بمعنى أنها ملزمة للأفراد والجماعات على السواء، وعلى كل من يحاول **الخروج** على طبيعة الحياة فى المجتمع بما فيه من نظم أو ظواهر عامة عليه ـ فردا كان أو جماعة ـ أن يتحمل **الجزاء** الذى وضعه المجتمع لكل من يخرج على نظمه وقيمه.

(جـ) **عامة،** بمعنى أن الظواهر الاجتماعية لا توجد فى مكان دون الآخر، وإلا فقدت خاصيتها **كحقيقة** عامة وخرجت عن نطاق اهتمامات علم الاجتماع.

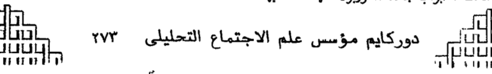
(د) **خارجية Extériorité،** بمعنى أنها مستقلة ـ بخواصها السابقة ـ عن الأفراد، بحيث يمكن ملاحظتها كأشياء Comme des Choses **منفصلة** عن الحياة الفردية، ويمكن بالتالى دراستها دراسة **موضوعية** إذا ما اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الإحصائى(*)(٧).

كما حدد دوركايم **وظيفة** النظم على اعتبار أنها ـ أى النظم ـ تقوم «بإشباع حاجات الكائن الحى».

سادسا: تعرض دوركايم لموضوع **التضامن** الاجتماعى من خلال كتابه «تقسيم العمل الاجتماعى» الذى ظهر عام ١٨٩٣(**)، حيث لاحظ عندما قارن

(*) مع أن الظواهر الاجتماعية ليست نتاجا للإرادة الإنسانية الفردية، إلا أنه يوجد قدر من التداخل والتساند بين الظواهر الفردية وظواهر الحياة الجمعية، وبرغم أنهما ليسا شيئا واحدا، فقد نجد ظواهر اجتماعية لها خصائص متميزة عن خصائص الأفراد أعضاء المجتمع وخارجة عنهم، وهذا هو الذى يجعل تلك الظواهر مختلفة نوعيا عن الظواهر السلوكية وتمثل دراستها مستوى مختلفا من التحليل، للاستزادة حول هذا الموضوع انظر تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الأولى ص ٧٨.

(**) وهو نفس الموضوع الذى تقدم به دوركايم إلى جامعة السوربون بفرنسا عام ١٨٩٣ لنيل درجة دكتوراه الدولة، ولقد حقق الموضوع والكتاب الذى نشر فى نفس عام مناقشة الرسالة.. حقق لدوركايم شهرة واسعة فتحت له أبواب جامعة السوربون ذاتها كأستاذ بها.



بين المجتمعات القديـمة والمجتمعات الأكثر **تطورا**، أن الأولى **تتميز** بوجود نوع من التضامن **الآلى** Mechanical - Mécanique، أما الثانية فيسـود فيها التضامن العضوى Organic - Organique، ويعـتمد التـضامن الآلى عـلى **التماثل** بين أعضاء المجتمع، بينما يستمد التضامن العضوى أسسه من التباين(٨).

ومن هنا ـ كما يقول دوركـايم ـ كان الأفراد فى المجتمع **البدائى** متجانسين لأن **تقسيم** العمل هـناك يأخذ شكلا بسيـطا، والذى كان من نتيجـته أن ساد هذه المجتمعات الـبدائية **تضامن** آلى يخـضع خلاله جـميع أفراد المجـتمع لما تـفرضه **التقاليد** والرأى العام، كما تتسم **المسئولية** فيها بأنها جمعية، هذا علاوة على أن المكانة **تورث** ولا تكتسب.

وهذا على العكس من المجتمعات الإنسانية الأكثر **تحضرا** التى نما فيها تقسيم العمل وتطور حيث يسـود فيها التضامن **العضوى**، أى ذلك التضامـن الناشئ عن حاجة كـل واحد فى المجتمع إلـى خدمات الآخر، ومن هـنا كانت سيادة الـفردية شيئا **طبيعيا** سواء من حيث المسئولية أو الجزاء، كما تمـيزت المكانة الاجتماعية بأنها تكتسب ولا تورث، كما يخضع الناس **للقانون** العام.

سابعا: تحدث دوركايم عن **الضمير** الجمعى(*) La Conscience Collective عندما لاحظ أنه إذا ما ساد الـتضامن الآلى فى المجتمع فإن الضمير الجـمعى يتميز بالضرورة **بقوة** ملحوظة، ويعرف دوركـايم الضمير **الجمعى** بأنه «المجموع الكلى للـمعتـقدات والعـواطف العـامة بين مـعظم أعـضاء المجتـمع»وتلـك المعتـقدات والعواطف العامة تشكل **نسقا** له طابع متـميز، ويكتسب هذا الضمـير الجمعى أو العام واقعا ملموسا، فهو **يتمتع** بالدوام والاستمرار **ويعمل** على تدعيم الروابط بين الأجيال.

ويؤكد دوركايم على أن الضمير الجمعى **يعيش** بين الأفراد ويتخلل حياتهم، إلا أنه يكتسب مزيدا من القوة والتأثـير والاستقلال حينما يتحقق **نوع** من التماثل الواضح بـين أفراد المجتـمع، ذلك **لأن الضمير** الجمعـى ما هو إلا نتـاج لذلك

(*) قد يترجم البعض مصطلح: "La conscience Collective" على اعتبار أنه العقـل الجماعى، ونعتقد أن ترجمتنا هى الأصح.



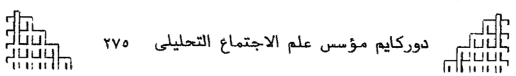
التماثل الإنسانى العام، ويرى تيماشيف Timacheff أن هذا هو **الموقف** السائد فى المجتمعات **التقليدية** التى تتميز بالتضامن الآلى: حيث يسيطر هذا الضمير - الجمعى أو العام - على **عقول** الأفراد وأخلاقياتهم(٩).

ثامنا: عاد دوركايم وقدم **تصورا** جديدا للضمير الجمعى خلال كتابه «قواعد **المنهج** فى علم الاجتماع The Rules of Sociolgical - De la merhode dans les scioces»(*) المشار إليه قبلا، عندما أكد دوركايم أن الضمير الجمعى **يتكون** عندما ينشأ عن تجمع عقول الأفراد والتحامهم، نوع واحد من **الوحدة** السيكولوجية المتميزة عن الأفراد ذاتهم، وهذا **النتاج** الجمعى ليس هو مجموع الأجزاء، ذلك لأن الجماعة تمارس **أنماطا** من التفكير والشعور والسلوك مختلفة تماما عن الأفراد الذين يكونونها، وهذا هو الذى يجعل من الضرورى - كما يقول تيماشيف - أن يبدأ تحليل سلوك الجماعة **بدراسة** ظواهر جمعية بدلا من دراسة الأفراد.

واعتبر تيماشيف Timasheff أن ذلك التصور **الجديد** الذى أورده إميل دوركايم للضمير الجمعى، اعتبره **تعديلا** جزئيا للموقف الذى سبق أن تبناه دوركايم خلال كتابه «تقسيم العمل الاجتماعى»، حيث ذهب دوركايم خلال كتاب «تقسيم العمل الاجتماعى» إلى أن الضمير **الجمعى** يتألف من التصورات والعواطف الشائعة بين الأفراد الذين يكونون غالبية أعضاء الجماعة، أما فى كتاب دوركايم «قواعد المنهج» فإننا نجد أن **التماثل** العقلى والعاطفى بين غالبية الأعضاء مستمد من الضغط الذى يمارسه الضمير الجمعى على كل منهم(١٠).

تاسعا: بيّن دوركايم كيفية **ظهور** تقسيم العمل De la Division du Travall Social فى المجتمعات الإنسانية وأرجعه إلى **التغيرات** التى تحدث فى البناء الاجتماعى نتيجة للزيادة فى الكثافة السكانية، حيث تؤدى **الزيادة** المستمرة فى السكان إلى زيادة التنافس، ومن ثم يضطر أفراد المجتمع إلى التخصص من أجل أن يعيشوا(١١).

(*) وكان دوركايم قد كتب قبل هذا بالاشتراك مع عدد من علماء العلوم الاجتماعية الأخرى كتابا اسمه «المنهج فى العلوم».



عاشرا: أقام دوركايم خلال كتابه «تقسيم العمل الاجتماعى» مجموعة من الارتباطات بين **كل** من تقسيم العمل والتضامن العضوى والضمير الجمعى والقهر الاجتماعى، **وعلاقة** ذلك بالأخلاقيات والقيم، علاوة على **انعكاسات** ذلك كله سواء على المجتمع أو على العقلية الإنسانية، فقد أوضح دوركايم أن **نمو** تقسيم العمل فى المجتمع يصاحبه بالضرورة **ظهور** التضامن العضوى بما يترتب على ذلك التضامن العضوى من **تباين** بين الأفراد وظهور نوع من **التساند** المتبادل بين أفراد المجتمع بما يصاحب ذلك التساند من **انعكاسات** على العقلية الإنسانية والأخلاقيات.

وأبرز دوركايم أنه كلما **ازداد** التضامن العضوى رسوخا فى أى مجتمع قلل ذلك من **أهمية** الضمير الجمعى، أما كيف يزداد التضامن العضوى رسوخا فى المجتمع فإن ذلك **مرتبط** بالضرورة - كما يقول دوركايم - بازدياد تقدم المجتمعات وتدعيمها للتقدم الأخلاقى الذى **يؤكد** القيم العليا للمساواة والإخاء والعدالة والحرية(*).

وإذا ما تأكدت تلك القيم فإنه يصبح **للتعاقد** قيمة عالية، وإن كان دوركايم يشير إلى أن تلك التعاقدات لاتؤدى بالضرورة إلى **إلغاء** القهر الاجتماعى لأنه حتى فى المجتمعات المتقدمة التى تعتمد على التضامن العضوى فإنه يظل **للقهر** الاجتماعى دوره الأساسى مع اختلاف صور وأساليب ذلك القهر فى المجتمعات المتخلفة، حيث يتخذ القهر الاجتماعى صورا أخرى **تتناسب** والتطور الاجتماعى الذى أصاب مجتمعات التضامن العضوى[١٢].

حادى عشر: استخدم دوركايم التحليل **الإحصائى** خلال دراسته المنوجرافية الواسعة عن **الانتحار** التى أجراها فى أسبانيا عام ١٨٩٧ "Le Suicde, Etude Sociologique"، والتى اعتبرها كثير من العلماء **عرضا** لنظريته فى القهر الاجتماعى علاوة على ما فيها من **توثيق** لتصوراته عن الضمير الجمعى، كما يعتبر استخدام دوركايم **لمنهج** التحليل الإحصائى إضافة حقيقية لإسهاماته السوسيولوجية، حيث استخدم دوركايم منهج **التحليل** الإحصائى لينتقد من جهة

(*) واضح أن تلك القيم هى قيم ومبادئ الثورة الفرنسية، انظر:
Durkheim, De la Divisoin du Travail, Social, Paris, 1893 et 1926. p.p.50-87.





النظريات السابقة التى **فسرت** تباين معدلات الانتحار على أسس سيكولوجيةأو بيولوجية أو تطورية أو مناخية أو جغرافية، كما **نجح** دوركايم من جهة أخرى فى تدعيم **تفسيراته** النظرية السوسيولوجية بشواهد واقعية ملائمة[١٣].

ثانى عشر: إذا ما تجاوزنا **المنهج** فى دراسة دوركايم للانتحار Le Suicide[*] وانتقلنا إلى **نتائج** تلك الدراسة، تبين لنا أن دوركايم قد انتهى إلى أن ظاهرة الانتحار إنما تعود إلى **أسباب** أخرى غير الجنس أو الوراثة أو التقليد أو إلى عوامل مرضية ـ جسمية أو نفسية أو كليهما معا ـ كما لا يمكن أن **تعود** إلى الفشل فى الحب أو الفقر أو إلى **تأثيرات** العوامل الجغرافية والبيئية أو حتى إلى دوافع شخصية، وإنما طبقا لتحليلات دوركايم الإحصائية تتجمع **أسباب** ظاهرة الانتحار فى ثلاثة **أشكال** أساسية نوجزها فيما يلى:

(أ) الإحساس بالفردية:

ويرى دوركايم أن الفرد يحس بذلك **الشعور** عندما يجد نفسه معزولا اجتماعيا لانعدام الروابط **وفقدان** الصلة التى تربطه بالجماعة.

وأوضحت **التحليلات** الإحصائية التى قام بها دوركايم **لهذا** الشكل أن الروابط الأسرية تجعل المتزوجين أقل عزلة، وبالتالى **يقل** إحساسهم بالفردية وتنخفض بينهم **نسبة** الانتحار، كما اتضح لدوركايم أن نسبة **الانتحار** بين الكاثوليك **أقل** منها عند البروتستانت، وبالتالى **عند** البروتستانت يكون معدل الانتحار أقل من معدله عند الذين لايؤمنون بدين معين[١٤].

(ب) الإحساس بالتضحية أو الإيثار:

ويأتى ذلك نتيجة **الإفراط** فى الإحساس بالواجب من قبل الأفراد تجاه المجتمع، الأمر الذى يدفع الفرد لأن **يضحى** بذاته فى سبيل مجتمعه عندما يتيقن أن ذلك هو الواجب.

ولكن الفرد قد يلجأ إلى الانتحار **كنوع** من الإحساس بالذنب عندما يأتى عملا أو يسلك سلوكا ما.. اعتبر ـ سواء بواسطة الفرد ذاته أو المجتمع ـ **مشينا**

(*) انظر الدراسة نفسها فى:
Durkheim, Le Suicide Etude Sociologiqu, Paris, 1897. «دراسة اجتماعية عن الانتحار»

للمجموع. . وضرب دوركايم مثلا لهذا النوع الأخير بانتحار **القائد** الحربى عندما يخسر معركة ما[١٥].

(جـ) انتحار لأسباب مجتمعية:

ومن أمثلتهـا التغير المفاجئ أو غير المنـتظم الذى يؤدى إلى **اختلال** التوازن الاجتماعـى للمجتمع كـكل. . ومن أمثلتـها ظهور **الأزمات** الاقتصاديـة. . التى تؤدى إلى **عدم** الإحسـاس بالأمان. . أو بـعدم **قيمة** الحيـاة. . أو فقدان الحـافز للاستمرار فيها. . فيكون الانتحـار ـ من وجهة نظر الباحث «دوركايم» هو **أحسن** الوسائل للتخلص من تلك المآزق المجتمعية.

ويخلص دوركـايم إلى **تأكيد** ما سـبق أن قاله عـن أن الانتحار لا يـحدث **لأسباب** سيكولوجية أو بيولوجية أو بـيئية، وإنما يتأثر منحنى **الانتحار** بالأسباب والعوامـل الاجتماعيـة فقط، وعلـى الأخص ذلك **الضمير** الجمعى الـذى يدفع الأفراد إلى قـتل أنفسهم، وأكـد دوركايم أن **أسباب** الانتحار فى المجـتمع سوف تبقى اجتماعية-حتى وإن **بدت** دوافعها نابعة عن **مزاج** فردى(*).

ثالث عشر: قـسم دوركـايـم **المجتمعات** خلال تـطورهـا إلى قـسمـين رئيسيين، أولهما **بسيط** محدود النطاق، وثـانيهما **معقد** التركيب واسـع النطاق، أولهما لايخـضع لمبدأ **تقسيم** العـمل والوظـائف فيـه غير مميزة **والمسئولية** فيه جماعية تضـطلع خلالها **هيئة** المجتمع بكـل شئون الاقتصاد والتشريـع والسياسة والتربيـة وغير ذلك من مسـتلزمات **الحياة** الاجتماعـية، أما القسم الثـانى. . فهو **العكس** تماما، حيث تـتضح فيه وظيفة ومسئـولية وعمل **كل** فرد، وتقـوم خلاله العديـد من المؤسسات المـتخصصـة التى **تمارس** دورا مـحدودا إلـى جـوار **بروز** دور الطبقات الاجتماعية وسيادة القانون.

(*) عرض هومنز بناء نظرية دوركايم عن الانتحار على النحو التالى:

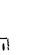
١ ـ يختلف معدل الانتحار مباشرة فى أى تجمع اجتماعى وفقا لدرجة انتشار الفردية أو ما يعرف بالنزعة الذاتية.

٢ ـ تختلف درجة الفردية تبعا لانتشار العقيدة البروتستانتية.

٣ ـ إذن، يختلف معدل الانتحار تبعا لانتشار العقيدة البروتستانتية.

٤ ـ معدل انتشار العقيدة البروتستانتية فى أسبانيا منخفض.

٥ ـ إذن، معدل الانتحار فى أسبانيا منخفض كذلك.



ويرى دوركايم أن **أبسط** الأشكال الاجتماعية هـو الأسبق **إلى الوجود**، كما أنه أقام **ثنائية** للتفريق بين نموذجين مـن المجتمعات: أولهما المجتمع **الانقسامى** Segmental، وثانيهما المجتمع **المتباين** Differentiated، ويتسم المجـتمع الأول **بالتجانس** لأن مستوى تقسيم العمل فيه فـضلا عن ضعفه، فإنه لا يتيح لأى من أعضائه فرصة للـتميز، لذلك فإن **التميز** فى المجتـمع الانقسامى إنما يقتـصر على العمر والجنـس فقط، كما ينقسم الـنمط الأول من المجتمعات ـ الانـقسامى ـ إلى وحدات قرابية متماثلة من الناحية البنائية، كما أن **التكامل** فى هذا النموذج يرتكز على التضامن الآلى أو الميكانيكى Mechanical Solidarity، كما أن الفرد ليس له **كيان** مستقل ولا شخصية متميزة عن الجماعة التى **يستمد** منها كل مقوماته، كما يسود فى هذا المجتمع قانون عقابى رادع.

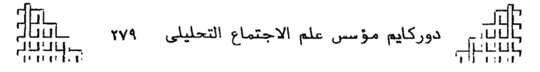
أما المجتـمع **المتباين** فهـو مجتـمع على درجـة عاليـة من **التخصص** فى الأدوار، وتبرز فيه الفروق الفردية، ويرتكز على **التعاقد** الحر الذى يدعمه قانون مدنى يـحافظ على استـمراره، كما أن هذا المجتـمع يتكامل ـ فـى رأى دوركايم ـ نتيجة للتضامن العضوى(١٦).

ومـن رأى **بوتومور** أن دوركـايـم قـد **ميز** بين مـجتمعـات بسيطـة «مثل العشيرة» ومجتمعات **انقسامية** متعددة «مثل قبائل الأيوركا» ومـجتمعات انقسامية معقدة «مثـل اتحاد قبائل الأيوركا» ومجتمـعات متعددة معقدة «مثل المـدن القديمة والقبائل الجـرمانية»، كما يرى بوتـومور أن دوركايم فى **تصنيفه للمجتمعات** لم يذهب إلى أبعد من هذا الحد(١٧).

رابع عشر: هذا ومن رأى عـدد غير **قليل** من علماء الاجـتماع ـ ونحن معهم ـ أن دوركايم من خلال **دراسته** عن المجتمعات الإنسانية. . **إنما قدم نظرية** ـ رغم مـا وجه إليهـا من **انتقادات** ـ تستـحق الإشادة والاهتمام، وستـحدث فى عجالة عن «نظرية **تصنيف** المجتمع» عند دوركايم على النحو التالى(*).

١ـ لم **يقتنع** دوركايم بالأسباب التى فسر على أساسها من **سبقه أو** عاصره من الفلاسفة والعلماء. . ففلاسفة **التعامد** نظروا للمجتمع باعتباره جهازا صناعيا

(*) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مصدر سابق ـ ص ص ٢٠١ـ٢٠٥.



تعـمد أعـضاؤه قيـامه أو تـأسيـسه **بالإرادة** القـصـدية، بينمـا زعـم التطوريون والبيـولوجيون أنه ينشأ وفـقا **للقوانين** البيـولوجيـة والحاجات الحـيوية، إلا أن **النفسيين** يرون أن التقليـد الذى ينغمس فيه الأفراد الذين هم أقـل إمكانية وذكاءً لمحاكاة من هم أكثر منهم ذكاءً ووضعية فى المجتمع . . !!

٢ـ رغم صعوبة **عملية** تحديد النماذج أو الأشكال الاجتماعية . . فضلا عن عدم إمكانية تحقيق تصنيف جـامع مانع . . ورغم اعتراف دوركايم بذلك . . إلا أنه نجـح فى وضـع **مجموعة** من الأسس التى ترتكـز عليهـا عـمليـة **التصنيف** . . والأساس المحورى فى تصنيف المجتمعات هن «درجة التركيب».

٣ـ انتهى دوركايم إلى أن **تقسيم** المجتمعات يتمثل فى:

أ ـ مجتمعات **محدودة** النطاق . . من أهم خصائصها البساطة والسذاجة وعدم **التعقيد**، وخاصة فيما يتصل بتمايز الوظائف وتوزيع العمل، وأمـثلة ذلك النموذج هى المعشر Morde، والعشيرة Clan، والاتحاد Phratrie، ثم القبيلة Tribu.

وهذه المجتـمعات ـ حتى فى أكـبر أشكالها حـجما وهى القـبيلة ـ لا يمكن **تجزئتها** . . لعدم وضوح تقسيم العمل بها، ويرى دوركايم كذلك أن **الدين** يشكل أقوى مظاهر الحياة الجمعية، ومن ثم فإن الدين يكاد يكون هو المسئول الوحيد عن تشكيل معظم نشاطات تلك الأشكال الاجتماعية، وإلى جوار الدين هناك **السلطة** المرتبطة بسيادة العادات والتقاليد والأعراف.

ب ـ مجتمعات **واسعة** النطاق . . وهى على العكس تماما من سابقتها، وأهم ما تتميز به **تعقد** التركيب والتمايز الواضح فى الوظائف وتوزيع العمل، فضلا عن زيادة التخصص، وأن **القانون** هو المسيطر على عـلاقات الأفراد وسلوكـياتهم . . فـضـلا عـن بروز دور وقـوة **التعاقدات** القانـونية، وخضـوع جمـيع الأشكال الاجتماعية لها.

خامس عشر: أشـار دوركـايم فى **أكثر** من مـوضع وأكثـر من مـؤلف وخـصـوصا خـلال الأعـداد **الأولى** للمـجلة السوسـيولـوجيـة السنوية المسمـاة بـL'Anneé Sociologique إلى مـا كـان يطلـق عليـه الـفـروع **الخاصـة** لعـلم الاجتماع، مع تأكيد دوركايم المستمر على **ضرورة** تنمية وازدهار تلك الفروع على

نطاق واسع، بل وذهب دوركايم إلى حدٍّ بعيد عندما ربط بين **مستقبل** علم الاجتماع وبين نمو وتقدم تلك الفروع الخاصة.. حيث قال إن علم الاجتماع لن يصبح في مقدوره أن يكون علما إلا إذا انتهج طريقين:

أولهما.. أن يتخلى علم الاجتماع عن **دعواه** الأولى بضرورة الدراسة الشاملة للواقع الاجتماعي ككل.

وثانيهما.. أن **يميز** علم الاجتماع بين المزيد من الأجزاء والعناصر والجوانب التي يمكن أن تكون موضوعا لمشكلات معينة.

وتظل **رؤية** دوركايم بهذا الخصوص على **أصالتها** لو طالعنا التخطيط العام للمجلة السوسيولوجية السنوية التي صدرت عام ١٨٩٦ L'Annee Sociolo-gique، حيث **تضمنت** هذه المجلة سبعة **أقسام** رئيسية يندرج تحت كل قسم منها عدد من الأقسام الفرعية، وذلك على النحو التالي:

١ - **علم الاجتماع العام Sociologie Générale**. ويندرج تحته قسم عن **الشخصية** سواء عند الفرد أو الجماعة.

٢ - **علم الاجتماع الديني Sociologie Religieuse**.

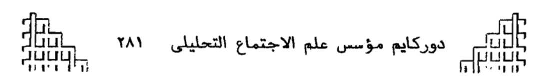
٣ - **علم الاجتماع القانوني Sociologie Juridique وعلم الاجتماع الأخلاقي Sociologie Morale**، ويشتملان على جانب من التنظيم السياسي، فضلا عن التنظيم الاجتماعي، والزواج والأسرة.

٤ - **علم الاجتماع الجمالي Sociologie Esthéitque**.

٥ - **علم الاجتماع الاقتصادي Sociologie Econemique** ويتضمن قياس القيمة، والجماعات المهنية.

٦ - **علم الاجتماع الديموجرافي Sociologie Démographie**، ويندرج تحتها قسما المجتمعات الحضرية والريفية.

٧ - **علم الاجتماع اللغوي Sociologie Linguistique**، أو علم اجتماع اللغة.



وقد أفصح دوركايم عن هذا الاتجاه **صراحة** مرة أخرى عندما كتب يقول: «إن علم الاجتماع كغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، له من الفروع بنفس القدر الذى يساوى **التنوعات** الموجودة فى الظواهر الاجتماعية»[١٨][*].

وهذه **التعددية** فى اهتمامات **وتقسيمات** علم الاجتماع ليست غريبة فى رأى دوركايم «لأن علم الاجتماع أو علم الوظائف الاجتماعية Physiologie Sociale»، كما سمّاه دوركايم - علم **بالغ** التعقيد أو هو علم تركيبى Synthérque ويجب أن يحتوى على عدد غير قليل من علوم الاجتماع **الخاصة** لمواجهة دراسة الظواهر الاجتماعية ذات الطبيعة **الفسيولوجية** المتشابكة والمتفاعلة.

سادس عشر: أبرز دوركايم **الأهمية** البالغة للتحديد الدقيق للعلاقات المتبادلة سواء بين **النظم** الاجتماعية بعضها والبعض أو بين تلك النظم وبين البيئة الموجودة فيها، كما أكد دوركايم على **وجود** أوثق العلاقات بين مختلف الظواهر الاجتماعية حتى **تلك** التى تبدو متباينة أشد **التباين** للوهلة الأولى.. لأن **الحقيقة** هى أن كل الظواهر لا توجد إلا فى حالة اعتماد تام ومتبادل مع بعضها البعض.

سابع عشر: كان دوركايم يرى أن **كل** ظاهرة اجتماعية لابد بالضرورة أن ترتبط **أولا** ببيئة اجتماعية معينة، **وثانيا** بنمط محدد من المجتمعات، لأن عدم حدوث ذلك - فى رأى دوركايم - إنما يعنى **ترك** الظواهر الاجتماعية معلقة فى فراغ، وضرب **أمثلة** على ذلك بظواهر الدين والقانون والاقتصاد والأفكار الأخلاقية[١٩].

ثامن عشر: أكد دوركايم - شأنه فى ذلك شأن **سبنسر** - على ضرورة اعتبار المجتمعات وحدات للتحليل السوسيولوجى، وحدد **هوية** علم الاجتماع بأنه «علم دراسة المجتمعات»، وطالب **بضرورة** القيام بدراسات مقارنة لمختلف أنماط المجتمعات، **واعتبر** دوركايم الدراسات المقارنة **لب** علم الاجتماع عندما كتب صراحة فى كتابه الشهير «قواعد المنهج» يقول: «إنه **لا** يمكن لنا أن **نفسر** أى ظاهرة اجتماعية مهما كانت **درجة** تعقيدها إلا عن طريق تتبع عملية التطور التى مرت بها تلك الظاهرة خلال مختلف **التكوينات** الاجتماعية».

(*) انظر. دكتور صلاح الفوال - النظريات فى علم الاجتماع - مرجع سابق - ص ص ٢٠٦-٢٠٧.

ومن هنا فإن علم الاجتماع **المقارن** لا يعتبره دوركايم مجرد فرع من فروع علم الاجتماع بل هو علم الاجتماع نفسه[٢].

تاسع عشر: قدم دوركايم **منهجا** خاصا للبحث السوسيولوجى، وارتكز هذا المنهج على شقين.. شق يتعلق **بالظاهرة** المبحوثة ذاتها.. والشق الآخر يتعلق **بالباحث** السوسيولوجى نفسه، ولقد شرح دوركايم فى **الشق** الأول كيفية التعامل مع الظاهرة المبحوثة، **وزود** فى الشق الثانى الباحثين الاجتماعيين بعدد من النصائح التى تعينهم أثناء دراساتهم السوسيولوجية المتعددة.

* وعلى كلٍّ يمكننا أن نورد **أفكار** دوركايم المنهجية على النحو الآتى:

(أ) زود دوركايم الباحثين الاجتماعيين بعدة **نصائح** أو قواعد من أهمها:

١ ـ أنه على الباحث أن **يتحرر** من أفكاره السابقة عن الظاهرة التى يتناولها بالدراسة والبحث، وعليه أيضا ألا يتأثر **بمشاعره** الخاصة أو تجربته الشخصية عند تعامله مع الظاهرة المبحوثة.

٢ ـ على الباحث الاجتماعى أن **يتعامل** مع الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء Choses ذات **كيان** مستقل عن شعوره الداخلى، وأن يعالجها معالجة وضعية باعتبارها ـ أى الظواهر ـ مادة **للتجربة** وللملاحظة العلمية، أو باعتبارها ذات شخصية علمية مستقلة.

٣ ـ على الباحث أن يبدأ بحثه **بتحديد** الظواهر المبحوثة **وتعريفها** بدقة، ولن يتيسر للباحث ذلك إلا إذا عمل على **تصنيف** الظواهر الاجتماعية محل الدراسة إلى **طوائف** متجانسة، لأن ذلك سوف يمكن الباحث من تحديد الخواص والخصائص المشتركة بين **مختلف** الظواهر موضوع البحث من جهة، وسوف يمكن الباحث من جهة أخرى من **التعرف** على مختلف العناصر والأسباب التى تفسر وجود الظاهرة **وتوضح** طبيعتها وأشكالها المتعددة.

٤ ـ على الباحث السوسيولوجى أن **يبذل** قصارى جهده أثناء ملاحظته للظواهر الاجتماعية محل الدراسة **للتعرف** على الحالات التى تبدو فيها الظاهرة مستقلة عن صورتها الفردية.. بمعنى أن يهتم الباحث **بعمومية** الظاهرة.. وألا

يقع فريسة لبعض الحالات الفردية.. التى قد **تتجسد** فيها الظاهرة، لأن جهد الباحث فى الكشف عن الظواهر الاجتماعية وهى مجردة من الصور الفردية يمثل الضمان للكشف عن **طبيعة** الظاهرة والوقوف على حقيقة أمرها.

(ب) أما فيما يتعلق **بكيفية** دراسة الظاهرة ذاتها فقد حدد دوركايم ثلاث خطوات رئيسية **نوجزها** فيما يلى:

١ - ضرورة **تحليل** مكونات الظاهرة المبحوثة، مع دراسة مختلف أشكالها وكيف نشأت، لأن ذلك هو السبيل الوحيد **لفهم** طبيعتها مع عدم الاقتصار على الحاضر أثناء دراسة الظاهرة، بل يجب الرجوع إلى **الماضى** والربط بينه وبين الحاضر.

٢ - التعرف على **الوظيفة** التى تؤديها الظاهرة الاجتماعية المبحوثة خلال مراحل تطورها المختلفة مع دراسة **علاقاتها** بغيرها من الظواهر الاجتماعية سواء المشابهة أو غير المشابهة، مع الاستعانة فى ذلك كله **بمنطق** المقارنة.

٣ - لابد من **تحديد** القوانين التى تسير الظواهر الاجتماعية، مع صياغتها صياغة دقيقة باعتبار أن **الهدف** النهائى للدراسة هو **الوصول** إلى القوانين فى صورة كمية أو كيفية، مع الأخذ فى الاعتبار أن **القوانين** ذات الصورة **الكمية** هى تلك التى **تعبر** عن الظاهرة المبحوثة رقميا، أما عن القوانين ذات الصورة الكيفية فهى تلك القوانين التى **تبرز** الخواص والصفات العامة للظاهرة المبحوثة إلى جانب **توضيح** مختلف مكوناتها وعلاقاتها **المتبادلة** بغيرها من الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية.. إلخ.

(جـ) اعتمد دوركايم بصفة أساسية على **منهج** متميز للبحث السوسيولوجى امتزج فيه التاريخ بالإحصاء علاوة على العديد من المقارنات التى كان يجريها على الظواهر الاجتماعية محل الدراسة بحيث تتم **المقارنة** بين نظم وظواهر سائدة فى مجتمع **واحد** أو بين مجموعة من المجتمعات المتمايزة والتى لا تنتمى لشكل اجتماعى واحد.

والمقارنة تهدف إلى معرفة **كيفية** تطور الظواهر الاجتماعية، وهل يتم ذلك التطور على وتيرة واحدة لدى كل المجتمعات، أم يتم ذلك بشكل **مختلف**، ثم ما هى **الظروف** التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية فى **كل** مجتمع على حدة؟.



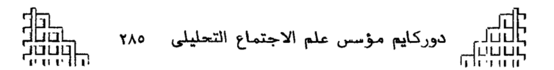


المهم أن دوركايم كان يرى أن تلك المقارنات **ضرورية** لتأكيد عمومية القوانين الاجتماعية.

عشرون: كان الدين هو آخر ما شغل دوركايم فى **أخريات** أيامه فأصدر عام ١٩١٢ مؤلفا يحمل اسم «الصور الأولية للحياة الدينية Les Formes Elementaies de la vie» وحاول دوركايم أن يطبق خلال هذا الكتاب **تحليله** للقوى الجماعية الذى انتهى إليه، واختار دوركايم لدراسته عن الدين **الأوَّلى** أكثر الديانات المعروفة بدائية وبساطة.. **ويعنى** دوركايم بذلك أكثر المجتمعات **بساطة** سواء من حيث **الحجم** أو من حيث التنظيم، وكانت إحدى قبائل «الأرونتا Arunta» هى **اختيار** دوركايم حتى يجرى عليها دراسته عن الدين.. وكان ذلك الاختيار ينطلق من **فرض**..اعتبر دوركايم على أساسه أن «الأرونتا» ـ كحالة محدودة ـ **تمثل** مرحلة أولية فى التطور البشرى.. وأن ذلك سيمكِّن دوركايم ـ حسب قناعته ـ من السيطرة على كل أطراف المجتمع ـ أو من المجتمع ـ محل الدراسة.. الأمر الذى سيتيح له **التحقق** ـ عن طريق الملاحظة المباشرة ـ من كل السمات والعلاقات داخل المجتمع.

ودوركايم **انطلق** خلال دراسته تلك من **منظور** يقسم الظواهر الدينية إلى **قسمين** أساسيين.. **أولهما** مقدس أو «**قدسى** Sacré».. **وثانيهما** «علمانى Profame» أو **دنيوى**.. والقسم **المقدس** يعنى من وجهة نظر دوركايم «كل شىء يكون من طبيعة تختلف **اختلافا** جوهريا عن أشياء العالم **الدنيوى** أو العلمانى» ووسع دوركايم **مفهوم** الأشياء التى تدخل **فى نطاق** القدسية.. وذكر الآلهة والكائنات **الروحية** والنصوص الدينية **والآثار** المقدسة والتمائم **وكل** ما هو ـ فى نظر معتنقيها ـ من **طبيعة** تخالف الطبيعة البشرية أو الإنسانية.

أما القسم **الثانى**.. فقد أطلق عليه دوركايم مصطلح «القسم العلمانى» أو **الدنيوى**.. ويضم كل ما يتعلق بالطقوس والعبادات وما يتعلق بها من **أمور** أو إجراءات **تستهدف** تنظيم سلوك الأفراد تجاه الجانب المقدس.. كالصلاة والصوم



والدعاء والزكـاة، وما يلجأ إليـه الأفراد من **حركات** وأعمال تفسر مـواقفهم من المقدسات(*).

وقد لقـى هذا التفـسير **هجوما** شـديدا.. مما اضطـر دوركايـم إلى **اعتبار** «التوتمية Totemisme» كما تمارسـها قبيلة «الأرونـتا» وبعض **القبائل** الأخرى.. هى بيت القصيد..!!

المهم.. أن دوركايم.. بعد أن انتهى من دراسة **النماذج** القبلية التى أتيحت له انتهى إلى عدة **نتائج** نذكر بعضها ونحيل القارئ الكريم إلى **الأصل** إن أراد مزيدا من الاطلاع(**).

١ ـ رفض دوركايم كل **إسهامات** من سبقوه أو عاصروه.. ومنهم «سبنسر Spencer» و«تايلور Tylor» عندما اعتبروا أن عبادة «**الأرواح** Animiame» كانت هى **الصورة** الأولية للدين فى المجتمعات البدائية، ومنهم كذلك «ماكس مولر M. Muller» الذى رأى أن الصورة **الأولية** للدين إنما تتمثل فى عبادة قوى «**الطبيعة** Naturalisme».

ويرجع سبب **رفض** دوركايـم لهذه الآراء.. أنها لـم تسـتطع أن **تميز** بين ما هو مقدس وبين ما هو علمانى..!!

٢ ـ عرف دوركايم **الدين** بأنه.. «مجموعة متماسكة من **العقائد** والأعمال المتصلة بالعالم المقدس أو التى يعتقد **مجيئها** من لدن هذا العالـم»، وهذه العقائد أو الممارسات **يشترك** فى اعتقادها أو ممارستها مجموعة من الأفراد الذين **يكونون** مجتمعا خاصا(**).

٣ ـ انتهى دوركايـم بعد أن درس كل **الأفكار** المعاصرة للـدين بما فى ذلك الاتجاه **الروحى** والاتجـاه **الطبيعى**.. انتـهى بـعد الرجـوع كذلـك إلى **أصول**

(*) للاستزادة انظر :
١ ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مصدر سابق ـ ص ص ٨٢ـ٩٨.
٢ـ دكتـور صـلاح الـفـوال ـ علم الاجتماع . . المفـهـوم والموضـوع والمنهج ـ مـصـدر سـابق ـ ص ص ١٦ـ١٧، ٧٨ـ٨١.
٣ ـ دوركايم ـ المرجع السابق ص ص ٦٦ـ ٨٠ .
(**) Durkhiem, Les Formes Elementaires de la Vie Religieuse, Paris, 1912.

الديانات الأولى.. إلى أن «**التوتمية** Totemisme» هى الأصل الدينى، والتوتم Totem الذى هو من أصل حيوانى أو نباتى أو شىء من الطبيعة.. والذى تعتقد العشيرة التوتمية أنها **منحدرة** منه أو **تربطها** به رابطة دم أو علاقة نسب، هذا التوتم **يؤلف** مع الجماعة العابدة له **وحدة** اجتماعية.

٤ ـ ومن هنا أكد دوركايم على أن **التوتم** هو **معبود** الجماعة التوتمية **ورمزها** ودعامتها التى يرتبط وجودها الاجتماعى والإنسانى بوجوده.. بحيث يصبح التوتم هو المعبود أو الحامى والراعى **والملاذ** فى كل الظروف.. ولذا تحيط القبيلة توتمها **بمجموعة** من **الهالات** التى تؤكد قدسيته.. وتوفر **مجموعة** أخرى من **الروادع** لمن يتجرأ على انتهاك حرمات التوتم المعبود.

٥ ـ وأخيرا يؤكد دوركايم على أن **فكرة** الدين وما يرتبط بها من عقائد وعواطف وممارسات.. تتحقق من **خلال** الأنشطة الجماعية للجماعة باعتبار أن **الجماعة**.. أو الحياة المجتمعية.. هى **المصدر** الأساسى.. أو السبب **الكافى** لوجود الدين كظاهرة اجتماعية.

٦ ـ يرى كثير من نقاد دوركايم ـ ومنهم تيماشيف ـ أن مجرد **اقتراب** دوركايم من الدين بتحليلاته ومناقشاته وتصوراته وتصنيفاته **والمقولات** التى انتهى إليها.. مجرد الاقتراب.. جعله ـ أى دوركايم ـ يدخل **عتبات** ما يعرف اليوم بـ«سوسيولوجيا المعرفة».. والتى تعد اليوم **مطلبا** أساسيا لعلم الاجتماع المعاصر(*).

واحد وعشرون: تعرض دوركايم للكثير من **النقد** وخصوصا لتمييزه المجتمع على حساب الفرد، الأمر الذى أدى **فى رأى** معارضيه إلى التمكين للاتجاه أو للنزعة السوسيولوجية **المتسلطة** والتى تثير الكثير من الاعتراضات(**).

(*) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ١٧١ .

(**) للاستزادة حول مزيد من الانتقادات التى وجهت لدوركايم، وعن دوركايم ومدرسته انظر:

١ ـ دكتورة علياء شكرى ـ دكتور محمد على محمد ـ قراءات معاصرة فى علم الاجتماع ـ دار النشر المتحدة ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ ـ ص ص ٣٥ ـ ٤٥.

٢ ـ دكتور مصطفى الخشاب ـ علم الاجتماع ومدارسه ـ تاريخ التفكير الاجتماعى وتطوره ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٦٦ ـ ص ص ٣٢٣ ـ ٣٢٦.

(أ) ومن الأمور التى كانت محل هجوم على دوركايم أيضا أنه **سعى** إلى تحويل علم الاجتماع إلى مجرد **مذهب** فلسفى، إلا أن **تلاميذ** دوركايم تصدوا لكل انتقاد بالرد والتمحيص(*).

(ب) ولعل من **أشهر** معارضى دوركايم هو **مواطنه** الفرنسى «يول مونيرو Jules Monnerot» الذى ألف عام ١٩٤٦ كتابا **تحت** عنوان «الظواهر الاجتماعية ليست أشياء Social Facts Are not Tings» ومجمل وجهة نظر **مونيرو** أن منطق علم الاجتماع يتشكل من **ظواهر** الجاذبية التى يمكن فهمها فهما حقيقيا تلافيا **للخطأ** الشائع لدى علماء الاجتماع وباحثيه نتيجة لفهم الحوادث بطريقة ثم وصفها بطريقة أخرى أو بأسلوب يخرجها عن طبيعتها، ومن **رأى** مونيرو أن الظواهر الاجتماعية إن هى إلا **ظروف** إنسانية **محددة** بالزمان والمكان، وعلم الاجتماع عليه أن **يدرس** نتائج تلك الظروف، ويوجد **تشابه** فى هذا المجال بين مادة **الدراسة** فى كل من علمى الاجتماع والتاريخ، لكن علم الاجتماع **يتميز** بأنه يضفى معنى جديدا من خلال رؤيته **الخاصة** للظواهر التى درست عن طريق علوم **إنسانية** أخرى.

* * *

(*) للاستزادة انظر:

١ ـ دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

٢ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج ـ مرجع سابق.

٣ ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق.

٤ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مرجع سابق.



المصادر والتعليقات

(١) دوركايم ـ قواعد المنهـج فى علم الاجتماع ـ ترجمة الدكتـور محمود قاسم ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة - ١٩٦١ - ص ٧٠.

(٢) دكتور محمد عاطف غيث ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ٤٦.

(٣) دوركايم ـ مرجع سابق ـ ص ٥٠.

(٤) المرجع السابق ـ ص ٦٨.

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٦) المرجع السابق ـ ص٦٩.

(٧) دكتور محمد عاطف غيث ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ٤٨.

(٨) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ١٨٠.

(٩) تيماشيف ـ المرجع السابق ـ ص ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(١٠) تيماشيف ـ المرجع السابق ـ ص ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(١١) دكتور محـمد عاطف غيث ـ علم الاجتمـاع ـ مرجع سابق ص ٤٨، وانظر أيضا تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ١٨٢.

هذا مع مـراعاة أن **تقسيم** العمل الـذى تحدث عنه دوركايم يـختلف فى مفـهومه ومراميه إلى حدٍّ ما عن تقسيم **العمل** كما يراه الاقتصاديون، حيث يرون أن استخدام مصطلح «تـقسيم العمل Division of Labour»، إنمـا **يدل** على نظام خاص فى **الصناعة**، بمقتضاه يتم تقسيم تصنيع أية سلعة إلى عدد من المراحل، ويكرس كل عـامل نفسه قدر المستطاع لأداء مـرحلة واحدة خلال **العملية** التصـنيعيـة، بدلا من أن يصـنع **بنفسه** السلـعة فى كل مـراحل تصنيعها.

وعدد الاقتصاديون **مزايا** وعيوب «تقسيم العمل» فى النقاط الآتية:

* فيما يتعلق بالمزايا، فإنه نتيجة للتخصص الناتج عن تقسيم العمل ينشأ نظام جديد لتوزيع المهـام بين العمال كلٌّ علـى حسب قدرته **وتخصصه** وطبقا للبرامج **التدريبية** التى تحصل عليها.





هذه واحدة، أما الميزة الثانية، فتتمثل فى **الوفرة** سواء من حيث الوقت الذى يقضيه **العامل** فى الانتقال من حرفة إلى أخرى، أو بالنسبة لدراسة السلعة بكل مراحلها الإنتاجية.

أما الميزة **الثالثة** لتقسيم العمل كما يراها الاقتصاديون، فتتمثل فى الزيادة سواء بالنسبة للكمية المنتجة أو بالنسبة **للمهارة** التى يكتسبها العامل نتيجة للاستمرارية فى عملية واحدة من عمليات التصنيع.

* كان ذلك عن مزايا تقسيم العمل من وجهة نظر اقتصادية، أما عن المساوئ **فتتمثل** فيما يأتى:

أ ـ الملل **والتعب** والإجهاد العصبى والنفسى نتيجة **للرتابة** فى العمل اليومى علاوة على اضطرار العامل لمتابعة الحركة **الآلية** لماكينة ما، بحركة يدوية رتيبة ولفترات طويلة.

ب ـ صعوبة **تنظيم** العمل نتيجة لضرورة **تشغيل** مختلف مراحل التصنيع فى وقت واحد ومتتابع.

جـ ـ تعرض العامل المتخصص **للبطالة** إذا ما فقد عمله لسبب ما، نتيجة لعدم **قدرته** على الالتحاق بعمل آخر بسهولة فضلا عما نشأ بينه وبين **مهنته** الأولى من **ألفة** وتعود.

(١٢) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر:

(أ) Thmasheff, op.cit, pp 109 -110.

(ب) تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الأولى ـ ص ١٨٢.

(جـ) دكتور محمد عاطف غيث ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص٥٠-٥١.

(١٣) لمن أراد الاستزادة حول دراسة دور كايم عن الانتحار عليه أن يعود إلى المراجع الآتية:

(أ) دكتور محمد عاطف غيث ـ علم الاجتماع ـ المرجع السابق ـ ص ص٥١-٥٣.

(ب) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٨٣ـ١٨٤.

(جـ) دكتور أحمد الخشاب ـ دكتور محمد طلعت عيسى ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧.



(د) Emil Durkheim, Suicicale, op. cit.

(١٤) إميل دوركايم ـ المرجع السابق ـ ص ص ٢٦٠ ـ ٣٠٠.

(١٥) المرجع السابق ـ ص ٦٥.

(١٦) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر:

ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع البدوى ـ مرجع سابق ـ الطبعة الثانية ـ ص ١٢١.

ـ دكتور محمد الجوهرى وآخرين ـ ميادين علم الاجتماع ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٧٤ ـ ص ١٨١.

(١٧) T.B. Bottomore, op. cit. p. 163.

(١٨) للاستزادة انظر:

Durkheim, "Sociolgy" in wolff (ed.)Durkheim,p. 380. Emile Durkheim, De la _ Methode dance les schences, Paris: Alcan, 1902 p. 272.

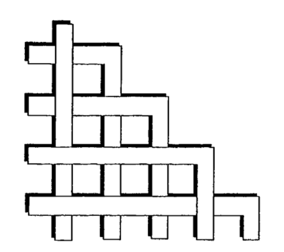
(١٩) للاستزادة انظر:

Durkheim, "Prefuces ta L'Année Sociolgique" in wolff (ed.) Emile Durkheim.

وانظر أيضا: مقدمة فى علم الاجتماع ـ ترجمة دكتور محمد الجوهرى وزملائه ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ ـ الطبعة الثانية ـ ص ٤٢.

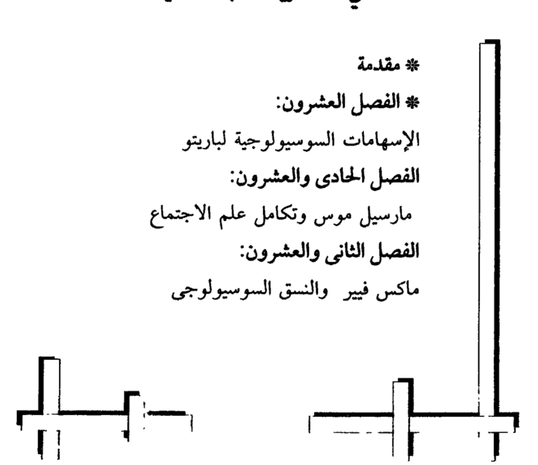
(٢٠) دوركايم ـ قواعد المنهج فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

* * *





الباب السادس
إسهامات الاتجاه النفسي في النظرية الاجتماعية



مقدمة:

لعل علم **النفس** ـ كعلم ـ من أكثر العلوم الإنسانية **اقترابا** من حيث مجال الدراسة. . من علم الاجتماع، **ويتمثل** ذلك الاقتراب فى أن كـلا من العلمين ـ علم الاجتماع وعلم النفس ـ قد اتخذا **رافدا** يشد كلا منهما إلى الآخر.

والرافد الذى نعنيه. . هو علم الاجتماع النفسى. . وعلم النفس الاجتماعى، وما نشأ نتيجة **لهما** من أرضية مشتركة للدراسة تمثلت هى الأخرى فى النقاط التالية:

١ـ دراسة **ظاهرة** التجمع والجماعات المختلفة والطبقات بمختلف أنماطها.

٢ـ دراسة الحياة **العقلية** للجماعة.

٣ـ دراسة **القوى** والمؤثرات الاجتماعية. ٤ـ دراسة **النفسية** الاجتماعية.

٥ـ الفعل أو السلوك الاجتماعى **والتفاعل** بمختلف أنماطه.

٦ـ **ديناميات** الجماعة. ٧ـ **العمليات** الاجتماعية.

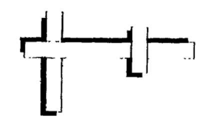
٨ـ دراسة الذات أو **الشخصية** بكل أنواعها. . والقيادة بأشكالها المختلفة.

٩ـ **الروح** المعنوية. ١٠ـ التوجيه الاجتماعى **والقياسات** الاجتماعية.

ولعل من أبرز علماء الاجتماع النفسى الذين **أثروا** النظرية الاجتماعية كل من:

هوبهاوس Hobhous، **كولى** C.H. Cooly، ووليم تـومـاس W.L. Thomas. وقد كان لنـا معهم **حديث** طويل فى غـير هذا المكان(*)، لكننا **سنتحدث** عن ثلاثة من أعلام الاتجاه النفسى، وهم. . باريتو، مارسيل موس، وماكس فيبر.

(*) انظر ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ص ٧٧ـ١٤٢.



الفصل العشرون

الإسهامات السوسيولوجية لباريتو

* مقدمة
* نظرية باريتو السوسيولوجية.
* أسس تمايز علم الاجتماع عند باريتو.
- شمولية الدراسة فى علم الاجتماع.
- طريقة دراسة علم الاجتماع للظواهر المجتمعية.
* نظرية الفعل الاجتماعى عند باريتو.
* تصور باريتو للمجتمع باعتباره نسقا.
* دور علم الاجتماع فى المجتمع.
* التمييز بين المجتمعات والجماعات والأشخاص.
* نظرية دورة الصفوة لدى باريتو.
* الانتقادات الموجهة لباريتو.

مقدمة:

وبعد دوركايم بوقت غير طويل، وفي زمان يكاد يكون **معاصرا** لزمان دوركايم، جاء فلفريدو باريتو Vilfredo Pareto(*)، خلال كتابه «مقدمة فى علم الاجتماع» الذى أصدره عام ١٩١٥، وجعل مسألة تحديد **هوية** علم الاجتماع والتفرقة بينه وبين **غيره** من العلوم شغله الشاغل.

وعلا صوت باريتو مطالبا **باعتبار** علم الاجتماع علما «إمبريقيا عليه أن يستخدم المنهج التجريبى المنطقى»، الذى يعتمد بصفة أساسية على **الملاحظة** العلمية والاستنتاج المنطقى وفقا لقواعد **الاستقراء** التى حددها جون ستيوارت ميل.

وباريتو فى سعيه **لتحديد** هوية علم الاجتماع **والتمييز** بينه وبين غيره من العلوم، رفض رفضا باتا كل الآراء التى **تدرس** الظواهر الاجتماعية من خلال تركيزها على **جانب** واحد فقط، أو تلك التى تؤكد **تبعية** مختلف الظواهر إلى ظاهرة كلية وحيدة.

وجاء رفض باريتو من **منطق** أن مختلف الظواهر الاجتماعية إنما تتساند تساندا وظيفيا، وبحيث **تقوم** كل ظاهرة بأدوارها متأثرة ومؤثرة فى غيرها من الظواهر الاجتماعية.

* عاش باريتو فى الفترة من ١٨٤٨ إلى ١٩٢٣.



هذا وقد استثمر فلفريدو باريتو خلفيته **الاقتصادية** عندما **أوضح** أن الظواهر الاقتصادية **تتأثر** بالعديد من العوامل والظواهر الأخرى غير الاقتصادية، وبالتالى فإن الظواهر **الاجتماعية** ـ شأنها فى ذلك شأن الظواهر الاقتصادية ـ تتأثر بالعديد من الظواهر والعوامل **غير** الاجتماعية.

ومن هذه النقطة أكد باريتو أنه على علم **الاجتماع** أن يهتم بدراسة الخصائص **العامة** للظواهر الاجتماعية على العكس من بعض العلوم ـ كالتاريخ مثلا ـ التى تدرس الظواهر باعتبارها ظواهر **منفصلة** وغير متكررة من حيث الزمان أو المكان.

* * *

تعدد إسهامات باريتو السوسيولوجية

هذا ويعتبر باريتو من علماء الاجتماع المبرزين نتيجة لإسهاماته السوسيولوجية المتعددة والتى استهدفت استخدام **الأسس** الرياضية لإقامة منهج للبحث فى علم الاجتماع، والتى تناولت كذلك تحديد **نقاط** الالتقاء والاختلاف بين علم الاجتماع وغيره من العلوم بهدف **تحديد** الميادين المستقلة التى يجب أن يرتادها علم الاجتماع.

كما تناولت إسهامات باريتو إقامة **نظرية** للفعل الاجتماعى ارتكزت على تحليل دقيق **للسلوك** الإنسانى، كما يعتبر تصور باريتو للمجتمع باعتباره «نسقا يحقق توازنا» من **أبرع** إنجازاته إلى جانب نظريته عن «دورة الصفوة».

هذا **ويعتبر** كتاب «مقدمة فى علم الاجتماع» الذى أصدره باريتو عام ١٩١٥، والذى **ظهرت** ترجمة إنجليزية له عام ١٩٣٦ تحت عنوان «العقل والمجتمع» يعتبر هذا الكتاب أخلد أعمال باريتو والذى جلب عليه **شهرة** كبيرة، وعلى كل فإنه يمكننا أن نوجز إسهامات باريتو السوسيولوجية على النحو الآتى:

* * *

أولا: نظرية باريتو السوسيولوجية:

خلال كتاب **المقدمة** المشار إليه.. تحددت نظرية باريتو فى علم الاجتماع الذى اعتبره علما إمبريقيا عليه أن يستخدم المنهج **التجريبى** المنطقى الذى يعتمد

بصفة أساسية على **الملاحظة** العلمية **والاستنتاج** المنطقى وفقا لقواعد الاستقراء التى حددها ميل[1] J. S. Mill وعلى كلٍّ فإن أهم **أفكار** باريتو فى هذا الشأن هى(*):

(أ) طالب باريتو بضرورة **التمييز** بين العلم التجريبى والمنطقى وغيره من العلوم التجريبية وغير المنطقية، واعتبر تلك **التفرقة** أساسا مهما فى تحليل حياة المجتمع وتاريخه، واعتبر باريتو أن **العالم** التجريبى - أى القابل للملاحظة - عالم يتكون من **مجموعة** من الظواهر والعلاقات التى يمكن إدراكها **حسيا** وبالتالى يمكن إخضاعها للقياس.

(ب) اعتبر باريتو بناء على نظريته تلك أن أى **فكرة** لا تخضع لمنطق الملاحظة والتجريب، لا يمكن اعتبارها ضمن **دائرة** العلم، كما أنه فرق بين القيمة العلمية لأية نظرية وبين قيمتها الواقعية.

(جـ) رفض باريتو **رفضا** باتا تلك النظريات التى تدرس الظواهر الاجتماعية من خلال تركيزها على جانب **واحد** فقط، أو تلك التى تؤكد تبعية جميع الظواهر **إلى** ظاهرة **كلية** وحيدة، وجاء رفض باريتو هذا من منطلق أن مختلف **الظواهر** الاجتماعية إنما تتساند تساندا وظيفيا، وبحيث **تقوم** كل ظاهرة **بدور** ما متأثرة ومؤثرة فى **غيرها** من الظواهر المجتمعية.

(د) استبعد باريتو الظواهر العرضية أو **المؤقتة** من أن تدخل تحت نطاق العلم لأن العلم أولا لايعنى - فى رأيه - إلا بما هو **ثابت** ودائم، ولأن العلم ثانيا يجب أن يدرس المسائل **المشتركة** بين جميع الناس فى كل زمان ومكان، وثالثا لأن هذه **المسائل** المشتركة أو الظواهر الاجتماعية لايمكن أن يتم **تفسيرها** بشكل صحيح ودقيق إلا إذا تمت دراستها بطريقة كمية[2].

* * *

ثانيا: أسس تمايز علم الاجتماع عند باريتو :

عمل باريتو على **تمييز** علم الاجتماع وتحديد نقاط الالتقاء والاختلاف بينه وبين غيره من العلوم وخاصة **الاجتماعية** منها، ولقد أعانه على ذلك كونه عالما

(*) اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على مؤلفاتنا.. «معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر» و «علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج» و «علم الاجتماع البدوى» و «دراسة علم الاجتماع البدوى» و «النظريات فى علم الاجتماع»، وأخيرا «علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق».. السابق الإشارة إليها.



بشئون الاقتصاد، وقد مكنته هذه **الخلفية** الاقتصادية من إدراك **أن** الظواهر الاقتصادية **تتأثر** بالعديد من العوامل والظواهر الأخرى غير الاقتصادية وبالتالى فإن الظواهر الاجتماعية تتأثر هى الأخرى أو لابد أن تتأثر **بالعديد** من الظواهر **والعوامل** غير الإنسانية وتؤثر فيها(*).

إلا أن علم الاجتماع فى رأى باريتو **يهتم** بدراسة الخصائص العامة للظواهر الاجتماعية على **العكس** من بعض العلوم - كالتاريخ مثلا - التى تدرس الظواهر باعتبارها ظواهر **منفصلة** وغير متكررة سواء من حيث التواجد الزمانى أو المكانى.

وعلى كلٍ فإن باريتو قد **أقام** تمييزه لعلم الاجتماع عن غيره من العلوم على فروق واضحة فى طريقة الدراسة ومجال **الاهتمام** وذلك على النحو الآتى[٣]:

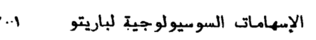
(أ) شمولية الدراسة فى علم الاجتماع:

أوضح باريتو أن كل علم يختص بدراسة **زاوية** خاصة من زوايا العالم الاجتماعى الذى **نعيش** فيه. على العكس من علم الاجتماع الذى **ينظر** إلى المجتمع من زاوية كلية، باعتبار **أن** المجتمع كلٌ مترابط.

وضرب باريتو مثالا **للتفريق** بين علم الاجتماع **وغيره** من العلوم الاجتماعية سواء على **مستوى** المجتمع ذاته أو على مستوى الفرد نفسه، وذلك من خلال ما أوضحه باريتو من أن الاقتصاد يدرس **الظواهر** الاقتصادية فقط، كما أن السياسة **لا تهتم إلا بدراسة** الظواهر السياسية، بينما يعنى علم **الاجتماع** **بمختلف** الصلات القائمة بين أجزاء المجتمع وظواهره المختلفة والمتعددة.

كما أوضح باريتو أن كل علم اجتماعى **ينظر** إلى الإنسان ويتعامل معه من **زاوية** اهتمامه الخاص، بمعنى أن الإنسان.. هو **إنسان** سياسى أو اقتصادى **فى** نظر كل من السياسة والاقتصاد، بينما هو عضو **فى** مجتمع **ويتبادل التأثير والتأثر** من خلال **الحياة** الاجتماعية **المشتركة** التى يحياها، والتى تزخر **بالعديد** من الظواهر **الاقتصادية** والسياسية والثقافية والدينية.

(*) للاستزادة انظر :
دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص ١٠٢-١٠٤.



(ب) طريقة دراسة علم الاجتماع للظواهر المجتمعية

والمقصود بطريقة الدراسة هنا.. هو **المنهج** الذى يلزم به كل علم من العلوم الاجتماعية نفسه عند دراسته لظاهرة ما، فقد **أوضح** باريتو أن كل العلوم الاجتماعية **الأخرى** غير علم الاجتماع، تلزم نفسها بوجهات نظر **خاصة** وترجع إليها الفضل أيضا فيما قد **يحدث** عنها من نتائج(٤).

وضرب باريتو لذلك مثلا من خلال حديثه عن **ظاهرة** الانتحار(*) وأوضح أنها تدرس بطرق عديدة ومختلفة من طرف العلوم الاجتماعية، وأن كل طريقة تؤدى إلى نتائج **متباينة**، فتارة يكون **الفقر** والإفلاس الاقتصادى هو سبب الانتحار، ـ وهذه وجهة نظر اقتصادية بالطبع ـ وتارة أخرى يزعم علم النفس أن الفشل فى الحب أو فى **التكيف** هو الذى أدى إلى الانتحار، بينما قد يكون الإخفاق فى احتلال **مكانة** سياسية مرموقة هو الذى أدى إلى الانتحار كما يجزم بذلك علم السياسة، وقد يكون **التزمت** الدينى أو الفساد **الأخلاقى** هو السبب، وقد تكون **العوامل** الجغرافية والمناخية هى التى أدت إلى الانتحار.. ومن الطبيعى أن يدلى كل علم بدلوه فى تفسير **أسباب** ظاهرة الانتحار، ولكن **علم** الاجتماع هو العلم الوحيد الذى يأخذ فى اعتباره **مختلف** الخصائص والأبعاد المكونة لظاهرة الانتحار، **علاوة** على إجرائه للعديد من **الدراسات** الدقيقة سواء بالنسبة للأفراد المنتحرين أو فيما يختص بتوزيع نسب الانتحار فى العديد من المجتمعات.. إلى **جانب** مختلف الظروف المحيطة بالانتحار كظاهرة.

* * *

ثالثا: نظرية الفعل الاجتماعى عند باريتو :

أقام باريتو نظريته عن السلوك الإنسانى أو **الفعل** الاجتماعى مرتكزا على التمييز بين **نمطين** أساسيين من أنماط **السلوك** الإنسانى، وقد أطلق باريتو على النمط الأول.. السلوك أو **الفعل** المنطقى، بينما أطلق على **النمط** الثانى.. الفعل أو السلوك **غير** المنطقى.

ويرى **الكثيرون** أن آراء باريتو تتفق مع آراء كارل ماركس حول الفعل الاجتماعى من حيث إن كليهما ـ ماركس وباريتو ـ أعطى **اهتماما** خاصا للفروض

(*) ظاهرة الانتحار قام دوركايم بدراستها فى زمن معاصر لباريتو وكان ذلك عام ١٨٩٧، وعلى النحو الذى أوضحناه ضمن الفصل السابق.

أو الافتراضات الأساسية **للفعل** الاجتماعى، كما بحث كـلاهما عن الدوافع التى تحرك **الفاعلين** الاجتماعيين نحو تحقيق غاياتهم.

والفعل الاجتماعى يكون **منطقيا** ـ فى رأى باريتو ـ عندمـا يتكّون أو يعتمد على تطبيق الأسلوب أو المنهـاج المنطقى المرتكز على **استخدام** المعرفة الإمبيريقية والاستدلال الصحيح على اختيار الوسائل **المحققة** للأهداف المرجوة.

كما أن الفعل أو **السلوك** يعتبر غير منـطقى ـ فى رأى باريتو ـ لو **توافرت** له الظروف **الأربعة** الآتية(٥):

١ ـ إذا كانت **الفروض** التى ارتكز عليها الفعل أو السلوك فروضا **زائفة** أو غير إمبيريقية.

٢ ـ إذا لم **يأخذ** الفاعل الاجتمـاعى فى اعتباره **نتائج** أفعاله بالنسبة لغيره من بقية أطراف التفاعل.

٣ ـ إذا ما كانت دوافع السلوك غير **معروفة** أو غير واضحة بالنسبة للفاعل الاجتماعى.

٤ ـ إذا كانـت **الأفعال** الاجتماعيـة غير مشتقة أو غيـر نابعة عن **الفروض** التى وضعها الفاعل لنفسه(*).

ومن خلال **تفسير** باريتو لأسباب حدوث تلك **الظروف** الأربعة المشار إليها للسلـوك أو الفعل غير المـنطقى، وضع لنـا باريتو **نظرية** عن الغرائـز والرواسب والمصالح والاهتمامات والمشاعر والأحاسيس والمشتقات.

هذا ويمكن **إيجاز** مجمل الأفـكار الأساسية لباريتـو حول تلك **المواضيع** على النحو الآتى:

(أ) الغريزة المجردة: هى **المصدر** الأساسى للسلوك الإنسانى.

(ب) الرواسب: عبارة عن تعديل وتهذيب للغريزة، كما يمكن أن تتشكل تلك الرواسب بالتجربة.

(*) انظر ما كتبناه عن نظرية «الفعل الاجتماعى».. عند ماركس فى الفصل الحادى عشر، وعند بارسونز.. ضمن الفصل التاسع والعشرين من هذا الكتاب، وانظر أيضا:
معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مصدر سابق ـ ص ص ٥٥ـ٧٥، ص ص ١٦٢ـ١٦٣.

(جـ) **المصالح**: تعتبر **أنماطا** خاصة من الرواسب والدوافع.

(د) **المشاعر** والأحاسيس.. وهى وثيقة **الصلة** بالغرائز حيث يمكن اعتبارها غريزة مهذبة ومن ثم تعتبر **نمطا** من الرواسب.

* * *

رابعا: تصور باريتو للمجتمع باعتباره نسقا :

كان أبرز **إسهام** لباريتو - إلى جانب نظريته فى الفعل الاجتماعى - هو تصوره للمجتمع باعتباره **نسقا** System يحقق توازنا - أى كلٌ يتكون من أجزاء أو وحدات متساندة يؤدى **التغير فى واحدة** منها إلى **التأثير** على بقية المكونات، ومن **ثم** على الكل ذاته.

واعتبر باريتو أن الأفراد هم **مكونات** ذلك النسق الكلى العام «المجتمع»، كما بين باريتو أن الأفراد باعتبارهم العناصر المادية أو **جزئيات** ذلك الكل يخضعون من حيث **التأثير** لمجموعة من القوى الاجتماعية ذات سمات عامة وثابتة، كما وضح باريتو أن حالة النسق الاجتماعى **تتحدد** بمجموعة من الظروف والعوامل التى **يعود** بعضها **إلى المجتمع** ذاته ويرجع بعضها الآخر إلى عوامل خارجية عن ذلك المجتمع.. ومن **أمثلة** تلك العوامل والظروف.. البيئة الخارجية للإنسان، والمجتمعات الأخرى المحيطة بذلك النسق، **والظروف** التاريخية للمجتمع، علاوة على **عناصر** النسق الداخلية التى حددها باريتو بالمصالح والمعرفة والرواسب والمشتقات، وعلى النحو الذى وضحناه خلال حديثنا عن نظرية **الفعل** الاجتماعى لدى باريتو.

* * *

خامسا: دور علم الاجتماع فى المجتمع:

قسم باريتو **علم** الاجتماع إلى قسمين أولهما يهتم **بتحليل** وتصنيف المكونات الأولية للطبيعة الإنسانية **كما** تبدو خلال الحياة الاجتماعية، وثانيهما **يسعى** لتوضيح تلك **المكونات** ومدى ما يطرأ عليها من **تغيرات** خلال وجودها فى مختلف طبقات المجتمع[٦](*).

* * *

(*) انظر مؤلفنا عن «علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق» لتأخذ فكرة أوضح عن دور علم الاجتماع فى المجتمع

سادسا: التمييز بين المجتمعات والجماعات والأشخاص:

ميز باريتو بين المجتمعات والجماعات والأشخاص من خلال **مفهومه** عن الرواسب التى تعتبر - كما يقول إنكلز - بمثابة **الثوابت** التى يتضمنها السلوك الإنسانى، فالرواسب قد تمثل **الخاصية** التى تميز المجتمع أو النظام أو الشخصية.

وعلى هذا **الأساس** نجد باريتو قد أشار إلى أنه يمكن تصنيف **الناس** إلى أنماط «الثعالب» أو «الأسود» كنموذج طبقا **للراسب** المميز لكل منهم والمعبر عنهم.

ويرى باريتو طبقا ذلك أن نمط الثعالب.. يمثل **النقيض** من نمط الأسود، لأن الثعالب **طبقا** «لراسب الربط والتأليف بين الأشياء» يعتبرون **مبتكرين** ومخاطرين ومحبين للتجربة، على **العكس** من الأسود التقليديين الروتينيين **المفتقرين** إلى الخيال، لذلك فراسبهم **المميز** لهم والمعبر عنهم هو «دوام الارتباط بالآخرين».

* * *

سابعا: نظرية دورة الصفوة عند باريتو:

أقام باريتو استنادا على **التمييز** السابق ما يعرف **بنظريته** عن «دورة الصفوة» أو «دورة الخاصة Circulation of Elite»، حيث استهدف باريتو من خلال تصنيفه المشار إليه **توضيح** أن المجتمع عليه أن **يبتكر** قيادة قوية تتمتع براسب «الثعالب».. أى «الربط والتأليف بين الأشياء» مع ضرورة أن يكون هناك **أتباع** يتسمون براسب «الأسود» أى «دوام الارتباط بالآخرين».

وأرجع باريتو قيام **الثورات** إلى أن الطبقات الحاكمة لم تكن مرنة بالقدر الذى يتيح لها أن تسعى لضم كفاءات من **الطبقة** المحكومة يمكن لها - أى لتلك الكفاءات - أن **تشارك** فى عملية الحكم، وطبيعى أن تستهدف تلك الثورات إحلال **صفوة** جديدة - أى طبقة حاكمة - **بدلا** من الصفوة القديمة لأن الصفوة القديمة ما عادت **تتسم** براسب «الربط والتأليف بين الأشياء» على **العكس** من الصفوة الجديدة،ويظل هذا **حال** المجتمع عند باريتو.. صفوة قديمة تفقد خاصيتها فى «الربط والتأليف» وصفوة جديدة **تتوهج** لديها تلك الخاصية.. وتتوالى «دورة الصفوة» أو «دورة الخاصة».. ليقدم لنا باريتو فى النهاية نظرية «دائرية فى التطور الاجتماعى»(٧)(*).

* * *

(*) راجع النظرية السوسيولوجية عند ابن خلدون ضمن الباب الثالث الفصل السابع من هذا الكتاب.. حيث يوجد تشابه بل تطابق بين نظرية «الصفوة» عند باريتو وبين نظرية «العصبية» عند ابن خلدون. وانظر كذلك أيًا من مؤلفاتنا فى علم الاجتماع البدوى السابق الإشارة إليها.

ثامنا: الانتقادات الموجهة لآراء باريتو:

هذا ولقيت آراء باريتو العديد من **الانتقادات** نوجزها على النحو الآتى[٨]:

(أ) يرى تيماشيف أن باريتو نظر إلى المجتمع باعتباره **نسقا** يحقق توازنا، وأن العناصر المادية لهذا النسق **تتألف** من الأفراد الذين يتعرضون لعدد محدود من «القوى»، وتتشكل هذه القوى بشكل **أساسى** من العواطف.

بينما نجد أن **الرواسب** هى التى تحدد وضع ذلك **النسق** الاجتماعى، والأمر الذى يأخذه تيماشيف على باريتو أن **الثقافة** ليس لها دور بارز أو ربما كان لها دور ضئيل جدا من خلال **تصور** باريتو حيث انصب التحليل السوسيولوجى عنده على الرواسب باعتبارها تجليات أو مظاهر لظواهر نفسية بيولوجية **غير** معروفة[٩].

(ب) لم يقدم باريتو **تعريفا** للعلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى، ولكنه أكد ـ كما يقول تيماشيف ـ على أن علم الاجتماع **يجب** أن يعتمد على **المنهج** التجريبى المنطقى، ومعلوم أن ذلك المنهج يستلزم القيام بالعديد من الملاحظات المنظمة حول الوقائع المبحوثة والخروج منها باستنتاجات منطقية، إلا أن تيماشيف يرى أن باريتو قد أضعف **ذلك** الاتجاه بنفسه عندما **تخلى** هو عن الملاحظة ذاتها، **واكتفى** بمجموع عواطف الآخرين حول الوقائع المبحوثة، الأمر الذى أدى بباريتو إلى الابتعاد عن **الأسلوب** الاستقرائى الذى نادى به واستخدم بدلا منه **تصنيفا** قائما على الحدس.

(جـ) اعتبر تيماشيف أن **تحليل** باريتو **للقوى** الداخلية فى الحياة الاجتماعية ينطوى على **فائدة** كبيرة، كما أنه ـ أى تيماشيف ـ قد لاحظ أن **تفسير** باريتو ينهض على **نظرية** نفسية، وهذا التفسير بمقياس الحاضر يعتبر تفسيرا **مضللا** نظرا للدور الشامل الذى **تلعبه** الثقافة والعوامل النظامية فى السلوك الإنسانى[١٠].

(د) يرى بيرسى **كوهين** أن نظرية باريتو عن الفعل الاجتماعى قد أثارت العديد من الصعوبات وخصوصا ما تعلق منها **بأسباب** عدم منطقية الفعل الاجتماعى، كما انتقد كوهين **ارتكاز** باريتو خلال تفسيره للسلوك أو الفعل الاجتماعى على **العديد** من الأخطاء السيكولوجية المرفوضة من **وجهة** نظر علم



الاجتماع، كما أن **النماذج** التى قدمها باريتو تعتبر من وجهة نظر كوهين **نماذج** غير مناسبة **لعجزها** عن التفسير الملائم لمختلف جوانب الفعل الاجتماعى.

(هـ) كوهين شارك تيماشيف الرأى فى **انتقاده** لباريتو من حيث إهماله للثقافة ولدورها فى المجتمع(١١).

(و) جنزبرج يشارك تيماشيف هو الآخر **الرأى** فى أن باريتو لم يلتزم بالمنهج **الاستقرائى** الذى نادى به، ويضيف جنزبرج أن باريتو لم تتح له الفرصة ليطبق النهج الذى اعتنقه، وإن كان تيماشيف قد **استثنى** من ذلك تحليل باريتو لدورة الصفوة(١٢).

(ز) يرى جنزبرج كذلك أن باريتو قدم الكثير من **التعريفات** والمفاهيم الغامضة والتى لم **يفلح** طول الشرح والإسهاب والمقارنات المطولة التى عقدها باريتو فى **توضيح** تلك المفاهيم أو الإبانة عنها.

(ح) من العلماء من يعتبر **كتاب** المقدمة ـ وهو أعظم إنجازات باريتو ـ **لا** يدخل ضمن نطاق علم الاجتماع على الإطلاق لأنه لا **يتناول** الظواهر الاجتماعية ولكنه **يتعرض** للتوازن بين الأمم، والمراحل **التاريخية** والطبقات، ومن أبرز هؤلاء العلماء بانزيو الذى **يقرر** أن الإنصاف يحتم علينا أن نطلق على كتاب المقدمة لباريتو اسم «فلسفة المجتمع» أو «الأخلاق الاجتماعية» أو «فلسفة التاريخ».. المهم أن نطلق عليه أى اسم **يخرجه** عن **دائرة** علم الاجتماع.

(ط) أوضح سوروكين خلال كتابه «النظريات السوسيولوجية المبكرة» أنه من الملاحظ **اقتراب** باريتو من ماركس فيما **يتصل** بالرواسب والمشتقات والأيديولوجيات مع أن الرواسب هى أساس الأيديولوجيات(١٣).

* * *

المصادر والتعليقات

١ - J.S. Mill System of Logic, p.p. 570-577.

٢ - للاستزادة انظر:

دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص ٢٤٠-٢٤٥.

٣ - انظر:

دكتور صلاح الفوال - النظريات فى علم الاجتماع - مرجع سابق.

٤ - انظر:

دكتور صلاح الفوال - دراسة علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق.

٥ - Vilfredo Pareto, Sociolgical writings (Selected and Introduced by S.E. Finer, trans, Derek Mirfin), Pall Madl, 1966.

٦ - انظر: دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص ١٠٢-١٠٦.

٧ - انظر:

دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية - مرجع سابق - ص ص ١٣٦ - ١٤٣.

٨ - للاستزادة انظر:

دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مصدر سابق - ص ص ١٠٧-١٠٩.

٩ - للاستزادة انظر - تيماشيف - مرجع سابق - ص ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

١٠ - المرجع السابق - ص ص ٢٤٨-٢٤٩.

١١ - للاستزادة انظر:

كوهين - الترجمة - مرجع سابق - ص ص ١٢٦ - ١٢٨.



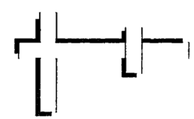


١٢ ـ يبدو تأثر باريتو **بخلفيته** الاقتصادية واضحا من خلال نظرية «دورة الصفوة أو الخاصة» لديه، حيث توجد فى الاقتصاد **دورة** اقتصادية مشابهة يعرفها الاقتصاديون بأنها «تقلبات منتظمة بصورة دورية فى مستوى النشاط الاقتصادى»، وللدورة الاقتصادية **أربع** مراحل تبدأ بمرحلة **الانتعاش** Re-covery، فمرحلة **الرواج** Boom، ثم مرحلة **الأزمة** Crisis، وأخيرا مرحلة **الكساد** Depression، وهذه المرحلة تمهد لميلاد دورة جديدة.. وهكذا.

١٣ ـ للاستزادة انظر:

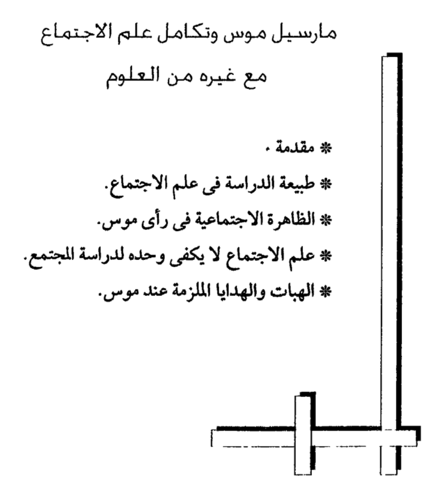
دكتور صلاح الفوال ـ البناء الاجتماعى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٤.

* * *



الفصل الحادى والعشرون

مارسيل موس وتكامل علم الاجتماع مع غيره من العلوم



* مقدمة .
* طبيعة الدراسة فى علم الاجتماع.
* الظاهرة الاجتماعية فى رأى موس.
* علم الاجتماع لا يكفى وحده لدراسة المجتمع.
* الهبات والهدايا الملزمة عند موس.

مقدمة:

وبعد باريتو بوقت **غير** طويل جاءت إحدى المحاولات **الجادة** لتحديد الملامح المميزة لعلم الاجتماع، والمحددة فى نفس الوقت **لطبيعة** العلاقة بينه وبين غيره من العلوم.

وهذه **المحاولة** الجادة هى لواحد من علماء الاجتماع الفرنسيين الذين احتلوا القمة بعد رحيل دوركايم. ونعنى به «مارسيل موس» Mauss(*)، ولكن تلك المحاولة لم **تنل** ما هى جديرة به من اهتمام - بالنسبة لقراء العربية على الأقل - وبالتالى لم تأخذ **حظها** من الذيوع اللهم إلا من خلال تقديم بعض **أفكار** لمارسيل موس تحت عنوان «علم الاجتماع والأنثربولوجيا» عام ١٩٧٢.

وربما يرجع ذلك إلى أن مارسيل موس لم يترك **كتابًا** مجمعًا لكل أفكاره، أو قد **يعود** ذلك إلى أن القارئ العربى فى معظم أرجاء العالم العربى - فيما عدا تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا(**)، ولبنان وسوريا - **يتجه** نحو الثقافة السوسيولوجية **المأخوذة** عن المصادر الإنجليزية.

* * *

طبيعة الدراسة فى علم الاجتماع:

المهم أن من **أبرز** آراء مارسيل موس - التى توضح **طبيعة** الدراسة فى علم الاجتماع، وبالتالى تحدد **صلته** بغيره من العلوم - رأيه فى تحديد **معنى** الظاهرة الاجتماعية حيث **يرى** موس أن : «الظواهر الاجتماعية هى ظواهر واقعية محسوسة متداخلة ومتكاملة لها طبيعتها الخاصة، لكنها متفاعلة مع الظواهر الطبيعية والظواهر الحيوية والنفسية»، وعلى ذلك **فإن الظاهرة** الاجتماعية يمثلها الفرد كما تمثلها الجماعة، وهى **متكاملة** مع الطبيعة النفسية والطبيعة الحيوية فى الأفراد والجماعات..(١).

* * *

(*) ولد موس عام ١٨٧٢ وتوفى عام ١٩٥٠.

(**) تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.. هى الدول التى تشكل اللغة الفرنسية ملمحا مهما من ثقافتها لتأثرها بالاحتلال الفرنسى، وكذلك كان الحال بالنسبة لسوريا ولبنان فى المشرق العربى.



الظاهرة الاجتماعية فى رأى مارسيل موس:

إذن فالظاهرة الاجتماعية فى رأى موس، يجب أن **تندرج** فى كليات وأنساق اجتماعية كاملة، وتدرس دراسة أنثربولوجية بحيث تؤخذ فى الاعتبار كل المظاهر الطبيعية والحيوية والنفسية والاجتماعية فى مختلف **أنواع** السلوك البشرى، ومن هذا المنطق فإن الظواهر الاجتماعية تعتبر نقطة **التقاء** كافة العلوم الإنسانية.

ولقد استتبع ذلك **الفهم** للظواهر الاجتماعية من جانب مارسيل موس، عدم إيمانه بإقامة **حدود** صارمة بين الفروع المختلفة للعلوم الإنسانية، وإنما دعا إلى التحديد الدقيق لمجالات **البحث** لكل فرع منها فقط وفى إطار التكامل الذى يجعل تلك العلوم **تتواصل** ويفيد بعضها بعضًا[٢].

ومن رأى **مارسيل** موس كذلك أنه **مادامت** الظواهر الاجتماعية هى نتاج للتفاعل بين جميع عناصر **الوجود** الإنسانى، فإنه من الواجب ملاحظتها من جميع نواحيها الحيوية والنفسية والأخلاقية والاقتصادية والقانونية والدينية والجمالية والمادية والمورفولوجية والتاريخية والاجتماعية، كما **يجب** أن تتم تلك الملاحظة فى حالتى الاستقرار والتغير[٣].

* * *

علم الاجتماع ليس كافيا وحده لدراسة المجتمع:

وعلى ذلك فإن **مارسيل** موس، على الرغم من **إيمانه** برسالة علم الاجتماع، قد انتهى إلى أن علم الاجتماع لايعتبر وحده **كافيًا** لدراسة الطبيعة البشرية، **ويطالب** بأن تقوم إلى جواره علوم اجتماعية أخرى حتى تأتى الدراسة متكاملة من جميع النواحى[٤].

* * *

الهبات والهدايا الملزمة كنموذج للدراسة عند موس:

قام «مارسيل موس» بإعداد **بحث** قيم عن «الهبات والهدايا الملزمة».. لدى عدد **مختار** من الجماعات **البدائية** وشبه البدائية فى أنحاء متفرقة من العالم مثل بولينيزيا، وميلانيزيا، والشمال الغربى الأمريكى **ومناطق** عديدة أخرى من العالم.

ولقد **عمد** موس إلى دراسة مجموعة من الأنساق والنظم الاجتماعية مع **حرصه** على وصفها - على حد تعبير «موس» نفسه - **نسقا** بعد آخر وصفا تكامليا متجنبا المقارنات الاستقرائية - على حد قوله كذلك - حتى لا **يختلط** فيها كل شيء، والتى **تفقد** معها - أى مع المقارنات **الاستقرائية** - النظم كل لونها المحلى وتتخلى معها الوثائق عن **دلالتها** تماما..(٥).

وانتهى مارسيل موس.. من **خلال** دراسته تلك.. إلى عدة نتائج يرى أنه من الممكن تطبيقها على مجتمعاتنا **المعاصرة**، حيث تمثل **الهبات** الملزمة جانبا من القواعد الأخلاقية **لمجتمعاتنا** الحالية، علاوة على تأثيراتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المختلفة والمتنوعة(٦)، والتى لا **تقتصر** على المجتمعات التى كانت محل **دراسة** مارسيل موس.. والمجتمعات المشابهة لها فى **الماضى** فقط، وإنما تمتد تلك التأثيرات لتشمل **العديد** من المجتمعات **المعاصرة** والحديثة أيضا(٧).

* * *





المصادر

١ ـ انظر ـ مارسـيل موس ـ علم الاجـتمـاع والأنثروبولوجـيا ـ بحث فى الهـبات والهدايا الملزمة ترجمة المرحوم الأستاذ الدكـتور محمد طلعت عيسى ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ .

٢ ـ انظر المقدمة القيـمة التى كتبها المرحـوم الأستاذ محمد طلعت عيـسى للتعريف بمارسـيل موس وأعـماله خـلال ترجمـته لمؤلف مـارسيل مـوس عن «علم الاجتـماع والأنثـربولوجيـا» ـ السابق الإشـارة إليه ـ ص ٢٩، ص ص ٥ ـ ١٨ .

٣ ـ ماسيل موس ـ المرجع السابق ـ ص ١٠ .

٤ ـ المصدر السابق ـ ص ص ٩ ـ ١٠ .

٥ ـ مارسيل موس ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦ ,

٦ ـ المرجع السابق ـ ص ص ٢٠١ ـ ٢٢٣ ,

٧ ـ للاستزادة انظر:

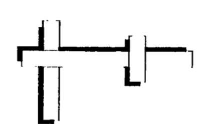
Mouss, Hubert, Melanye D'Histoire des Religions _ Bastide:Sociologie Rligieuse. R. Caillois, Le mythe et L'Homme, et le Sacré - Granet: La Pensée chinoise.

وانظر كذلك :

ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع البدوى ـ مرجع سابق، وانظر أيضا:

ـ دكتور صلاح الفوال ـ البداوة العربية والتنمية ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ .

* * *



الفصل الثانى والعشرون

ماكس فيبر والنسق السوسيولوجى

* مقدمة
* التوليف بين العلم الطبيعى والعلم الروحى.
* القيم وعلم الاجتماع.
* نماذج فيبر المثالية.
* مفهوم علم الاجتماع عند فيبر.
* نظرية البيروقراطية عند فيبر.
* الانتقادات التى وجهت لأنساق فيبر السوسيولوجية .

مقدمة :

لعل ماكس فيبر من أكثر **رواد** علم الاجتماع مساهمة **وإثراء** للنظرية الاجتماعية وله فى هذا المجال **إنجازات** وإسهامات كثيرة ومتنوعة، لكن يبقى أن نقرر أن **أعظم** إنجازات فيبر هو كتابه «الاقتصاد والمجتمع Economico and Society» الذى ظهر بعد وفاته بعامين «عام ١٩٢٢» ويعد هذا الكتاب محتوى لمعظم إسهامات ماكس فيبر فى **النظرية** السوسيولوجية، ولقد ظهر الكتاب على عدة أشكال.. آخرها مجموعة من الكتب **تعالج** كل مجموعة منها قضية أساسية من القضايا التى اهتم **بدراستها** فيبر، ومن بين هذه الكتب.. ثلاث **تمحورت** حول «علم الاجتماع الدينى»، وواحد يدرس «التاريخ الاجتماعى والاقتصادى».. وكتاب **خامس** يتناول «علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية».. **وسادس** تلك المؤلفات وآخرها.. الكتاب الذى تحدث عن «علم الاجتماع المعرفى».

هذا وتتمثل **الإسهامات** السوسيولوجية لماكس فيبر Max Webr (*) من خلال النقاط الآتية:

١ ـ ما بذله من **جهد** وما لقيه من صعوبة لكى يتغلب على **التعارض** القائم بين العلم الطبيعى والعلم **الروحى** Spiritual من جهة، ولكى ينشئ من جهة أخرى **نسقا** سوسيولوجيا يحتفظ بأكبر عدد ممكن من العناصر **القيمية** التى ينطوى عليها كلٌ من العلم الطبيعى **كاتجاه** والعلم الروحى كاتجاه آخر.

٢ - اعتقد ماكس فيبر أنه **يتعين** على العلوم الاجتماعية ـ بما فى ذلك علم الاجتماع ـ أن **تدرس** القيم بشرط ألا تفصل عنها المعايير **والمثاليات** التى تشتق عنها **الموجهات** التى تضبط السلوك الواقعى، ومعنى ذلك كما يقول **تيماشيف** أنه يجب أن تكون العلوم الاجتماعية متحررة من القيم.

(*) عاش ماكس فيبر فى الفترة من ١٨٦٤ إلى ١٩٢٠.



ومن رأى تيماشيف أن فيبر قد **أقام** هذا الاعتقاد على أساس تسليمه بأن العلوم الاجتماعية **تختلف** عن العلوم الطبيعية اختلافا بيّنا، فالعلوم الطبيعية تتجه الاهتمامات الإنسانية خلالها نحو **الضبط** Control، بينما تتجه الاهتمامات فى العلوم الإنسانية نحو **التقويم** Valuation، وبهذا المعنى ـ كما يوضح تيماشيف ـ يصبح **مفهوم** الثقافة ذاته مفهوما قيميا، كما تصبح **الوقائع** الإمبيريقية بالنسبة لنا **ثقافة** نربطها دائما بالقيم، إذن **فصدق** القيم يعتبر من قبيل **الإيمان** والاعتقاد وليس من قبيل المعرفة[1].

٣ - ذهب ماكس فيبر إلى إمكانية وجود **مستوى** أعلى لفهم الظواهر الاجتماعية **بشرط** أن يكون ذلك الفهم سببا بدرجة كافية وملائما بدرجة مناسبة وعلى مستوى المعنى.

ولقد حاول فيبر أن **يستفيد** قدر الإمكان من النسق السوسيولوجى الذى أقامه، وحاول أن يستعين فى ذلك بما يمكن أن توفره العلوم **الطبيعية** من دعم للعلوم الإنسانية تحقيقا لأعلى مستوى ممكن من **تفهم** للظواهر الاجتماعية التى هى موضوع دراسة علم الاجتماع، **واشترط** فيبر حتى يكون الفهم المتاح نتيجة لتعاون العلم الطبيعى مع العلم الروحى.. اشترط أن يكون الفهم **سببا**، ويقول تيماشيف Timasheff إن ذلك قضية تتطلب **تحليلا** ملائما **لثلاثة** تساؤلات أساسية، **أولها** ما هو الفهم السببى الملائم Causally Adequate Understanding ، **وثانيها** ما هو الفهم الملائم ذو المعنى Meaningfully Adequate Understanding ، أما السؤال **الثالث**.. فهو كيفية الربط ما بين الفهم السببى الملائم.. والفهم الملائم ذو المعنى.

* ويقرر تيماشيف أن فيبر قد **أجاب** على السؤال الأول من خلال قوله: إن التفسير السببى الملائم لن يحدث إلا إذا **أسلمتنا** الملاحظات إلى تعميم يؤكد حدوث التتابع للأحداث بذات الطريقة بشرط أن يكون ذلك التعميم **مستندا** على أساس أو سند **إحصائى** وذلك بالنسبة للظواهر التى **يمكن** وصفها وتفسيرها إحصائيا، أما إذا كان ذلك أمرا صعبا.. فيجب **إخضاع** الظواهر الاجتماعية **لأكبر** عدد **ممكن** من المقارنات مع الظواهر المتماثلة سواء كانت تاريخية أو معاصرة.

* أما ما قدمه فيبر من إجابة على **السؤالين** الثانى والثالث، فخلاصة ما قدمه فيبر من وجهة **نظر** تيماشيف عبارة عن موضوعات يصعب استيعابها.(*)

(*) انظر ـ تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٥٥ ـ ٢٦٥ وما بعدها.

٤ ـ قدم ماكس فيبر عدة **تعريفات** خلال كتابه «نظرية التنظيم الاجتماعى والاقتصادى» لعدد من **النماذج** المثالية التى قدمها قبلاعلى النحو الآتى:

(أ) **العلاقة الاجتماعية Social Realationship**: «هى السلوك الذى يصدر عن مجموعة من الفاعلين إلى المدى الذى يكون فيه كل فعل من الأفعال آخذا فى اعتباره المعانى التى تنطوى عليها أفعال الآخرين».

(ب) **الجماعة المنظمة Organized Group**: «وتمثل هذه الجماعة علاقة اجتماعية من خلالها يقوم أفراد معينون وبشكل منتظم بمهمة تدعيم النظام فى الجماعة».

(جـ) قسم فيبر الجماعة المنظمة إلى:

* **الجماعة الإقليمية المنظمة Territorially Organized Group** وهى ـ كتعريف ـ يطلق على الجماعة المنظمة التى يحكمها **نظام** معين يمتد لحدودها الإقليمية الشرعية.

* **الجماعة التى تستند إلى ضبط ملزم Imperatively Goodi-nated Group** وتطلق على الجماعة المنظمة عندما **يخضع** أعضاؤها بحكم عضويتهم إلى ممارسة شرعية **ترتكز** على ضبط ملزم.

* **الجماعة السياسية Political Group** ويطلق على الجماعة المنظمة إذا ما قام **جهازها** الإدارى بتدعيم النظام داخل منطقة **إقليمية** معينة وذلك عن طريق **التهديد** باستخدام العقاب البدنى، **وتصبح** الجماعة السياسية دولة State إذا ما تمكن جهازها الإدارى من احتكار الاستخدام الشرعى **للعقاب** البدنى فى **تدعيم** النظام(*).

٥ ـ على الرغم من أن فيبر **وصف** علم الاجتماع **ذات** مرة بأنه: «تلك الكلمة الشديدة الغموض» إلا أنه عاد بعد ذلك **وعرف** علم الاجتماع بأنه: «ذلك العلم الذى **يحاول** الوصول إلى **فهم** تفسيرى للفعل الاجتماعى؛ لكى **يتمكن** من تقديم تفسير سببى **لمجراه** ونتائجه».

(*) للاستزادة انظر:
دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مصدر سابق، وانظر أيضا ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مصدر سابق ـ ص ص ١١٣ ـ ١١٥.

٦ ـ حدد فيبر **مهمة** علم الاجتماع **وموضوعه** أو المهمة المتخصصة لعلم الاجتماع ـ على حد تعبيره ـ **بأنها تفسير** السلوك فى ضوء المعنى الذاتى وأن موضوع دراسة هذا العلم هو **الظواهر** التى يمكن فهمها فهما ذاتيا، كما أوضح فيبر أن علم الاجتماع يمكن أن يقوم بدور أو **وظيفة** خاصة من خلال فهمه للمفردات المتباينة النموذجية، حيث يستطيع علم الاجتماع بعد ذلك **صياغة** مفاهيم نموذجية تعبر عن العمليات الإمبيريقية[٢].

٧ ـ يرى إنكلز Ales Inkeles أن ماكس فيبر قد كرس الجزء الأكبر من كتاباته وجهده فى علم الاجتماع **لتفسير** وشرح منهجه الخاص المسمى «منهج الفهم» حيث يتعين على علماء الاجتماع عند مناقشتهم للتقلبات التى تطرأ على **التمسك** بالموضوعية والحياد فيما يتعلق بإطلاق الأحكام القيمية فى العلوم الاجتماعية، **يتعين** عليهم من خلال ذلك المنهج أن يدرسوا **الفعل** الاجتماعى من **خلال** تفسير العمليات التى توجه الفاعلين الاجتماعيين خلال المواقف التى يوجدون فيها، أو من خلال السياق الرمزى أو التاريخى الذى يعيشون فيه.

* ويضيف إنكلز أن كل ذلك **يعنى** أن يضع الباحث نفسه فى ظروف الآخرين وأن يتوصل إلى **تفهم** أفعالهم عن طريق الحدس[٣].

٨ ـ ذكر إنكلز فى **مؤلفه** «ما علم الاجتماع» أنه على الرغم من كتابات فيبر العديدة فإنها لم **توضح** بالقدر الكافى **إسهاماته** الحقيقية فى علم الاجتماع، واستشهد على ذلك بما كتبه البروفيسور راينهارد بندكس خلال نقده لدراسات فيبر الشهيرة عن الدين، حيث **قال** بندكس: إن الموضوعات الرئيسية الثلاثة فى دراسة فيبر عن **الدين** كانت تدور حول:

(أ) الكشف عن أثر **الأفكار** الدينية على الأنشطة الاقتصادية.

(ب) تحليل العلاقة بين التدرج **الدينى** والأفكار الدينية.

(جـ) تحديد وتفسير **السمات** المميزة للحضارة الغربية.

ومن هذا المنطلق **استنتج** إنكلز من خلال **موضوعات** دراسة فيبر عن الدين المشار إليها أن(*):

(*) للاستزادة انظر:

Alex Inkeles. whit is Sociolgy. An Interduction to the Discipline and prefession prentice - Hall, Inc, Englewood Cliffe, N.J., U.S.A., 1964.

(أ) الموضوع الرئيسى الأول يمثل **جانبا** آخر من مفهوم علم الاجتماع باعتبار أن علم الاجتماع **ينفرد** بدراسة العلاقات المتبادلة بين مختلف أجزاء المجتمع.

(ب) الموضوع الرئيسى الثالث يعتبر - فى رأى إنكلز - **إشارة** جديدة إلى علم الاجتماع **المقارن** الذى يتخذ المجتمعات **وحدة** للتحليل السوسيولوجى، والذى يبحث - أى علم الاجتماع المقارن - فى العوامل التى **تفسر** نواحى الشبه والخلاف بين **المجتمعات** على امتداد العصور، واختلاف الأماكن التى توجد فيها تلك المجتمعات(٤).

٩ - قدم فيبر - شأنه فى ذلك شأن ماركس وباريتو - نظرية **محدودة** فى الفعل الاجتماعى، واعتبر أن الفعل الاجتماعى أو **السلوك** الإنسانى يجب أن يكون له **معنًى** ذاتى، ومن رأى فيبر أنه لكى **نفهم** سلوك الآخرين **يلزم** ألا نكتفى بما يفعله هؤلاء الآخرون فقط، بل لابد لنا من ملاحظة **المعانى** الحقيقية المتصلة بما يفعلون.

* هذا وقد **ميز** فيبر بين أربعة **أنماط** رئيسية للفعل الاجتماعى هى:

(أ) الفعل النفعى الرشيد:

ويكون **الفعل** Action نفعيا **رشيدا** Rational إذا ما تضمن بعض الفروض التى ترى أن استخدام وسائل محددة ضرورى للوصول إلى **غايات** خاصة معينة.

ويرى فيبر أنه **يجب** على الفاعل الاجتماعى أن **يمتلك** تكاليف متابعة أهدافه الأساسية بأساليب محددة، كما يجب أن **تتوافر** أيضا لدى الفاعل الاجتماعى قيمة خاصة **للهدف** الذى يسعى إلى تحقيقه.

(ب) الفعل القيمى الرشيد:

ويرى ماكس فيبر أنه من خلال هذا **النمط** لا توجد طريقة معينة لقياس فاعلية **الوسائل** المحققة للأهداف، فالهدف يعتبر **نهاية** وذا قيمة فى حد ذاته، بمعنى أنه لا يمكن اعتبار الهدف وسيلة لغايات أخرى(*).

وهنا يمكن اعتبار الأهداف التى يسعى **الفاعل** الاجتماعى لتحقيقها قيما مطلقة، ويكون الفاعل الاجتماعى **مدفوعا** إليها بوعى ويختار من الوسائل ما يحقق إيمانه بتلك **القيم** التى قد تكون قيمة دينية أو أخلاقية أو جمالية.. إلخ.

(*) دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص ١١٦-١١٧.



(جـ) الفعل التقليدى:

ويرى فيبر أن بعض الفاعلين الاجتماعيين **قد يأتون** أنواعا من السلوك بحكم العادات أو المعتقدات السائدة فى جماعتهم أو مجتمعاتهم المحلية **دون** أن يكون لإرادتهم الذاتية **الاختيار** المطلق فى مثل تلك الأفعال.

ولقد اختلفت آراء **علماء** الاجتماع حول هذا النمط من السلوك الإنسانى.. هل هو **سلوك** رشيد أو غير رشيد، فقد رأى البعض أنه سلوك **غير** رشيد لأنه سلوك نابع من مجموعة من الضغوط الأدبية أو المادية التى لم تترك بالتالى للفاعلين الاجتماعيين **حرية** الاختيار بالنسبة للوسائل ولا للأهداف.

بينما ترى الأكثرية أنه سلوك **رشيد** حتى ولو كان هدفه النهائى والوحيد هو المحافظة على التقاليد والعادات نظرا لما يستتبع ذلك من **حفظ** للتوازن الاجتماعى للجماعة أو للمجتمع ككل(٥).

(د) الفعل العاطفى:

ويرى فيبر أن هذا السلوك **يصدر** عن عواطف ومشاعر خاصة **يحياها** الفاعل الاجتماعى، كما أن تلك السيطرة العاطفية هى التى **تتحكم** فى الفعل الاجتماعى برمته وتجعل الفاعل يتصرف **بغير** وعى كامل بالأهداف ولا بالوسائل.

وعلى هذا الأساس اعتبر الفعل **العاطفى** عند جمهرة علماء الاجتماع فعلا ليس قيميا وليس رشيدا، لأن العواطف قد تكون **مذمومة** وقد تكون محمودة، كما أنها قد تكون **عاقلة** وقد تكون عاصفة، لأنه من أبرز **سمات** الفعل العاطفى - كما حدده فيبر - أنه أولا يرتبط بالحالة **المزاجية** للفاعل الاجتماعى، وأنه ثانيا لا يمكن أن **يتشابه** من خلال مواقف غيره من الفاعلين الاجتماعيين(*).

وخلاصة **مجمل** نظرية ماكس فيبر عن **الفعل** الاجتماعى: أنه يرى أن الإنسان لابد أن يتصرف أو يتفاعل فى **ضوء** الأهداف القيمية التى ارتضاها لنفسه، وأنه على الفاعل الاجتماعى أن يختار من **الوسائل** ما يرى أنها محققة لأهدافه،

(*) انظر:
Weber,M., Theory of So ial and Economic Organization, T. Pars and, NewYork , Oxford University Press, 1947,P.P.95 -99.

كما لابد أن **يكون** الفاعل الاجتماعى قبل ذلك كله وبعده، لابد وأن يكون **واعيا** بكل أهدافه ووسائله وبما يتضمنه **سلوكه** من معانى وقيم.

١٠ ـ قدم ماكس فيبر **نظرية** عن **البيروقراطية** تعد من أعظم إنجازاته علاوة على أنها أكثر أعماله **إثارة** للجدل حيث امتدحها فريق، بينما أبرز فريق آخر ما بها من عيوب، واتجه فريق ثالث **لمحاولة** تعديلها للاستفادة بمالها من إيجابيات وتلافى ما بها من قصور.

ويقول تيماشيف أن فيبر نظر إلى **البيروقراطية** بما تتميز به من صورية وتسلسل رئاسى وتقنين باعتبارها شكلا من أشكال **التنظيم** الاجتماعى، كما أن فيبر لم يقصر **تحليله** للبيروقراطية على الظروف السياسية والاقتصادية التى تسود المجتمعات الرأسمالية، ولكنه اهتم بدراسة ذلك «الاختراع الإنسانى العظيم» الذى ابتدعه الإنسان، والذى **يتمثل** فى البيروقراطية[٦].

* وعلى كلٍّ فإن نظرية البيروقراطية لدى ماكس فيبر قد تعرضت للعديد من الانتقادات لعل أبرزها **الانتقادت** الموجهة من طرف كلٍّ من بارسونز، وجولونر، وبلاو، والتى يمكن تلخيصها فى النقاط **الأربع** التالية: (*)

(أ) أن النظرية **متناقضة** مع الكثير من مكوناتها علاوة على **غموض** الكثير من جوانبها.

(ب) أن النظرية **أغفلت** الجوانب غير الرسمية فى البيروقراطية.

(جـ) أن النظرية أهملت دراسة الخلل **الوظيفى** للبيروقراطية.

(د) أن النظرية **لايمكن** الاعتماد عليها كأداة كافية للتحليل.

١١ ـ تعرضت بعض آراء فيبر **للنقد** خصوصا تلك التى أثارها تيماشيف خلال مؤلفه «نظرية علم الاجتماع.. طبيعتها وتطورها»، حيث أوضح:

(أ) أن فيبر كان يميل إلى **تفسير** الواقع الاجتماعى فى ضوء الدافعية الفردية، الأمر الذى ميّع **الحدود** التى تفصل بين علم الاجتماع وعلم النفس.

(*) لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع عليه أن يعود إلى النقد الذى قدمه المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عدالله أبو على ضمن بحثه عن «نقد نظرية البيروقراطية عند ماكس فيبر» ـ المجلة الاجتماعية القومية ـ المجلد الحادى عشر ـ القاهرة ـ مايو ١٩٧٤ ـ ص ص ٢١١ ـ ٢١٨.



(ب) أن معظم كتابات فيبر ارتبطت **إلى** حدٍّ كبير **بالتاريخ** الاجتماعى، أو بتعبير أدق هى **مناقشة** للظواهر التاريخية فى **ضوء** مفاهيم علم الاجتماع، أما الموضوعات التى ناقشها فيبر **مناقشة** سوسيولوجية خالصة فهى قليلة لعل من أهمها . . البيروقراطية والدين وعلم الاجتماع القانونى(٧).

(جـ) إلا أن تيماشيف **يقرر** صراحة أن فيبر واحد من **أعظم** علماء الاجتماع الذين ظهروا خلال القرن العشرين، وذلك **للأسباب** الآتية:

١ ـ أن أعماله قدمت لنا **أمثلة** رائعة على الدراسة الدقيقة الجادة للمواقف الاجتماعية الملموسة والعمليات التى يجب أن تشكل **أساس** أية نظرية سوسيولوجية ملائمة.

٢ ـ أنه أسهم بشكل جلى فى توضيح **الدور** الهام الذى تلعبه القيم فى الحياة الاجتماعية(*).

٣ ـ أنه أوضح لنا كيف نستطيع أن **نحقق** الكثير باستخدام فكرة النموذج المثالى فى العلوم الاجتماعية.

٤ ـ أنه أسهم بشكل كبير فى **فهم** البيئة الاجتماعية وارتباطها بمشكلة المعنى فى الموضوعات الإنسانية(٨).

* * *

(*) للاستزادة انظر:

Max Weber, The Theory of Social and Economic Organization, (trans. A.R. Henderson and Tolcott Parsns), William Hodge, 1947.

المصادر

١ ـ للاستزادة انظر ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الأولى ـ مرجع سابق ـ ص ٢٧٨.

وانظر أيضا ـ دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

٢ ـ للاستزادة انظر ـ تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

وانظر كذلك ـ الدكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق.

٣ ـ انظر ـ إنكلز ـ مرجع سابق، وانظر أيضا ـ الترجمة العربية له المتن والهامش ـ ص ص ٤٢ ـ ٤٣.

٤ ـ للاستزادة انظر ـ المرجع السابق ـ ص ص ٤٣ ـ ٤٤.

وانظر أيضا ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج ـ مرجع سابق.

٥ ـ للاستزادة حول هذا الموضوع انظر ـ بيرسى كوهين ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٢٠ ـ ١٢١.

٦ ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الثانية ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٧٣ـ٢٧٤.

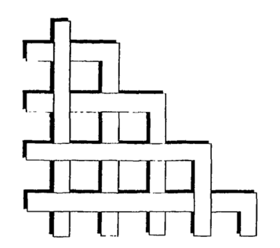
٧ ـ تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

٨ ـ المرجع السابق ـ ص ٢٧٦.

وانظر كذلك ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية ـ مرجع سابق ـ فى فقرات كثيرة منه.

* * *







الباب السابع

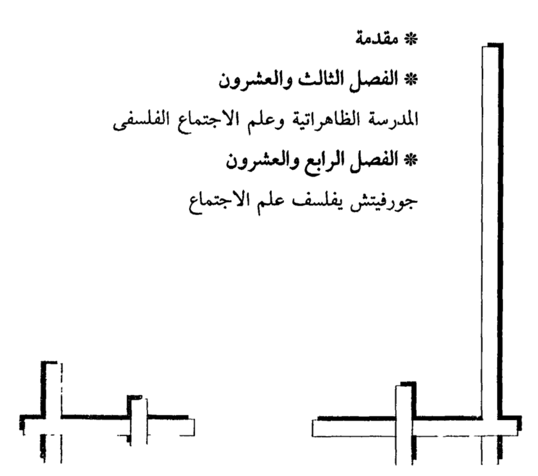
الاتجاه الفلسفى والنظرية الاجتماعية

* مقدمة
* **الفصل الثالث والعشرون**

المدرسة الظاهراتية وعلم الاجتماع الفلسفى

* **الفصل الرابع والعشرون**

جورفيتش يفلسف علم الاجتماع



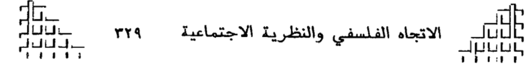
مقدمة حول علم الاجتماع الفلسفى:

مازالت الفلسفة **تمارس** دورها التأثيرى - سواء بوصفها علما أو باعتبارها اتجاها على **مقدرات** العلم بشكل عام - والعلم الاجتماعى بشكل خاص، ونحن لانجد **غضاضة** كسوسيولوجيين فى الاعتراف - ليس فقط بهيمنة هذا الدور الفلسفى **التأثيرى** فى الحاضر فقط وإنما **باستمرار** هذه **الهيمنة** فى المستقبل المنظور أيضا!!

وحتى لاتأخذنا **الكلمات** بعيدا عن القصد.. نقول إن الفلسفة منذ فجر التاريخ كانت هى **الوعاء** الذى احتوى كل أنماط **التفكير** الاجتماعى.. فالفلاسفة هم أول من عنى بهموم المجتمع وشئونه .. ومع الأيام بدأ يطفو على السطح .. **الفلاسفة** الاجتماعيون ضمن اتجاه الفلسفة الاجتماعية!!

ومع استمرار **تيار** الفلسفة الاجتماعية اعتُبِر الكثير من علماء الاجتماع - معاصرين وغير معاصرين - ضمن **منظومة** الفلاسفة الاجتماعيون، كما اعتُرِف بالاتجاه الفلسفى وبدوره المميز فى تطور ونمو **النظرية** السوسيولوجية.. ولم يقتصر هذا الاعتراف على علماء الاجتماع باختلاف اتجاهاتهم فقط وإنما امتد ليضم الاعتراف **الرسمى** على مستوى الدول، وخاصة إذا كانت من الدول التى **أثرى** علماؤها مسيرة علم الاجتماع - كفرنسا مثلا - حيث تولى - حتى زمن غير بعيد - أمور علم الاجتماع **فيلسوف** اجتماعى له سمعته العلمية كأستاذ بجامعة السوربون.. هو چورچ **جورفيتش** .. والذى ظل يدَرِّس علم الاجتماع فى **أحضان** قسم الفلسفة حتى توفى عام ١٩٦٥.

وسنحاول خلال هذا **الباب** بفصليه التعرف على أبرز **الاتجاهات** الفلسفية الاجتماعية ممثلة فى فير كاندت ومونيرو تمهيدا للفصل الذى يليه حيث **نعايش** خلاله إسهامات چورچ جورفيتش السوسيولوجية.



الفصل الثالث والعشرون

المدرسة الظاهراتية
وعلم الاجتماع الفلسفي

* مقدمة
* ألفريد فيركاندت
  - المجتمع عند فيركاندت
  - تعريف المنهج الظاهراتى
  - النظرية الاجتماعية عند فيركاندت
* يول مونيرو
  - خصومته لدوركايم
  - الظواهر ليست أشياء
  - هوية علم الاجتماع عند مونيرو
  - أنماط الأبنية الاجتماعية

مقدمة :

سنحاول خلال هذا الفصل **التعرف** على الاتجاهات الفلسفية من خلال **فكر** وإسهامات كل من: ألفريد **فيركاندت**، ويول مونيرو مواطن **دوركايم** الذى تحداه وأصدر كتابا يعارضه فيه **تحت** عنوان «الظواهر الاجتماعية ليست أشياء» حتى **ننتقل** بعد ذلك ـ خلال الفصل الرابع والعشرين ـ لنتعرف على **فارس** الاتجاه الفلسفى فى علم **الاجتماع** وهو جورج جورفيتش.

* * *

أولا ـ ألفريد فيركاندت وإسهاماته السوسيولوجية:

تتجلى **إسهامات** فيركاندت Alfred Virkandt(*) من خلال مؤلفاته السوسيولوجية العديدة والمنوعة والتى من **أشهرها** جميعا . . الكتاب الذى أصدره عام ١٩٤٨ عن الطبيعة والثقافة **الشعبية** «Natural and cultral Peoples» والذى حوى دراسة **مقارنة** وقيِّمة عن **الثقافة** عند الشعوب المتحضرة والبدائية(**) وكذلك الكتاب الذى أصدره فى عدة **طبعات** كان آخرها فى عام ١٩٤٩ تحت **اسم** «نظرية المجتمع Theory of Society»، هذا ويمكن التعرف على **اسهامات** فيركاندت فى **النظرية** الاجتماعية. اعتمادا على مؤلفيه السابقين وعلى **النحو** الآتى:

(أ) إن **المجتمع** عند فيركاندت هو: «المجموع الكلى للتفاعلات الإنسانية» كما أن وظيفة علم الاجتماع كما **يحددها** فيركاندت هى «السعى لوضع نظرية فى

(*) عاش فيركاندت خلال المدة من ١٨٦٧ ـ ١٩٥٢.

(**) ترجم البعض عنوان الكتاب إلى «الشعوب البدائية والمتحضرة» ونعتقد أن ترجمتنا هى الأقرب للصواب.

المجتمع والثقافـة»، ومن رأى فيركاندت أن ذلك **السعى** لعلم الاجتماع يجب أن يعتـمد على المنهج **الفينومينولوجى** Phenomenolgy الذى يستـمد جذوره من الفلسفة الظهراتية(*) Phenomenalism أو الظاهرية Phenomenenism [1].

ويؤكـد فيـركاندت أن المنهج «الـظاهراتى» هو من المناهج **الممكنة** فى علم الاجتماع إن لم يكن أنسبها جميعا، بل ومن أكثرها **كفاءة** عند فيركاندت[2].

(ب) **يُعَرف** المنهج الظاهراتى باسم منهج **التجريد** الفكرى Ideational ab-straction ويطبق هذا المنهج على المفاهيم **المطلقة**.. أى تلك التى لايمكن ردها إلى مفـاهيم أخرى، ويمكن باستـخدام **منهج** «التجـريد الفكرى» استجـلاء المفاهيم المطلقة ـ محل البحث ـ مـن خلال السعى للكشف عن طبيعتهـا وسماتها **المميزة** لها وذلك باسـتخدام مايعـرف بـ «التأمل **الداخلى** Isternal Ansicht» للمراحل المختلفة أو لمرحلة واحدة حتى ولو كانت **تخيلية**، وبالإضافة إلى التأملية التخيلية لابد للباحث الفينومينولوجى أن يقـارن ما استخلصه من مفاهيم بمجـموعة مفاهيم تم التوصل إليها باستخدام مناهج **بحثية** أخرى[3].

ويقول Timacheff إنه من الممكـن عن طريق **التأمل** الداخلى التوصل إلى فهم الميول **الفطرى** لدى الإنســان، ومن أمثلة هذه الميـول ما يسـمى بـ «عاطـفة الذات Self Sentiment» فضلا عن **الميول** الخاصة بالاعتماد على أحكام الغير [4].

(جـ) يرى **فيركاندت** أن المجتمـع ينهض على «اجتماع أفـراد توجد بينهم رابطة الاعتماد المتبادل» وهذه **الفكرة** ـ كما يؤكد فيركاندت ـ لا تنهض على الفهم السيكولوجى للمجـتمع، إنما تقوم على نوع من **الإلزام** أو الالتزام **الذاتى** الناتج عن **الشعور** الداخلى للأفراد تجاه **مجتمعهم** كما أن الروابط بين مـختلف الأعضاء فى المجتمع تعد تعـبيرا عن الاتصال **المتبادل** بين أولئك الأعضـاء والذى يمكن ـ أى الاتصال ـ أن يتم فى غيبة الحركات الفيزيقية أو التأملات الواعية[5].

(د) حدد فيركاندت **خصائص** المجتمع خلال كتابه «Theory of Society» المشار اليه، وكانت أولى مـلاحظاته.. أن المجتمع **يتصف** إلى حد مـا بـ «الكلية»

(*) باختـصار شديد المذهب أو المنهج الظاهراتى: هو المنهج الذى يؤمن بأن المعرفة محصـورة فقط فى نطاق الظواهر المجردة.

وذلك باعتباره **نسقا** أو بناء يؤثر ويتأثر **بالحادثات** التى تحدث له ـ أى للمجتمع ـ أو لأى جزء من الأجزاء **الداخلة** فيه (٦).

ويؤكد فيركاندت على **حقيقتين** أساسيتين فى نظريته الاجتماعية . . **الأولى** . . أن عددا من التنظيمات الاجتماعية ومنها **الأسر** والقبائل والأمم، تتميز بقدر من المرونة يسمح بأن تكون لها **حياتها** الخاصة، وأسلوبها المميز فى التنظيم والسلوك والنمو والإنجاز. والحقيقة **الثانية** لنظرية فيركاندت هى **الكلية** التى يتسم بها المجتمع باعتباره نسقا **متساندا** ومن وجهة نظر وظيفية (٧).

(هـ) هناك تقارب بين **مفهوم** كل من فيركاندت وزيمل George Simmel فى رؤية كل منهما عن **المجتمع** باعتباره عند Vierkandt «المجموع الكلى للتفاعلات الإنسانية»، **والمجتمع** عند جورج زيمل ليس «وحدة سوسيولوجية مستقلة عن عقول الأفراد» . . (٨).

كما يرى فيركاندت أن **الجماعات** الاجتماعية تتسم هى الأخرى بدرجات **متفاوتة** من التضامن تختلف تبعا **لنوعية** المجتمع المحلى . . وبنفس مفهوم تونيس Toennies عن الاتحادات Associations والمجتمع Gesellschapt والمجتمع المحلى Gemeinschaft (٩).

ويرى **تيماشيف** كذلك أن أفكار فيركاندت تكاد تكون **قريبة** أيضا من مفهوم Maciver عن **الرابطة** Association وخاصة فيما بين الاتحادات والروابط من **تشابه** من حيث تميزها بدرجات متفاوته من التماسك **الجمعى**، ويرى فيركاندت أيضا أن لكل جماعة اجتماعية **روحها** الخاصة التى **تسمو** على الروح الذاتية لأعضائها **كأفراد**.. وذلك راجع ـ كما **أوضح** فيركاندت ـ إلى تغلغل خصائص الجماعة فى **أعماق** كل شخص، فضلا عما يستشعره الأفراد أعضاء الجماعات من **حب** وإعجاب تجاه الجماعات التى ينتمون اليها.

ويرى تيماشيف أن **مفهوم** «الانسجام الجوهرى بين الفرد والجماعة» **ماهو** إلا تأكيد لحب الفرد لما **ينتمى** إليه من جماعات، ومن رأى تيماشيف كذلك أن هذا المفهوم يتسق تماما مع الاتجاه «العقلى التقليدى» الذى كان **سائدا** فى ألمانيا آنذاك، وخاصة ماعُرف به هيجل وأتباعه **وحركتهم** «الرومانسية» (١٠).

* * *

ثانيا ـ مونيرو:

يول مونيرو. . Jules Monnerot هو مواطن **دوركايم** وأشهر خصومه على الإطلاق والذى اصدر عام ١٩٤٦ **كتابه** «الظواهر الاجتماعية ليست أشياء Sociol Facts Are not Things» **ليرد** به على دوركايم.

وعلى كل حـــال.. نحن **سنحاول** التعـرف على إسهامات يول مـونيرو. . سواء من خلال معارضــته الشديدة لدوركايم أو من خلال **تراثه** المتمثل فى كتابه «الظواهر الاجتماعية ليست أشياء» أو من خلال **الدراسة** التى قام بها مونيرو عن «التصورات الأساسية.Fundamental reprsetations ».

(أ) من رأى مونيرو **أن ظواهر** الجاذبية Attreaction هى التى يمكن فهما فهمًا حقيـقيـ لأنها هى وحدها التى **تشكل** منطق علم الاجتمـاع، وخصوصا إذا كان ذلك الفهم **مؤسسا** على منهج التجـريد العقلى أو الفكرى، ويلفت مـونيرو النظر إلى أننا قـد نفهم حـوادث معـينة. .بينمـا نحن نصف فى **الحقيقة** حوادث أخرى **وذلك** راجع إلى أن الفهم المطـلوب يتم فى وجود **الشواهد** الصادقة فى حد ذاتها، كما توجد مثل **تلك** الشواهد فى **الخبرة** المباشرة، ولذلك يحذر مونيرو من محاولات **تأسيس** ذلك الفـهم على الاستـقرار الذى **يؤدى** فى النهـاية الى تشويه **الشواهد** ذاتها(١١).

(ب) أصـر مـونيـــرو بشــدة على **مخالفته** لدوركـايم لاعتـبـاره الظواهر الاجتمـاعية «أشياء» وأصـدر فى ذلك كتابه الشهـير «الظواهر الاجتمـاعية **ليست** أشياء» والظواهر الاجتماعية **عند** مونيرو «ظروف إنسانيـة» محددة زمانا ومكانًا. . كما اعتـبر مونيرو **عواقب** تلك «الظروف الإنسـانيـة» هى **المادة** الاساسـية لعلم الاجتماع ويشبه علم الاجتماع فى ذلك وفقا **لرأى** مونيرو علم التاريخ(١٢).

(جـ) يحدد مـونيرو **هوية** علم الاجتـماع وهدفه. . معـتبرا أن **هدف** علم الاجتماع هو «إضفاء معنى **جديد** على الظواهر الاجتماعـية التى درست فعلا عن طريق علوم **غير** علم الاجتـماع»، وذلك لأن علم الاجتـ ـاع كمـا يعرفه مـونيرو «عبـار عن **أسلوب** مـعـين فى النظر إلـى العلوم الإنسـانيـة الأخـرى **ومقارنة**

عناصرها والبحث عن فـهم جديد للحياة» **ويرفض** أن يكون علم الاجتـماع علما **لدراسة** المجتـمع. . لأنه فى **الأصل** لا يوجد مـايسمى بالمجتمـعات ـ فى رأيه ـ وإنما الموجود مجرد **حالات** من حالات المجتمع. . أو مواقف اجـتماعية **يخبرها** الأفراد(١٣).

(د) لعـــبت **الدراسة** التى قـام بهـا مـونيـرو والتى أطلق عليـهـا اسم «التـصورات الأساسـية» اسـتكمـالا لمحاولات مونـيرو **لوصف** عـملية «الفـهم» وأهدافها. . وانتهى مونيرو أو انتهت **تصوراته**. . إلى مايعتبره «حقيقة» **مؤداها**. . أن كل فرد «يتـسامى على **حدوده** الطبيعـية» ، وتكون **النتيجة** لذلك التسامى، إحداث آثار فى النظام الاجتمـاعى، ومن ثم تتبادل الآثار **التأثير** من خلال مناوئة بعضها لبعض **فتدخل** كل منها فى «منازعات»(١٤).

(هـ) وعلى الرغم من **إنكار** يول مونيرو لوجـود المجتمع . . إلا أنه **يقرر** أنه ليس هناك مجـتمع بدون جاذبيـة، باعتبار أن المجـتمع فى الواقع **محور** تجمع إنسانى تتـنامى خلاله **روابط** التنسيق والتـعاون كمـا تنشأ داخل هذا المجـتمع أو التجمع **نماذج** أو أبنية على أساس **القرب** المكانى والقرابة(١٥).

(و) استخلص مونيرو خلال **دراسته** المشار إليها قبلا. . ثلاثة **أنماط** عامة من الأبنيـة **الاجتماعية** وهذه الأنماط هى. . المجـتـمـع المحلى، والمجـتـمـع ، والرابطة. . وقـال مونيـرو عن النمط **الأخير** «الرابـطة Bund» أن **الرابطة** أو الروابط تتأسس على القرابة والخبرات **العاطفية** المشتركة.

ويقول **تيماشيف**. . إن المفهومين **الأولين** «المجتمع المحلى والمجتمع» قد **صارا** الآن. . ضمن المفاهيم **القياسية** فى علم الاجتماع الحديث(١٦).



المصادر

(١) Alfrerd Vierkandt. Natural and cultural peoples 1948 p..11.

(٢) Alfrerd Vierkandt. Theory of Society . 1949 p.p210 .211.

(٣) N.S. Timacheff . Sociological theory op cit p.p. 344 ` 345.

(٤) Ibid. p.p. 346 ` 347.

(٥) Vierkundt. Theory of Sociery, op. cit. p210

(٦) Ibid. p.20, 8.

(٧) Ibib p.208.

(٨) K.Wolff . The Sociology of C . Simmel, N. Spykmtn the Sociological Theory of Simmel 1925.

(٩) Ferdinand Toennies. Gemeinschaff and Gesellschaft 1932. p.p 118-127.

(١٠) تيماشيف ـ الترجمة ـ مصدر سابق ـ ص ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ ، ص ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(١١) Jules Monnerot. Socoial Facts not things'. paris 1946. p.p. 16-64.
وانظر كذلك تيماشيف ـ الترجمة ـ مصدر سابق ـ ص ٤٤٨ .

(١٢) تيماشيف ـ المرجع السابق ـ ص ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

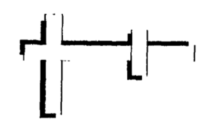
(١٣) انظر المرجع السابق ـ ص ٤٤٨، وانظر مونيرو ـ مرجع سابق ـ ص ٦٩ .

(١٤) انظر دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع وانظر كذلك ـ علم الاجتماع . . المفهوم والموضوع والمنهج، ومعالم الفكر السوسيولوجى المعاصر. لتأخذ فكرة أوضح عن إسهامات مونيرو.

(١٥) يول مونيرو ـ مرجع سابق ـ ص ٦٣، وانظر كذلك ـ تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٤٤٩ .

(١٦) تيماشيف ـ الترجمة ـ المرجع السابق ـ ص ٤٤٩ .

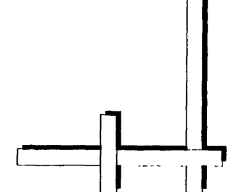
* * *



الفصل الرابع والعشرون

جورفيتش يفلسف علم الاجتماع

* مقدمة.
* ما هى الإسهامات السوسيولوجية لجورفيتش.
* تصنيف علم الاجتماع.
* موضوع علم الاجتماع.
* محاولة تنميط الواقع الاجتماعى.
* أنماط علم الاجتماع.
* اختلاف الظواهر الاجتماعية.
* مستويات دراسة الظواهر الاجتماعية.
* الانتقادات الموجهة لجورفتش.



مقدمة:

فى الربع الأول من القرن العشرين برز عالم اجتماع هو «چورچ جورفيتش» Georges Gurvitch، ولم يكن اهتمامه **الأساسى** هو **التمييز** بين علم الاجتماع وغيره من العلوم، وإنما كان شاغله **الأول** هو تصنيف علم الاجتماع ذاته وتقسيمه إلى علم اجتماع أصغر، وعلم اجتماع أكبر، وقام جورفيتش **بتحديد** مجال اهتمام علم الاجتماع **الأصغر** وجعله يكاد يكون **قاصرا** على «الدراسة الاجتماعية للجماعات الصغيرة»، أما المهمة الأساسية لعلم الاجتماع **الأكبر** ـ كما وضحها جورفيتش ـ فتكاد تكون **قاصرة** على «الدراسة الاجتماعية للجماعات الكبيرة»، ويرى جورفيتش **أن كلا** من علم الاجتماع الأصغر وعلم الاجتماع الأكبر له مناهجه الخاصة وطرقه ووسائله االتى **تميزه** فى البحث عن سواه[1](*).

وأكد جورفيتش على أن «الظاهرة الاجتماعية الكلية» هى **موضوع** الدراسة فى علم الاجتماع، ولما كانت تلك «الظاهرة الكلية» **تبدو** بأشكال متعددة، وتضم العديد من الجوانب، **فلابد** لعلم الاجتماع العام أو الموحد ـ مادام هو الذى يدرسها ـ أن **يتميز** بالتعدد؛ ليتمكن من دراسة تلك الظاهرة المتعددة الجوانب والمختلفة الأشكال.

وانتهى الفكر الفلسفى بجورفيتش إلى **ابتكار** ما يسمى «بعلم الاجتماع التعددى»، ولما كان التعدد وحده لايكفى لدراسة **الواقع** الاجتماعى الذى يتسم بالعمق، فكان لابد أن يبرز على السطح علم قادر على سبر **غور** ذلك الواقع. . وكان هذا **العلم** الوليد هو. . «علم الاجتماع التعمقى».

(*) عاش جورفيتش فى الفترة من ١٨٩٤ ـ ١٩٦٥ .



ولكى لايقع **المشتغلون** بعلم الاجتماع فى **حيرة**، وحتى يؤدى كل من «علم الاجتماع التعددى» و «علم الاجتماع التعمقى» **دوره** كما يجب فى **دراسة** الواقع الاجتماعى، كان لابد من **التمييز** بين مختلف **أنواع** الأنماط الاجتماعية التى يضمها ذلك **الواقع** الاجتماعى الغامض، وتلك كانت هى مهمة «علم الاجتماع التفاضلى» أو «التميزى» وفقا **لابتكار** جورفيتش[٢].

وكان جورفيتش نفسه أول **ضحايا** ابتكاره الفلسفى الجديد، فعندما حاول تنميط **الواقع** الاجتماعى وفقا لما سماه «علم الاجتماع التفاضلى» اتضحت له صعوبة ما انتهى إليه، لالشىء إلا لأنه **انطلق** من تصور أقل ما يقال عنه أنه فلسفى، وإن كان عدد غير قليل من الباحثين قالوا عن **ابتكار** جورفيتش أنه تصور معقد ويضم الكثير من **المتناقضات**، ولايستند إلى أى **حقيقة** إمبيريقية أو جغرافية أو حتى تاريخية[٣].

* * *

ولكن.. ما هى الإسهامات السوسيولوجية لجورج جورفيتش؟!

للإجابة على **السؤال** المطروح نقول إن **الإسهامات** السوسيولوجية لجورفيتش تتمثل فى النقاط **الآتية**:[*]

أولا ـ تصنيفه لعلم الاجتماع:

صنف چورچ جورفيتش علم الاجتماع إلى **نوعين**، الأول هو علم الاجتماع **الأصغر** أى «الدراسة الاجتماعية للجماعات الصغيرة Macro Sociolo-gy»، والثانى هو علم الاجتماع **الأكبر** أى «الدراسة الاجتماعية للجماعات الكبيرة Micro Sosiology» ويرى جورفيتش أن كل نوع ـ علم الاجتماع الأصغر وعلم الاجتماع الأكبر ـ له **مناهجه** الخاصة التى تميزه فى البحث عن سواه[٤]

* * *

ثانيا ـ تحديد موضوع الدراسة فى علم الاجتماع:

أ ـ يرى جورفيتش أن **موضوع** علم الاجتماع هو «الظاهرة الاجتماعية الكلية»، ولما كانت هذه الظاهرة الكلية تبدو **بأشكال** متعددة، وتضم العديد من الجوانب، فلابد لعلم الاجتماع ـ مادام هو الذى يدرسها ـ أن يتميز بالتعددية

(*) عرضنا إسهامات جورفيتش ضمن مؤسسى الاتجاهات السوسيولوجية المعاصرة على الرغم من اقتناعنا أن ما قدمه جورفيتش إن هو إلا احد الاتجاهات الفلسفية لعلم الاجتماع كما سيتضح من المناقشة السريعة لإسهاماته.

ليتمكن من دراسة تلك **الظاهرة** المتعددة الجـوانب والمختلفة الأشكال، ومن هنا ظهر ما يعرف بـ«علم الاجتماع التعددى».

ب - ولما كان **الواقع** الاجتماعى - كما يراه جـورفيتش - يمتاز **بالعمق** إلى جانب التـعدد، فلابـد أن يبرز على **السطح** ما يسمـى «بعلم الاجتماع التـعمقى» الذى يغـوص فى **أعماق** الواقع الاجتمـاعى مبتدئا بالسطح «المـورفولوجى» مارا «بالأبنية الفوقية المنسقة أو المنتظمة» حتى **يغوص** تحت «التيارات الحرة لعلم النفس الجمعى».

* * *

ثالثا - أنماط علم الاجتماع فى تصور جورفيتش:

ولكن جورفيتش وجد أنه لابد - حتى **يؤدى** كل من علم الاجتماع التعمقى وعلم الاجتماع التعددى **دوره** كما يجب فى دراسة الـواقع الاجتماعى **لابد** من **التمييز** بين مختلف أنواع **الأنماط** الاجتماعية التى يضمها ذلك الواقع الاجتماعى، كما **أوكل** جورفيتش هذه المهمة لما يعرف «بعلم الاجتماع التفاضلى أو التميزى».

* * *

رابعا - محاولة تنميط الواقع الاجتماعى:

ولما حـاول جورفيـتش **تنميط** ذلك الواقع الاجـتـمـاعى من **خلال** علم اجتماعه التفاضلى، **اتضحت** له العـشـرات بل المئـات من تلك الأنماط، ولو أنه حاول أن يجمعها فى **عدة** محاور رئيسية هى كما حددها أرمان **كوفييه** كالآتى: (*)

(أ) Le Formes de Sociabilité، أى الأشكال أو **الأنماط** ذات «القابلية للاجـتـمـاع»، وهى **أنماط** Micro Socioligy «ميـكروسوسـيولوجـية» للاتصال الاجتماعى، وتبـدأ عملية تصنيف هذه الأنماط من **الجماهير** فالمجـتمع المحلى ثم الوحدة الاجتمـاعية، وهى كلها **أنماط** تدخل - من وجـهة نظر جـورفيـتش - فى **نطاق** دراسة «علم الاجتماع الأصغر» لأنها **جماعات** صغيرة.

(ب) Le Socites Globoles، أى المجتمـعات **الشاملة** أو الكبـيرة، وهى أنماط Macro Sociology «ماكروسوسيولوجية»، ولقد تم **تمييزها** وفقا للعديد من **المعايير**، كما أخضعها جورفيتش لعدة تغييرات وتعديلات كان آخرها عام ١٩٥٥،

(*) أرمان كوفييه A.Cuvillier، عالم الاجتماع فرنسى معاصر لجورفيتش، ومن أهم مؤلفاته «Oú Na la sociologic Francaise علم الاجتماع الفرنسى إلى أين» والذى أصدره عام ١٩٥٣.



عندما **ضمّن** كتابه «الحتمية الاجتماعية والحرية الإنسانية» تصنيفا للمجتمعات **المعاصرة** الشاملة بدءا بالمجتمع **القيادى** الذى يتواءم مع **الرأسمالية** المتطورة، مرورا بالمجتمع **الفاشيستى** المرتكز على **البيروقراطية**، وصولا للمجتمع الذى **تسوده** المبادئ التعددية الجمعية Collectivisme Pluraliste، وهو مجتمع **مخطط** طبقا لمبدأ **السيطرة** الجماعية للدولة.

* * *

خامسا ـ اختلاف الظواهر الاجتماعية:

أبرز جورفيتش **الاختلافات** الموجودة بين مختلف أنماط الظواهر الاجتماعية، وقال: إن من هذه الظواهر ما هو ذو **بناء**، ومنها ما هو بغير بناء، **وميز** بين النمطين ضمن مقال مطول عن «البناء الاجتماعى» نشره عام ١٩٥٥، ومن خلال استعراضنا للعديد من القضايا التى تناولها جورفيتش نجد من أهمها ما يلى:

(أ) التدرج الحاصل فى **مستويات** العمق، وفى الرموز، وفى الأشكال المتعددة التى **تنظم** السلوك الإنسانى.

(ب) حالة التوازن الحركى والمستمر **لمختلف** الوحدات التى **تتكون** منها هذه التدرجات.

(جـ) القدر من **الوعى** الجمعى الذى **تتسم** به هذه التدرجات والتوازنات.

(د) مجموعة **القوى** التى تدعم تلك التوازنات وتحافظ عليها(**).

(هـ) الدينامية **المستمرة** للظواهر الاجتماعية ذات البناء،، **والتى ترجع** لتعرض هذا البناء فى الواقع للكثير من **عمليات** التشكيل وإعادة التشكيل.. بل وللتحطيم **وإعادة** البناء(*).

* * *

واستطرد جورفيتش محذرا من أن البناء لا يمكن أن يكون جامدا دوما فى الواقع، لأن ذلك البناء يخضع باستمرار للعديد من **عمليات** التشكيل والتحطيم وإعادة **التشكيل** أو البناء مرة ثانية، كما قدم جورفيتش تحذيرا **صريحا** حول أنه

(*) انظر تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الثانية ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٤٣-٤٤٥.

(**) هذا التصنيف نقلناه بتصرف عن المصدر التالى:

La Sociologie, (Ed) Jean Cazeneuve et David victoroff, Centre d'Etude et de Promotion du la lecture, Paris, 1970, pp. 190 - 232.

لا يجب الاعتماد على أى **تفسير** إستاتيكى للأبنية الاجتماعية **لأنه** لا يوجد شىء ثابت فى مجتمع من **أهم** سماته دوام الحركة والتغير.

سادسا ـ مستويات دراسة الظواهر الاجتماعية:

حدد چورچ **جورفيتش** مستويات دراسة الظواهر الاجتماعية من خلال مفهومه لدور «علم الاجتماع التعمقى»، حيث **يجب** أن تتضمن هذه المستويات:[٥]

(أ) الأسس **الجغرافية** والديموجرافية للمجتمع.

(ب) المستوى **الرمزى** الذى يتضح على سبيل المثال فى **استجابة** الناس بطريقة محددة **لرموز** مثل الأعلام «الرايات» وإشارات المرور.

(جـ) الأبنية **الفوقية** المنظمة للمجتمع.

(د) العادات **والممارسات** الاجتماعية.

(هـ) الظواهر **الثورية** أو الإصلاحية.

(و) القيم التى تكمن وراء **النشاط** الملحوظ فى المستوى **السابق** «الظواهر الثورية أو الإصلاحية».

(ز) الواقع الاجتماعى **المباشر** أو العقل الجمعى.

* * *

سابعا ـ الانتقادات التى وجهت لجورفيتش:

تعرض چورچ جورفيتش لانتقادات عديدة لعل من أهمها:

(أ) تأثره بفكر تارد Tard: لأن **العلاقة** التى بين كلٍّ من مستوى الظواهر **الثورية** والعادات والممارسات هى **نفس** العلاقة بين الاختراع والتقليد فى رأى تارد[٦](*).

(ب) تأثره **ببعض** جوانب نظرية **دوركايم** عند حديثه عن مستوى الواقع الاجتماعى المباشر أو العقل الجمعى، حيث أكد دوركايم أنه يتم **الشعور** بالعقل الجمعى فى **أعماق** الشعور الفردى ولكنه يمارس **تأثيره** من خلال عقول الأفراد[٧].

(*) للاستزادة حول فكر تارد انظر:

Tard: Lois de L'Imitation, Les Sociales, Paris 1898.



(جـ) أنكر **كثير** من علماء الاجتماع **التمييز** المنهجى الذى قدمه جورفيتش لعلم الاجتماع وتصنيفه له إلى «علم الاجتماع الأصغر» و «علم الاجتماع الأكبر»، ويرون أنه ينبغى الالتزام بنفس المنطق فى **دراسة** جميع الظواهر الاجتماعية(٨).

(د) أنكر تيماشيف على جورفيتش أن **ينكر** فى إصرار إمكانية استخدام منظور **إستاتيكى** لدراسة الظواهر الاجتماعية؛ لأن كل شىء فى **حركة** مستمرة، ويرتكز تيماشيف فى نقده لجورفيتش حول هذا التصور.. على اعتبار أن دراسة الديناميات الاجتماعية **والتغير** لا تنفصل عند التحليل النهائى عن الدراسة البنائية أو الإستاتيكية لهذا **الذى** يتغير وهو النظام الاجتماعى.

(هـ) أخذ كلٌّ من جان وليم لابيير، وفردناند بروديل، خلال **مقالات** نشرت لهما عامى ١٩٥٣، ١٩٥٨ على **التصنيف** أو التمييز الذى قدمه جورفيتش للأنماط الاجتماعية.. أنه **انطلق** من تصور معقد علاوة على أن الاستمرار فى استخدامه سيؤدى إلى استنباط **أكثر** من ثلاثة وعشرين **صنفا** مختلفا وهو الأمر الذى لا يستند - فى رأيهما - إلى أى **حقيقة** إمبيريقية أو جغرافية أو اقتصادية أو حتى تاريخية(٩).

(و) أخذ عالم **الاجتماع** الأمريكى روبر باك خلال كتابه «المجتمع» الذى صدر عام ١٩٥٥، على جورفيتش **إنكاره** للنزعة التاريخية لأنه لا يمكن أن يكون هناك علم اجتماع بلا **تاريخ،** كما أن الأشكال الاجتماعية لها أيضا تاريخ(١٠).

(ز) يرى فريدريكس أن جورج جورفيتش تأثر كثيرا **بالماركسية إلى** جانب تأثره الشديد **بالتراث** الاجتماعى للمدرسة الفرنسية، وأن إسهاماته تأثرت إلى حدٍّ كبير بتلك الاتجاهات، كما أنه لم يبد **الاهتمام** الكافى بالمناهج الفنية للبحث فى علم الاجتماع(١١).

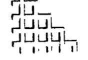
(ح) إلا أن جورج جورفيتش على **الرغم** من ذلك كله له بصمات واضحة على علم الاجتماع بصفة **عامة** وعلى علم الاجتماع الفرنسى بصفة خاصة.. ويمكن أن نوضح ذلك بإيجاز فى النقاط الآتية:

١ - يعود لجورفيتش الفضل فى **تحويل** الاهتمام الأساسى لعلم الاجتماع الفرنسى من مجرد **محاولة** وصف الواقع الإنسانى إلى تكريس كل الإمكانيات الاجتماعية فى سبيل **تغيير** ذلك الواقع الإنسانى، ولقد نبع هذا الاتجاه لدى

جورفيتش من اعتقاده بأن المهمة **الأساسية** لعلم الاجتماع إنما هى دراسة التغيرات التى تنبع من المجتمع(*).

٢ ـ جورفيتش هو الذى **حرر** علم الاجتماع الفرنسى من الوقوع فى فخ الأدوات الفنية **للبحث** فى علم الاجتماع، بمعنى عدم **الخضوع** أو الالتزام بما تفرضه تلك **الأدوات** بشكل تام أو مطلق وخصوصا إذا ما كان الاهتمام بالمناهج الفنية للبحث سوف يكون فى **النهاية** على حساب تحليل الواقع الاجتماعى نفسه(١٢).

(*) دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مصدر سابق ـ ص ص ١٢٦ـ١٢٧.



المصادر

١ ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص١٢٣.

٢ ـ المصدر السابق ـ ص ١٢٤.

٣ ـ المرجع السابق ص١٢٥ ـ ١٢٧.

٤ ـ لجورفيتش العديد من الكتب والمقالات التى يدور معظمها حول علم الاجتماع، ويمكن الاطلاع على موجزها ضمن تيماشيف نظرية علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص٤٣٩ ـ ٤٤٥.

٥ ـ للاستزادة انظر تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الثانية ـ ص ص ٤٤٠ـ٤٤١.

٦ ـ المرجع السابق ـ ص ٤٤١.

٧ ـ المرجع السابق ـ ص ٤٤١.

٨ ـ المرجع السابق ـ ص ٤٤١.

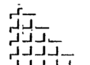
٩ ـ للاستزادة انظر ـ قراءات معاصرة فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص٨٨.

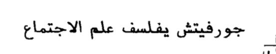
١٠ ـ المصدر السابق ـ ص ٨٨.

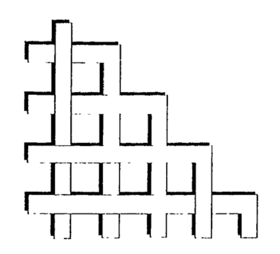
١١ ـ Friedriche, W. Sociology of Sociology, New York. 1960.

١٢ ـ للاستزادة انظر: Gorges Gurvitch, Essay in Sociology, op. cit.

* * *



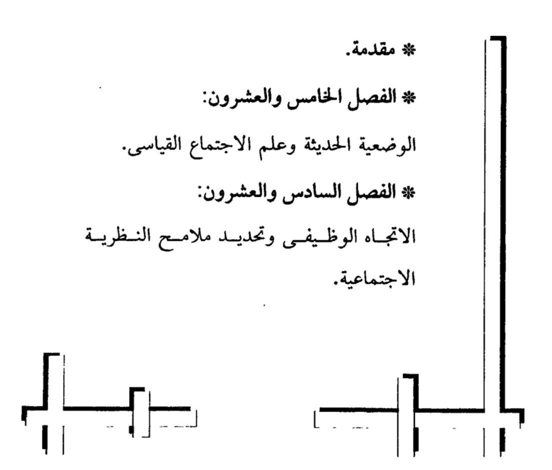






الباب الثامن

الاتجاهات المعاصرة فى النظرية الاجتماعية



* مقدمة.

* الفصل الخامس والعشرون:

الوضعية الحديثة وعلم الاجتماع القياسى.

* الفصل السادس والعشرون:

الاتجاه الوظيفى وتحديد ملامح النظرية الاجتماعية.

مقدمة:

الأمر الذى **لاشك** فيه أن كل ما **قلناه** عن علم الاجتماع ورواده وعاشقيه وآبائه المؤسسين، علاوة على مبدعى الاتجاه المعاصر فيه، لاشك أن كل الذى قلناه على امتداد أبواب الكتاب السبعة **السابقة..** والتى استغرقت منا **إطلالة** زمنية.. عبر قرون ما قبل الميلاد.. حتى ثمانينيات القرن العشرين.. كل تلك الإسهامات، وما ستضيفه عليها الاتجاهات المعاصرة فى علم الاجتماع.. والتى هى ـ فى رأينا ـ إطلالة على علم **اجتماع** القرن الحادى والعشرين.

لاشك أن كل تلك الإسهامات ـ مهما صغرت.. أوكانت **بغير** قصد ـ هى التى رسمت **الخطوط** الرئيسية التى حددت ملامح النظرية السوسيولوجية المعاصرة.. وذلك بالقدر الذى أتيح لنا.. لنطلع فيه على **أصول** ومصادر تلك الإسهامات..!!

إلاأننا **نحب** أن نوضح ـ فى هذه العجالة ـ أن تلك الإسهامات والاتجاهات.. رغم ما **اتسمت** به فى معظم الأحيان بالطابع **الجدلى..** واحتوائها بالتالى على العديد من المتناقضات.. ورغم **الاختلافات** الواضحة على وحول تلك الإسهامات إلا أنها على الرغم من كل ذلك قد **أسهمت** فى تحديد معالم الطريق أمام التطورات التى **ميزت** مسيرة علم الاجتماع ونحن على **مشارف** القرن الحادى والعشرين..!!

ولا يقلل من الأهمية **التاريخية** لتلك الإسهامات والاتجاهات.. أن علم الاجتماع المعاصر **يختلف** معها فى عدة نقاط رئيسية سواء من حيث **المنهج** أو الموضوع..!!

هذا.. **ويتميز** الفكر السوسيولوجى المعاصر **بالتشعب**.. فضلا عن تشتت الاتجاهات.. وما استتبع ذلك بالضرورة من **الاختلاف** الواضح فى مناهج البحث.!

وعلى كلٍّ.. نحن سنعرض هنا لبعض ملامح **النظرية** السوسيولوجية المعاصرة.. باعتبارها **قمة** الفكر النظرى **المعاصر** لعلم الاجماع.. فى نهاية القرن العشرين وقد اعتمدنا على اتجاهين باعتبارهما إطلالة سوسيولوجية على مشارف القرن الحادى والعشرين، وهذان **الاتجاهان** هما:

* الوضعية **الحديثة** بفرسانها الثلاثة:

لندبرج - أوجبرن - ستيوارت تشايين.

* الاتجاه **الوظيفى** بعميديه:

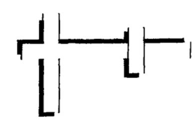
رادكليف براون - مالينوفسكى.

وقبل أن **نختم** هذه المقدمة السريعة.. نقول أن تيماشيف يرى - ومعه كل الحق - أنه على الرغم من **الاختلافات** الواضحة والصارخة أحيانا بين مختلف الاتجاهات **السوسيولوجية** الحديثة والمعاصرة.. سواء من حيث اختيار أفضل **المناهج** لجمع المعلومات **وتنظيمها**، أو من حيث **الإطارات** التصويرية التى تستخدم كأدوات للتحليل.. على الرغم من ذلك كله فإن تيماشيف **يرى** أنه هناك **التقاء** تدريجى يحدث الآن بين مختلف تلك **الاتجاهات** يدعو- أى ذلك الالتقاء - إلى وصف المرحلة الحالية - أو اعتبارها - **فترة** التقاء بين كل تلك الاتجاهات على **الرغم** مما يسودها من **تنافس** بين الإطارات المرجعية المختلفة(*).

* * *

(*) Nicholes S. Timacheff, Sociological Teory, N.Y. - 1955.





الفصل الخامس والعشرون

الوضعية الحديثة
وعلم الاجتماع القياسي

* مقدمة
* اهتمامات الوضعية الحديثة
* الركائز الأساسية للوضعية الحديثة
* رواد الوضعية الحديثة
* الأيكولوجية البشرية والوضعية الحديثة

مقدمة:

وكان رد الفعل بعد **تفلسف** جورفيتش وغيره من رواد علم الاجتماع.. هزة هى أشبه ما **تكون** بالصدمة الكهربائية حتى **يفيق** رواد علم الاجتماع من شطحاتهم وتأملاتهم، وتمثلت تلك الصدمة فيما يعرف «بالوضعية الحديثة».. كأحد الاتجاهات المعاصرة فى علم الاجتماع والتى **انطلقت** من اعتبار أن **القياس** أو العد هو **المنهج** الذى يجب أن **يعتمد** عليه علم الاجتماع سواء عند الدراسة أو الاستقصاء.

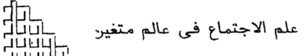
ولم يكن علم الاجتماع هو **الملزم** وحده - فى رأى أصحاب هذا الاتجاه - باعتماد العد والقياس **أساسا** منهجيا، وإنما كان ذلك **قدر** كل العلوم - الطبيعية منها والإنسانية **ومازال** - بما فى ذلك علم الاجتماع.

وعلى كل حال نحن سنتناول باختصار أهم **إنجازات** الوضعية الحديثة.. كما سنلقى الضوء على **ثلاثة** من أشهر روادها، وهم:

- **جورج لندنبرج** G.Lundberg.
- **وليام أوجبرن** W.Ogburn.
- **ستيوارت تشابين** S.Chapin.

باعتبارهم **فرسان** الاتجاه الوضعى الحديث.. أو الوضعية **المحدثة** أو الحديثة كما يحلو **للبعض** أن يسميه.

* * *




اهتمامات الوضعية الحديثة:

الوضعية **الحديثة** أو المحدثة(*) كاتجاه، تسعى جاهدة إلى تأكيد الفكرة القائلة بأن العلم وحده هو الذى **يملك** الحقيقة.

والمقصود بالعلم هنا هو: مجموعة العلوم **الطبيعية** التى تشكل فى الواقع نقطة **انطلاق** أصحاب المدرسة الوضعيـة الحديثة سواء المتطرف منهم كلندنبرج.. أو المعتدل كأوجبرن وتشايبن(**).

المهم أن أصحاب المدرسة الوضعية الحديثة **سعوا** بكل الجد للبحث عن نظرة موحدة لعالم **الظواهر** طبيعية كـانت أو إنسانية، وذلك من خلال **تطبيق** المناهج والنتائج التى توصلت إليها العلوم الطبيعية(١).

هذا وقد **اعتبر** تيمـاشيف أعمال المدرسـة الوضعية الحـديثة **بمثابة** محاولة جديدة فى مشكـلة قديمة **واجهت** علم الاجتـماع منذ ظهوره، فقـد كان الهدف الأسـاسى للرعـيل الأول من علمـاء الاجتـمـاع ـ ولازال هدف مخـتلف العلمـاء والباحثين خلال مراحل تطور علم الاجتماع عبر كل العصور ـ هو إرساء **الدعائم** العلمية لدراسة المجتمع(٢).

* * *

ركائز الوضعية الحديثة:

وعلى كلٍّ يمكننا أن نحدد أهم **ركائز** الوضعية الحديثة على النحو الآتى:

١ ـ النزعة الكمية:

وهذه النزعة كعنصر من **عناصر** الوضعية الحديثـة ترتكز على اعتبار **أن العد** أو القياس **منهج** ضرورى سواء عند الدراسة أو عند **الاستقصاء العلمى فى كل** مجالات **العلوم** بما فى ذلك علم الاجتماع.

* أطلق تيمـاشيف هذا المصطلح «الوضعيـة المحدثة» لأن هناك وضعيـة قديمة فى تاريخ الفكر الاجتـماعى منذ كونت وسبنسر ـ انظر تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الأولى ـ ص ٢٢٣.

** هناك من هو أشـد توغـلا فى التطرف بالنسـبة للوضـعـية المحـدثة، منهم جـورج زيف Ziph، ونيقولا راشفسكى Rasncvsky عـلاوة على هورنل هارت Hart.. ولقد سـيطر الاتجاه الوضعـى المتزمت على معظم الدراسات الاجتماعية فى أمريكا.. وهناك الآن.. عـلم الاجتماع الرياضى.. ولقد لعبت الإسهامات السوسيولوجية لكل من زيف وراشفسكى وهارت دورا مهما.. ليس فى الا يكون للوضعية الحديثة دور وإنما فى تقديم العديد من الحلول لكثير من المسـائل والمشكلات التى يمكن للعد والقياس أن يكون له دور حاسم فى حلها.

٢ ـ النزعة السلوكية:

ترتكز النزعة السلوكية فى الوضعية الحديثة على **دعاوى** مؤداها أن الشعور لا يمكن **معرفته** موضوعيا، أى لا **يمكن** إخضاعه للوسائل **الكمية**، وكذلك الاستبطان لا يمكن أن يكون **مصدرا** للمعرفة.

ولذلك فمن **واجب** علم الاجتماع ـ قياسا على علم النفس ـ أن يهتم بدراسة **السلوك** الممكن ملاحظته وإخضاعه **لوسائل** العد والقياس فقط.

٣ ـ المعرفة الوضعية «الأبستمولوجيا»:

حيث يجب أن تكون **المعرفة** أولا وقبل كل شىء **نتيجة** مباشرة أو غير مباشرة **للانطباعات** الحسية وما قد يترتب عليها، على اعتبار أن حقيقة أى شىء ما تتوقف بالدرجة الأولى على **إمكانية** حدوثه كليا أو جزئيا على هيئة مجموعة من الانطباعات الحسية، أى أن يكون شيئا **واقعا** وملموسا[٣].

* * *

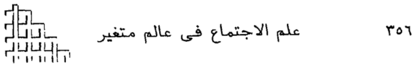
رواد الوضعية الحديثة وإسهاماتهم:

أولا ـ لندبرج Lundberg[*]:

أكد لندبرج خلال **مؤلفه** القيم «البحث الاجتماعى Social Research»، وكذلك **ضمن** كتابه «أسس علم الاجتماع Foundation of Sociology» الذى أصدره عام ١٩٣٩ ويعد أشهر مؤلفاته على الإطلاق.. **أكد** لندبرج على أن **القياس** الكمى يعد ضروريا إذا ما أراد العلم أن **يقدم** وصفا وتحليلا أكثر **دقة** للظاهرة أو الظواهر التى يدرسها.

ولدى لندبرج قناعة حتمية بأن كل العلوم إنسانية كانت أو غير إنسانية هى أولا وأخيرا وسيلة **تكيفية**.. وبصرف النظر عن النزعة **السلوكية** التى ارتكز عليها لندبرج.. فقد وضح **التكيف** الذى يميز العلوم الإنسانية ومنها علم الاجتماع.. على **أساس** أن كل الظواهر ـ بما فيها الظواهر **الاجتماعية** التى هى موضوع دراسة علم الاجتماع ـ فى **خضوعها** للدراسة العلمية إنما تتشكل نتيجة

* ولد لندبرج عام ١٨٩٥ وتوفى عام ١٩٦٦م.



بتحولات الطاقة، ويقصد بها الحركة Motion التى تحدث فى الجانب الطبيعى من الكون - **ووفق** زمان ومجال معينين.

ومن رأى لندبرج أن **المجال** الكونى يمكن تعريفه من أجل **الدراسة** بأنه «الموقف Siuation».. ليؤدى فى النهاية إلى **تشبيه** السلوك الإنسانى الذى يصدر عن **الأشخاص**.. بتلك الحركات التى **تصدر** عن العالم الطبيعى أو الكونى. ومن ثم يهتم علم الاجتماع بدراسة الظواهر الكونية الاجتماعية، بينما **تهتم** العلوم الطبيعية بدراسة **الحركات** الطبيعية الكونية.

ومن هنا كانت **قناعة** لندبرج بأنه لا يمكن دراسة الظواهر الاجتماعية بعيدا عن أساليب العد والقياس.. فضلا عن **تأكيده** المستمر على أهمية، بل ضرورة **اعتماد** علم الاجتماع وغيره من العلوم الإنسانية عند دراسته للظواهر الاجتماعية. . على أساليب العد والقياس، وقدم لذلك الكثير من المقاييس **والتصميمات** المأخوذة عن **الرياضيات** المتقدمة. . وعن العلوم الطبيعية عامة[٤].

* * *

ثانيا - أوجبرن Ogburn:

قدم أوجبرن Ogburn العديد من الإسهامات السوسيولوجية **المتطورة** خلال مؤلفه «التغير الاجتماعى Social Change[*]» حيث مازالت **بصمات** تلك الإسهامات **واضحة** على النظرية السوسيولوجية المعاصرة حتى الآن.

ولعل من أهم **إنجازات** أوجبرن خلال مؤلفه **المشار** إليه، هو استبداله مصطلح «التطور الاجتماعى» الذى كان **سائدا** آنذاك (ما قبل عام ١٩٢٣) بمصطلح «التغير الاجتماعى».

هذا فضلا عن أن أوجبرن **خلال** مؤلفه «التغير الاجتماعى» المشار إليه، قدم أول دراسة سوسيولوجية استخدمت مفهوم **الثقافة** بطريقة منظمة تشير إلى «النتاج المتراكم للمجتمع الإنسانى»، كما استخدم أوجبرن فرض **«التخلف الثقافى Cultural Lag»** من **منظور** جديد مؤداه أن جانبا كبيرا من **التراث** الاجتماعى للإنسان يدخل فى نطاق الثقافة المادية، وإن التكيف مع هذه الثقافة يعتبر أمرا ضروريا، وذلك لأن التغيرات التى تحدث فى الجوانب المادية للثقافة تسبق التغيرات

(*) أصدره أوجبرن عام ١٩٢٣ ويعد أبرز إسهاماته السوسيولوجية.

التى تحدث فى الثقافة **اللامادية**.. وأن هناك العديد من الأمور التى **تحول** دون التكيف الثقافى فكان من الأمور الحتمية **حدوث** ما يعرف «بالهوة الثقافية».

هذا علاوة على ما أكده أوجبرن من **ضرورة** قياس أشكال التخلف المختلفة والآثار الناجمة عنها(٥).

ورغم استعانة **أوجبرن** بالأساليب الرياضية المتقدمة.. ودعوته المستمرة إلى أن علم الاجتماع فى مسيس الحاجة إلى **قياس** الظواهر الاجتماعية من خلال الاعتماد على المقاييس **الرياضية** المتطورة.. إلا أنه لم يلزم علماء الاجتماع بأن يكونوا رياضيين بالضرورة.. وإنما أكد على **أهمية** ذلك.. «كلما كان ذلك ممكنا».. ومن هنا اعتبره الكثير من العلماء.. مع **تشابين** Chapin قطبى الاعتدال فى الوضعية المحدثة.(*)

* * *

ثالثا - ستيوارت تشابين:

أكد تشابين Chapin على أهمية **الرسوم** البيانية الرمزية باعتبارها وسيلة أساسية من وسائل **تحديد** النظم.. خلال مؤلفه الشهير.. «النظم الأمريكية المعاصرة» الذى أصدره عام ١٩٣٥(**).

هذا وقد **عرف تشابين** النظم بأنها «أنماط من السلوك البشرى، أو هى شبكة من الاستجابات الشرطية Conditioned Responses، وعادات فردية، واتجاهات»، وجاء تأكيد **تشابين** على أهمية **الرسوم** البيانية باعتبار أنها تساعد على **إدراك** أنماط العلاقات التى يصعب رؤيتها، وهذه العلاقات يجب أن تخضع فى رأى **تشابين** للقياس(٦).

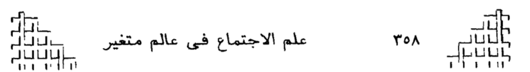
هذا ومن **الإسهامات** المبرزة **لتشابين** فى النظرية السوسيولوجية المعاصرة: استعانته بالمنهج **التجريبى** فى البحوث والدراسات السوسيولوجية.

ويرتكز المنهج التجريبى على **استخدام** منطق التجربة المعملية حتى يمكن الكشف عن الأهمية السببية، وذلك عن طريق ملاحظة **حالتين** أو أكثر من حالات النسق الاجتماعى فى **موقفين** مختلفين حسب موضوع الدراسة وطبيعتها،

(*) للاستزادة حول آراء أوجبرن فى التغير الاجتماعى انظر:

Ogburn, Social change with to culture and Original Nature, New York, Vking, 1950.

(**) الكتاب اسمه.. Contemporary Amecican Institution



كأن يقوم الباحث **بملاحظة** سكان مجتمع ما ـ فى حالة **التهجير** مثلا ـ قبل وبعد إعـادة توطينهم، أو أن يقوم بدراسـة **آثار** الإسكان على مـعدلات **الوفيات** أو الجريمة مثلا . . إلخ[٧].

* * *

الأيكولوجيا البشرية والوضعية الحديثة:

أثرت الأيكولوجيا البشرية Human Ecology ـ التى اعتبرها تيماشيف وثيقة الصلة بالوضعيـة الحديثة[٨] ـ أثرت النظرية السـوسيـولوجيـة المعاصـرة من خلال **الكشف** عن الارتباط بين الأساس البـيولوجى للظواهر **الاجتماعية** من ناحية، والبيئة الجغرافية من ناحية أخرى.

ومن أبرز **فرسان** الأيكولوجية البـشرية أموس هاولى Hawley، وكلٌ من روبـرت بـارك R. Park وبيـرجس Burgss، لكن تـبـقـى دراسـة هـاولى عن «الأيكولوجيا البشرية»(*) من أبرز الدراسات التى تحدد **معالم** الأيكولوجيا البشرية فى الـوقت **الراهن**، ولقـد نشـرت هذه الدراسـة عام ١٩٥٢، والتى أصـبـحت الأيكولوجيـا البشرية ـ بناء عليهـا ـ مبحثـا من مباحث علم الاجـتماع **الحضرى**، وعلم الاجتماع الحضرى كما هو **معروف** أحد فروع علم الاجتماع العام[٩].

ويعود **الفضل** فى ذلك **لهاولى** Hawley الذى قـرر أن **المحور الأساسى** للتنظيم الاجـتمـاعى والسلوك هو **التأثير** الذى يحدثه المجـتمع الحـضرى، ذلك المجتمع الذى **يتميز** بزيادة الحجم والكثافة واللاتجانس، كما أن أهم **سمات** التنظيم الاجـتمـاعى فى المدن هى العلمـانيـة، ونمو الجـماعـات الثـانوية، وتزايد **تقسيم** الأدوار، وعدم **وضوح** المعايير، وشدة الحراك الاجتماعى.

هذا وقد قرر تيماشيف أن **النظرية** السوسيولوجية الحديثة فى علم الاجتماع الحضرى **تدين** بالفضل إلى كـثير من الـدراسات الإمبيـريقيـة التى أجراها هاولى وغـيره «بارك وبيـرجس»، حـيث **قدم** هؤلاء جـميـعا **أعمالا** رائعـة **فى** مجـال الأيكولوجيا البشرية[١٠].

* * *

(*) للاستزادة حول الأيكولوجيا البشرية انظر:

Hawley, A.N., Human Ecology, A Theory of comunty structure the Ronald Press Company, New York, 1950.

المصادر والتعليقات

(١) دكتور محمد عاطف غيث ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ٨٥.

(٢) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٣٤٦.

(٣) انظر دكتور محمد عاطف غيث ـ مرجع سابق ـ ص ص ٨٨ ـ ٨٩، وانظر أيضا ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥.

ولمن أراد الاستزادة حول الوضعية الحديثة والدراسة النقدية الممتازة التى أعدها تيماشيف عنها، عليه أن يعود إلى دكتور عاطف غيث ـ مرجع سابق ص ص ٨١ ـ ٩٦، وتيماشيف الطبعة الأولى ص ص ٢٢٣ ـ ٢٢٢٨، ٣١٧ ـ ٣٥٠.

(٤) G.A. Lundberg; Social Research, 2nd ed., New York, Longmans, Green, 1942, p. 24.

وانظر أيضا ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ ص ٣٢١.

(٥) انظر تفسيرات أوجبرن المتعددة للتخلف الثقافى ضمن كتاب «علم الاجتماع» للدكتور محمد عاطف غيث ـ مرجع سابق ـ ص ص ٩٤ ـ ٩٦، وكتاب «نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها» لنيقولا تيماشيف ـ الترجمة ـ ص ص٣٤٢ ـ ٣٤٣، ولنتعرف أيضا على ما أثارته نظرية التخلف الثقافى من تساؤلات ومعارضات لا تقلل من أهميتها فى رأينا كعلامة بارزة ـ مع مصطلح التغير الاجتماعى ـ من علامات النظرية السوسيولوجية المعاصرة.

(٦) يقول تيماشيف أن **تشابين** وتلاميذه من بعده قد صمموا ـ على مدى سنوات طويلة ـ عددا من المقاييس بهدف قياس صور مختلفة من السلوك النظامى؛ كالمكانة الاجتماعية، وآثار الإسكان، والبيئة الأسرية والشخصية. ولقد بلغت تلك المقاييس درجة عالية من التقدم وخصوصا منذ عام ١٩٥٠، انظر:

تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٣٤٤.

(٧) يرى تيماشيف فى مؤلفه السابق ـ ص ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦، أنه بالرغم من

الدراسات العديدة التى أجراها **تشايين** معتمدا على منهجه التجريبى فى البحث إلا أن هذا المنهج لم يفتح آفاقا جديدة؛ ذلك لأن التغيرات المصاحبة يسهل التنبؤ بها بشكل أفضل إذا ما درست عن طريق الملاحظة بالمشاركة، على اعتبار أن هناك شكوكا كثيرة تحوم حول صدق المقاييس التى تقيس الظواهر النظامية أو تعبر عنها برموز رياضية، وذلك على الرغم من أنه توجد الآن بحوث سوسيولوجية كثيرة تسير على نهج **تشايين**.

(٨) المرجع السابق - ص ٣٥١.

(٩) المرجع السابق - ص ٣٥٧.

(١٠) للاستزادة انظر:

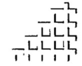
أ - دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص ١٣٣ - ١٣٩.

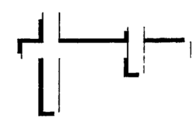
ب - دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع: المفهوم والموضوع والمنهج - مرجع سابق - ص ص ٤٠ - ٤٢.

جـ - دكتور صلاح الفوال - النظريات فى علم الاجتماع - مرجع سابق.

د - دكتور صلاح الفوال - علم الجتماع بين النظرية والتطبيق - مرجع سابق - فى فقرات كثيرة منه.

* * *





الفصل السادس والعشرون

الاتجاه الوظيفى
وتحديد ملامح النظرية الاجتماعية

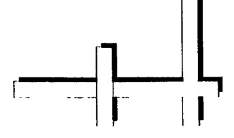
* مقدمة
* مكانة الوظيفية

مفهوم الوظيفية ومعناها

* دور الاتجاه الوظيفى فى النظرية السوسيولوجية
* رواد الوظيفية وإسهاماتهم

راد كليف براون ـ دور كايم ـ مالينوفسكى.

* تيماشيف والاتجاه الوظيفى.



مقدمة:

وبعد **الإفاقة** من الصدمة ـ صدمة العد والقياس ـ ظهر اتجاه آخر شكل ملمحا أساسيا من ملامح النظرية السوسيولوجية المعاصرة، **ونقصد** به «الاتجاه الوظيفى». . والذى **نهض** على أساس أن النسق الاجتماعى يمثل نسقا حقيقيا تؤدى أجزاؤه المختلفة عدة وظائف أساسية **لتأكيد** الكل وتثبيته وأحيانا لاتساع نطاقه وتقويته، ومن ثم **تصبح** الأجزاء المتفرقة متساندة ومتكاملة فى إطار نسق كلى عام وموحد. . على نحوٍ ما.

هذا **ويسود** الاتجاه الوظيفى فكرتان أساسيتان، تنهض **الفكرة** الأولى على ضرورة «دراسة الوحدات الكبرى فى المجتمع». . بينما تنطلق الفكرة الثانية من ضرورة **التركيز** ـ سواء من حيث الاهتمام أو الدراسة ـ على. . «وظيفة الوحدات الصغرى فى المجتمع» محل **التحليل** السوسيولوجى.

هذا ويرجع كثير من العلماء **الفضل** فى ظهور الاتجاه الوظيفى إلى دوركايم. . من خلال **مزجه** بين الافتراضات العضوية وبين المادة الأنتوجرافية التى جمعها غيره من العلماء عن بعض القبائل الأسترالية، وإلى **إخضاعه** ذلك المزيج إلى **التحليل** الوظيفى.

* * *

وعلى كلٍ نحن سنلقى بعض **الضوء** هنا وفى عجالة على عدة نقاط هى:

١ ـ مكانة **الوظيفية** كاتجاه.

٢ ـ مفهوم الوظيفية ومعناها.

٣ ـ معالم **الفكر** الوظيفى.

٤ ـ أهم **رواد** الوظيفية، وهم:

دوركايم ـ رادكليف براون ـ مالينوفيسكى.

الانتقادات التى وجهها تيماشيف للوظيفية.

* * *

مكانة الوظيفية:

يؤدى **الاتجاه** الوظيفى Funcational الآن دورا رئيسيا ومرموقا بالنسبة للنظرية السوسيولوجية المعاصرة **للدرجة** التى لا نكاد **نلمح** معها أى عالم أو باحث سوسيولوجى بصفة عامة، أو أنثربولوجى بصفة **خاصة**، إلا وقد شكل الاتجاه **الوظيفى** ملمحا رئيسيا لديه **سواء** فى دراسته أو منهجه أو تفسيراته.

ولقد صارت هذه **الظاهرة** ـ ظاهرة الوظيفية ـ من **العمومية** بدرجة يؤكد معها عدد غير قليل من علماء الاجتماع أن **دراسة** مسائل علم الاجتماع تتجه **بالضرورة** اتجاها وظيفيا وبنائيا[1].

* * *

مفهوم الوظيفية:

حدد تيماشيف **مفهوم** الاتجاه الوظيفى، ولخص ـ على حد تعبيره[*] ـ **القضية** الوظيفية التى تدور حولها كتابات الوظيفيين على **النحو** الآتى:

«أن النسق الاجتماعى يمثل **نسقا** حقيقيا تؤدى **أجزاؤه** فيه وظائف أساسية لتأكيد **الكل** وتثبيته، وأحيانا لاتساع **نطاقه** وتقويته، ومن ثم تصبح الأجزاء متساندة **ومتكاملة** على نحو ما[2].

* * *

(*) للاستزادة انظر .

دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٤١ـ١٤٨.

معنى الوظيفية:

الوظيفية **كاصطلاح** من أكثر الاصطلاحات التى ثار حولها **الجدل** فى العلوم الاجتماعية، وذلك نظرا **للاستخدامات** المختلفة لكلمة «وظيفة -Funca tion» وعلى كل **المستويات**، إلا أن هناك **شبه** اتفاق بين علماء الاجتماع والأنثربولوجيا الثقافية حول عدة **معانى** للوظيفية معظمها مستمد من العلوم البيولوجية، فقد **اتفق** كلٌ من رادكليف براون Braoun ومالينوفيسكى -Malinowi sky (*) على أن **لب** التحليل الوظيفى Functional Anslisls يكمن فى **دراسة** الجانب الذى تلعبه الفقرات **الثقافية** والاجتماعية فى المجتمع.

كما أن هناك قبولا ـ من خلال الكتابات **الحديثة** فى علم الاجتماع(*) ـ لربط الوظيفية **بنمط** النشاط الذى يقوم به الجزء أو الكل بحيث لا يكون غيره قادرا على أن يقوم بمثله، وهو ما **يطلق** عليه مصطلح «قائد الأجزاء»(**).

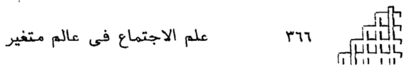
ولهذا **ارتبط** الاتجاه الوظيفى **بالتنظيم** الاجتماعى الذى يتميز بنشاط معين واستخدام خاص، وما ينطوى عليه عمل التنظيم من عمليات تقوم بدور التكامل[٣].

ولو حاولنا **التحديد** الدقيق لمعنى الوظيفية.. لتبين لنا.. **صعوبة** فهم الوظيفية كمصطلح. وهذه الصعوبة ترجع فى الأصل **للتباين** الشديد لمفهوم الوظيفة Function، **والوظيفية** Functional من جهة، ويعود كذلك للاختلاف فى استخدام **المفهومين** للتعبير عن أشياء متباعدة ومعانى **مختلفة**.. ونحن نجد عالما مبرزا مثل **سوروكين** Pitirim Sorokin قد استخدم مصطلح «الوظيفية» بمعنى **رياضى** حيث اعتبر أن **مقدار** أهمية أحد المتغيرات إنما يشير فى الواقع إلى **أهمية** متغير آخر.

أما الاستخدام **الغالب** «للوظيفية» إنما يعنى من وجهة نظر الأنثربولوجيين.. الإسهام الذى يقدمه الجزء إلى الكل الذى قد **يكون** ـ أى الكل ـ **مجتمعا** أو

(*) ويتفق معهم فى ذلك لنتون Linon، كما استخدم دوركايم أيضا نفس المعنى.

(**) قد يستخدم مصطلح التحليل الوظيفى Functional Analysis بمعنى دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها عمليات أو آثارا لبناءات اجتماعية معينة، مثل أنساق القرابة والطبقة، كما قد تستخدم صيغة مركبة.. كما يبدو فى أعمال بارسونز هى التحليل الوظيفى البنائى Structural-Funcational.

ثقافة، وقد **يتسع** المفهوم السابـق للوظيفية فيشيـر إلى مختلف **الإسهامات** التى يقدمها مثلا المجتمع **للجماعات** الأصغر التى يضمها.

إذن.. **غموض** مصطلحى.. «الوظيفة والوظيفية» احتاج فى رأى بعض النقاد السوسيولوجيين ـ إلى استخدام مصطلحات أخرى **لفك** طلاسمها[٤].

ولقد أمكن بعد ذلك تحديد مفهوم **الوظيفية** ومعناها بشكل دقيق من خلال ربط الكلام عن الوظيـفية بـالإشارة إلى **هدف** لا شعـورى وموضـوعى فى وقت واحد، أو بعبـارة أخرى فإننا **ننظر** إلى الظواهر الاجتماعية أو الـعمليات باعتبارها **متجهة** نحو تحقيق أهداف محددة[٥].

إلا أن تيمـاشيف يرى أن **معنى** الوظيفـية يجب أن **يتسع** أكثـر مما هو عليه الآن، وإن كان يرى أن عـالم الاجتـماع الوظيفى سـيظل واقفا عـلى أرض صلبة مادام قد **قيد** نفسـه بالإجابة على التـساؤلات التى تدور فـقط حول **الإسهامات** التى تؤديها الأجزاء المختلفة من أجل **تدعيم** الكل وتأكيده أو العكس، ومادام هو أيضا ـ أى عالم الاجتماع الوظيفى ـ ظل مهتما فقط **بدراسة** طبيعة ومدى تكامل عناصر **النسق** الاجتماعى[٦].

* * *

معالم الاتجاه الوظيفى:

الاتجاه **الوظيفى** تسوده الآن ـ بل تتنازعه أحيانا ـ فكرتان رئيسيتان:

١ ـ الأولى... ترى ضرورة **دراسة** الوحدات الكبرى فى المجتمع.

ودعـاة هذا الاتجـاه يقيمون دعواهم **ارتكـازا** على الاتجـاه العـضوى فى علم الاجتماع.

٢ ـ الثانية... تركز اهتمامها على **وظيفة** الوحدات الصغرى فى المجتمع واعتبارها محل التحليل السوسيولوجى.

ويستمد أصـحاب الاتجاه الثانى **أصولهم** من علم النفس الجـشـتلتى وعلى الأخص **ديناميات** الجماعات.

(*) انظر ـ الدكتور صـلاح الفوال ـ علم الاجتماع بـين النظرية والتطبيق ـ مرجع سابق، وانظر كـذلك ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٤٣ـ١٤٥.

ومن الطبيعى أن يكون لكل اتجاه **نقاده**، إلا أن بعض النقاد يفضلون رد **هاتين** الشعبتين إلى الاتجاه الوظيفى العام **نظرا** لأن خصائص ذلك الاتجاه الوظيفى الكلى أو العام تنطبق على كلٍ من الفكرتين المشار إليهما بشكل عام(٧)(*).

* * *

نمو الاتجاه الوظيفى:

يمكننا أن **نتتبع** نمو الاتجاه الوظيفى فى النظرية السوسيولوجية المعاصرة من خلال النقاط الآتية:

* * *

*** - دوركايم والوظيفية:(*)**

يعتبر كثير من العلماء أن **الفضل** فى ظهور الاتجاه الوظيفى فى النظرية السوسيولوجية والأنثربولوجيا **يعود** بالدرجة الأولى إلى دوركايم، وبالذات إلى **مزجه** بين الافتراضات العضوية وبين المادة **الأنتوجرافية** التى جمعها غيره من العلماء عن القبائل الأسترالية، وإلى إخضاعه هذا المزيج إلى **التحليل** الوظيفى(٨).

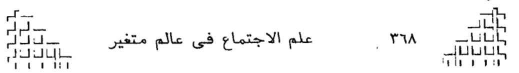
* * *

*** - رادكليف براون والوظيفية:**

أعاد رادكليف براون **صياغة** تعريف إميل دوركايم لوظيفة النظم الاجتماعية، وركز بالذات على **استبدال** لفظ «الحاجات» بعبارة أخرى هى «الظروف الضرورية للوجود أو للمعيشة»، حيث كان **دوركايم** قد عرف وظيفة النظم الاجتماعية على **اعتبار** أنها «تقوم بإشباع حاجات الكائن الاجتماعى».

ولم **يكتف** براون بذلك بل **عمق** معنى الوظيفية وامتدت رؤياه إلى ملاحظة وجود **بناء** اجتماعى يكون الأفراد فيه الوحدات الأساسية للمجتمع، حيث يرتبطون بعضهم **بالبعض** الآخر من خلال **مجموعة** من العلاقات الاجتماعية التى **تترابط** فى كلٍّ متكامل، ويعود الفضل فى استمرار **البناء** الاجتماعى إلى عملية الحياة الاجتماعية(٩).

(*) للاستزادة انظر حول إسهامات دوركايم:
صفحات ٨٦، ٩١، ٩٢ من مؤلفنا النظريات فى علم الاجتماع - مرجع سابق - وانظر أيضا الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب.



مع الأخـذ فى الاعتـبار أن **الحياة** الاجتـماعيـة فى أى مجتـمع ما هى إلا **محصلة** الوظائف التى يؤديها البناء الاجتماعى.

* ـ مالينوفسكى والنظرية الوظيفية للثقافة:

أسهم مالينوفسكى فى **نمو** الاتجاه الوظيفى ليس فـقط عن طريق العديد من دراساته **الحقلية** التى قام بها (١)، وإنما عن طريق اهتمـامه بدراسة **الثقافة** التى اعتبـرها «وحدة عالية من التنظيم تضم مجـموعة من **الفنون** العمليـة إلى جانب نسق من العادات».

كما **قدم** مالينوفسكـى «النظرية الوظيفية الثقـافية» عندما قـال: إن وحداتها **الحقيقية** هى النظم، وقـد عرف **النظم** على اعتبار أنها: «مـجموعات من وجوه النشاط التى تنتظم حول حاجات معينة».

ولقد **عاد** مالينوفسكى فعرف النظم فى إطار نظريته الوظيفية للثقافة بأنها:

«جـماعـات النـاس **موحـدين** لمتابعـة نشاط مـعين، ومن خـلال توحدهم المستمـر ينشأ **التنظيم** الاجتـماعى والعادات والـتقاليـد والسلطة وغيـر ذلك من العناصر الثقافية»(*).

هذا وقـد ارتكزت **النظرية** الوظيفـية للثقافـة على مجموعـة من المسلمات والقضايا من أهمها:

١ ـ أن بنى الإنسان **يحتاجون** للطعام والإنجاب والحماية.

٢ ـ الدوافع الإنسـانية **فسيولوجية** الأساس والأصل وإن كـانت تأخذ بناء جديدا **مكتسبا** عن طريق العادات.

٣ ـ الإنسان لا يعـيش حياته وحـيدا بل **ينتظم** ضمن أسر وعشـائر وقبائل ومجتمعات تكون الزعامة والسلطة فيها منظمة ثقافيا.

٤ ـ أن **الإشباع** الثقافى للحاجات البيولوجية الأولية ليس **حقا** مجردا بغير واجب(١١)

* * *

(*) دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مصدر سابق ـ ص ص ١٤٥ـ١٤٦.

تيماشيف والاتجاه الوظيفي:

١ ـ لاحظ تيماشيف أن الاتجاه الوظيفى لم **يحدد** بوضوح العلاقة ما بين المجتمع والفرد، على الرغم من أن أحد رواد الاتجاه **الوظيفى** وهو وليم توماس قدم **تحليلا** رائدا للعلاقات الوظيفية المتبادلة بين الشخصية والثقافة(١٢).

٢ ـ ثم إن **القضية** الوظيفية التى تدور حولها كتابات **الوظيفيين** يمكن تحديدها وفقا **لرأى** تيماشيف على النحو التالى:

أن النسق الاجتماعى يعد **نسقا** حقيقيا.. تؤدى أجزاؤه وظائف أساسية **لتأكيد** الكل وتثبيته، وأحيانا لاتساع نطاقه **وتقويته**، ومن **ثم** تصبح هذه الأجزاء متساندة ومتكاملة على نحو ما.

ويرى تيماشيف كذلك أن الاتجاه **الوظيفى** خاصة فى الأثنولوجيا والأنثربولوجيا **الثقافية**.. قد نشأ على يد بواس Fraz Boas، كما **يرى** كذلك أن الوظيفية فى الأنثربولوجيا قد **نمت** وتطورت فيما بعد حتى **تواجه** النزعة **التطورية** وساعد على ذلك **تحلل** النزعة التطورية إلى نظريات جديدة مما ساعد على **تطور** الوظيفية، كما أدى تحلل النزعة **الانتشارية**.. هى الأخرى إلى نظريات جديدة.. أدى إلى نفس **النتيجة** وهى تطور الاتجاه الوظيفى، ومما هو جدير بالذكر أن الوظيفيين **يعارضون** ما تنطوى عليه النظرية الانتشارية من اتجاهات تاريخية(*).

٣ ـ لاحظ تيماشيف ما **تعانيه** المناهج المستخدمة فى الاتجاه الوظيفى من ضعف نتيجة لاعتمادها على **حدس** الباحث أو على قدرته على **ملاحظة** الوظائف المختلفة التى تؤديها **البناءات** الفرعية أو وحدات النسق.

٣ ـ تكشف **النظرة** العامة للاتجاه الوظيفى ـ فى رأى تيماشيف(١٣) ـ عن **حقيقة** مؤداها أن ذلك الاتجاه ـ الوظيفية ـ لا يزال **محتاجا** إلى اكتشاف «نغمة أساسية» يدور حولها **النسق** الاجتماعى الثقافى، وذلك لكى يمكن وصف البناء الاجتماعى والثقافى فى ضوء إطار من المفاهيم الوظيفية الخالصة(١٤).

* * *

(*) النزعة الانتشارية تمثل وجهة نظر الأثنولوجيين وهى تؤكد انتشار الاختراعات من مراكز ثقافية محدودة العدد، إلا أن تلك المراكز تلعب دورا بارزا فى النمو الثقافى.



المصادر والتعليقات

(١) انظر: دكتور محمد عاطف غيث - علم الاجتماع - مرجع سابق - ص٩٧.

(٢) تيماشيف - الترجمة - الطبعة الثانية - مرجع سابق - ص٣٦١.

(٣) دكتور محمد عاطف غيث - مرجع سابق - ص ص ١٠٠ - ١٠١.

(٤) K.Merton, Social Theory and Social Structure, Glencoe, Ill. The Free Press, 1949, pp.321-327.

(٥) نقل تيماشيف هذا المفهوم عن دارس علم الاجتماع البلجيكى چان Janne خلال محاولته - أى چان - تقديم تصور لنظرية عامة جديدة تحاول أن تربط الاتجاهات الأساسية فى علم الاجتماع المعاصر ربطا تكامليا، وكان ذلك عام ١٩٥٤ - انظر تيماشيف - مرجع سابق - ص٣٨٠ المتن والهامش رقم ١٦.

(٦) تيماشيف - المرجع السابق - ص٣٨١.

(٧) دكتور محمد عاطف غيث - مرجع سابق - ص١٠١.

(٨) المرجع السابق - ص ص١٠٤ - ١٠٨.

(٩) Redcliffe, Brawn, A.R. Structure and Function in primtive society, 1942.

(١٠) انظر دكتور صلاح مصطفى الفوال - علم الاجتماع البدوى - مرجع سابق - ص ص ٣٥٠ - ٣٥٣.

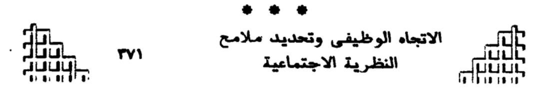
(١١) Malinowski, B. Ascientific Theory of Culture, Chped Hill, University of Nrth Carolina Press, 1944.

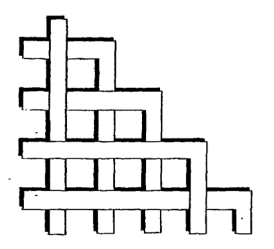
(١٢) للاستزدة انظر - تيماشيف - الترجمة - الطبعة الأولى - مرجع سابق - ص ص٢٤٨ - ٢٥٧.

(١٣) المرجع السابق - ص ص٣٧٨ - ٣٧٩.

(١٤) دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص١٤٥ - ١٤٧، وانظر كذلك مؤلفنا عن النظريات فى علم الاجتماع - مرجع سابق - ص ص ٣١٢ - ٣٢٤.

* * *







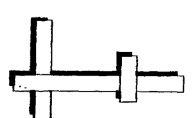
الباب التاسع
الاتجاه النظرى
ومستقبل علم الاجتماع

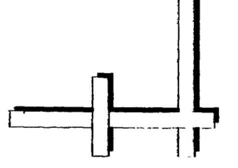
* مقدمة
* **الفصل السابع والعشرون**

روبرت ماكيفر ومفاهيم علم الاجتماع
* **الفصل الثامن والعشرون**

فلوريان زنانيكى ودوره فى نمو الاتجاه النظرى
* **الفصل التاسع والعشرون**

تالكوت بارسونز وإثراء النظرية الاجتماعية





مقدمة:

علم الاجتماع النظرى أو النسقى Systematic Sociology يشكل اليوم **الظاهرة** الأساسية فى **النظرية** السوسيولوجية المعاصرة، صحيح أن الاتجاه النظرى **نشأ** أول ما نشأ فى أمريكا وسيطر على ميدان علم الاجتماع فيها بفضل الأربعة **الكبار سوروكين** Sorokin، **بارسونز** Parsons، **زنانيكى** Zna-nicki، **وماكيفر** Maciver، وغيرهم ممن كانت لهم **إسهامات** مختلفة فى بناء النظرية فى علم الاجتماع النسقى من **أمثال** جورج هومانز Homans، بيتر بلاو Blau، هانز جيرث Gerth، رايت ميلز Mills، وتشارلز لوميز Loomis، إلا أن ذلك الاتجاه **النظرى** أصبح معترفا به من جمهرة علماء الاجتماع وباحثيه فى العالم وخصوصا فى أوروبا واليابان(*).

ويقول تيماشيف أن مصطلح النسق System، والذى يعد **محور الاتجاه** النظرى، إنما **يدل** على «كل مركب تترابط فيه **الأجزاء** وتتكامل حول نواة مركزية».

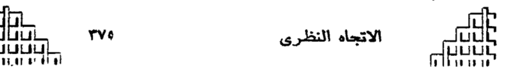
ومن رأى تيماشيف أن مصطلح «النسق» ليس **جديدا** على علم الاجتماع فقد **سبق** أن استخدمه سبنسر Spencer، كما احتل مركزا **جوهريا** فى آراء باريتو(**)، وذلك بصرف النظر عن الاتجاه الخاطئ الذى اتبعه باريتو Pareto خلال دراسته للمجتمع كنسق اجتماعى(***).

---

* حذر تيماشيف من الإفراط فى تبنى مصطلحات جديدة فى علم الاجتماع بدعوى أن هذا الإفراط يهيئ أو يتيح الفرصة لمن يريدون تشويه سمعة علم الاجتماع.

** انظر ـ الفصل العشرين ضمن الباب السادس من هذا الكتاب لتأخذ فكرة أوضح عن الإسهامات السوسيولوجية لباريتو

*** حيث اعتمد باريتو على رد الظواهر الاجتماعية إلى عمليات عقلية، وقد عارضه دوركايم بشدة كادت أن تدمره كعالم سوسيولوجى.



أما أصحاب الاتجاه النظرى فيرون **خلال** تناولهم لمفهوم النسق وتطبيقه على المجتمع، يرون أن كلمة «نسق» تشير إلى السلوك البشرى فى المجتمع[1].

وعلى كلٍّ نحن سنتحدث خلال هذا الباب بفصوله الثلاثة عن أهم رواد الاتجاه النسقى، وهم:

أ ـ روبرت ماكيفر.

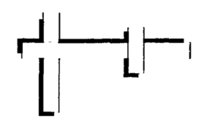
ب ـ فلوريان زنانيكى.

جـ ـ تالكوت بارسونز.

أما سوروكين **فارس** الاتجاه النسقى الأول فسنتحدث عنه خلال الفصل الثلاثين ضمن الباب العاشر من هذا الكتاب، لأن **سوروكين** فى رأينا يعد صاحب النصيب الأوفر فى تحديد **مستقبل** علم الاجتماع.. أو على الأقل كان له نصيب لا ينكر فى وضع علم الاجتماع على **عتبات** القرن الواحد والعشرين.

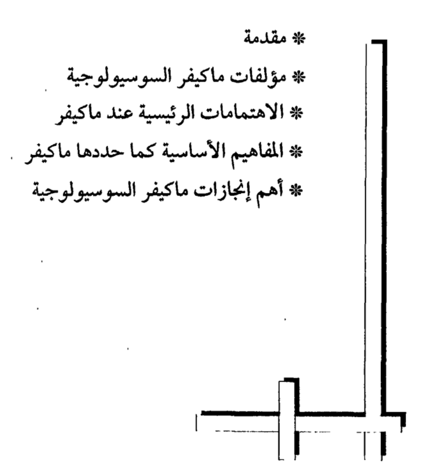
* * *



الفصل السابع والعشرون

روبرت ماكيفر ومفاهيم علم الاجتماع



مقدمة :

يرى تشارلز بيدج C.Page أن هناك **تشابها** إلى حدما بين زنانيكى وروبرت ماكيفر Robert M. Maciver **سواء** من حيث الأصل أو من حيث الزمالة فى الدراسة ومن حيث العمل فى التدريس . وكذلك ميل كل منهما إلى **التأليف** العلمى، وإن كان ماكيفر متفوقا إلى حدٍّ ما على صديقه **القديم** زنانيكى حيث إن ماكيفر يمتلك **قدرة** خاصة على التوليف والتفسير والدمج، فاستثمر كما يجب التراث السوسيولوجى الضخم.. وأسفر ذلك الاستثمار عن **تمكين** ماكيفر من إقامة نسق واضح للنظرية السوسيولجية.

ومن **المعروف** عن ماكيفر كذلك أنه تأثر علميا وفكريا بكلٍّ من دوركايم Durkheim وهربرت سبنسر Spencer وسيمل G.Simmel وسمول Smal علاوة على تونيس Toennies .

وعلى كل فإن **إسهامات** ماكيفر فى النظرية السوسيولوجية تتجلى من خلال مجموعة الكتب الشهيرة التى أصدرها، وخصوصا فى **مجال** علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية **التطبيقية**، ومن أبرز ماكتبه فى هذين المجالين:

١ ـ المجتمع المحلى Community عام ١٩١٧.

٢ ـ المجتمع Socity بالاشتراك مع تشالز بيدج عام ١٩٣١، وأعيد **طبع**

(*) عاش ماكيفر فى الفترة من ١٨٨٢ ـ ١٩٥٦ .

هذا الكتاب مرتين فميا بعد عامى ١٩٣٧ ، ١٩٤٩، كما **ترجم** إلى عدة لغات من بينها العربية[١].

٣ ـ العلية الاجتماعية Social Causation عام ١٩٤٢ .

* * *

سمات مؤلفات ماكيفر السوسيولوجية

يقول تيماشيف إنه من **الأحكام** الممتازة التى قيمت مؤلفات ماكيفر فى علم الاجتماع، تلك التى تصف إسهاماته بأنها ذات **أربعة** جوانب:

أولها : أنه ـ أى ماكيـفر ـ وضع خلالها مجـموعة هائلة من **مفاهيم** علم الاجتماع الأساسية على **أساس** منهجى، ولم يكتف ماكيـفر بوضع تلك المفاهيم بل قدم **تفسيرات** مثمرة لها.

ثانيها : أن مـاكيـفر قـد ساعـد فى صد طوفـان **النزعة** الوضعيـة المتطرفة والإمبيريقية الفجة.

ثالثها : أن ماكيـفر أعاد ـ خلال مؤلفاته العـديدة ـ تأكيد **الفكرة** التى ترى الإنسان **كائن** مبدع له آمال **وأحاسيس** وطموحات ودوافع وقيم ذاتية.

رابعها : وأخيرا، فإن ماكيفر قد **أوضح** بجلاء أن الكتابة فى علم الاجتماع يمكن أن تكون **جميلة** وواضحة وفنية . . بل وأدبية أيضا [٢].

* * *

الاهتمامات الأساسية لماكيفر

انصب اهتمام ماكيفر الأول على ثلاث ظواهر رئيسية هى:

أ ـ **التوليف**، بما له من قـدرة خاصـة على **تفسير** وإدماج المواد المتـنوعة المأخوذة عن التراث الضخم للعلوم الاجتماعية بصفة خاصة ومن **تراث** الإنسانية بصفة عامة.

ب ـ إقامة **نسق** واضح للنظرية السوسيولوجية.

جـ ـ إصرار **ماكيفر** على أن عالم الاجتماع **الناضج** لابد له من أن يكون ذا قدرة تمكنه من الاستيعاب الكامل للمـفاهيم المنظمة التى تواجه الجهود **الخاصة** بعلم الاجتماع.

* * *

المفاهيم السوسيولوجية كما حددها ماكيفر

حدد ماكيفر بدقة تامة عددا من المفاهيم السوسيولوجية، ولم يكن ذلك التحديد هدفا فى حد ذاته بقدر ماكان وسيلة لغاية، هى أن تشكل هذه التحديدات فى النهاية الإطار الرئيسى لنظريته فى البناء والتغير الاجتماعيين.

* هذا ومن المفاهيم التى حددها ماكيفر بدقة ولاتزال على أصالتها حتى اليوم ما يلى:

- المجتمع Society
- المجتمع المحلى Community
- الجماعة Group
- الرابطة Association
- النظام Instution
- النظم الاجتماعية Social Systems
- الاتجاهات Attitudes
- المصالح Intersts
- السنن الاجتماعية Social Godes
- الطبقة الاجتماعية Social Class
- الحشد Social Aggregate
- الثقافة Culture
- الحضارة Civilisation
- الحقائق الاجتماعية Social Facts
- العلاقات الاجتماعية Sociol Relations

* وإذا ما استعرضنا بعض هذه التحديدات لأهم تلك المفاهيم[٣] لتبين لنا أن:

(أ) المجتمع Socity من خلال مفهوم ماكيفر له .. عبارة عن الإطار الكلى، أو هو النسيج العام الذى يتكون من العلاقات الاجتماعية.

(ب) **المجتمع المحلى** Community أطلق ماكيفر **مصطلح** المجتمع المحلى على كل جماعة من الناس تقيم فى منطقة محدده وقد يكون المجتمع المحلى قرية أو مدينة.. عشيرة أو قبيلة . . بلدة أو حيا.. دولة أو أمة.

(جـ) **الرابطة** Association هى فى **مفهوم** ماكيفر منظمة تستهدف خدمة عدد من المصالح الخاصة. . هى فى الغالب. . مصالح **الأعضاء** المنتمين إليها.

(د) **الجماعة** Group وتتكون الجماعة من **مجموعة** من الأفراد تجمعهم علاقات اجتماعية لها طابع **خاص** ومحدود، وتؤدى الجماعة وظائفها المحددة لها سلفا، والجماعة **جزء** من المجتمع وتتسم بالتلقائية.

(هـ) **النظام** Institution .. أو المؤسسة أو **المنظمة**.. وتطلق على كل جماعة من الناس.. منظمة أو **عمدية** هدفها تحقيق مصالح خاصة.. وهى **أولا** وأخيرا مؤسسة اجتماعية تنشأ كتعبير عن الإرادة الإنسانية التى **تتجسد** فى إنشاء وإدارة المنظمة لتحقق أهدافها.

(و) **الثقافة** Culture .. هى باختصار شديد.. **المنتجات** البشرية التى تخدم قيما معينة(٤).

* * *

الإنجازات السوسيولوجية لماكيفر

يمكننا أن نحدد أهم إنجازات ماكيفر السوسيولوجى على النحو الآتى:

أولا ـ أثرى الفكر الاجتماعى عامة . . والفكر السوسيولوجية خاصة من خلال عدد من **المؤلفات** التى وجدت صدى طيبا عند جمهور وعلماء الاجتماع، وخاصة العرب منهم، وبالذات من خلال مؤلفه الضخم «**المجتمع** society» الذى أصدره عام ١٩٣١ بالاشتراك مع تشارلز بيدج C. Page، والذى صدرت منه عدة طبعات معدلة عام ١٩٣٧ وعام ١٩٤٩ ولقد ترجم هذا الكتاب بعدة **لغات** منها العربية كما سبقت الإشارة إليه(٥).

وإلى جوار كتاب «المجتمع» يوجد كتابه عن «**المجتمع المحلى** Community» . . الذى صدر عام ١٩١٧، وكتاب «**العلية الاجتماعية** Social Causation» الذى صدر عام ١٩٤٢ . وكتاب «**المجتمع: تباينه وتغيره** Society: Its Structure Change » الذى صدر عام ١٩٤٠، **علاوة** على مجموعة من الكتب فى مجالات النظرية السياسية، والاقتصاد، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية التطبيقية.

ثانيا ـ وحد ماكيفر المفاهيم السوسيولوجية بطريقة **مكنت** علماء الاجتماع من أن تكون لهم لغة **مشتركة**.. بمعنى ثبات المفاهيم من حيث الفهم، والتطبيق ومن حيث الزمان والمكان، ولقد سبق أن **عرضنا** العديد من هذه المصطلحات وما يقصد منها. . وعلى سبيل **المثال** . . عندما يذكر مصطلح «النظم الاجتماعية Sys-Social tems» فإن ذلك **يعنى** الصورة العامة للعلاقات أو الأنماط الاجتماعية، ولو استعملنا مصطلح العلاقات الاجتماعية Sacial Relations فليكن معلوما لدى الجميع أن العلاقات الاجتماعية **هى** الترجمة السلوكية للتفاعل بين الفاعلين الاجتماعيين، ولو تعرضنا **لمفهوم** «المجتمع Sociaty» فمعنى ذلك أن المجتمع هنا ـ هو **النسيج** العام ـ للمجتمع ـ الذى تتحرك فى إطاره كل العلاقات الاجتماعية(٦).

ثالثا ـ عرف ماكيفر علم **الاجتماع** بأنه «علم العلاقات الاجتماعية»، وأكد على أهمية التعاون بين علم الاجتماع وبقية العلوم الاجتماعية الأخرى، ومنها القانون والسياسة والاقتصاد. . كما **اهتم** ماكيفر بتوضيح **شمولية** علم الاجتماع عند دراسته لمختلف الظواهر الاجتماعية.. بمعنى **عدم** انفراد علم الاجتماع **للتصدى** وحده لأى من الظواهر، مركزا اهتمامه على جانب واحد فقط.. إنما لابد له من النظر إلى الظاهرة من كل جوانبها الاقتصادية والنفسية.. إلخ.

رابعا ـ أولى ماكيفر **منهج** البحث فى علم الاجتماع **أهمية** بالغة ويرى أن المنهج المقارن هو أكثر المناهج العلمية **ملاءمة** للدراسة فى علم الاجتماع.

خامسا ـ اهتم ماكيفر بدراسة **العلاقة** المتبادلة بين الإنسان وبيئته . . وخاصة ما يتعلق بقدرة الانسان على التكيف مع مختلف العوامل التى **تتألف** منها البيئة.. أى أن **الانسان** يمكنه التكيف مع بيئته، سواء من حيث الظروف الطبيعية أو السوسيولوجية أو الثقافية أو الاجتماعية.. والنتيجة **المنطقية** لذلك التكيف كما يراها ماكيفر هى قدرة الإنسان على **صنع** البيئة الاجتماعية الخاصة به.

سادسا ـ عنى ماكيفر بدراسة ظاهرة «الضبط الاجتماعى» و«الضبط الاجتماعى Soical Control» كمفهوم يعنى مختلف **الأساليب** التى يحافظ بها المجتمع على **مقوماته** ونظمه، ولقد اهتم ماكيفر فى ذلك بتحديد مختلف **الوسائل** التى يلجأ إليها المجتمع أو يضعها.. لمراقبة سلوك أعضائه، بما فى ذلك تحديد المعايير التى يقيِّم على أساسها السلوك.. إن كان منحرفا أو مختلا(٧).

* * *





المصادر

(١) نقل هذا الكتاب إلى العربية وأعد مقدمة قيمة له الدكتور على أحمد عيسى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٧ طبعة أولى، و١٩٦١ طبعة ثانية.

(٢) تيماشيف - مرجع سابق ص ص ٤٢٠ - ٤٢١.

(٣) دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق ص ص ١٧١ - ١٧٤.

وانظر

أ - دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع : المفهوم والموضوع والمنهج - مرجع سابق

ب - دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية - عالم الكتب القاهرة ١٩٨٢.

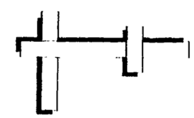
(٤) R.M.Maciver and C.H.Page, Society Intodutory Analysis, New York, Rinchart 1949.

(٥) انظر ماكيفر وبيدج - المجتمع - ترجمة الدكتور على أحمد عيسى - دار النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥٧، ١٩٦١.

(٦) دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق - مرجع سابق.

(٧) دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص ١٧٢ - ١٧٣.

* * *



الفصل الثامن والعشرون

زنانيكى ودوره فى نمو الاتجاه الوظيفى

* مقدمة
* مسلمات النظام الثقافى
* توضيح بعض مفهومات زنانيكى
* الفعل وحدة التحليل السوسيولوجى
* اهتمامات علم الاجتماع عند زنانيكى



مقدمة:

فلوريان زنانيكى Florian Znaniecki واحد من **أبرز** ممثلى الاتجاه النظرى فى علم الاجتماع **وخاصة** فى الولايات المتحدة **الأمريكية**.. واعتبره البعض **قاعدة** المثلث الذهبى - مع سوركين وبارسونز - وأرجعوا إليه الفضل فى **تميز** الاتجاه النظرى وازدهاره(*).

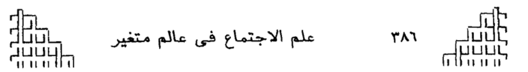
وساعد على احتلال زنانيكى لهذه **المكانة**.. إسهاماته الفكرية الغنية ومؤلفاته **ذائعة** الصيت والتى يعد مؤلفه «الفلاح البولندى فى أمزيكا» من أشهرها جميعا، ورغم أن زنانيكى كان أحد المشتركين فى **تأليف** الكتاب.. إلا أن الكتاب يعرف باسمه حتى الآن[١].

وتتابعت **مؤلفات** زنانيكى عن «قوانين علم النفس الاجتماعى» و«منهج علم الاجتماع» و«تطور العلوم الثقافية» و«الأدوار والعلاقات الاجتماعية»، ويعد مؤلف زنانيكى عن «العلوم الثقافية».. محتوى **الفكر** السوسيولوجى عند زنانيكى، والذى اعتبره تيماشيف Timasheff من خلال مؤلفه **القيم** «نظرية علم الاجتماع Sociological Theory» الذى صدرت الطبعة **الثانية**(**) منه عام ١٩٦١، شرطا ضروريا **لفهم** النسق الفكرى عند زنانيكى وخاصة منه الجزء المعنى

(*) عاش زنانيكى فى الفترة من ١٨٨٢ - ١٩٥٨.

(**) للاستزادة انظر:

Nicholas. S. Timasheff, Sociological Theory, its Nature and Growth, Second Printin; Third Edition Hous, New York, 1967.



من كتاب «العلوم الثقافية» **بدراسة** مسلمات «النظام الثقافى الشامل Universal Cultural Order» حيث اعتبر تيماشيف أن **قبول** القارئ - وليس مجرد فهم - **مسلمة** زنانيكى.. يعد هو المدخل أو الأساس الصحيح **لفهم** مختلف الظواهر الاجتماعية الثقافية.. وخاصة من **منظور** شمولى كما يؤكد زنانيكى نفسه..(*).

وعلى كلٍّ فإن **أبرز** إسهامات زنانيكى فى **النظرية** السوسيولوجية المعاصرة يمكن لنا أن نوضحها من خلال النقاط الآتية:

* * *

مسلمة النظام الثقافى عند زنانيكى:

قدم زنانيكى **مسلمته** الخاصة بالنظام الثقافى الشامل أو العام Universal Cultural Order، واعتبر أن قبول هذه المسلمة يعد **ضروريا** لفهم الظواهر الاجتماعية الثقافية.

وتعنى هذه المسلمة أن ذلك النظام **الثقافى** العام يتبلور فى شكل أنساق محددة Limited Systems، ولتصبح **الأفعال** الاجتماعية للناس. . وللفاعلين متكاملة داخل أنساق **منظمة** على أساس معيارى حيث **تتبادل** تلك الأفعال الاعتماد الوظيفى كل منها على الآخر(٢).

وهكذا يصبح للقطاع **الثقافى** - عند زنانيكى - **معنى** مزدوج، فهو تارة نظام للامتثال «طبقا لما تحدده المعايير الاجتماعية»، بينما نجده تارة أخرى «نظاما للاعتماد الوظيفى المتبادل»(**).

* *

توضيح بعض مفهومات زنانيكى

أضاف زنانيكى عدة **تعريفات** دقيقة قصد منها المساعدة على **فهم** مسلمته الخاصة **بالنظام** الثقافى العام، ومن هذه التعريفات: تعريفه **للثقافة** على أنها

(*) انظر تيماشيف - المرجع السابق - ص ص ٣٠٧ - ٣١٠ لتأخذ فكرة أوضح عن مؤلفات زنانيكى وإسهاماته فى النظرية الاجتماعية المعاصرة.

(**) للاستزادة انظر .

دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مصدر سابق - ص ص ١٦٦ - ١٦٧ .

«مفهوم شامل يتضمن **الدين** واللغة والآداب والفن **والعادات** والسنن والقوانين والتنظيم الاجتماعى والإنتاج الفنى والتبادل **الاقتصادى** والفلسفة والعلم»(٣).

كما اعتبر زنانيكى «المجتمعات» **كليات** مستقلة ذات انتشار إقليمى محدد تتضمن كلا من **الكائنات** البشرية والثقافات المتكاملة(*).

* * *

الفعل وحدة التحليل السوسيولوجى عند زنانيكى

يعتبر زنانيكى أن «الفعل الإنسانى» هو وحدة **التحليل** السوسيولوجى، ويَعرِف زنانيكى **الفعل** ويفهمه على أنه: «سلوك واعٍ»، كما يرى أن **الفعل** الاجتماعى يجب أن **يوجه** إليه علم الاجتماع اهتماما أساسيا، ويعرِّف زنانيكى الفعل الاجتماعى بأنه: «سلوك يؤثر فى الكائنات البشرية أو المجتمعات الواعية»، كما **يصنف** الأفعال الاجتماعية إلى **أنماط**.. خلاقة، وهدامة، وتكرارية.

ويرى تيماشيف أن **تصنيف** زنانيكى هذا معتمد على أفكار **تارد** القديمة(٤)(**).

* * *

اهتمامات علم الاجتماع كما يراها زنانيكى

يرى **زنانيكى** أن علم الاجتماع يجب أن **يهتم** فى المقام الأول **بالعلاقات** الاجتماعية والإنسانية، كما يجب على علم الاجتماع أن يهتم كذلك **بالجماعات** التى تقوم بينها أو بداخلها مثل تلك العلاقات الاجتماعية أو الإنسانية(***).

كما أكد زنانيكى على أن **علم** الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى **فرعان** وثيقا الصلة والارتباط بالضرورة، هذا إن لم **يكونا** بالفعل يتبادلان الاعتماد على بعضهما البعض.

(*) المصدر السابق ـ ص ١٦٨.

(**) زنانيكى باعتباره الفعل ـ الذى هو وحدة التحليل السوسيولوجى ـ سلوكا واعيا لا يتعارض مع أصحاب الاتجاه السلوكى فقط، وإنما يختلف كذلك مع آراء باريتو فى الفعل الاجتماعى.

(***) انظر:

Znanicki, Social Groups is tHe Modern Worlcd, in M.Berger T.Abed and C.H. page, cds., Freedom and Control in Modern Society, New York: D.Van Nootrand, 1954.





ويعتبر زنانيكى أن **قصر** مهمة علم الاجتماع على دراسة العلاقات الاجتماعية إنما يعود بالدرجة الأولى إلى التقدم الذى أحرزتهِ مناهج **البحث** الاجتماعى.. وبحيث يمكن استثمار نتائج البحوث الاجتماعية المتاحة فى وضع **تعليمات** بشأن الأسس الاجتماعية المشتركة لجميع **مقولات** النظام الثقافى[٥].

هذا، وقد **أكد** زنانيكى على الأهمية المتزايدة لعلم الاجتماع بالنسبة لغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، ويعود **السبب** فى ذلك ـ كما ذكر زنانيكى ـ إلى أن علم الاجتماع قد **اختزل** دوره أو حدًّ من نشاطه واهتماماته وقصرها على دراسة الأنساق الاجتماعية التى تعد دعامة أو أساسا **لوجود** كِل ميدان من ميادين الثقافة[٦](*).

هذا، ولزنانيكى **اهتمام** خاص بمناهج البحث الاجتماعى.. وكانت له فيه إسهامات مقدرة مثل مؤلفه عن «منهج علم الاجتماع» الذى **أعانه** كثيرا فى دراسته للأنماط الثقافية المختلفة(**).

* * *

(*) تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الثانية ـ مرجع سابق ـ ص ٣٧٩ ,

(**) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مصدر سابق، وانظر كذلك: معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

المصادر

(١) دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجي المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٦٧ ـ ١٦٩.

(٢) دكتور صلاح الفوال ـ النظريات في علم الاجتماع ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢١٠ ـ ٢١٥.

(٣) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٠ ـ ٤٥.

(٤) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٤١٧.

(٥) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر:

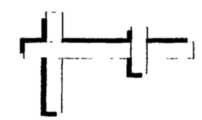
المرجع السابق ـ ص ص ٤١٥ ـ ٤٢٠.

(٦) دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مصدر سابق ـ في فقرات كثيرة منه.

* * *



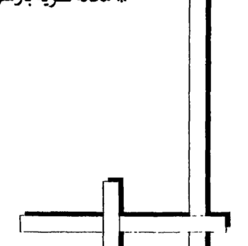




الفصل التاسع والعشرون

بارسونز وإثراء النظرية الاجتماعية

* مقدمة
* نظرية الفعل الاجتماعى عند بارسونز
* الإنسان هو المحور الرئيسى للدراسة عند بارسونز
* أداء الأبنية لوظائفها أساس نظرية بارسونز
* بارسونز ومتغيرات النمط
* بارسونز ونظرية التنشئة الاجتماعية
* مكانة نظرية بارسونز



مقدمة :

على الرغم من أن **البيولوجيا** كانت هى الاهتمام الأساسى لبارسونز Tolcott Parsons(*)، إلا أنه يعتبر تلميـذا نجيبا لعدد من **رواد** علم الاجتماع العظام فى إنجلترا وألمانيا وأمريكا.. **والتلمذة** قد تكون هنا تلمذة **حقيقية**.. كما هو الحال بالنسبة لهوبهاوس Hobhause وموريس جنزبرج M. Ginsberg، فقـد تتلمذ على أيديهما فى **مدرسة** الاقتصاد العليا بلندن، نقول قد تكون هذه التلمذة حقيقية، أو قد تكون تلمذة من خلال **اطلاعه** على العديد من تراث العلماء السوسـيولوجيين والتأثر بهم.. كما هو الحال بالنسبة **للأنثربولوجى** العظيم مالينوفسكى Malinowski الذى غـيـر من **اتجاهات** واهتمـامات بارسونز.. وتعتـبر **النسقية** أو الاتجـاه النظرى أعظم التحولات فى مسيرة بارسونز.

* * *

الإسهامات السوسيولوجية لبارسونز

ونحن عـلى كلٍّ **يمكننا** أن نحدد مـلامح الإسهـامات المختلفـة لـ«تولكت بارسونز Tolcott Parsons» فى النظرية السوسيولوجية **المعاصرة** من خلال النقاط الآتية:

بارسونز وضرورة وجود نظرية منهجية عامة للسلوك البشرى:

حيث يعتبر Tolcott Parsons أن وضـع **نظرية** مـجردة دليل رئيـسى على **نضج** أى علم من العـلوم، على اعـتـبـار أن مـثل هذه النظـرية تجـعل الوصف

(*) عاش تالكوت بارسونز فى الفترة من ١٩٠٢ ـ ١٩٧٩.



والتحليل والبحث الإمبيريقى أمرا ممكنا، ويرى بارسونز كذلك أن **نظرية** علم الاجتماع يجب أن تكون وظيفية(*) بنائية، كما يجب أن يكون لها إطار مرجعى عام، ثم إن ذلك كله يستدعى **فهما** خاصا لبناء النسق النظرى فى حد ذاته.

* * *

نظرية الفعل الاجتماعى عند بارسونز

تتمثل إسهامات بارسونز **الحقيقية** فى النظرية السوسيولوجية، فى اعتقاده بأن الفعل الاجتماعى Social Action، يجب أن يكون هو **الاهتمام** الأساسى لعلم الاجتماع.

وينطوى الإطار **المرجعى** للفعل الاجتماعى فى رأى بارسونز على ثلاثة **عناصر** رئيسية هى:

(أ) فاعل Actor (ب) موقف Situation

(جـ) توجيه إزاء **الموقف** أو توجه الفاعل Actor's Orientations الاجتماعى إزاء الموقف.

إذن فإن **محور** نظرية بارسونز هو «توجيه الفاعل الاجتماعى»، بينما **ينقسم** التوجيه ذاته إلى نوعين رئيسيين:

(أ) توجيهات دافعة:

وتمدنا هذه التوجيهات **بالطاقة** التى ستبذل فى الفعل، كما **أنها تتسم** بالسمات الآتية:

ـ **إدراكية**، تقابل ما يدركه **الفاعل** فى موقف معين.

ـ **انفعالية**، وتتضمن **العملية** التى عن طريقها **يخلع** الفاعل أهمية عاطفية أو انفعالية على شىء معين.

(*) لاحظ تيماشيف أن بارسونز يستخدم مصطلح «وظيفى» فى أغلب الأحيان، لكن استخدام بارسونز للـ«وظيفية» كان يعنى مختلف نوعا ما عن استخدام أصحاب الاتجاه الوظيفى له ـ انظر تيماشيف ـ الترجمة ـ مصدر سابق ـ الطبعة الثانية ـ ص ٣٦٣.

ـ **تقويمية**، وعن طريقـها **يوزع** الفاعل طاقـته على الاهتمامات المخـتلفة التى يجب عليه أن **يختار** من بينها.

(ب) توجيهات قيمية:

وهى تشير إلى مراعاة بعض **المعايير** أو المستويات الاجتماعية[1].

الأنساق كمحور رئيسى عند بارسونز:

تعتبر الأنساق Systems الاجتماعـية أحد **المحاور** الأساسيـة فى الدراسات التى قام بها بارسونز، وللدرجة التى اعتقـد البعض معها أن بارسونز **قد تحول** عن اعتبار فكرة «الفعل الاجتماعى» هى **الاهتمام** الأساسى لعلم الاجتماع إلى **اعتبار** أن **الأنساق** الاجتـماعـية هى وحـدها التى يجب أن **تنصب** عليهـا دراسة علم الاجتماع[2].

* * *

أداء الأبنية لوظيفتها أساس نظرية بارسونز:

يرى تيمـاشيف أن **الموضوع** الذى تدور حوله النظرية الـسوسيولوجـية عند بارسونـز هو «أداء الأبنية لوظائفـها»، ويتطلب التـحليل **البنائى** الوظيفى مـعالجة منهـجيـة لمكانات وأدوار Roles **الفاعلين** الاجتـماعيين الذين يضـمهم **موقف** اجتماعى معين، وكذلك للأنماط التنظيمية Institional Patterns التى ينطوى عليها هذا الموقف.

ويشير مـفهوم المكانة Status **إلى موقع** الفاعل ضـمن نسق معين لعـلاقة اجتماعـية مع الآخرين مع **النظر** لتلك المكانة باعتـبارها بناء تنظيمـيا يشكل الدور الذى لا ينفصل عنها ـ أى عن المكانة ـ بـاعتباره **يمثل** الجانب الحركى أو الدينامى لتلك المكانة.

أما الدور فإنه يمثل الجانب **الدينامى** للمكانة ويشير إلى سلوك الفاعل فى علاقاته مع الآخرين.

أمـا عن الأنمـاط **التنظـيمية** فتفـهم على أنها التوقعـات المنمطـة التى تحدد السلوك المناسـب ثقافـيـا للأشـخـاص الذين يؤدون **أدوارا** اجتماعيـة مختلفة، ومجموعة **أنماط** الأدوار المعتمدة على بعضها البعض هى التى **تكون** النظام[3]

* * *





بارسونز ومتغيرات النمط:

إن لب الإسهام النظرى لبارسونز فى النظرية السوسيولوجية ـ على حد تعبير تيماشيف ـ يتمثل فى اكتشافه لمتغيرات النمط، وتحديدها فى خمسة متغيرات نمطية على الوجه الآتى:

(أ) الوجدانية فى مقابل الحياد الوجدانى:

يعد النمط وجدانيا إذا كان يتيح إشباعا مباشرا لحاجات الفاعل، أما إذا كان النمط يفرض نظاما أو يطلب التخلى عن مصلحة الآخرين فهو نمط محايد.

(ب) المصلحة الذاتية فى مقابل المصلحة الجمعية:

فقد تتيح المعايير الاجتماعية للفاعل أن يسعى وراء تحقيق مصالحه الخاصة، أو تجبره على أن يراعى مصالح الجماعة.

(جـ) العمومية فى مقابل الخصوصية:

ويشير متغير «العمومية» إلى المستويات القيمية العامة، بينما يدل متغير «الخصوصية» على المستوى القيمى الخاص لفاعل بالذات فى علاقات معينة مع أشخاص محددين.

(د) الأداء فى مقابل النوعية:

ويعنى المتغير الأول أن يكون التركيز على أداء فعل ما أو تحقيق هدف معين، بينما يدل المتغير الثانى على التركيز على خصائص شخص آخر.

(هـ) التخصص فى مقابل الانتشار:

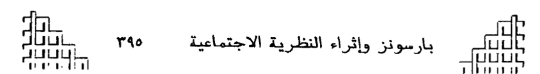
ويعنى متغير التخصص أن تكون هناك حدود مرسومة لمجال الفعل أو هدفه «مصلحة أو منفعة» بحيث لا يوجد ما يلزم على تجاوزها.

أما متغير «الانتشار» فيعنى عدم الاعتراف بالحدود المرسومة أو المخصصة للمصلحة أو للمنفعة على اعتبار أنها يجب أن تعم وأن تنتشر[٤].

* * *

نظرية التنشئة الاجتماعية عند بارسونز

ذكر تيماشيف خلال مؤلفه «نظرية علم الاجتماع» أن بارسونز قدم نظرية فى التنشئة الاجتماعية هى نظرية «الانقسام الشطرى المتتابع» الذى تتكون من



خلاله شخصية كاملة أو تامة الاجتماعية، حيث **تتميز** عملية النمو ببعض المراحل الشاملة المقررة سلفا، هذا وتتأثر **عملية** الانقسام الشطرى هذه خلال أعلى مراحل النمو بتلك **البدائل** النمطية السابق شرحها.

كما ذكر تيماشيف أن موريس زيلدتش M.Zelditch الابن قد **عرض** دراسة مقارنة **لتوزيع** الأدوار فى الأسرة الصغيرة فى ستة وخمسين مجتمعا، وانتهى إلى أن ستة وأربعين مجتمعا منها تتم فيها **عمليات** التنشئة الاجتماعية وفقا لنظرية بارسونز[٥].

* * *

مكانة نظرية بارسونز:

لم يحظ عالم من علماء الاجتماع بمثل ما **حظى** به بارسونز من مدح وذم معا، لدرجة صعب معها **تحديد** مكانة نظرية بارسونز فى عالم النظريات السوسيولوجية المعاصرة، فهو - أى بارسونز - كما يقول تيماشيف، ليس **وضعيا** محدثا، كما أنه ليس **سلوكيا** بالتأكيد،إنه يؤكد النظرة الوظيفية التى ربما أمكن توضيحها على نحو أفضل من خلال **رأى** بارسونز الذى يقول فيه: «إن الأبنية الاجتماعية الجزئية تقوم بعملها كميكانزمات تؤدى إلى كفالة المتطلبات الوظيفية لاستمرار الأنساق الاجتماعية[٦]».

كما يرى كثير من **العلماء** أن ما جاء به بارسونز لم يكن **جديدا** أو متميزا عن بقية الإسهامات التى تكتظ بها **ساحة** علم الاجتماع المعاصر، ويرون فيما أسهم به بارسونز تشابها **يكاد** يصل إلى حد **التطابق** مع غيره من المؤلفين الاجتماعيين المعاصرين **وخاصة** بالنسبة لسوركين فى كتابه عن «النظريات السوسيولوجية فى عالم اليوم»(*).

* * *

(*) انظر:

Sorokin,P.., Sociological Theoris of Today, New york, Hasper, 1966.

المصادر والتعليقات

(١) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

(٢) دكتور محمد عاطف غيث ـ مرجع سابق ـ ص ١٠٩ .

(٣) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

(٤) ذكر تيماشيف أن بارسونز أشار إلى إمكانية إضافة زوج سادس من البدائل ولكنه ـ أى بارسونز ـ لم يواصل هذا الخط، للاستزادة انظر :

أ ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

ب ـ T. Parsons, The Social System, New York, The Free Peess, 1951, pp. 431 -- 538.

(٥) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(٦) أدى استخدام بارسونز لمصطلحات علم النفس كالأنا الأعلى والدوافع الشخصية، واعترافه هو نفسه بالعلاقة الوثيقة ما بين علم النفس ونظريته فى الأنساق الاجتماعية، أدى ذلك إلى وصف نظرية بارسونز فى أحيان كثيرة بأنها ذات طابع سيكولوجى أكثر منه سوسيولوجى، وذلك على الرغم من تأكيدات بارسونز المتكررة فى بعض مؤلفاته ومنها «النسق الاجتماعى» على سبيل المثال، على أن نظريته السوسيولوجية ليست قائمة على علم النفس، وإنما هى نظرية عامة فى الفعل.

انظر ـ تيماشيف ـ المرجع السابق ـ ص ٤١٦ المتن والهامش.

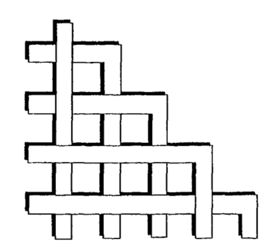
* وانظر أيضا:

أ ـ T. Parsons, The Social System, op. cit. pp. 544-547.

ب ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٦١ ـ ١٦٩ .

جـ ـ دكتور صلاح الفوال ـ النظريات فى علم الاجتماع ـ مرجع سابق.

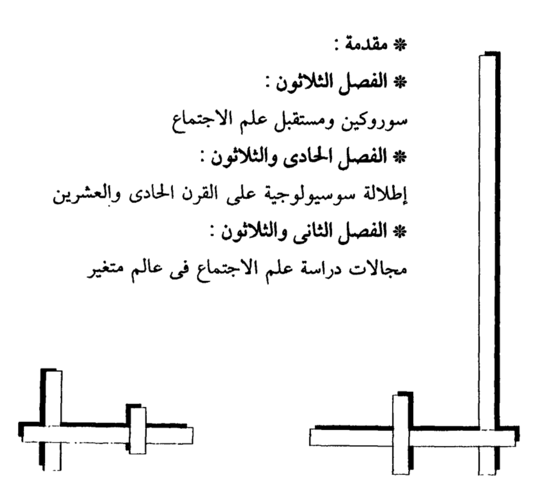
* * *





الباب العاشر

علم اجتماع القرن الحادى والعشرون



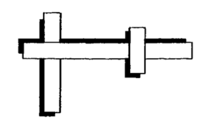
مقدمة :

من حسن **حظ** علم الاجتماع أنه لا يتمتع **بخاصية** الجمود أو البطء فى التطور كما هو الحال لدى العديد من العلوم الأخرى.. **وبالضرورة** لا ترجع هذه الخاصية **لاستقرار** علم الاجتماع ووضوح النظرية والمنهج وميادين الدراسة لديه، فأخذ رواده وباحثوه فى **الاسترخاء** حتى يمكنهم ذلك من البحث عن وسائل أو أسباب تجميل علم الاجتماع.. مادام ذلك العلم قد **استقر** إلى حد تكون معه أية **إضافات** جديدة بلا معنى.

ولكن **الحقيقة** غير ذلك تماما.. فمازال علم الاجتماع وخاصة منذ **النصف** الأخير من القرن **العشرين**.. نقول مازال علم الاجتماع **يبحث** لنفسه عما يثبت **دوره وهويته ومنهجه** وطرائق وميادين البحث فيه.

وأكبر دليل على ذلك أن **عالما** مثل سوروكين قد أنفق من عمره سنوات طويلة فى اختبار وإعادة صياغة إسهامات من **سبقوه**، لدرجة أنه دخل مع غريمه العلمى تالكوت **بارسونز فى** تنافس طويل من أجل تحقيق نفس **الهدف**.. وهو تحديد هوية ودور ومنهج ومجال الدراسة فى علم الاجتماع.

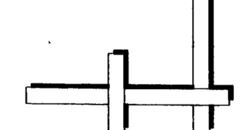
ورغم التنافس - ولا أقول **الصراع** - بين بارسونز وسوروكين وعدد غير قليل من علماء الاجتماع وخاصة أصحاب الاتجاه **النسقى**.. فقد التقى الجميع عند مجموعة من **النقاط** التى سنذكرها خلال هذا الباب العاشر بفصوله الثلاث.



الفصل الثلاثون

سوروكين ومستقبل علم الاجتماع

* مقدمة
* السيرة العلمية والشخصية لسوروكين
* تعريف علم الاجتماع
* موضوعات الدراسة فى علم الاجتماع
* تحديد المفاهيم التى يستخدمها علم الاجتماع
* التغير الاجتماعى
* منهج البحث التكاملى عند سوروكين
* الأنساق الثقافية والاجتماعية
* إسهامات سوروكين فى الميزان



مقدمة :

لعل بيترم سوروكين Pitirim Sorokin(*) من أكثر علماء الاجتماع شهرة إن لم يكن **أشهرهم** على الإطلاق، فمازالت إنجازات سوروكين حيّة(**) وقد تمثلت فى جيل كامل من **تلاميذه** وعشاقه ومحبيه ليس فى أمريكا فقط بل على امتداد **العالم** كله بسبب مؤلفاته الكثيرة والقيمة والتى ترجمت للعديد من اللغات.

وتلاميذ سوروكين .. احتفلوا **بإنجازاته** حتى وهو حى يرزق .. عندما كان فى السبعين من عمره عام ١٩٥٩ لما قدموا له **مجلدين** يضمان كل ماكَتب سوروكين وما كُتب عنه.

ولم ترتبط **عظمة** سوروكين بما كتب هو أو بما كُتب عنه وماترجم له فقط.. وإنما لعبت سيرته **الذاتية** دورا مهما فيما ناله سوروكين من تقدير وشهرة.. ويمكننا أن نوجز كل ذلك فى النقاط التالية:

* * *

السيرة العلمية والشخصية لسوروكين:

أ ـ عشق سوروكين علم **الاجتماع** والبحث العلمى والتدريس والتأليف، وتعرض له فى سن مبكرة **عندما** كان فى الخامسة والعشرين، وبالتحديد عام ١٩١٤ عندما نشرت دراسته **المونوجرافية** المعنونة باسم «الجريمة والعقاب»، «الفعل البطولى والجزاء»، أما أول مؤلف سوسيولوجى خالص فقد كان «نسق علم الاجتماع» الذى أصدره عام ١٩١٩، ثم **تعددت** إسهاماته السوسيولوجية

(*) عاش سوروكين فى الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩٦٨.

(**) رغم مرور أكثر من سبعة وعشرين عاما على وفاته.



لتضم معظم موضوعات علم الاجتماع، «**الحراك** الاجتماعى.. عام ١٩٢٧» و«**النظريات** الاجتماعية المعاصرة عام ١٩٢٨» «**الديناميات** الاجتماعية والثقافية» وتضم أربعة مجلدات صدرت بين عامى ١٩٣٧ ـ ١٩٤١ ، و«**المقولات** الثقافية والاجتماعية» وتناولت هذه الدراسة **حديثه** عن العلية، والزمان، والمكان وصدرت عام ١٩٤٣، والدراسة التى صدرت عام ١٩٤٧ لتكمل كتابه عن «الديناميات، والتى اعتبرت من أكمل وأشمل ما كُتب فى علم الاجتماع؛ لاحتوائها على **دراسات** عن المجتمع والثقافة والشخصية، و«**الفلسفات** الاجتماعية فى عصر متأزم» عام ١٩٥٠، أما عام ١٩٥٦ فقد شهد إصدار سوروكين لكتابه «بدع ونقائص فى **علم** الاجتماع المعاصر»، أما عام ١٩٦٦ فقد صدر **خلاله** أعظم مؤلفات سوروكين على **الإطلاق** وهو كتاب «النظريات **السوسيولوجية** فى عالم اليوم» الذى **توفى** سوروكين بعد صدوره بعامين.

ب ـ ارتقى سوروكين سلم **المجد** ليس فقط من خلال التأليف الذى برع فيه أو من خلال ترجمة أعماله وإنما أيضا من خلال توليه عدة **مراكز** قيادية فى مجال علم الاجتماع.. فقد عمل **أستاذا** لعلم الاجتماع بجامعة فينوستا عام ١٩٢٤ وفى جامعة هارفارد.. عمل **كذلك** أستاذا للاجتماع عام ١٩٣٠، ثم **رئيسا** لقسم الاجتماع الذى أسسه بنفس الجامعة والذى استمرت رئاسته له أكثر من عشر سنوات.

جـ ـ كان سوروكين **ناقدا** مخلصا ـ على حد تعبير تيماشيف ـ وشخصية **ذات** رأى، واسما **رنانا** فى مجال علم الاجتماع فى أمريكا **وغير** أمريكا، وخاصة منذ انتخابه **رئيسا** لجمعية علم الاجتماع الأمريكية لعامين متتاليين هما ١٩٦٤، ١٩٦٥.

د ـ تولى **تلاميذ** سوروكين ـ حتى قبل وفاته ـ طبع وإعادة طبع معظم مؤلفاته.. مع محاولة تجميع الموضوعات **المتشابهة** ليعاد طبعها فى ضوء نظرة تحليلية لكل **محتويات** المؤلفات المعاد طبعها.

هـ ـ نشر **سوروكين** بنفسه سيرته **الذاتية** عام ١٩٦٧ ـ قبل وفاته بعام واحد ـ تحت **عنوان** «رحلة طويلة Along Journey» ضمن سرد نقدى لمشواره الطويل منذ كان **سكرتيرا** لألكسندر كيرنيسكى **رئيس** الحكومة المؤقتة لروسيا عام ١٩١٧ وما عاناه عقب سقوط الحكومة المؤقتة.. حيث تم **القبض** على سوروكين





والحكم عليه **بالإعدام** ثم خُفِّضت العقوبة إلى النفى حيث فتح له **المنفى** كل **مغاليق** الشهرة والمجد وخاصة بعد **انتقاله** إلى أمريكا. . أما نقطة النهاية لسيرة سوروكين ـ التى كتبها بنفسه ـ فكانت **رئاسته** للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع.

أما الذى **لم** يكتبه سوروكين ـ فى مسيرته مع الأيام. . أنه مات فى عام ١٩٦٨.

* * *

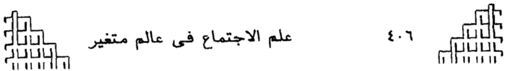
ثانيا ـ إسهامات سوروكين السوسيولوجية:

وبعد هذه المقدمة الطويلة . يمكننا أن **نبرز** إسهامات سوروكين فى النظرية السوسيولوجية المعاصرة على النحو الآتى:

١ ـ **التعريف** الذى قدمه سوروكين **لعلم** الاجتماع، اعتُبر تعريفا معقولا ومقبولا لدى **جميع** علماء الاجتماع وباحثيه على **اختلاف** اتجاهاتهم حيث قال سوروكين: «إن علم الاجتماع هو دراسة الخصائص العامة والمشتركة بين جميع أنواع **الظواهر** الاجتماعية، كما يدرس علم الاجتماع العلاقة المتبادلة بين هذه الأنواع، كما يدرس علم الاجتماع **كذلك** العلاقة بين الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية [٢]. .»

عاد سوروكين وقدم **تعريفا** أكثر دقة من خلال ربطه بين مفهوم علم الاجتماع **وميادين** الدراسة فيه خلال مؤلفه **القيم** «المجتمع والثقافة والشخصية Society Culturc. and Peronality» الذى أصدره عام ١٩٤٧ فقال: «إن علم الاجتماع هو **النظرية** العامة لبناء ديناميات كل من . . الأنساق والكتل الاجتماعية «والعناصر غير **المتسقة** وظيفيا» وكذلك **الأنساق** والكتل الثقافية **والشخصيات** من حيث الجانب البنائى، والأنماط الأساسية لتلك الشخصيات، والعمليات الداخلة بينها، وكذلك عمليات الشخصية».

٢ ـ وهذا التحديد الذى قدمه سوروكين **لميادين** البحث السوسيولوجى فى علم الاجتماع، حيث قال مؤكدا على أن علم الاجتماع هو علم **النظرية** العامة لبناء ديناميات كل من. . الأنساق **والكتل** الاجتماعية، الأنساق والكتل الثقافية، والشخصيات من **حيث** جانبها البنائى، وأنماطها الأساسية، **والعلاقات** الداخلة بينها، وعمليات الشخصية، هذا **التحديد** لم يكن لمجالات الدراسة فى علم الاجتماع بقدر ماكان تحديدا **لهوية** علم الاجتماع نفسه.



٣ـ التحديد الذى قدمه سوروكين لمفهوم **التفاعل** الاجتماعى على اعتبار أنه «أى حدث يؤثر فيه أحد الأطراف تأثيرا ملموسا على **الأفعال** الظاهرة أو الحالة الفعلية **للطرف** الآخر».

كما نظر سوروكين إلى **مفهوم** التفاعل أيضا على اعتبار أن «أصدق النماذج تمثيلا لأية **ظاهرة** ثقافية اجتماعية هو التفاعل الهادئ الذى **يتم** بين فردين أو أكثر».

كما أكد **سوروكين** على أن التفاعل.. هو الوحدة التى ينبغى أن تحلل إليها **الظواهر** الاجتماعية(*).

٤ ـ قدم سوروكين مفهوما **مبتكرا** عن التفاعل **الثقافى** الاجتماعى، وقال: «إن ذلك المفهوم ينطوى على ثلاثة **مكونات** مترابطة ارتباطا وثيقا هى:

أ ـ **الشخصية** personality، على اعتبار أنها **موضوع** التفاعل

ب ـ **المجتمع** socity، باعتبار أنه **مجموع** الشخصيات المتفاعلة.

جـ ـ **الثقافة** calture، باعتبارها مجموع **المعانى** والقيم والمعايير المتضمنة أو الموجودة لدى **الشخصيات** المتفاعلة، وباعتبارها أيضا ـ أى الثقافة ـ مجموع **الوسائل** التى تجسد هذه المعانى وتجعلها **اجتماعية** وتقوم بتوصيلها [٣].

ومن هنا فإن سوروكين يعتبر أن التفاعل هو الوحدة التى يجب **أن تحلل** على أساسها مختلف **الظواهر** الاجتماعية [٤].

٥ ـ التقسيم الذى **قدمه** سوروكين لعلم الاجتماع، حيث قسمه إلى:

(أ) علم الاجتماع العام:

وهو العلم الذى يدرس **الخصائص** المشتركة بين الظواهر **الاجتماعية** والثقافية فى نواحيها البنائية والدينامية، **والعلاقات** المتبادلة والمتكررة بين **مختلف** الظواهر الاجتماعية والثقافية والكونية .. إلخ.

(ب) علوم الاجتماع الخاصة:

وهى تلك التى **تهتم** بدراسة **مجموعة** خاصة من **الظواهر** الاجتماعية والثقافية، وبنفس **الأسس** التى يتبعها علم الاجتماع العام، كالدراسات المتعلقة

(*) يرى تيماشيف أنه يمكن اعتبار سوروكين من أصحاب الاتجاه النظرى ـ انظر: تيماشيف مرجع سابق ص ٣٥٠.

بالسكان **والأسرة** والقانون والدين والثورة والتفكك الاجتماعى والجريمة والعقاب، إلى جانب **علوم** الاجتماع التى ظهرت **حديثا** كعلم الاجتماع الحضرى والاقتصادى . . إلخ (٥).

(جـ) أقسام علم الاجتماع العام:

قسم سوروكين علم الاجتماع العام هو الآخر الى **قسمين** رئيسيين:

١ ـ **أولهما** . . علم الاجتماع **البنائى** العام، ويهتم ذلك العلم بدراسة بناء وتكوين الظواهر الاجتماعية والثقافية، فضلا عن **الأنماط** البنائية الهامة للجماعات، وكذلك الأنماط **البنائية** الرئيسية للأنساق الثقافية، علاوة على دراسة أنماط **وبناء** الشخصية.

ومن هنا . . فإن هناك **تشابها** بين علم الاجتماع البنائى والمورفولوجيا الاجتماعية.

٢ ـ **ثانيهما** . . ما أطلق عليه سوروكين علم الاجتماع **الدينامى**، وهو العلم الذى يدرس العمليات الاجتماعية **المتكررة** مثل . . الاتصال، الصراع، التفاعل، التنشئة الاجتماعية، التوافق، الاندماج، الهجرة، والتنقل أو الحراك الاجتماعى.

كما يدرس أيضا علم الاجتماع **الدينامى** العمليات الثقافية المتكررة . . مثل الاختراع، الانتشار، التكامل، والتفكك، كما يدرس كذلك **تراكم** السمات الثقافية التى تحدث فى **العمليات** الاجتماعية والثقافية.

هذا ويدخل فى اختصاص علم الاجتماع **الدينامى** أيضا دراسة موضوع **التغير** الاجتماعى والثقافى(٦).

٦ ـ أسهم سوروكين من خلال **كتابه** «الديناميات الاجتماعية والثقافية Social and Culture Dynamics» بأجزائه الأربعة، أسهم فى تفسير **التغير** الاجتماعى والثقافى، حيث يرى أن التغير يبدأ **مستقيما** حتى يصل الى نقطة معينة عندها يأخذ ـ أى التغير ـ طريقا **مختلفا** وهكذا.

ويرى سوروكين أن **التغير** له سمات واتجاهات متذبذبة قد تتأرجح فتكون ثقافة **فكرية** أو حسية، وقد تعتدل فتكون ثقافة **مثالية** Idealistic أو تكون مختلطة.

أما **كيف** تتغير الثقافة فإن ذلك نابع من **داخل** الثقافة ذاتهـا، **لأن** التغير **قدر** الحياة وقانونها أيضا، والأنساق الثقافية، شأنها فى ذلك شأن بقية **أنماط** الحياة مكتوب **عليها** أن تتغير (٧).

٧ - يرى سوروكين أن **الحقائق** الأساسية فى علم الاجتماع ذات طبيعة **عقلية** لاتُفهم إلا فى ضوء **النظر** إلى العالم الثقافى والاجتماعى للإنسان ككل.

وتنطبق هذه الحقيقة على **كل** الظواهر المجتمعية الصغيرة منها والكبيرة.. ثقافية كانت أو اجتماعية.

٨ - هذا وقد اهتم سوروكين اهتماما خاصا **بالأنساق** الاجتماعية والثقافية واهتم كذلك بدرجة تكاملها، واعتبر أن هناك **خمسة** أنساق أساسية أو لها أهمية جوهرية وهى.. الدين واللغة والأخلاق والعلم والفنون.. **وتنقسم** هذه الأقسام الرئيسية إلى أنساق **فرعية**.. كما تنقسم الأنساق الفرعية بدورها إلى أنساق أقل.. والأقل.. إلى أقل.. إلخ، إلا أن كل تلك الأنساق **تتسم** بالتكامل ولو إلى حدما.

وهناك من الأنساق ماهو **فوقى** .. وأوضح مثال له عند سوروكين هو.. النسق **الثقافى** الاجتماعى الكلى للسكان، وكذلك كل الأنساق الخمسة الجوهرية «الدين، اللغة، الأخلاق، العلم، والفنون» أنساق فوقية **تتصف** بالتكامل.. وهناك من الأنساق ماهو **تحتى** أو فرعى أو فرع الفرعى.. وهذه **الأنساق لها حظ** ولو قليلا من التكامل، وذلك **لأن النسق** الفوقى - فى رأى سوروكين - **لايمكن أن يتطابق مع** مجموع العناصر الداخلة فيه .. فالثقافة مثلا كنسق فوقى **لايمكن أن يتطابق مع مجموع المواد** الثقافية **الكائنة** فى المجتمع.

والنسق **الفوقى** عند سوروكين قد يكون نسقا **حسيا** Sensate **أو** نسقا فكريا Ideational **وذلك وفقا** للنظرة السائدة **إلى الحقيقة فى ثقافة معينة .. فإذا** ما ركن الناس **لحواسهم** لتحقيق الصدق المطلق فهذا عند سوروكين **نسق فوقى** حسى، أما إذا قبل الناس حقيقة العقيدة بشكل عام .. وكانت **قناعتهم فى أن** وارء الانطباعات الحسية **دافع** آخر أكثر عمقا - على حد تعبير سوروكين - كان النسق نسقا **فوقيا** فكريا..!!





ومن **طبيعة** الأنساق. . **الترابط**. . أو التكامل. وإن حدث ذلك الارتباط **والانسجام** بين النسق الفكرى والنسق الحسى يكون لدينا فى النهاية نسق ثالث ذو طبيعة **عقلية** ويطلق عليه سوروكين اسم النسق الفوقى **المثالى** Idealistic Combination وفى حالة عدم حدوث الانسجام بين **النمطين** ـ الفكرى والحسى ـ واكتفيا بمجرد **التجاور** ـ بحكم تواجدهما فى مجتمع واحد ـ فهذا معناه أننا بصدد **نسق** آخر أطلق عليه سوروكين. . النسق **المختلط** الحسى، المهم أن الأنماط الأربعة للأنساق الفوقية. . الحسى والفكرى والمثالى والمختلط Mixture تشكل أساس **نظرية** سوروكين فى التغير الاجتماعى (٨).

٩ ـ أكد سوروكين فى أكثر من مؤلف على تحديد **هوية** علم الاجتماع باعتبار أنه **النظرية** العامة لبناء وديناميات الأنساق الاجتماعية والأنساق الثقافية فضلا عن **دراسة** الشخصية، كما يرى أن **الشخصية** ما هى إلا عالم صغير يعكس العالم الكبير الثقافى الاجتماعى الذى يولد الفرد فيه ويعيش، ومن هنا تحدد **دور** عالم الاجتماع، وهذا الدور كما رسمه سوروكين هو **تحليل** الظواهر الاجتماعية والثقافية إلى العناصر الأولية التى تكوّن كلا من الثقافة والمجتمع والشخصية.

وحدد سوروكين بوضوح طبيعة **الوحدات** الاساسية التى يدرسها عالم الاجتماع ـ فى حالات **التفاعل** الاجتماعى والثقافى ـ **بالشخصية** التى هى «مجموع **السمات** أو الخواص الفطرية والمكتسبة لفرد ما» **والمجتمع** الذى هو «مجموعة من الأفراد الذين يعيشون معا ويخضعون لنظم خاصة». . **والثقافة** التى يقصد بها «مجموعة القيم والمعايير التى تحكم السلوك أو التفاعل فى المجتمع». والخلاصة أنه على عالم الاجتماع أو **علم** الاجتماع أن **يدرس** التفاعل بين كلٍّ من المجتمع والشخصية والثقافة (٩).

١٠ ـ يؤمن سوروكين إيمانا عميقا **بدور** البيئة الثقافية والاجتماعية ليس فقط فى **تشكيل** أو إعادة تشكيل **الشخصية** إلا أنه لم يلجأ لمحاولة استخدام التفسير الاجتماعى بشكل **متحيز** للنظرة السوسيولوجية المغالية فى تحليل السلوك



البشرى، وهذا الإيمان نابع عن قناعة سوروكين **باستقلالية** الفرد والشخصية من جهة ـ والمجتمع والثقافة من جهة أخرى ـ كما آمن سوروكين **بتفاعل** كل تلك العناصر فى كيان أو فى **كل** واحد (١٠).

ومن هنا فليس هناك **تطابق** كامل بين الشخصية والثقافة نظرا للطبيعة التعددية لبناء الشخصية حتى على مستوى الفرد نفسه، ويعتبر سوروكين أن هناك **تعددا** فى الذوات حتى بالنسبة للفرد الواحد كما أن **تعدد** الذوات هو نتيجة منطقية لتعدد **الجماعات،** وهذه الشخصية المتعددة حتى فى ذوات الأفراد والتى أطلق عليها سوروكين مصطلح **الأنا** الاجتماعية Social Ego، نتجت عن **انتماء** الفرد وعضويته فى العديد من الجماعات المختلفة.

وعلى هذا الأساس ربط سوروكين فى العديد من **مؤلفاته** القديمة والحديثة بين **الأنماط** والتغيرات الثقافية والاجتماعية وبين تفكك أو تحلل الشخصية، كما يؤمن سوروكين أن كلا من **الأنساق** الثقافية الاجتماعية العريضة ـ الحسية، والفكرية والمثالية ـ لها **دورها** الفعال فى خلق وإيجاد أنماط متميزة من الشخصية(١١).

١١ ـ لم يغفل سوروكين قضية المنهج فى علم الاجتماع.. واعتبر نفسه.. من حيث المنهج.. **منتميا** لمدرسة منهجية تكاملية تدرس الظواهر الاجتماعية. التى هى موضوع البحث السوسيولوجى.. عن طريق محاور **ثلاثة** :

أولها ما أسماه سوروكين «الإدراك الحسى، أو الملاحظة الحسية الإمبيريقية Empirical.

أما فيما يتصل بالمحور الثانى لكيفية الدراسة المنهجية التكاملية الذى يمثل المظهر«العقلى المنطقى» للظواهر الثقافية الاجتماعية.. فيجب أن يدرس أو يفهم من خلال ما أسماه سوروكين «المنطق المطروف Discursive ويعنى به المنطق غير المتابع للعقل البشرى.

أما المحور المنهجى الثالث عند سوروكين **فيتمثل فى الجانب الاعتقادى** الذى يبدو واضحا فى قوة **الإيمان** أو قوة الاعتقاد **ومهمة هذا الجانب الاعتقادى** أن يحقق نوعا من **الفهم**.. عن طريق فعل حدسى أو تجربة صوفية

أو فوق حسية وفوق عقلية وفوق منطقية وذلك لأن الواقع الاجتماعى الثقافى له ـ كما يقول سوروكين ـ جانب **فوق** حسى وفوق عقلى وفوق منطقى، ويتمثل ذلك الجانب ـ كما يقرر سوروكين ـ فى الأديان الكبرى، **والأخلاق** المطلقة، والفنون الجميلة والعظيمة.. (١٢).

واعتبر تيماشف أن **صياغة** سوروكين للمحور الثالث.. **غامضة**.. بل **ومخيبة** للآمال.. لدرجة هزت الثقة فى **المنهج** التكاملى عند سوروكين.. وخاصة من حيث التكاملية أو **الشمولية** التى تبناها ودعا إليها سوروكين(١٣).

ومن رأى تيماشيف أن سوروكين رغم **رفضه** الشديد لدعاوى المتعصبين للاتجاه **الكمى** فى علم الاجتماع إلا أن تيماشيف **أفرط** فى استخدام المناهج الكمية فى دراساته عن **النسق** الثقافى الاجتماعى أو عند قيامه بقياس درجات الشدة المتفاوتة لبعض الظواهر مثل الحرب والثورة (١٤).

وبصرف النظر عما قيل بأن **المقاييس** التى استخدمها سوروكين تكاد تكون فجة ـ كما يقول تيماشيف ـ إلا أن **الاستثناءات** النادرة ـ من بدائية تلك المقاييس وضعت تحت يد سوروكين مجموعة من **المعايير** الموضوعية التى أعانت سوروكين كثيرا فى دراساته، **ومكنته** بالذات من إقامة مجموعة من **الارتباطات** نبهت إلى كثير من **الأبعاد** كانت غير متوقعة، وخاصة فيما كان مجهولا ـ فى ذلك الوقت ـ فى مجالات التاريخ الاجتماعى **والثقافى** للإنسان (١٥).

* * *

إسهامات سوروكين السوسيولوجية فى الميزان:

(أ) صنف تيماشيف **اهتمامات** سوروكين من خلال مؤلفاته، فأشار إلى مؤلف سوروكين عن «النظريات السوسيولوجية المعاصرة»، وقال **تيماشيف**: إن تلك النظريات قد تم تصنيفها خلال مؤلف سوروكين عن «النظريات السوسيولوجية المعاصرة» إلى **الأنماط** الآتية:

* النظريات «الإسمية التفردية Nominalistic - Singularistic».
* نظريات الأنساق الثقافية Cultural Systems Theorys.
* نظريات الأنساق الاجتماعية Social Systems Theorys.
* تصنيفات للأنساق الثقافية الاجتماعية بما فى ذلك نماذجها المتغيرة.



(ب) كما **أشار** تيماشيف أيضا إلى أنه يمكن **تصنيف** الإسهامات **الرئيسية** لمؤلفات سوروكين أنها تراوحت مابين علم الاجتماع النظرى Systematic الخالص، وعلم الاجتماع التاريخى أو الاجتماع الديناميكى Dynamic.

أما مؤلف سوروكين عن «المجتمع والثقافة والشخصية» فقد ساهم فى تحديد ميادين علم الاجتماع بشكل **أوضح** وعلى النحو الذى بيناه قبلا.

(جـ) كما **لاحظ** تيماشيف أن سوروكين قد **افتتح** من خلال إسهاماته فى علم الاجتماع التاريخى ميدانا جديدا، إذ لفت الانتباه إلى **وجهة** نظر كيفية فى علم الاجتماع التاريخى، ووضع **نظرية** فى التحولات الموجبة بين أسلوبين ثقافيين رئيسيين، وذلك على **الرغم** من حاجة وجهة النظر هذه ـ فى رأى تيماشيف ـ إلى التعديل وربما إلى التصحيح أيضا[١٦].

(د) يعتبر سوروكين نفسه منتميا ـ من حيث الفكر والمنهج ـ إلى علم الاجتماع **التكاملى**[١٧] بينما يراه غيره ـ مارتنديل مثلا ـ **منتميا** إلى الاتجاه **العضوى** المثالى[١٨].

بينما يرى **تيماشيف** أن سوروكين من أصحاب الاتجاه النظرى . . وعلى الأقل يمكن اعتباره كذلك [١٩]، كما **يضعه** البعض على **رأس** علماء الاجتماع التحليلى[٢٠].

وأيّا كانت **اتجاهات** سوروكين [٢١] ومهما **اختلفت** آراء العلماء حول إلى أى مدرسة ينتمى فإن تيماشيف لم يتجاوز **الحقيقة** عندما قال عن سوروكين إنه **عالم** يجب أن نفرد له مكانة خاصة، ونضعه فى المرتبة الأولى من حيث **المقدرة** الإبداعية وسعة الاطلاع **والاستجابة** لمتطلبات النسق الفكرى العلمى[٢٢].







المصادر والتعليقات

١ ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ ص ٣٨٣.

٢ ـ Sorokin, Contemporory Sociolgical theaories N.Y. Harper 1928.P.700

٣ ـ Sorokin ,P, Society. Calture. and Personality. Naw York. Harperd. 1947. pp, 17, 40.63.

٤ ـ لم يخترع سوروكين هذا الاتجاه، والواقع أنه اتفق فيه مع غيره من علماء الاجتماع، وإنما يتجلى إسهامه فى هذا الموضوع فيما أضافه إليه من نظرة تحليلية متعمقة حددت مفهوم التفاعل بشكل واضح، انظر سوروكين، المرجع السابق ص ٤، انظر أيضا:

تيماشيف ـ الترجمة ـ الطبعة الأولى ـ ص ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

٥ ـ Sorokin.P, op,cit, pp.15-17.

٦ ـ انظر المرجع السابق، وانظر أيضا: دكتور محمد عاطف غيث ـ علم الاجتماع ـ مرجع سابق ص ١١٨.

٧ ـ للاستزادة حول مفهوم التغير الثقافى عند سوروكين انظر:

(أ) Sorokin,P,Society and Calture. Dynamics, 4 vols New Yark - American Book, 1937 - 41, vol. 1,p.3.

(ب) تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ص ٣٩١ ـ ٣٩٨، ص ص ٤٤٦ - ٤٦٩.

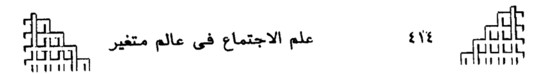
٨ ـ سوروكين ـ المجتمع والثقافة والشخصية مرجع سابق ـ ص ص ٣١٢ ـ ٣١٤.

٩ ـ سوروكين ـ المرجع السابق ص ٣١٤.

١٠ ـ المرجع السابق ـ ص ٣٤٥.

١١ ـ المرجع السابق ـ ص ص ٢٢٨ ـ ٢٢٧

١٢ ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ مصدر سابق ـ ص ٣٦١.



١٣ ـ Pitirim. Sorokin, Sociocultural, Time and Space Durham: Duke University Press, 1943, PP. 227-228.

١٤ ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ مصدر سابق ـ ص ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

١٥ ـ المرجع السابق ـ ص ٣٦٢.

١٦ ـ تيماشيف ـ المرجع السابق ـ ص٤٧٥ .

١٧ ـ تيماشيف ـ المرجع السابق ـ ص ٤٧٥ .

١٨ ـ دكتور محمد عاطف غيث ـ مرجع سابق ـ ص ١٥٠ .

١٩ ـ تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٣٨٤.

٢٠ ـ دكتور محمد عاطف غيث ـ مرجع سابق ـ ص ص ١١٣ ـ ١١٤ .

٢١ ـ تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٣٨٤.

٢٢ ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩، وانظر كذلك: دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ ـ فى مواضع كثيرة منه.

* * *



الفصل الحادى والثلاثون

إطلالة سوسيولوجية على القرن الحادى والعشرين

* مقدمة
* تعريف علم الاجتماع
* موضوعات دراسة علم الاجتماع
  - الظواهر الاجتماعية
  - الجماعة
  - العمليات الاجتماعية
  - الثقافة
  - التغير
  - الشخصية
* حول مستقبل النظرية فى علم الاجتماع
* ماهية النظرية السوسيولوجية المأمولة فى عالم متغير ؟!

مقدمة:

لقد استعرضنا **مسيرة** علم الاجتماع عبر العصور **وتابعنا** قدر مانستطيع **أفكار** رواده من قبل الميلاد(*) - أيام أرسطو وأفلاطون - حتى الآن والجدير **بالتسجيل** هنا . . هو أن الجميع حاول بإخلاص أن يسهم - ولو **بقدر** ضيئل - فى تحديد **هوية** ودور علم الاجتماع حتى تمكن الآباء المؤسسون لعلم الاجتماع - وما تلاهم من **علماء** وباحثين على درب علم الاجتماع الوعر والشاق - من وضع نظرية شبه مقبولة . . أو متفق عليها إلى حد ما !!

ولكن - يبقى السؤال. . هل يمكننا بعد كل الذى قيل عن وحول علم الاجتماع . أن نحدد الملامح **النظرية** لعلم الاجتماع ؟!! وبعبارة أخرى هل **تصلح** كل تلك الإسهامات لتكون أساسا لبناء نظرية فى علم الاجتماع تكون قادرة على تحديد **هوية** علم الاجتماع **ومجالات** الدراسة فيه فضلا عن **دوره فى** المجتمع !!

* الجواب قد يبدو صعبا . . وخصوصا وأن علم **الاجتماع** مازال يبحث لنفسه عن **نظرية** توجهه وتجعل له **مكانا** يليق به بين غيره من العلوم، وخصوصا فى ظل ظروف مجتمعية لا أقول متغيرة، وإنما دائمة **التغير** ليس على المستوى المحلى أو الإقليمى فقط، لكن على المستوى العالمى أيضا !!

(*) ولقد تناولنا قبل كل هؤلاء الفكر الاجتماعى عند الفراعنة. . وما تميز به ذلك الفكر من جماعية وشمولية، والجماعية هنا تعنى أنه فكر جماعى تجلى فى الأدب والحكمة والتراث الشعبى، أما الشمولية فتعنى احتواء ذلك الفكر - من الناحية النظرية - لكل هموم ومشاكل ومشاغل قطاعات الشعب المصرى القديم، كما تعنى الشمولية كذلك أن ذلك الفكر لم يكن وقفا على شخص ما أيّا كانت وضعية ومكانة هذا الشخص.

* ولكن الأمر الواضح أن تلك الإسهامات **مجتمعة** قد شكلت بعض ملامح نظرية سوسيولوجية عامة تحاول جاهدة أن تجد لها **إطارا** منظما من المعرفة المرتكزة على مجموعة كبيرة من الملاحظات والاستنتاجات.

* وعل كل حال.. فإن الإسهامات التى حددت مسيرة التفكير النظرى لعلم الاجتماع **عبر** العصور قد حققت تقدما ملموسا نحو إبراز **هوية** ذلك العلم، وخصوصا خلال النصف الأول من القرن العشرين وما **أفرزته** تلك الفترة من إسهامات واتجاهات بل **ونظريات** سوسيولوجية قد حسمت إلى حد بعيد كثيرا من **القضايا** التى كانت تقف عقبة فى سبيل ظهور نظرية سوسيولوجية شاملة.

كما كان من نتيجة ذلك الحسم أيضا أن **تحددت** الكثير من الملامح العامة لتلك **النظرية** السوسيولوجية المرتقبة.

* هذا ويمكننا أن نحدد ملامح ذلك **الحسم** وما تبعه من نقاط اتفاق أو إجماع بين علماء الاجتماع وباحثيه حول العديد من النقاط التى تصلح **زوايا** ارتكاز لنظرية سوسيولوجية معاصرة.

* * *

أولا ـ تعريف علم الاجتماع:

أمكن الاتفاق على **تعريف** محدد لعلم الاجتماع، واعتبر تعريف سوروكين ـ فى رأى الكثيرين ـ تعريفا **مجمعا** لمختلف الآراء والاتجاهات حيث **عرف** علم الاجتماع بأنه: «علم دراسة **الخصائص** العامة والمشتركة لكل أنماط وصنوف الظواهر الاجتماعية، ودراسة العلاقات **المتبادلة** بين هذه الظواهر بعضها البعض، كما يدرس علم الاجتماع كذلك العلاقة بين الظواهر **الاجتماعية** والظواهر غير الاجتماعية»(*).

* * *

ثانيا ـ الظواهر الاجتماعية موضع الدراسة فى علم الاجتماع:

هناك **اتفاق** عام على أن الظواهر الاجتماعية هى **موضوع** دراسة علم الاجتماع، كما أن لهذه الظواهر **خواصها** الذاتية، ومعنى هذا كما يقول **تيماشيف** أنه لايمكن رد تلك الظواهر **إلى وقائع** أو ظواهر غير اجتماعية كالظواهر السيكولوجية **أو** الطبيعية مثلا.

(*) انظر: مؤلفنا عن ـ علم الاجتماع. المفهوم والموضوع والمنهج ـ لتأخذ أكثر عن تعريف علم الاجتماع ـ ص ص ١٣ ـ ٢٥.

كـمـا أمكن تـعـريف الظاهرة الاجـتـمـاعـيـة التى هى **وحدة** التـحليل السوسيولوجى بأنها:

«تفاعل بين شخصين أو أكثر» وذلك **التفاعل** لن يتم إلا إذا كان كل **فعل** إنسانى **صادر** عن شخص **ما** . . معتمدا على وجود فعل **آخر** صدر عن شخص **ثان**، ومن هـنا يمـكن القـــول بأن **الأفراد** قـد أصبـحـوا أطرافـا فى علاقـة اجتماعية(*).

* * *

ثالثا ـ الجماعة كأحد موضوعات علم الاجتماع:

أجمع علماء الاجتـماع وباحثوه على أن **الجماعة** الاجتماعية تعتبر من أهم الموضوعات الأسـاسية فى **الدراسة** السوسيولوجـية، فالجماعة الاجتـماعية **تمثل** نسقا ـ أى بناء ـ يتألف من أجزاء دون أن تفقد هذه الأجزاء **فرديتها** وذاتيتها(**).

ويشرح تيماشيف هذه **النقطة** فيقول: «إن الكل يمتلك خواص لايمكن أن تتوافر لأى جزء من هذه الأجزاء منفردا».

هذا **ويدخل** الأفراد الذين يشكلون الجماعة الاجتماعية فى أنماط عديدة من **العلاقات** بحيث يحـتل كل منهم **وضعا** اجتماعيا مـعينا فى الجماعة يطلق عليه أحيانا «المكانة Status».

ويهدف التفاعل بين الأفراد **داخل** الجماعة الاجتماعية إلى إشباع **الحاجات** الإنسانية، واعـتبر أن **الإشباع** هو الوظيفة الأساسـية للجماعات الاجتـماعية التى يجب أن تتنوع وتتعدد لتقابل الحاجات الإنسانية المتعددة والمتنوعة.

أما التـفاعل الذى هو **وسيلة** الإشباع **لدى** الأفراد داخل الجمـاعات، فإنه يخضع إلى مجـموعة من **المعايير** أو القضـايا التى تحدد السلوك المـتوقع لأطراف التفاعل تحت **ظروف** معينة.

ولابد أن **تكون** تلك المعايير ـ التى يخضع لها التفاعل ـ مـقبولة بصفة عامة من جانب أعـضاء الجمـاعة، مع ضرورة وجـود جزاءات تمثل رادعا لمـنتهكى تلك المعايير المتفق عليها.

(*) حول الظواهر الاجتماعية كموضوع للدراسة فى علم الاجتماع ـ انظر المرجع السابق ـ ص ص ٧٥ـ٨٢.

(**) حول الجماعة كموضوع لدراسة الاجتماع انظر المصدر السابق ـ ص ص ٨٣ـ٩١، وانظر أيضا: دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦.

هذا ومن **خواص** الجماعة الاجتماعية بوصفها نسقا، أنها تمتلك خاصية الاحتفاظ **بتوازنها** العام إزاء أية اضطرابات، كما أنها تسمح بوجود تسلسلات رئاسية مميزة.

* * *

رابعا ـ العمليات الاجتماعية كميدان للدراسة فى علم الاجتماع :

هناك **اتفاق** على أن العمليات الاجتماعية Social Processes تعتبر ميدانا من ميادين الدراسة فى علم الاجتماع وذلك من خلال **نظرة** جديدة للعمليات وفقا لتوجيهات أهداف الأفعال التى **تتألف** منها تلك العمليات.

ويعتبر التعاون Co-Operation والتنافس Competition والصراع Conflict والملاءمة أو التواؤم Accommodation من العمليات الاجتماعية الاساسية فى الحياة الإنسانية(*).

* * *

خامسا ـ الثقافة كموضوع رئيسى لدراسة علم الاجتماع:

تعتبر الثقافة Culture ـ بإجماع **كل** الآراء ـ موضوعا **رئيسيا** للدراسة فى علم الاجتماع ولكن.. ما هى **الثقافة؟!**.

تُعرّف الثقافة بأنها: «الكل الذى يتألف من قوالب **التفكير** والعمل فى مجتمع معين» كما تعرف الثقافة أيضا بأنها «تراكم الاختراعات سواء أكانت تكنولوجية أو أيديولوجية أو اجتماعية»..[1].

هذا وترتبط كل **عناصر** الثقافة فيما بينها ارتباطا وظيفيا Functional Contiguity بمعنى أن العناصر الثقافية **تتكامل** فى شكل أنساق.

أما المحددات **العديدة** للثقافة التى تشمل فيما تشمل، المناخ Climate، التربة، Ground، الكثافة السكانية Thickness مستوى التقدم Advance التكنولجى، والخبرة Le Expériénce ، وتلك المحددات وغيرها تترابط فيما بينها فى النهاية فى تشكيل الثقافة السائدة فى المجتمع.

كما تمثل **السمات** المكونة للثقافة أدوات أو وسائل إشباع الحاجات المقررة اجتماعيا وثقافيا لأعضاء **المجتمع** الكبير والجماعات المختلفة التى يضمها.

(*) لقد تناولنا العمليات الاجتماعية بكثير من التفصيل خلال:

أ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٦.

ب ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية ـ عالم الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ص ١٠٤ ـ ١١٠.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن **علماء** الاجتماع قد أكدوا وجود نوع من التفاعل **الدائرى** ليس فقط بين الفرد وثقافته، بل بينه وبين **مجتمعه** أيضا، كما أكد علماء الاجتماع أيضا على أن شخصية الفرد **تتشكل** من خلال ثقافة المجتمع الذى ينتمى اليه، وأن هذا **التشكل** يتم بواسطة الهيئات والمنظمات التى **تتولى** عملية التنشئة الاجتماعية(*).

* * *

سادسا - التغير كميدان أساسى للدراسة السوسيولوجية:

التغير سواء فى الثقافة أو البناء الاجتماعى، **يعتبر** ميدانا أساسيا للدراسة **المتطورة** فى علم الاجتماع، وهذا باتفاق علماء الاجتماع وباحثيه، ولكن كيف يتم التغير وما هى الأسس التى ينهض عليها.. أو بعبارة أخرى ما هى ميكانزمات التغير سواء فى الثقافة أو المجتمع؟!.

للإجابة على هذا السؤال نقول:

إن الميكانزمات الأساسية للتغير الاجتماعى والثقافى **تتألف** من ثلاث عمليات متتالية هى.. الاختراع فالقبول ثم الانتشار [٢].

ومن المعروف أن الثقافة تتم على أساس **التراكمات** التى تأخذ فى كل مجتمع شكلا فريدا **لأنها** تتم بطريقة انتقائية لايمكن معها أن تتشابه فى النهاية أية تراكمات بشكل **مطابق** تماما لتلك الأشكال التى تمت فى مجتمعات أخرى.

ومن هنا كان القول بأن لكل ثقافة **طابعها** الخاص، وأن لكل إنسان شخصيته المميزة(**).

* * *

سابعا - الشخصية كموضوع رئيسى للدراسة فى علم الاجتماع:

تعتبر الشخصية Persomalite من أكثر الموضوعات **جدلا** بين علماء الاجتماع **وباحثيه**، وخصوصا بين المنتمين منهم لعلم الاجتماع النفسى أو للأنثروبولوجيا، أو لعلم النفس **الاجتماعى**، وعلى النحو الذى سبق أن عالجناه فى مؤلفنا «علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية».. و«علم الاجتماع.. المفهوم

(*) انظر - علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج - مصدر سابق - ص ص ٩٣-١٠٣ - لتأخذ فكرة أوضح عن الثقافة كموضوع للدراسة فى علم الاجتماع.

(**) انظر دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - مرجع سابق - ص ص ١٨٠-١٨١.

والموضوع والمنهج» السابق الإشارة إليهما(*)، أو على النحو الذى سنسلكه خلال الصفحات التالية لهذا الكتاب، أو طبقا لما تناولناه خلال أحدث مؤلفاتنا «علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق» الذى واكب فى الظهور هذا الكتاب.

وعلى كلٍّ.. نحن سنتناول **الشخصية** كموضوع يشكل ملمحا أساسيا للنظرية الاجتماعية المعاصرة، ومن ثم تعتبر الشخصية **ميدانا** أساسيا للدراسة فى علم الاجتماع.. وذلك من خلال **النقاط** التالية..(**).

(أ) مفهوم الشخصية:

يمكن النظر إلى **الشخصية** باعتبارها «نتاجا للتفاعل الاجتماعى والثقافى بين الفرد ومجتمعه» وأنه يجب دراسة الشخصية كموضوع من **خلال** «دراسة المجتمع والثقافة» لأن الشخصية **تنهض** أصلا على العديد من المقومات «الاجتماعية والثقافية،» لذلك فإن أغلب علماء الاجتماع **يرون** أن «الشخصية Personnalite والثقافة le culture والمجتمع Socicte يجب أن تشكل الثلاثية المحورية **للدراسة** فى علم الاجتماع.

وقبل أن نحدد علاقات الشخصية بغيرها من القوى داخل المجتمع.. فإن علماء الاجتماع وخاصة النفسيين منهم، وعلى رأسهم توماس Thomas قد حددوا الشخصية فى ثلاثة أنماط، هى:

الشخصية المحافظة Philistine.

الشخصية البوهيمية Bohemian.

الشخصية الإبداعية Crative.

وقد حدد علماء الاجتماع **النفسى** أهم ملامح تلك الأنماط على اعتبار أن الشخصية المحافظة تتميز بالاستقرار، على نحو قد لا يسمح **بتقبل أفكار** جديدة، أما الشخصية البوهيمية فمن **أهم خصائصها** عدم الترابط أو عدم الاستقرار، **أما** الشخصية **المبدعة**، فإنها تمتاز بالاستقرار علاوة على أنها منظمة.

والشىء الجدير بالذكر.. أن تلك **الأنماط** ليست إلا مجرد **نماذج للشخصية**، فقد ثبت أن هناك **الكثير** من أنماط الشخصية التى لم تستوعبها **تلك الأنماط..!!**

(*) انظر ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية ـ مرجع سابق ـ ص ص ١١٧ـ١٢٢، وانظر كذلك
دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع.. الموضوع والمفهوم والمنهج ـ مصدر سابق ص ص ١١٨ ـ ١٢٣.
(**) للاستزادة حول موضوع الشخصية ـ انظر المرجع السابق ـ ص ص ١١٧ـ١٢٥.

(ب) الجماعة والشخصية:

الجماعة Groupe هى الحاضنة للشخصية، وخصوصا فى **مراحلها** المبكرة، حيث تعتبر الجمـاعة المصدر الأساسى لإمداد **الأفراد** المنتمين إليها بكل مايمكنهم من إشباع احتياجاتهم الأساسية من خلال مايعرف بعملية **التنشئة** الاجتماعية.

(جـ) الشخصية والثقافة:

من الثابت أن الشخصية **تختلف** وتتمايز ، وهذا التمايز قد يكون فرديا وقد يكون جماعيا ويرى علماء الاجتماع أن المسئول الأول عن **حدوث** ذلك الاختلاف أو التمايز هو **الثقافة** باعتبار أن الشـخصية هى **نتاج** التفاعل بين الفرد ومجتمعه وثقافته.

ويعتـبر علمـاء الاجتمـاع أيضا أن **تأثير** الثقـافة على الشـخصيـة أمر ثابت وبالتـالى فإن **اختلاف** الشخـصيـات وتمايزها يأتى نتاجـا طبيعـيا لاخـتلاف وتمايز الثقافات.

(د) المجتمع والشخصية:

يلعب المجتمع **كمحتوى** للأنساق والنظم والتفاعلات والثقافة دورا **أساسيا** فى تشكيل شخصية الفرد **وتميزها** وذلك من خلال ما يأتى.

١ ـ عملية **التنشئة** الاجتماعية Soialization باعتبارها عملية مجتمعية سواء من خـلال **الجماعات** كـالأسـرة أو مـن خـلال بعض **النظم** المجتمعـية كالنظام التـعليمى والتـربوى، وعمليـة التنشئـة الاجتـماعـية تلعب دورا هامـا فى تكوين وتشكيل وإعادة **تشكيل** شخصية الفرد.

٢ ـ الاختلافات الموجودة **بين** النظم والتنظيمات الاجتماعية **داخل** المجتمع تؤدى بالضرورة إلى **اختلاف** الشخصية نتيجة لاختلاف سمات كل منها واختلاف **درجة** تأثير كل من النظم والتنظيمات على الشخصية.

٣ ـ الاختلافـات الموجودة بين مكونات البنية الاجتـماعية للمجـتمع تنعكس بالضرورة على الشخصية سلبا وإيجابا(٣)(*).

* * *

(*) انظر مؤلفنا ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مرجع سابق.

ماهية النظرية السوسيولوجية المأمولة فى عالم متغير !!

يمكننا أن نعود ختاما لهذا الفصل لنؤكد أن النظرية السوسيولوجية **لابد** لها وهى تعالج مجموعة ما من **الظواهر** الاجتماعية أن تضع فى اعتبارها شيئين هامين هما:

أولا - أن **النظرية** السوسيولوجية تتناول ظاهرة معينة أو قد **تتناول** مجموعة ما من الظواهر ، وتتوافر على تقديم **تفسير** ملائم لتلك الظاهرة أو **لهذه** الظواهر موضوع النظرية من خلال نسق استنباطى منظم(٤).

ثانيا - أن أية **نظرية** سوسيولوجية يجب أن **تتوافر** لها مجموعة من الخصائص هى :

(أ) لابد للنظرية السوسيولوجية أن تضم مجموعة من **المفاهيم** سواء أكانت تلك المفاهيم وصفية أم مفاهيم إجرائية(٥).

(ب) لابد أن تتكون النظرية السوسيولوجية من مجموعة من **القضايا** التى تكون نسقا استنباطيا معينا يمكن من خلاله أن تتداعى القضايا الواحدة **بعد** الأخرى وصولا إلى **الهدف** النهائى للنظرية، وهو تفسير أسباب حدوث ظاهرة ما أو مجموعة من الظواهر التى تعالجها النظرية(٦).

(جـ) لابد أن تكون **كل** القضايا - أو بعضها على الأقل - التى تتضمنها النظرية **قابلة** للاختبار، حتى يمكن التأكد من صدقها أو كذبها، **وتعرف** القضايا التى من هذا النوع بأنها قضايا احتمالية أو ممكنة(٧).

(د) لابد أن يكون هناك منهج ومناهج للبحث السوسيولوجى - شريطة أن يستفيد هذا المنهج من كل معطيات العلم الطبيعى سواء من حيث **تقنيات** البحث أو من حيث التقدم السريع والمذهل فى **الحواسب** الآلية «الكمبيوتر» وما **هيأته** فى مجال العلم.. عامة.. والطبيعى خاصة من إمكانيات للنجاح والتطور المستمر(٨).

(هـ) أوضح تيماشيف خلال **كتابه** «نظرية علم الاجتماع» المشار إليه - أن فحص النظريات السوسيولوجية فى الماضى والحاضر قد **أثبت** أن تلك النظريات تدور حول مشكلات قليلة ومحدودة، إلا أن تيماسيف قد أكد على أنه ينبغى على النظرية السوسيولوجية أن تجيب على مجموعة من التساؤلات، هى:

أولا - ما هو **المجتمع** وما هي الثقافة.

ثانيا - ما هي **الوحدات** الأساسية التي **ينبغي** أن نُحلل المجتمع **والثقافة** إليها؟

ثالثــا ـ ما هي طبيعة **العلاقة** بين المجتمع والثقافة والشخصية؟!
رابعــا ـ ما هي **العوامل** التي تحدد **حالة** المجتمع والثقافة وتغيرها؟
خامسا ـ ما **علم** الاجتماع؟ وما **مناهجه** الملائمة؟

* * *

حول مستقبل النظرية فى علم الاجتماع

ماعـرضناه قبـلا من نقاط كـانت نقاط التـقاء، ولكن هل يمكن لمثـل نقاط الالتقاء تلك أن تكون ركيزة ثابتة **تنهض** على أساسها نظرية سوسيولوجية متكاملة أو شاملة؟

الجـواب بالنفى أو بالإيجاب أمـر **صعب** وإن كانت نقـاط الالتقـاء تلك قد مكنت عالما **عبقريا** مثل سـوروكين من أن يـقدم **فرضا** مـؤداه أن العلوم النظرية تتطور وفقـا لنمط من **التحولات** ضرب له العـديد من الأمثلة خلال مـؤلفه عن «النظريات السوسيولوجـية فى عالم اليوم»، وقد **تنبأ** سوروكين بأن الجـيل الثانى من علماء الاجتماع سوف **يهتم** بصياغة قوانين عـامة تحكم الاستاتيكا والديناميكا الاجتـماعـية وذلك استـنادا إلى البيـانات الكثيـرة المتناثرة التى تم له ـ أى **للجيل** الثانى من علماء الاجتماع ـ الحصول عليها.

* ومع أن تيماشيف قد **تنبأ** لتنبؤ سوروكين بأن يكون صحيحا وصادقا، إلا أنه شكك فى أن يرتكز علم الاجتماع مستقبلا على أساس **دراسات** متعمقة.

وتوقع تيماشيف أن يظل التقسيم الحالى لعلم الاجتماع إلى معسكرين قائما، حيث **يرتكز** أحد المعسكرين على **جمع** البيانات الواقعية ومـعالجتها، بينما **يلجأ** المعسكر الآخر إلى **الاستعانة** بهذه البيانات فى سبيل صياغة نظرية عامة(١٠).



المصادر والتعليقات

١ ـ تيماشيف ـ مرجع سابق ـ ص ٥٣٢ .

٢ ـ للاستزادة انظر ـ تيمـاشيف ، المرجع السابق ـ ص ص ١٦٩ ـ ١٧٣، ص ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

٣ ـ المرجع السابق ـ ص ٥٤١ .

٤ ـ النسق الاستنباطى هو ذلك النسق الذى تتداعى فيـه مجموعة مامن الأفكار أو القضايا تداعيا منطقيا مع مجموعة ما من المقدمات.

٥ ـ يقصد بالمفاهيم الوصفية تـلك المفاهيم التى تصف الموضوعات العامة للنظرية، أما المفاهيم الإجرائية فهى تلك المفاهيم التى تتناول المتغيرات التى تتعرض لها النظرية.

٦ ـ انظر نموذجا للنظرية السوسـيولوجية ، خلال العرض الذى قـدمه هومانز لبناء نظرية دوركـايم فى الانتحـار ضمن مؤلفـنا ـ معالم الـفكر السوسيـولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ٨٩ـ٩١ .

٧ ـ دكتور صلاح الفوال ـ علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق ـ مرجع سابق.

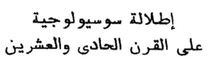
٨ ـ المرجع السابق.

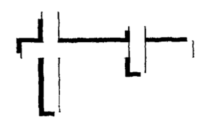
٩ ـ تيماشيف ـ الترجمة ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٤ـ١٥ .

١٠ ـ دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السـوسيولوجى المعاصر ـ مرجع سابق ـ ص ص ١٨١ـ١٨٢ .

* * *

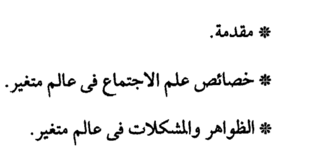




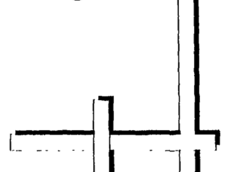


الفصل الثانى والثلاثون

مجالات دراسة علم الاجتماع فى عالم متغير



* مقدمة.
* خصائص علم الاجتماع فى عالم متغير.
* الظواهر والمشكلات فى عالم متغير.
* الظواهر والمشكلات بين الأممية والمحلية.
* نماذج من الظواهر والمشكلات المجتمعية.



مقدمة:

تميز علم الاجتماع خلال **مسيرته** عبر تاريخه الطويل.. وبالتحديد منذ أيام الفراعنة.. وحتى الربع الأخير من القرن العشرين.. نقول إن علم الاجتماع تميز بمجموعة من الخصائص نوجزها فيما يلى:(*)

(أ) تداعى الأفكار والمعانى:

بمعنى.. أننا قد نجد فكرة واحدة **تتكرر** طوال مسيرة علم الاجتماع.. **بنفس** المعانى وبنفس الألفاظ تقريبا، ومن أوضح **الأمثلة** على ذلك.. فكرة ابن خلدون عن «دورة المجتمعات»فى تطورها، وتشبيهها بدورة حياة الكائنات الحية، ومن أمثلتها أيضا..**فكرة** السكون والحركة التى **فسركونت** تطور المجتمعات وفقا لها.

* * *

(ب) التواصل الفكرى:

بمعنى أن هناك بعض الأفكار **الرئيسية** فى علم الاجتماع.. نجدها **ماثلة** وتشكل مساحات كبيرة من الإسهامات السوسيولوجية.. ولكن الاختلاف البارز كان فى **الصياغة** وخاصة من حيث الدقة فى التعبير.. ومن هذه الأفكار، فكرة..**الضرورة** الاجتماعية التى تجبر الإنسان على الحياة وسط مجتمع، وكذلك فكرة تطور المجتمعات والأمم وفقا للتطورية العضوية.

(*) سنعاود الحديث عن تلك الخصائص خلال كتابنا «علم اجتماع المستقبل» ونرجوا الرجوع إليه.

وبلغ التـــواصل فى الأفكار **مداه** من خـــلال وراثة أفكار **حديثة** لأفكار قديمـة.. مع الاكتفـاء أحيانا بمجـرد تغيـير الاسم، تماما كـما ورث علم الاجتـماع الرياضى وعلم الاجتماع **الإحصائى**.. ورثا الوضعية الحديثـة. فضلا عن اعتبار كل من القياس الاجتـماعى والاتجاه الأيكولوجى.. امتدادا للوضعيـة المحدثة، كما يُرد الاتجاه الوظيفى إلى **الأنثربولوجيا** الثقافية.

وبالمثل.. يـمكن **اعتبار** سوسـيولوجيا الجـماعات الصغـيرة منتميـة للاتجاه **النظرى** فى علم الاجتماع، باعتبارها قد نشـأت فى ظله، كما يمكن كذلك اعتبار الاتجاه **التطورى** الحديث.. امتدادا لعلم الاجتماع **الديناميكى**.. ويشاركه فى ذلك الامتداد.. علم الاجتماع التاريخى.

* * *

(جـ) تساند الأفكار والمعانى:

بمعنى أن هناك إسهـامات سوسيـولوجية كـثيرة.. سواء بالنسـبة **للنظرية** أو المنهج، تساندت مع بعضهـا البعض.. واستفاد اللاحقون بما قدمـه السابقون.. سواء اعتـرف المستفـيدون بذلك أو لم يعتـرفوا.. **والمثال** على هذا التـساند فى مـجال النظرية.. موجود فى **أفكار** ابن خلدون عن تأثير البـيئة على **مقدرات** الإنسان.. من خلال التعـاون القائم بين الظواهر الطبيعـية والاجتماعـية.. وكذلك نظرية ابن خلدون فى **الصراع** بين الأنماط الاجـتمـاعية ـ الـبداوة والحضـارة ـ ودورها فى **تغيير** المجتـمعـات، ودورة الأجيـال نتيـجة لذلك الـصراع، **واعتبار** أفكـار ابن خلدون هذه ـ وغيـرها كثـير ـ اعتـبارها **أساسا** لعشـرات الأفكار والنظريات التى تلتها.. ولو **بعشرات** العقود من الزمان.

ومن أمثلة ذلك أيضـا.. التقدم **المنهجى** سواء من حـيث طبيـعة المنهج.. أو بالنسبة **للأدوات** المسـتخـدمة فى البـحث العلمى.. ومنهـا **السبق** الذى أحرزه البيرونى بالنسبة لمنهج **دراسة** الحالة، وبالنسبـة كذلك لطريقة **الملاحظة** المباشرة.. فضلا عن طريقة البحث الأنثـربولوجى.. التى اعتمد عليها البيرونى بصـفة أساسية خلال دراساته الأنثربولوجية المتعددة فى الهند والتى يعتبر من **روادها** المؤسسين.

* * *

(د) التكامل الفكرى:

سواء من حيث النظرية أو المنهج.. وخاصة فى العقود(*) الستة الأخيرة من القرن العشرين، التى تميزت بظهور عباقرة فى النقد **والتأليف** السوسيولوجى، اعتمادا على إسهامات السوسيولوجيين الأوائل.. ونخص بالذكر كلا من **ماكس فيبر وباريتو وسوروكين**.. فقد بذلوا جهدا كبيرا سواء فى **نفض** الغبار عن التراث السوسيولوجى القديم.. أو فى إعادة صياغة هذه الأفكار ضمن **منظومة** سوسيولوجية.. كان لها الفضل فى صياغة نظرية اجتماعية **معترف** بها الآن.

* * *

(هـ) الواقع الفكرى بين النظرية والتطبيق:

تحولت **أفكار** كثيرة إلى واقع حىّ معاش.. ومن أكثر هذه الأفكار شهرة المدن **الفاضلة** عند كل من أفلاطون وأرسطو والفارابى وإخوان الصفا.. وغيرهم كثير فى الفكر الاجتماعى القديم.. وأهمها محاولة **الإسكندر** الأكبر إقامة اليوتوبيا التى دعا إليها أستاذه أرسطو.

ومن أشهر تلك الأفكار فى العصر الحديث.. فكرة الحتمية **العنصرية** كما تخيلها جوبيتو وطبقتها ألمانيا فى عهد **النازية** وكانت سببا فى دمار العالم لفترات غير قصيرة.. ومنها كذلك **الماركسية** أو الاشتراكية.. وقد انتقلت من فكر ماركس ولينين وتحولت بأيدى **لينين** بالذات إلى دين ودولة.. فيما كان معروفا حتى بداية العقد الأخير للقرن العشرين.. بالاتحاد السوفييتى.. ولكن ما لبثت **النظرية** الماركسية اللينينية أن **انهارت** وانهار معها البناء الاجتماعى لما كان يعرف بالاتحاد السوفييتى، والدول الاشتراكية التى كانت **سائرة** فى فلكه، وشكل انهيار هذا النموذج وبالصورة التى تم وفقا لها.. شكل **لغزا** لن يجيب عليه **إلا علم** الاجتماع..!!

المهم أن علم الاجتماع ـ كما رأينا ـ **خلال** مسيرته الطويلة فى عالم متغير.. لم يكن علما مجهولا أو نشأ من فراغ، وإنما كانت له **مجموعة** من السمات والخصائص.. وعلى النحو الذى شرحناه قبلا. وعلى سبيل المثال **اسم** علم الاجتماع.. فقد سماه ابن خلدون بنفس الاسم المعروف به حاليا والذى أطلقه عليه

(*) العقد من الزمان يساوى عشر سنوات.

كونت «علم العمـران أو علم الاجتمـاع البشرى» كمـا حدد ابن خلدون **ميادين** البحث فيه.. **والمنهج** الذى يجب أن يتبعه.. بل وأقام ابن خلدون **نظريته فى** علم الاجتماع من خلال دراسته للصراع الأبدى بين البداوة والحضارة.. كما أوضح ابن خلدون من خلال **نظرية** «العصبية» أن الصراع هو سـمة العلاقة بين نمطى البداوة والتحضر، والتى تتحدد وفقا **لها دورة** حياة المجتمع، وفى تماثل عضوى شبه ابن خلدون خلال وصفه لدورة حياة المجتمع بدورة **حياة** الكائن الحىّ.

نقول إن معظم الأفكار الأسـاسية كانت **موجودة** بصورة أو بأخـرى خلال الفكر الاجتماعى **القديم** أو الوسيط.. بصرف النظر عن اعـتراف كونت ودوركايم بسبق ابن خلدون وغيره من العلماء العرب والمسلمين.. أم لا..!!

ولو أننا **يجب** ألا ننسى.. أو نتجاهل ما أضافتـه ظروف كل عصر إلى مسيرة علم الاجتماع ـ سلبا أو إيجـابا ـ وخاصة بالنسبة **لتقنيات** البحث العلمى وفنياته.. وكمّ المعلومات المتوفرة فى كل عصر..!!

كمـا أننا نود أن **نلفت** النظر إلى التغـير المسـتمر فى المجـتمع.. أو فى علم الاجتماع.. هذا التغير الذى جعل واحدة من **الثوابت** فى علم الاجتماع لأكثر من سبعـة عقود خلت.. جعلها فى خبـر كان.. ونعنى بها **الماركسية** والتى اعتبرت من النظريات القليلة التى عـاشت الواقع.. معـتمدة على تـصورات نظرية **تؤمن بأنها** الوريث المرتقب للرأسمالية..!!

وحـتى لا نطيل .. سنتـعرض فـى عجـالة.. لأهم **الموضوعات** والمشكلات والظواهر التى يجب على علم الاجتماع أن يجعلها **أساس** أولوياته.. كما سنعرض كذلك لأهم العلـوم الخاصة لعلم الاجـتماع.. والتى تعـد تلك الظواهر والمشكلات **أهم** اختصاصاتها(*).

* * *

الظواهر والمشكلات في عالم متغير:

سنعرض لهذه المشكلات والـظواهر انطلاقا من المحكات الخمسة المشـار إليها قبلا.. وسوف نبين أىّ علم من علوم الاجتماع **الخاصة** هو المعنى بدراستها.. المهم أننا **سنعرض** لهذه المشكلات أو الظواهر فى ضوء الملاحظات الأربعة الآتية:

(*) عن كتابنا «علم اجتماع المستقبل».. مصدر سابق.

١ـ الكثير من هذه المشكلات أو الظواهر **قديمة** وبعضها حديث، ونقصد بالقدم هنا أنها كانت معروفة منذ مدة طويلة.. كمشكلة زيادة النسل التى صارت محط اهتمام المجتمعات والدول وتولى النظام الدولى الجديد **طرح** المشكلة من منظور مختلف.. إن دل على شيء إنما يدل على **اهتمام** زائد بطرح حلول عديدة للمشكلة التى تؤرق العالم كله.. وتكاد تقضى على آماله فى مستقبل لائق.. وخصوصا بعد ثبوت أن مشكلة زيادة النسل من أكثر المشاكل **خطرا** على عملية تنمية المجتمعات.

٢ـ أنه لا يوجد الآن علم قادر بمفرده على التصدى لمواجهة مشكلة ما أو ظاهرة **معينة** .. سواء أكان هذا العلم فرعا من فروع علم الاجتماع الخاص.. أو كان من **العلوم** الطبيعية أو الاجتماعية الأخرى، وإنما يجب أن **تتساند** وتتكامل كل تلك العلوم جميعا على **توفير** الحل المنشود.

٣ـ يجب الأخذ فى الاعتبار الأسس والمبادئ التى تحدثنا عنها قبلا.. وهى التواصل الفكرى، والتساند النظرى، والتكامل المنهجى.. إذا ما أردنا دراسة شاملة للإشكاليات المطروحة.. أو للظواهر والمشكلات **محل** البحث السوسيولوجى.

٤ـ يجب أن نراعى خلال بحثنا عن الظواهر والمشكلات أن منها ما **يتسم** بالعالمية أو الأممية ومنها ما يعتبر ظواهر ومشكلات **محلية**.. وذلك على النحو الآتى:

* * *

(أ) مشكلات وظواهر أممية:

بمعنى تواجدها أو انتشارها فى أكثر من مجتمع.. وبتعبير آخر.. هى تلك المشكلات والظواهر التى **تجاوزت** المحلية إلى العالمية سواء من حيث التواجد أو الاهتمام.

ولقد **صُنفت** العديد من المشكلات والظواهر طبقا **للمحكين** السابقين ـ التواجد والاهتمام ـ لكن لا يشترط أن تتطابق تلك الظواهر والمشكلات من حيث الأسباب والخصائص.. فقد تتفق أو تختلف لكن تبقى الخصائص **الكلية** للظاهرة الأممية واحدة..!!

* * *



(ب) ظواهر ومشكلات محلية:

وبالمثل هناك ظواهر ومشكلات **يغلب** عليها طابع المحلية ـ وفقا لمعيارى التواجد والاهتمام ـ وهى بالقطع تتواجد أكثر فى **رحاب** المحلية.

لكن لا يمكن أن تطلق على الظواهر والمشكلات **المجتمعية** أنها أممية أو محلية صريحة وخصوصا فى ظل التقدم الهائل فى **مجال** الاتصالات والمعلومات.. لأن الحقيقة المؤكدة أنه لا توجد **ظاهرة** ما أو مشكلة معينة يمكن أن نصنفها **بوضوح** ضمن الظواهر الأممية أو المحلية.. وإنما يتم ذلك فى ضوء **غلبة** مجموعة معينة من الخصائص تُغلِّب تصنيف الظاهرة محل الدراسة إلى عالمية أو محلية..!!

وعلى كل حال.. نحن سنذكر هنا بعضا من تلك الظواهر والمشكلات بغير ترتيب مقصود أو ضمن تصنيف مقرر لتكون **ظواهر** أممية .. أو محلية..!!

ويجدر بنا .. أن نوضح أننا **لانعنى** بالمحلية هنا.. التصنيف الضيق للمحلية.. لأننا نعنى بها تلك الكيانات الاجتماعية الأكبر.. كالمجتمع الإقليمى **والقومى** والعربى...إلخ(*).

* * *

البطالة :

وتقع ضمن دائرة الاهتمام المباشر لعدد من علوم الاجتماع **الخاصة** كعلم الاجتماع **الاقتصادى**.. وعلم الاجتماع **النفسى**.. وعلم الاجتماع **الثقافى**.. وعلم الاجتماع **الصناعى**.. وعلم اجتماع **المصنع**، أو علم اجتماع **التنظيم**.. وخصوصا أن ظاهرة البطالة **تجاوزت** فى أسبابها ونتائجها وطرق التصدى لها ـ تجاوزت المحلية وأصبحت أحد سمات العصر.. مع ما يترتب عليها **ويرتبط بها** من مشكلات.. لا تشكل خطرا على اقتصاديات المجتمع فقط، بل امتد هذا الخطر ليهدد **بنية** المجتمع كله بالانهيار.

* * *

(*) انظر كتابنا «علم اجتماع المستقبل» المرجع السابق.

زيادة السكان:

مشكلة زيادة السكان هى الأخرى من **الموضوعات** القديمة الجديدة.. التى لا تشغل بال مجتمعات بعينها بل صارت من الموضوعات التى شدت **انتباه** العالم كله **بمنظماته** الرسمية والشعبية خلال الربع الأخير من القرن العشرين.. ومشكلة **السكان** تدخل ضمن نطاق الاهتمام المباشر لعلم اجتماع السكان، وذلك لأن **المشكلة** السكانية ـ من حيث النقصان أو الزيادة ستتوقف على معالجتها والتصدى لها.. ليس فقط مستقبل المجتمعات المعنية بالمشكلة وحدها بل **تمتد** ظلالها وآثارها لتعم المجتمع العالمى كله، ومن أبرز صور الاهتمام العالمى بزيادة النسل المؤتمر العالمى للسكان الذى **عقد** بالقاهرة عام ١٩٩٤.

* * *

التطرف الدينى والإرهاب:

ظاهرة **قديمة** لكن الأساليب التى لجأ إليها المتطرفون، وخصوصا خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وخاصة من خلال **الإرهاب** الذى لفت الأنظار إلى التطرف الدينى.. محليا وعالميا.. **سواء** أكان هذا التطرف نتيجة للفهم الخاطئ للديانات السماوية وخاصة الإسلام.. أو كان التطرف **نابعا** عن عقائد لا دينية كتلك الجماعات المتطرفة التى ظهرت فى **أوروبا** واليابان وأمريكا خلال العشرين سنة الأخيرة.

وظاهرة التطرف وما **يرتبط** بها من الإرهاب كأساس لفرض الرأى بالقوة والوصول إلى السلطة.. هذه الظاهرة تعد اليوم من **أخطر** الظواهر العالمية والتى تتطلب لدراستها والتصدى لها **توافر** مجموعة من علوم الاجتماع الخاصة.. ويأتى على **رأس** هذه العلوم.. علم الاجتماع **الدينى**.. ولا نقصد بعلم الاجتماع الدينى هنا الجانب المتصل منه بالإسلام فقط.. وإنما يجب أن تشمل الدراسة **التطرف** الدينى اليهودى والمسيحى. إلى جانب الاهتمام **بالعقائد** اللادينية كالعلمانية والهندوسية.. وما إليها.. كما يشاطر علم الاجتماع **السياسى** ـ وغيره من علوم الاجتماع ـ علم الاجتماع الدينى **مسئولية** دراسة ظاهرة التطرف الدينى والإرهاب.



هذا ومن أمثلة المعتقدات الدينية السائدة جماعة الحقيقة السامية التى ارتكبت العديد من الجرائم فى اليابان خلال عام ١٩٩٥.

ومن أمثلة الإرهاب القائم علي التطرف الديني اليهودي. . . اغتيال رئيس وزراء إسرائيل على يد شاب يهودى متطرف، وذلك بالمخالفة للعقيدة اليهودية التى تحرم على اليهودي قتل يهودي آخر.

* * *

الجريمة المنظمة :

ظاهرة الجريمة المنظمة صارت هى الأخرى **علامة** من علامات القرن العشرين.. ومن أهم سمات الجريمة المنظمة أنها تجاوزت **حدود** الإقليمية.. وانتظمت فى تجمعات ـ وربما منظمات ـ عالمية.. سواء للقيام بها أو لحمايتها، وهذه الظاهرة ارتبطت إلى حد ما ببعض الظواهر الاقتصادية والاجتماعية **وغيرها** من الظواهر المجتمعية.. التى **فرضت** نفسها كنتيجة للنمو الاقتصادى أو الاجتماعى غير المتوازن.. وخاصة ما كان منها نتيجة **للتغيرات** السريعة والتى أصابت العديد من فئات المجتمع بالإحباط.. كنتيجة طبيعية **للعجز** عن إشباع الحاجات الضرورية والأساسية لاستمرار الحياة.

وعلى كل فإن ظاهرة **الجريمة** المنظمة ـ محليا ودوليا ـ تدخل ضمن دائرة اهتمام عدد من علوم الاجتماع **الخاصة** كعلم الاجتماع **القانونى** وعلم اجتماع **الجريمة** وعلم اجتماع **التنمية** وعلم الاجتماع الاقتصادى.. إلى غير ذلك من علوم الاجتماع.. **وغيره** من العلوم.. مع الأخذ فى الاعتبار ـ الارتباط والتساند بين الجريمة المنظمة وغيرها من الظواهر **كالإرهاب** والتهريب والإدمان.. وما إلى ذلك من ظواهر مجتمعية شاذة.

* * *

التفكك الأسرى:

هذه الظاهرة طفت على السطح **خلال** الربع الأخير من القرن العشرين لأسباب **مجتمعية** مختلفة.. منها الظروف الاقتصادية المتغيرة **وضمور** بعض

الأنظمة المجتمعية الأخرى التى كانت تسهم قبلا بدور كبير فى تحقيق **تماسك** الأسرة وخاصة ما تعلق منها بالضبط الاجتماعى.. **والتنشئة** الاجتماعية **وتفسخ** القيم.. وانحلال الروابط بين الأسر والعائلات.. **وضعف** دور النظام التعليمى.. و.. أسباب أخرى كثيرة.. نرى أنه على علم الاجتماع العائلى .. وعلم الاجتماع التربوى وعلم الاجتماع الاقتصادى والثقافى.. وغير ذلك من **العلوم** سواء المتصل منها بعلم الاجتماع أو بغيره.. على كل **هذه** العلوم أن تتوافر على دراسة ظاهرة **التفكك** الأسرى.. وما لها من انعكاسات خطيرة على بنية المجتمع كله.. وخاصة فى ظل **الانهيار** المفاجئ لنسق القيم وما لحق به من تبدلات جعلته ينقلب من النقيض إلى النقيض.. ويجب أن يتوافر على ذلك علم الاجتماع **الأخلاقى** وعلم اجتماع القيم.

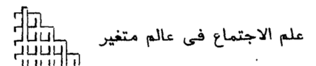
* * *

الانفتاح الإعلامى:

ظاهرة **الانفتاح** الإعلامى.. قد تكون رافدا من روافد الانفتاح الاقتصادى.. **والمشكلة** ليست فى الانفتاح وحده، وإنما تكمن المشكلة فى أن معظم المجتمعات لم تتهيأ بعد لمثل هذه **التغيرات** السريعة والمتلاحقة التى وجدت مجتمعات كثيرة نفسها فجأة فى خضم تلك التغيرات بغير **إعداد** نفسى فقدت توازنها ونتج عنه **اختلال** فى كل شىء.. بدءا من سيطرة الأسرة على مقدرات حياته وانتهاء بعملية التنشئة الاجتماعية.. **وترنح** نظام القيم.. وتبدل القدوة.. وأشياء كثيرة.. لابد لعلم الاجتماع **الإعلامى** يؤازره فى ذلك عدد من العلوم المعنية.. من دراسة الأنماط المختلفة لذلك **الغزو** الإعلامى، ولا أقول الحضارى سواء من التليفزيون **بأقماره** الصناعية وقنواته الفضائية.. أو من شرائط الكاست أو **أسطوانات** الكومبيوتر أو من الراديو أو من بعض الكتب والمجلات على علم اجتماع الإعلام دراسة آثار كل وسائل **الاتصال** المرئية والمسموعة والمقروءة.. التى غزت كثيرا من المجتمعات رغما عنها فأفقدتها **السيطرة** على مقدراتها وتركتها بغير سلاح تواجه به ذلك الغزو الإعلامى الرهيب.

* * *





الأمية:

الأمية كظاهرة.. من أخطر الظواهر السلبية فى المجتمع.. وتعد **عائقا** مهما فى سبيل تحقيق التنمية بمختلف **أشكالها** وصورها.. ومما يترتب على ذلك كله من مشكلات تهدد نظام المجتمع كله، فضلا عن أن الأمية - كظاهرة - **تعتبر** المركب السهل لكل دعاة التطرف والإرهاب.. وغيرهما.

وتدخل ظاهرة الأمية ضمن **اهتمام** علم الاجتماع التعليمى والتربوى.. أو علم اجتماع **الأمية**.. ونقترحة هنا ليكون المسئول الأول عن دراسة هذه الظاهرة وتقديم الحلول المناسبة لها.. لأن الأمية كما تعتبر المركب السهل - كما قلنا - لكل الظواهر السلبية فى المجتمع كما يعتبر حلها أيضا **البداية** الصحيحة لتخليص المجتمع من معظم - ولا أقول كل - المشكلات التى تعوق نموه.

والأمية التى نعنيها هنا.. ليست فقط أمية القراءة والكتابة وإنما تشكل **الجانب** الأكبر منها الأمية السياسية.. والأمية الدينية . . والأمية الصحية. . والأمية الثقافية.. والأمية الوظيفية..إلخ.

* * *

الانفتاح الاقتصادى:

النظام العالمى الجديد **يعتمد** على نظام السوق الحرة وما يستلزمه ذلك من اتفاقيات ثنائية ودولية لعدم وضع أية عوائق ضريبية أو **جمركية** إلا فى الحدود المتفق عليها.. وبحيث تكون **حرية** انتقال السلع مكفولة أمام كل الدول، كما **تتم** عملية الاستيراد والتصدير وفقا للمواصفات القياسية التى أقرتها الاتفاقيات الدولية أو الثنائية.. ولعل من **أشهر** تلك الاتفاقيات اتفاقية حرية **التجارة** المعروفة اختصارا باسم «الجات».. واتفاقية تكامل الجودة المعروفة اختصارا باسم **الـI.S.O** والأولى تسعى لضمان حرية انتقال السلع بدون أية مضايقات جمركية، والثانية تضمن جودة السلع المصدرة لتكون وفقا **للمواصفات** القياسية المتفق عليها.

والانفتاح الاقتصادى .. كالانفتاح الإعلامى.. **أصاب** البنيان الاجتماعى والثقافى للعديد من الأمم والشعوب بكثير من الخلل، ونتجت عنه مشكلات عدة.. يدخل معظمها فى نطاق اهتمام علم **الاجتماع** الاقتصادى والثقافى والعائلى.. إلخ.

* * *



تهميش دور المرأة فى المجتمع:

اتجهت كثير من **الأمم** تحت ضغط تيارات معينة نحو تهميش دور المرأة فى المجتمع.. وحجبها عن المشاركة الإيجابية فى تصريف **أمورها** والمشاركة فى إدارة أمور مجتمعها. واهتم المجتمع العالمى بالتصدى لهذه الاتجاهات من خلال **المنظمات** العالمية والأهلية عن طريق **تنمية** دور المرأة وتيسير طرق المشاركة الإيجابية أمامها.. حتى **تشارك** بإيجابية وعمق فى مختلف الشئون الاجتماعية والسياسية والخدمية والتنموية لبلدها.. وخصوصا أن **حل** مشكلات المرأة يعتبر مدخلا لحل العديد من **المشكلات** الأخرى، كالأمية وزيادة النسل، وتفكك الأسرة.. إلخ، ومن أوضح الدلالات على الاهتمام العالمى بدور المرأة «مؤتمر النساء العالمى» الذى عقد فى بكين عام ١٩٩٥(*).

* * *

التلوث البيئى:

مشكلة التلوث البيئى وما يرتبط بها من مضار مؤكدة على صحة الإنسان وسلامة البيئة، هذه المشكلة لفتت **الأنظار** بشدة إليها وعلى كل المستويات، ومشكلة التلوث البيئى لها أسباب كثيرة.. منها ما يعود للإنسان من خلال سوء **استخدامه** للبيئة، وخاصة الأشجار والأنهار وما إليها، ومنها ما يعود **لمخلفات** التصنيع حيث تلقى فى الأنهار أو حول المصانع رغم أخطارها المؤكدة على صحة **الإنسان** وغيره من الكائنات الحية سواء كانت فى أعماق **الأنهار** أو تدب على ظهر الأرض.

والأخطر من هذا كله **النفايات** النووية التى استطاعت الدول الكبرى بوسيلة أو بأخرى أن تخفيها فى باطن الأرض - وخاصة فى إفريقيا - نظير حفنة من **الدولارات** عندما قبلت الكثير من البلدان المتخلفة أن تكون مخزنا غير مأمون لتلك النفايات.

والتلوث البيئى بمختلف صوره وأنماطه.. له **علاقة** بمشكلات طبقات الجو العليا أو ما عرف بـ«الأوزون» وما **ينشأ** عنه من مشكلات وأخطار باتت معروفة للجميع..!.

(*) عقد المؤتمر العالمى الرابع للمرأة أو «مؤتمر النساء» فى بكين فى المدة من ١٩٩٥/٩/٤ حتى١٩٩٥/٩/١٥ ,

ومشكلة التلوث البيئى هى **الاهتمام** المباشر لعلم الاجتماع **البيئى** وللعديد غيره من العلوم بعضها إنسانى وأكثرها **طبيعى**..!!

* * *

حقوق الإنسان :

حقوق الإنسان من الأمور التى تشغل بال المجتمع العالمى.. بصرف النظر عن **اهتمام** أو عدم اهتمام المجتمعات المحلية به.. وحقوق الإنسان عادة ما تكون متضمنة فى **دساتير** أمم كثيرة.. لكنها مع هذا كله **تنتهك**، وشهد الربع الأخير من القرن العشرين **تحولا** فى اهتمام المجتمع العالمى بحقوق الإنسان، كما تكونت على المستوى المحلى والقارى والعالمى.. العديد من **الجمعيات** والمنظمات التى ترعى حقوق الإنسان وتراقب مدى الالتزام بها.

وحقوق الإنسان ترتبط **بالنوع** أو **بالجنس**.. كحقوق المرأة، وبالعمر أو السن.. كحقوق الطفل والمسن، **وبالصحة** العقلية والنفسية والجسمية.. كحقوق **المعوقين**.. وترتبط كذلك بالاضطهاد السياسى والعرقى والدينى والعقائدى، كما ترتبط أيضا **بحقوق** المسجونين.. وخاصة السياسيين منهم أثناء مرحلة ما قبل صدور الأحكام عليهم.

هذا وتُنظِّم حقوق الإنسان وفقا للإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى **ضمن** حق الحياة والعمل وحرية العقيدة والتعبير..إلخ.

ويعد علم الاجتماع **السياسى** هو المسئول الأول عن دراسة حقوق الإنسان يعاونه فى ذلك علم الاجتماع **القانونى** .. إلخ.

* * *

العشوائيات:

ظاهرة المجتمعات العشوائية.. أو العشوائيات تعتبر نتيجة مباشرة للهجرة غير المنظمة من الريف إلى المدن.. هذا من حيث النشأة.. أما من حيث الامتداد أو التوسع فيتم عادة عن طريق تجمع أبناء بلدة أو إقليم معين.. ورغبتهم فى السكنى معا.. وذلك بهدف الحفاظ على العادات والتقاليد بما فى ذلك ضمان نوع

ما من التكافل الاجتماعي.. وتعيش الأسرة داخل هذا النمط العشوائي بكل عاداتها وفقا لقيمها وثقافتها و**نماذج** سلوكها المتوارثة.

وتمثل تلك المجتمعات العشوائية **خطرا** ليس على المجتمع وحده.. ولكن على صحة سكان العشوائيات أنفسهم نظرا لعدم توافر **المرافق** الصحية وغيبة التخطيط السليم لتلك العشوائيات.

كل هذا علاوة على ما **تسببه** العشوائيات من مشكلات أمنية وصحية وتنظيمية .. إلخ(*).

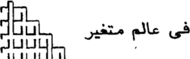
والعشوائيات هى الاهتمام المشترك لعلم اجتماع السكان.. وعلم اجتماع التنمية.. وغيرهما من علوم الاجتماع الخاصة، ولو أننا **ندعو** لعلم جديد هو علم اجتماع العشوائيات.. نظرا لاستفحال المشكلة باعتبارها **عائقا** لا يستهان به فى عالم متغير.

* * *

التمييز العنصرى:

الميز أو التمييز العنصرى.. سواء أكان **مرتكزا** على تمييز جنس على جنس «تمايز عرقى».. أو كان على أساس **الدين** «تطرف دينى».. أو كان منبثقا عن **خصائص** بشرية معينة «كاللون أو اللغة أو الثقافة».. أومنطلقا من أسباب **حضارية** «تفوق الحضارات».. أو على أساس **جغرافى** «شمال وجنوب».. أو **مناخى** «مناطق حارة وأخرى باردة».. إلى غير ذلك من **أسباب** الميز.. هذا الميز يعد من المشكلات القديمة والجديدة معا، والتى لابد لعلم الاجتماع أن يوليها عنايته القصوى.. لأنها مشكلة عادت **للإلحاح** والظهور مرة أخرى.. وخاصة خلال الحرب البوسنية التى تدور رحاها حول **دعاوى** الصرب بأنهم جنس متميز ويرفض أى تعاون مع **الأجناس** الأخرى.. وتأكد ظهور الميز العنصرى من جديد على يد الصرب وما أرتكبوه من أهوال وفظائع فى البوسنة والهرسك تحت شعار «**التطهير العرقى**».

(*) حيث تعتبر العشوائيات وكرا للعديد من النشاطات والسلوكيات المنحرفة خاصة ما كان منها منتميا إلى الإرهاب والجريمة المنظمة والاتجار بالمخدرات والدعارة وما إليها.





ومما ساعد على تفاقم مشكلة «التطهير العرقى» فى يوغوسلافيا السابقة **عجز** النظام العـالمى الجديد عن رفض هذا الميز والسكوت عما يرتكب من أهوال ومظالم، الأمر الذى **دفع** الكثيرين إلى الاعتقاد - ولهم كل الحق - **بانحياز** المجتمع العالمى بكل مؤسساته للصرب، مما شجعهم على المضى قدما فى سبيل **تحقيق** دعواهم «التطهير العرقى».

ولن يغفر سكون المجتمع الدولى عن جرائم التطهير العرقى التى مارسها الصرب فى حرية وأمان. . بل وفى ظل حظر دولى لتسليح البوسنيين المسلمين . . فحرموا حتى حق الدفاع الشرعى عن أنفسهم ووطنهم. . بينما ظلت كل خطوط التموين والتسليح للصرب مفتوحة سرا وعلانية . . نقول لن يغفر للنظام العالمى الجديد موقفه المتحيز للصرب . . ما تم الوصول إليه أخيرا من اتفاقية للسلام برعاية أمريكا وحلف الأطلنطى.

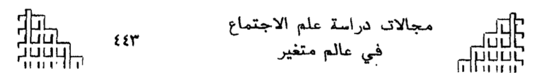
ونعتقد أن ظاهرة الميز العنصرى بكل أشكالها. . تدخل فى دائرة اهتمام علم الاجتماع السياسى والدينى والثقافى والقانونى .. إلخ.

* * *

المشاكل الناتجة عن النظام الدولى الجديد:

النظام الجديد ظهر على **أنقاض** ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى.. وهذا النظام بكل ما نتج عنه من **مشكلات** اقتصادية وعسكرية وسياسية، يربط مقدرات العالم كله برغبة دولة **وحيدة** هى أمريكا رغم تسترها وراء دور مزعوم للأمم المتحدة ومجلس الأمن.

ولكن الشيء الجدير **بالملاحظة**.. هو قدرة هذا النظام على**الحل** والحسم فى بعض المشكلات كمشكلة **الغزو** العراقى للكويت.. وقد استطاع **هذا النظام** أن يفرض **الإرادة** الدولية بعودة الحق إلى أصحابه حتى ولو أدى الأمر **إلى توجيه** ضربات صاروخية إلى النظام العراقى حتى **يمتثل**، ومازال سيف القوة مسلطا على **رقبة** العراق شعبا وحكومة حتى يحقق امتثالا يرضى عنه المجتمع الدولى ممثلا فى مجلس الأمن، لكن هذا الامتثال بالصورة التى تراها **أمريكا** أصبح حلما بعيد المنال، المهم أن هناك **حصارا** اقتصاديا حول العراق ويشارك فيه كل **الأخوة** العرب ولا يستطيع أحد أن **يشذ** أو حتى يتململ!!



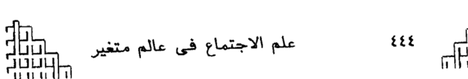
وهناك حصار من نوع آخر ـ ويعود **لأسباب** صارت كلها مصدر شك الآن ـ **مفروض** على ليبيا .. ويشارك فيه الأخوة **العرب** كذلك.. ولن ينتهى إلا بركوع ليبيا ورضوخها للمطالب الجائرة للمجتمع الدولى.. وأعتقد أن **ركوع** ليبيا ومن ثم فك الحصار نعتقد أن هذا **غير** محتمل بل غير وارد .. ولو حتى فى المستقبل المنظور..!!

وإذا ما نظرنا إلى ما حدث من تدَخُل للنظام الدولى الجديد لتحقيق الأمل فى **الصومال** ـ هكذا كان اسم الحملة العسكرية على الصومال ـ نجد أن هذا النظام **حمل** عصاه ورحل مع أول مواجهة مع بعض القوى الصومالية..!!

وإذا ما انتقلنا إلى المشكلة الفلسطينية.. وما صاحبها من عقبات وتغيرات نجد من **النظام** العالمى.. ومن أمريكا على وجه التحديد **تدليلا** لإسرائيل حتى وهى تعلن صراحة وعلنا عدم التزامها بقرارات **الشرعية** الدولية فى حماية الفيتو الأمريكى.

ومازالت مظلة الحماية الأمريكية لإسرائيل **ممتدة** ـ بل ووارفة الظلال ـ خلال **مماطلة** إسرائيل نحو حل المشكلة السورية واللبنانية.. نقول أن إسرائيل بدعم أمريكى، وعلى الرغم من إرادة المجتمع الدولى كله ـ تتمتع **بحصانة** الفيتو الأمريكى.. إسرائيل مازالت تعبث **بالإرادة** العالمية **وبالشرعية** الدولية حتى كادت تجهض محاولات السلام **العادل** لها ولجاراتها العربيات.. ولعل ذلك راجع إلى **فهم** خاطئ لمفهوم السلام.. وبحيث تكون مصلحة إسرائيل وأمنها الحدودى هو المقدر وحده رغم أن حرب **أكتوبر** ١٩٧٣ قد نزعت هذا الوهم.. وهم أن التوسع والاحتلال على حساب العرب وحقوقهم وأراضيهم هو الذى يحقق لإسرائيل الأمن والسلام ..

المهم أن النظام العالمى الجديد لم.. ولن يفعل شيئا ضد رغبات إسرائيل.. وحادثة إجماع مجلس الأمن على إدانة إسرائيل لعدوانها على حقوق الشعب الفلسطينى.. إلا أن هذا الإجماع «١٤ ضد ١» لم يستطع أن يفرض شرعيته بسبب حماية الفيتو الأمريكى..!!



ولو انطلقنا بعيدا عن **الشرق** الأوسط ومشكلاته وحططنا الرحال عند شعب **البوسنة** والهرسك المسلم «إحدى مكونات جمهورية يوغوسلافيا السابقة» لوجدنا العجب.. شعب **محظور** عليه أن يتسلح ليتمكن من الدفاع عن نفسه.. وشعب آخر غاصب لأرض غيره وهم الصرب، **بدعوى** التطهير العرقى الذى أشرنا إليه قبلا.. المهم أنه تحت **مظلة** النظام العالمى الجديد ترتكب آلاف الانتهاكات.. سواء بالنسبة **لحقوق** الإنسان.. بما فيها هتك العرض، وقتل الشيوخ والنساء والأطفال، وترويع **الآمنين**، ترتكب كل هذه المظالم تحت سمع وبصر الأمم المتحدة ونظامها الدولى الجديد.. وفى ظل تلويح شبه يومى **بالانتقام** من الصرب ،خاصة من جانب دول غرب أوروبا وحلف الأطلنطى «الناتو»(*).. لكن شيئا لم يتم وظل البغاة **الصرب** على غيهم.. بل وتشجعوا على العدوان حتى على مناطق سبق للأمم المتحدة أن أعلنتها مناطق **آمنة** أو محمية من محميات الأمم المتحدة.. ومشكلة جيب بيهاتش وغيره من المحميات.. كل هذا يحدث والنظام العالمى الجديد **عاجز** عن الحل بسبب تردده عن اتخاذ القرار الصحيح فى الوقت المناسب..!!(**)

المهم أن ذلك كله أدى إلى اتهام المجتمع الدولى وخصوصا نظامه الجديد.. أدى إلى اتهام ذلك النظام.. **بالكيل** بمكيالين.. مكيال يضرب ويدمر ويهدد ويتوعد فى الشرق الأوسط ـ وخصوصا فى الجانب العربى المسلم ـ ومكيال آخر خواء حتى مما يحفظ ماء الوجه.. وعلى طريقة الشاعر العربى البليغ.. أسد علىّ وفى الحروب نعامة..!! مع الاعتذار **لمكيالى** النظام الدولى الجديد(***)..!!

المهم أن هذه **التفرقة** فى المعاملة.. أو سياسة الكيل بمكيالين.. يجب أن تلقى عناية تامة من علماء الاجتماع العرب والمسلمين لدراسة **عدة** موضوعات أساسية هى:

(*) انظر كتابنا ـ علم اجتماع المستقبل ـ المرجع السابق.

(**) أمام تردد دول حلف الأطلنطى وتخاذلها أحيانا عن فرض إرادتها وقراراتها على الصرب تحركت أمريكتا ـ تحركا حميدا هذه المرة ـ لفرض اتفاقية للسلام على الصرب والكروات والمسلمين، وتم توقيع كل الأطراف عليها في أواخر نوفمبر ١٩٩٥، فيما عرف باتفاقية «ديتون» للسلام.

(***) وجه حلف الناتو أخيرا بتاريخ ١٩٩٥/٨/٣٠ بمباركة أمريكا والأمم المتحدة ضربة جوية للصرب ظهرت آثارها فيما بعد من خلال اتفاقية «ديتون» للسلام.

أ ـ أسباب التقاعس العربى **والاستكانة** الإسلامية فى مواجهة ظروف الكيل بمكيالين المتهم بها المجتمع الدولى.

ب ـ طرق ووسائل البحث عن **الذات** العربية والهوية الإسلامية الحقيقية للتعرف أو للكشف عن إمكانات **التوحد** والقوة فى ظل عالم متغير.

جـ ـ دراسة كيفية الخروج من المأزق العربى الإسلامى فى **صراع** الأمتين العربية والإسلامية.. مع بعضها البعض.. لأن الصراع العربى **العربى** أو الإسلامى **الإسلامى** .. أو العربى الإسلامى.. يجب أن يكون المنطلق الصحيح لمعرفة أسبابه ودوافعه **تمهيدا** لدراسة سبل الانطلاقة بكل صورها.. حتى يتمكن العرب والمسلمون من العيش بسلام فى ظل عالم متغير.

د ـ دراسة سبل توسيع دائرة **التعاون** العربى الإسلامى.. مع العالم الخارجى.. وتوثيق الروابط مع الشعوب والدول التى لا تكن عداء تاريخيا أو عقائديا أو دينيا موروثا للعرب والمسلمين.

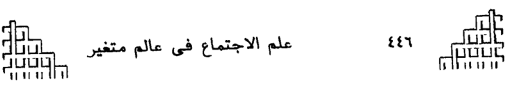
هـ ـ دراسة سبل التعاون العربى الإسلامى مع **الشرعية** الدولية من خلال المنظمات والمؤسسات العربية «جامعة الدول العربية» **والإسلامية** «منظمة المؤتمر الإسلامى»، **والعالمية** «منظمة الأمم المتحدة والهيئات التابعة لها»، بحيث تكون هناك نقاط التقاء يمكن استثمارها فى توفير **مناخ** صالح لتنمية أسس التعاون والتكامل بين الجميع فى ظل عالم متغير.

و ـ التأكيد على عدم تدخل الدول العربية والإسلامية فى **الشئون** الداخلية لبعضها البعض.. وشجب محاولات **تصدير** الثورات والإرهاب وغيرها من الظواهر **السلبية**، ودراسة الوسائل والسبل الممكنة لتحقيق هذه الغاية.

ز ـ دراسة **إمكانية** أن يكون هناك ميثاق عربى وإسلامى يوضح حقوق الجميع ويكرس **الروادع** الممكنة وسبل تنفيذها، وإيجاد نوع من أنواع الضبط الاجتماعى لشعوب وحكام الأمتين العربية والإسلامية، والمقترح فى هذا المجال **محكمة** عدل عربية وأخرى إسلامية.

وأعتقد أن هذه المشاكل والظواهر كلها.. تقع ضمن **دائرة** اهتمام علم الاجتماع العربى والإسلامى، وعلم الاجتماع السياسى، والتنموى، والثقافى، والاقتصادى، والدينى، والإعلامى ..إلخ.

* * *



عدم الانتماء والسلبية:

تعانى مجتمعات عربية كثيرة من ظاهرة عدم **الانتماء** وما يترتب عليها أو يرتبط بها من مشكلات.. **كالسلبية** والسلوك الانحرافى بمختلف صوره.. الفردية والجماعية.. **والمجتمعية** أحيانا..!!

والسلبية وعدم الانتماء.. يشكلان معا المدخل السهل الذى **يتمناه** ويسعى إليه.. كل حاقد على المجتمع، وكل **راغب** فى استغلاله، وكل **طامع** فى تهديد أمن المجتمع وأمان المواطن.

وظاهرة السلبية وعدم الانتماء ليست قاصرة على **مواطن** بعينه أو حتى على فئة من فئات المجتمع.. إلا أنها قد تكون سلوكا لقطاعات كثيرة للمجتمع، ولظاهرة السلبية وعدم الانتماء.. أسباب لعل من أهمها.. **الانفصام** بين ما يحلم به أو يريده المواطن.. وبين ما يقوم به المسيرون للمجتمع، فضلا عن **عجز** الإنسان عن إشباع حاجاته الأساسية فى ظروف مواتية، علاوة على **غياب** القدوة، فضلا عن **جهل** المواطن بما أنجزته الدولة.. أو على الأقل بما تعانيه من مشكلات عرقلت تحقيق طموحات المواطنين .. حتى تلك التى **كفلتها** الدساتير ومواثيق حقوق الإنسان..!!

وتقع كل من ظاهرة السلبية وعدم الانتماء فى دائرة اهتمام علوم اجتماع.. النفس، الثقافى، التنموى، السياسى، الإعلامى، التربوى...إلخ.

* * *

الأغلبية الصامتة:

ويمثل تواجد هذه الظاهرة ـ رغم ارتباطها بظاهرة السلبية وعدم الانتماء ـ **يمثل تواجدها أكبر خطر ليس فقط على مؤسسات** الدولة، **وإنما على مستقبلها كله.. لأن الخطورة تكمن فى أن النسيج العام لهذه الأغلبية الصامتة يتمثل معظمه** فى المثقفين وأصحاب الرأى.. وأكاد أقول: يمثل **الصفوة** المثقفة فى المجتمع. ولقد حرصت هذه الأغلبية على عدم **مشاركتها فى** الحياة السياسية للمجتمع.. ولكل **فئة منها**.. رأى فى الغياب لصعب علينا حصرها فى مثل هذا المقام.. **إلا أن** غيابها عن المشاركة ناتج عن أسباب عدة.. منها:

(أ) عدم وجـود ديمقراطية حـقيقـية ـ فى رأيهم ـ أو غيـابها.. رغم بعض الفرص المتاحة.. صحيح أن مساحـة الديمقراطية قد تكون ضيقة.. إلا أن **الأغلبية** الصامتة ترى أنها ليست كافية.

(ب) فقدان الأمـل فى التغييـر أو التشكيك فى نزاهة الانتخابـات مثلا.. أو الشك فى جـدية **القوانين** والأسـبـاب التى دعت إلى وجـودها ومـا يقـال عن القوانين سيـئة السمعة.. وغيرها من المـسميات، كل هذا **أصاب** الأغلبية ـ المثـقفة بالذات ـ باليأس، ومن ثم فى إمكانية التغيير إلى الأحسن.

(جـ) إصابة بعض قطاعات الأغلبـية الصامتة بمرض.. أو بداء التـقوقع حول الذات.. وقد هيأ الغـرور لنفر غير قليل منهم.. أنهم وحـدهم الملهمون الحقيـقيون، وكان يجب أن **يسعى** إليهم الحكم ـ أعنى الوزارة ـ لتكون لهم تشريفا لا تكليفا.

(د) ضعف المؤسسـات المجتمعية وخـاصة فى مجال تحقيق الديمـقراطية.. شجع الكثيرين على الـتمسك بالصمت ليس **خوفا** من العقاب ولـكن عزوفا عن المشاركة مثلا.. فى انتخابات معروفة نتيجتها مقدما.

المهم أن غياب معظم **الصفوات** ـ جمع صفوة ـ عن الإسهام والمشاركة فى الحياة المجتمعية وخاصة فى الجانب السياسى ـ يبعدها عن **التأثير** المباشر فى إدارة شئـون مجتـمعـاتها، فضـلا عن أن هذا الغيـاب يتيح الفرصـة لكثيـر من المدعين ليتحكموا فى رقاب مجتمعاتهم كما يحلو لهم بدءا من التشريع حتى الخصخصة..!!

وهذه الظاهرة تدخل فى رأينا فى دائـرة اهتمام عـلم الاجتـماع **السياسى**، التربوى، والثقافى، والتنموى، وغيرها كثير..!!

هذا وقد تتـحول السلبية والصمت لتـصبح **طابع** سلوك يصيب المشـاركة الشعبية فى **مقتل** وتجعل مـشاركة الشعب فى تنـمية المجتـمع أمرا شبه مـعدوم.. ويصبح **الاعتماد** كله على الحكومة مما يربك خططها للنهوض بالمجتمع.

* * *

المسنين والفئات الخاصة:

بلوغ سن الستين فى كثير من المجتمعات العربية والإسلامية ـ سن **المعاش** ـ يعد حكما على المسنين بعدم **الصلاحية** للتأثير على مقدرات حياتهم وحياة غيرهم



داخل المجتمع، لأن نظرة الدولة إليهم تبدأ من اعتبار أن **صلاحيتهم** للخدمة العامة قد انتهى عمرها الافتراضي.. ويجب أن تبحث الدولة في كيفية إعالتهم وتحقيق درجة مناسبة من الرعاية الاجتماعية والصحية لهم، قد تكون هذه النظرة صحيحة في بعض جوانبها.. لكنها **أغفلت** الخبرات التي اكتسبها أهل المعاش من المواقع التي عملوا فيها أو أدوارها.

لكن بغير أن نطيل.. نقول إن سن الستين.. ليس هو نهاية المطاف بقدر ما هو **بدايته** عند شعوب ودول أوروبية كثيرة.. وحتى داخل المجتمع المصري على سبيل المثال ـ فإن **فئة** غير قليلة من أصحاب العمل(*) ومن يعاونهم ممن جاوز سن الستين.. قد حققت وتحقق نجاحات لا يمكن إغفالها ويعجز عن أدائها **الكثيرون** ممن هم أصغر سنا وأقل تجربة..!!

كان ذلك عن المسنين أما بالنسبة للفئات الخاصة.. حتى المعوقين منهم ـ وقد حباهم الله بقدرات إضافية تجعل **مساهمتهم** في الحياة اليومية لمجتمعاتهم شيئا غير مستحيل.. بل أثبتت كثرة من الحادثات **تقدمهم** على زملائهم الأصحاء في مجالات عديدة. . كالرياضة البدنية مثلا..!!

* * *

العادات السيئة في الاستهلاك:

سواء بالنسبة للمال العام أو الخاص.. والأمر يحتاج إلى ترشيد الاستهلاك بدءا من استهلاك المياه حتى رغيف الخبز.. ومرورا باستهلاك الطاقة ووسائل النقل العام وما إليها.. وعلى علم الاجتماع أن يتوافر على دراسة **أسباب** هذه المشكلة.. وخاصة **رغيف** الخبز الذي يبتلع العادم منه.. الذي يملأ صناديق القمامة.. معظم دخل **قناة** السويس بجمهورية مصر العربية مثلا..!!

والأمر يحتاج إلى تغيير أنماط الاستهلاك مع بيان الأسباب التي يرجع الفاقد أو التالف خلالها إلى **عيوب** في الصنعة وغيرها من العوامل التي يضطر معها **المستهلك** إلى إلقاء المنتج في القمامة رغم حاجته الشديدة إليه..!!

(*) نعني بهم الخبراء وغيرهم ممن لا ترتبط أعمالهم بسن معين للمعاش كالأطباء، والمحامين، والأساتذة.. والمهنيين ورجال الأعمال، وغيرهم كثير..!!

ونعتقد أن هذه الظاهرة تقع ضمن اهتمام علوم خاصة كثيرة كعلم **الاجتماع** التربوى، والاقتصادى، والعائلى، والثقافى، والتنموى.. مع ضرورة التعاون مع علوم الطب والتغذية والصحة وما إليها.

* * *

الاغتصاب والاعتداء الجنسى:

من الظواهر **الغريبة** على المجتمع المصرى وعلى غيره من المجتمعات الشرقية.. والتى تمثل اعتداء سافرا على حقوق الإنسان وخاصة منها حقوق المرأة والطفل.. وبرغم **قوة** التشريعات العقابية وقسوتها أحيانا.. إلا أن حدة المشكلة لم تخف وخصوصا أن ما يتم اكتشافه منها **أقل** بكثير من الواقع بسبب تفضيل الأسر المضارة عدم الإعلان أو الإبلاغ عن جرائم الاغتصاب والاعتداء الجنسى. . **لأسباب** مجتمعية كثيرة.

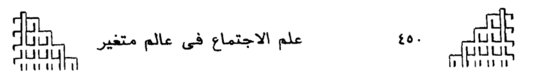
وظاهرة **الاغتصاب** تخطت مرحلة أنها تتم وفقا لظروف غير إرادية لمرتكبيها.. كحالات المرض النفسى المختلفة **والجنون** الذى يبعد مرتكبها عن المسئولية.. **تخطت** هذه المرحلة.. إلى مرحلة أخرى تتم فيها جريمة الاغتصاب بكامل إرادة المغتصِب وسبق تدبيره.

وعلى كل حال فإن دراسة هذه الظاهرة **وتفسيرها** تقع ضمن دائرة اهتمام علم الاجتماع.. النفسى، الإجرام، العائلى، **الاقتصادى**، التربوى، الدينى، والثقافى..إلخ، ولو أننا ننصح **بأن تتوافر** مجموعة من العلوم الإنسانية والطبيعية على **تفسير** أسبابها واقتراح الحلول لها.

* * *

الإدمان:

مشكلة الإدمان مشكلة قديمة.. **وقتلت** بحثا من طرف علم الاجتماع وغيره من العلوم الطبيعية والإنسانية الأخرى.. لكن **الجديد** فى الأمر.. أن الإدمان **أصبح** بفعل فاعل.. له هدف محدد هو تدمير الطاقات الشبابية.. **والمستهدف** هنا ليس الشباب وحده.. وإنما بنية المجتمع ومستقبله أيضا.. والأمر الذى لا شك فيه أن الإدمان دخل فى نطاق **الجريمة** المنظمة وعلى مستوى العالم كله.. بل أزعم أن الإدمان قد تم **تسييسه** بحيث أصبح أداة قذرة فى أيدى بعض السياسيين.. ليكون المستهدف هذه المرة **أمن** الوطن قبل أمان المواطن.



وحتى لا نطيل فإن **الإدمان** سواء على السموم البيضاء أو السوداء ـ هو أكبر الأخطار التى تهدد المجتمع، وتغتال أحلام بنيه، سواء كان هذا لحساب الجريمة المنظمة أو **الجريمة** المسيسة.

والأمر هنا يستوجب تضافر مجموعة من **العلوم** الاجتماعية والطبيعية.. لدراسة ظاهرة الإدمان كعلوم الطب والاجتماع وعلم النفس وعلم الصحة العامة والخدمة الاجتماعية.. وغيرها.

* * *

تبدل القيم:

إن أى دراسة لتراث الشعب المصرى ـ على سبيل المثال ـ أعدت فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، أبرزت مجموعة من القيم الراسخة.. منها.. حرص المصرى على عدم الهجرة.. ومنها استعداده للموت **دفاعا** عن حقه وحق غيره.. ومنها مشاركته الإيجابية فى كل **مقدرات** حياته.. وهذه القيم **أبرزتها** مجموعة من الأمثال والحكم الشعبية مثل «من خرج من داره اتقل مقداره»، «إيد لوحدها ما تسقفش»، «مامات حق وراه مطالب».. وأمثال كثيرة تعبر عن قيم إيجابية فى المجتمع المصرى.

كل هذه القيم ـ أو معظمها ـ **اندثرت** لتحل الهجرة المنظمة للداخل بدلا من عدم الخروج من الدار.. وأن تحل الهجرة **غير** المنظمة وغير المسئولة **إلى** خارج حدود الوطن.. وعل الرغم من المصاعب التى يتعرض لها المواطن المصرى المهاجر(*).. التى تكاد **تفقده** حياته ـ هذه الهجرة العشوائية مازالت حلم الملايين من شباب المصريين..!!

ولو تأملنا تاريخ المصريين إلى عهد قريب وحتى **أوائل** الستينيات ـ نجدهم كانوا الأكثر مشاركة من الحكومة فى بناء الكثير من المشاريع العمرانية والحضارية والصناعية والاجتماعية.. ولكن **الحادث** اليوم هو اعتماد الشعب تماما على الحكومة المنهكة فى كل شىء..!!

(*) هجرة عشوائية أو غير منظمة.

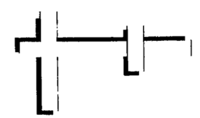
(**) هناك مثل جزائرى مؤداه أن الفساد يبدأ من تحول الإنسان إلى المشى على راسه بدلا من المشى على رجليه.

ولو نظرنا فى التاريخ القريب للمصريين.. لوجدنا أن الشعب كله **يهب** للمشاركة فى إطفاء حريق.. أو نجدة ملهوف أو اعتراض قاتل أو سارق أو معتدى.. لكن الحادث اليوم أن المواطن لا يكاد يعبأ بكل **السلوكيات** الانحرافية التى تقع أمامه **مادامت** لا تمسه مباشرة..!!

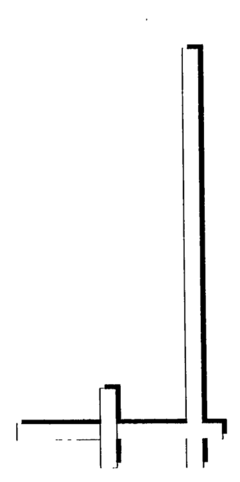
نقول لو **قلبنا** فى التاريخ الحديث ـ وليس القديم ـ لوجدنا الكثير من القيم قد تعرضت لعملية تبدل غريبة.. حتى صار المجتمع معرضا لمختلف صور الانحلال والتفكك وخصوصا مع ضعف عملية التنشئة الاجتماعية.. وغياب **الوازع** الدينى.. **والقدوة** الحسنة.. **ونماذج** السلوك المحترمة.. ومجتمع هذا حاله نسميه «المجتمع الذى يمشى على راسه» على رأى الفلكلور الجزائرى(**).. أو نظرية الهرم المقلوب..!!

إذن لابد من **دراسة** ظاهرة تبدل القيم.. وإلى الأسوأ.. أسبابها، والعوامل الداخلة فيها.. حتى يمكن **تداركها** ولا نقول القضاء عليها..!!

* * *



الفهرس التحليلى



الفهرس التحليلي

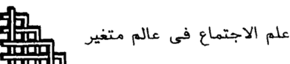
الباب الأول

البدايات المبكرة للفكر الاجتماعي

* الفصل الأول :




















الباب الرابع
الاتجاهات والنزعات المتصارعة
ومسيرة علم الاجتماع



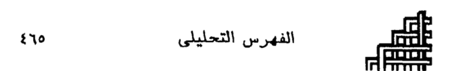








الباب السادس



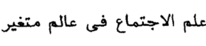








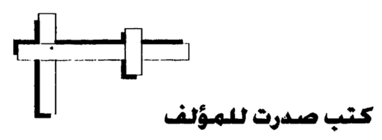










كتب صدرت للمؤلف

أولا ـ كتب نفذت:

١ـ الخدمة الاجتماعية والميثاق ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ .

٢ـ البداوة العربية والتنمية ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ .

٣ـ تنمية المجتمعات الصحراوية ـ أسس نظرية ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ .

٤ـ تنمية المجتمعات الصحراوية ـ تطبيقات ميدانية ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ .

٥ـ المقدمة لعلم الاجتماع العربى والإسلامى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

٦ـ علم الاجتماع.. المفهوم والموضوع والمنهج ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

٧ـ علم الاجتماع البدوى ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٧٤ ، ١٩٨٧ .

ثانيا ـ كتب لم تنفذ بعد:

٨ـ التصوير القرآنى للمجتمع ـ المجلد الأول.. النظم والأنساق ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٨٥ .

٩ـ التصوير القرآنى للمجتمع ـ المجلد الثانى.. نظرية الإسلام الاجتماعية ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٨٥ .

١٠ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

١١ـ سوسيولوجيا الحضارات القديمة ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

١٢ ـ البناء الاجتماعى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٣ .



هذا الكتاب

الكتاب الذى بين يديك عزيزى القارئ.. ليس مجرد محاولة للتأصيل النظرى لعلم الاجتماع فى عالم متغير - من خلال تتبع مسيرة علم الاجتماع الطويلة التى امتدت منذ أيام الفراعنة العظام، وحتى نهايات القرن العشرين...، وإنما هو - أى كتاب علم الاجتماع فى عالم متغير - دليل على التواصل الفكرى والحضارى سواء على مستوى النظرية أو التطبيق..!!

كما يسعى هذا الكتاب إلى تحديد نقاط الاتفاق أو الاختلاف بين الأفكار والنظريات التى سادت الفكر السوسيولوجى منذ ما قبل الميلاد وحتى الآن.. وذلك فى ضوء سرد نقدى لتلك الإسهامات، وصولا إلى نظرية سوسيولوجية قادرة على قيادة علم الاجتماع لأداء مهامه فى القرن الحادى والعشرين..!!